دار العيداروس للكتاب الحديث

دراسات فى :

الكتاب الأول

الخليج والجزيرة العربية

البروفيسور الدكتور / محمد حسن العيدروس



دار الكتاب الحديث

sharif mahmoud

sharif mahmoud

دار العيدروس للكتاب الحديث

دراسات في:

الخليج والجزيرة العربية

الكتاب الأول

الدكتور/ محمد حسن العيدروس
أستاذ التاريخ ـ والعلاقات الدولية
رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات



953 العيدروس ، محمد حسن.

م ح د ر دراسات فى الخليج والجزيرة العربية/ محمد حسن

العيدروس.—ط 1.– القاهرة:دار الكتاب الحديث ،2008م.

مج1. 460 ص ؛ 24 سم .

تدمك:8 -186-350-977

1– الخليج العربي _تاريخ . 2– شبه الجزيرة العربية _تاريخ.

3– الخليج العربي _العلاقات الخارجية _شبه الجزيرة العربية.

4– شبه الجزيرة العربية _العلاقات الخارجية _الخليج العربي.

أ– العنوان



القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : **dkh_cairo@yahoo.com**
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : **ktbhades@ncc.moc.kw**
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail_ **dkhadith@hotmail.com**
الامارات	دار العيدروس للكتاب الحديث ص ب 2439 دبي هاتف 043522887 فاكس 043522885 شارع خالد بن الوليد – بناية الماجد 206 دبي إ ع م.

رقم الإيداع	2008/4825
I.S.B.N	977- 350-186 -8

إهداء



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... (٢٣)﴾ [الإسراء].

صدق الله العظيم

إلى روح والدى الشريف/ حسن أحمد علوى العيدروس.. طيب الله ثراه.. وأغمده الجنة إن شاء الله..



مقدمة

أول ما نبدأ بالحمد لله، حمدا كثيرا، وثناء عظيما، والصلاة على نبيه الأمين، وعلى ذريته الطاهرين.

أخيرا كانت بداية فكرة قديمة، تحققت بعد مرور أكثر من خمسة عشر عاما، وهى محاولة لجمع الأبحاث التى قدمت فى المؤتمرات العملية، وكذلك التى نشرت فى الدوريات العلمية، وهى حصيلة لتلك الأعوام فى هذا الكتاب الأول.

ليست هذه هى جميع الأبحاث، وإنما تم أختيار بعض منها فى الفترة الزمنية الممتدة من الاستعمار الإرهابى الأوروبى المسيحى، إلى ما بعد قيام مجلس التعاون على نهاية مشارف القرن العشرين، أى أبحاث تتناول فى التاريخ الحديث والمعاصر لمنطقة الخليج العربى والجزيرة العربية، كما تشمل مختلف أقاليم المنطقة، وتم ترتيب المواضيع، حسب المراحل الزمنية التاريخية، وعلى حسب الأقاليم الجغرافية وليس حسب الحدود السياسية المصطنعة من قبل الاستعمار الإرهابى المسيحى، لأن التاريخ العربى هو تاريخ واحد، سواء أكان فى المشرق أم المغرب، وإن كنا نتناول فى هذا الكتاب جزءا من تاريخ المشرق العربى، وبالتحديد فى الخليج العربى والجزيرة العربية، وذلك لاختصاصنا الدقيق، فى حين سوف يكون هناك كتابات لأبحاث فى التاريخ العربى بشكل عام، وخاصة فى الأعمال القادمة.

متمنيا أن يكون هذا العمل الإقليمى، دافعا إلى العمل القومى، وهو الهدف والغاية المنشودة لأجل كتابة تاريخ الأمة العربية، فلا يمكن الوصول إلى الكل، إلا

بالبدء عن طريق جمع الأجزاء المتناثرة من التاريخ العربى الموحد، والذى مزقه الاستعمار الإرهابى المسيحى من جهة، والظروف الخارجة عن إرادة الشعب العربى، بعد أن خرج العرب من التاريخ بسقوط «بغداد» فى المشرق، وضياع دويلات وإمارات العرب فى الأندلس بالمغرب العربى، بسبب الملذات والأهواء والاستعانة بالمسيحيين الإرهابيين ضد إخوانهم المسلمين، وبالتالى ضياع المجد العربى، وسيطرة العثمانيين الأتراك من جهة، والتسلل الاستعمارى الإرهابى المسيحى من جهة ثانية، وتكوين الكيانات والأنظمة القطرية من جهة ثالثة.

نجد من هنا التاريخ الحديث والمعاصر للعرب، متأثرا بهذه النواحى الثلاثة، وهذا ما نلاحظه من خلال دراستنا للأبحاث العلمية، وبالتالى يجب إعادة النظر فى هذا التاريخ للاستفادة من الدروس والعبر بقدر الإمكان لأننا نجتاز اليوم مرحلة حاسمة من تاريخنا القومى العربى، بعدما أصبحنا نعيش على هامش التاريخ، وليس فى داخل التاريخ، وقد كانت القوى الخارجية هى المحركة لتاريخنا الحديث، ولا يزال كذلك بالنسبة لتاريخنا المعاصر، وهنا تكمن المشكلة. ولكن ما الحل؟

تتناول الدراسات فى الجزء الأول عدة مواضيع وهى:

الصراع العثمانى - البرتغالى فى النصف الثانى من القرن السادس عشر فى الخليج العربى، والفصل الثانى عن تنافس شركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية فى بندر عباس فى النصف الأول من القرن السابع عشر، والفصل الثالث عن هجرة القبيسات الأولى من أبو ظبى إلى العديد «والدور البريطانى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر» وهى «دراسة وثائقية»، والفصل الرابع محاولة انفصال «العديد» عن أبو ظبى، والموقف البريطانى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهى دراسة من خلال المراسلات الرسمية، والفصل الخامس عن الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود فى قائمقامية قطر العثمانى 1871 - 1882، والفصل السادس الحياة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية

فى العهد العثمانى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والفصل السابع - القرار السياسى البريطانى فى ظل النزاع الأنكلو عثمانى فى شرق الجزيرة العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والفصل الثامن، جوانب من الصراع السياسى فى جنوب ساحل عمان من خلال الوثائق البريطانية لعامى 1926 - 1928، أما الفصل التاسع - ظفار بين الماضى والحاضر، والفصل العاشر: العمل العربى الخليجى المشترك وقيام مجلس التعاون الخليجى، والفصل الحادى عشر: مجلس التعاون الخليجى بين الأمن الإقليمى والتحديات الخارجية.

نرجو فى الختام من الله تعالى أن يوفقنا إلى كتابة الحق، وقول الحق، وعمل الحق، إنه ولى التوفيق وهو السميع المجيب، وأن يكون هذا العمل دافعا إلى أعمال بحثية أخرى مستقبلا، وأن يكون البداية وليس النهاية.

وآخر ما نختتم، بالحمد لله والصلاة على أشرف خلق الله وعلى آل بيته الطاهرين رضوان الله عليهم أجمعين إلى يوم الدين.

د. محمد حسن العيدروس

الفصل الأول



الصراع العثماني - البرتغالي في النصف الثاني من القرن السادس عشر في الخليج العربي

بحث قدم باللغة الانجليزية إلى الجمعية العالمية للدراسات العثمانية في جامعة مينسوتا في الولايات المتحدة الامريكية بتاريخ 14 ـ 19 اغسطس 1988 تحت عنوان :

The Ottoman - Portugese Conflict in The Arbian Gulf during The Second half of The Sixteenth Century"

Committee International D,studies - Ottomans

Vlll - Symposium - Decision making and the transmission of Authority in the turkish system - the University of Minnesota - Humphrey Center - August 14 - 19, 1988.

مقدمة

تناول بعض المؤرخين الغزو الاستعمارى المسيحى البرتغالى للمياه الجنوبية وأحداثه التى استمرت لفترة طويلة من بداية القرن السادس عشر حتى بداية القرن السابع عشر، فى حين أن الصراع العثمانى البرتغالى فى النصف الثانى من القرن السادس عشر فى الخليج العربى لم يحظ بالعناية الكافية من جانب المهتمين بالدراسات العثمانية. ويتناول هذا البحث أهمية الخليج العربى فى الصراع العثمانى ـ البرتغالى، وتحويل البصرة كقاعدة عثمانية فى الخليج العربى. ثم الحملات العثمانية لإبعاد الوجود البرتغالى من المنطقة. ومن أهم هذه الحملات، حملة «بيرى بك الريس» وهجومه على مسقط وهرمز، وحملة «الريس مراد بك» وحملة «سيد على الريس» ثم هجوم والى الاحساء العثمانى على البحرين، وفترة الهدوء التى امتدت من عام 1560 ـ 1581 على مياه الخليج العربى نظرا لانشغال العثمانيين على جبهات القتال الأوربية والفارسية، ثم عودة السياسة العثمانية لإبعاد البرتغاليين وهجوم «على بك» على مسقط عام 1581، وانتقال الصراع العثمانى ـ البرتغالى إلى سواحل شرق أفريقيا فى أواخر القرن السادس عشر، وتحليل الصراع العثمانى ـ البرتغالى، وأسباب إخفاق العثمانيين فى إبعاد البرتغاليين من الخليج العربى.

أهمية الخليج العربي في الصراع العثماني-البرتغالي:

احتل الخليج العربى أهمية خاصة منذ وصول العثمانيين إلى العراق وأخذوا على عاتقهم مواجهة الغزو البرتغالى للخليج العربى، وأقام العثمانيون صلات كبيرة مع أقطار الخليج العربى، وكانت هذه الصلات تتفاوت بين مد وجزر وتختلف من وقت لآخر حسب الأوضاع الدولية والظروف التى مرت بها الدولة العثمانية والأخطار التى واجهت الخليج العربى سواء من الاستعمار المسيحى البرتغالى أو التوسع الفارسى تجاه العراق.

استفاد العثمانيون من فتح العراق عام 1534، بعدما كانوا قد انتصروا على الفرس فى معركة «جالديران» عام 1514[1]، ثم مدوا نفوذهم إلى البصرة وغيرها من الامارات العربية المجاورة القائمة فى شمال الخليج العربى لأنها حمت ظهر القوات العثمانية وهى تخوض صراعا ضد التواجد البرتغالى فى جنوب الخليج العربى، ووجد الأسطول العثمانى ملجأ وقاعدة له فى «البصرة»، ولو كانت الدولة الصفوية الفارسية لا تزال تسيطر على جنوبى العراق أو شمال الخليج العربى لأصبح مركز القوات العثمانية حرجا فى صراعه مع البرتغاليين[2].

بلغ البرتغاليون ذروة قوتهم فى منتصف القرن السادس عشر[3]. فى الوقت الذى بدأ العثمانيون أيضا يقومون بنشاط متزايد فى مياه الخليج العربى ويظهرون نفوذهم هناك وتطور الأمر إلى صراع مكشوف[4] بين هاتين القوتين فى الخليج العربى، ورغم أن العثمانيين لم يستطيعوا أن يقوموا بعمل حاسم فى المنطقة كما فعلوا فى البحر الأحمر[5]، إلا أنهم اوقفوا النشاط البرتغالى ومنعوهم من توسيع نفوذهم فى المنطقة. وجاء ظهور العثمانيين نتيجة استيلائهم على ميناء البصرة الذى أصبح متصرفية منذ ذلك الوقت وقاعدة للأسطول العثمانى فى الخليج العربى[6].

دور البصرة كقاعدة عثمانية في الخليج العربي:

استخدم العثمانيون ميناء البصرة قاعدة لتوجيه حملاتهم البحرية ضد المسيحيين البرتغاليين، رغم أن البصرة كما هو معروف ميناء نهرى أكثر من كونها

ميناء بحريا، ومع ذلك فقد استخدموها للخروج بأسطولهم إلى مياه الخليج العربى، ووجد العثمانيون تجاوبا من عرب المنطقة للاحتماء بزعامتهم الإسلامية[7]، واتخذ العثمانيون من البصرة نقطة انطلاق لهم نحو التقدم إلى مياه الخليج العربى لضم بعض أقطاره إلى دولتهم الشاسعة، ولهذا دخلوا فى صراع ضد الاستعمار المسيحى. وفى البداية كانت محاولات توسع العثمانيين ضعيفة لم يستطيعوا تثبيت أقدامهم أو إحداث أى تغيير يذكر فى المنطقة، وكانت تلك المحاولات بطيئة لأن العثمانيين عجزوا عن تثبيت نفوذهم فى البصرة أو ما حولها، فبقى «آل عليان» قرب «القرنة» فى حالة تمرد مستمر، وفشل الأسطول العثمانى فى احتلال حصونهم ولاقوا فشلا مماثلا فى «الحويزة» وبقيت عشائر «المنتفق» مصدر ازعاج مستمر للولادة[8].

لم تختلف البصرة نفسها عما يجرى حولها فكانت تتعرض للغزو الفارسى وأحيانا تنفصل عن بغداد على يد أسرة «افراسياب» والمماليك وعشائر «المنتفق»، وكان من الصعب على ولاة بغداد أن ينقذوها من مشاكلها وان الأسطول الذى تم إنشاؤه كان ضعيفا ولذا فإنه لم يوفق فى احراز تقدم، وفشلت معظم المحاولات التى بذلت للسيطرة على بعض أجزاء الخليج العربى، لأنها جوبهت بمقاومة برتغالية وفارسية وبعض العصبيات المحلية، إضافة إلى أن القوات البحرية العثمانية كانت بعيدة عن مراكز تموينها فى البحر المتوسط أو حتى البحر الأحمر فى السويس، ومع هذا فإن العثمانيين بذلوا مساعى كبيرة من أجل جعل البصرة قاعدة لعملياتهم البحرية فى الخليج العربى ضد البرتغاليين[9].

حاول العثمانيون فى عام 1546 عن طريق أسطول صغير متابعة البرتغاليين فى مسقط ووصلت بالفعل إلى مشارف الميناء وقذفته بالمدافع لمدة شهر تقريبا، غير أنه لم يكن بوسع هذه القوة الصغيرة التى تتكون من أربع سفن أن تنزل رجالها إلى البر ولذا انسحبت، ثم أتيحت الفرصة للبرتغاليين التوغل شمالا حتى البصرة عام 1549، ولم يكن ميناء البصرة خاضعا للحكم العثمانى فى ذلك الوقت لأنهم لم يكونوا قد وضعوه تحت ادارتهم المباشرة بل تركوه لحكام محليين، وكان يحكمها أحد شيوخ القبائل العربية الكبار ويدعى الشيخ راشد بن مغامس، وكان

فى استطاعته ان يجمع ثلاثين ألف رجل لحماية البصرة، وكان يدير الميناء لحساب الدولة العثمانية[10]. كان هذا الشيخ يتمتع باستقلال تام فى حكم شط العرب، فلما قرر العثمانيون تحويل البصرة إلى ولاية عام 1549[11]، وجعل نفوذهم فيها فعليا، وقاموا بطرد أميرها العربى الشيخ راشد بن مغامس لأنه كان قد شق عصا الطاعة عليهم قبل ذلك بقليل[12]. ولكن الشيخ راشد تغلبت عليه نزعته القبلية فلم يتردد فى طلب المعونة من المسيحيين البرتغاليين لاعادته إلى ولاية البصرة، وقدم لهم عرضا ببناء قلعة برتغالية داخل أراضى الدولة العثمانية الإسلامية ومنحهم امتيازات أخرى فى شط العرب[13].

ثورة سكان «القطيف» ضد البرتغاليين والاستنجاد بالعثمانيين عام 1550:

أدى وصول الأسطول العثمانى إلى الخليج العربى إلى رفع معنويات المقاومة العربية لدى سكان المنطقة فى مدينة «القطيف» عاصمة الاحساء فى أعقاب السيطرة العثمانية على البصرة[14]، وأعلن سكانها أنهم لا يدينون بالولاء «لـهرمز» وانهم يضعون انفسهم تحت حماية العثمانيين ويعتبرون من رعاياهم[15]، وأكدوا رفضهم وخضوعهم «لمملكة هرمز» التى كانت تعانى من خضوعها للاستعمار المسيحى البرتغالى، وقد سبق لسكان البحرين والقطيف أن أعلنوا خضوعهم للعثمانيين على أثر فتحهم للعراق عام 1534، واعتبر العثمانيون المناطق التى أعلنت ولاءها لهم «اياله» عثمانية وعينوا «بليربى» أو أمير أول على «اياله» الاحساء، وكان «البليربى» يتشكل طبقا للتقسيمات الإدارية العثمانية من عدة «سناجق» حيث اعتبرت القطيف ضمن مجموعة «سناجق» «ايالة» الاحساء التى امتدت حدودها حتى وصلت جنوبا إلى شبة جزيرة قطر[16]. بذلك دخل العثمانيون إلى المواجهة العسكرية مع الاستعمار المسيحى البرتغالى عندما طلب السكان المحليون المساعدة من العثمانيين للتخلص من تبعية «حصن القطيف» لمملكة هرمز[17] عام 1550 ومن الحاكم المحلى لضعفه وتردده، وجاء العثمانيون وساعدوهم فى طرد بقية المسيحيين البرتغاليين، كما تم طرد الأمير المحلى الموالى لهم، وأعلن «مراد بك» قائد الأسطول العثمانى خضوع المنطقة للدولة العثمانية[18].

تقدم آخر الحكام المحليين «للقطيف» الذى كان الأهالى قد طردوه منها، إلى

البرتغاليين يطلب عونهم لاسترجاعه إلى الحكم[19]، وفى الوقت نفسه استنجد شيخ هرمز بالبرتغاليين بعدما فقد البحرين والقطيف ووصلت القوة البرتغالية من الهند لشيخ هرمز لاخراج العثمانيين من القطيف والبحرين[20]. من دون شك أن السيادة العثمانية التى أعلنت على الاحساء والقطيف قد أفزعت البرتغاليين خاصة بعد وقوع الحصن فى مدينة القطيف فى أيدى العثمانيين، وكان البرتغاليون يعتمدون على ذلك الحصن فى السيطرة على المناطق الساحلية لشبه الجزيرة العربية[21]. إن هذا التغير الذى حدث فى الأوضاع السياسية بشرق الجزيرة العربية أثار مخاوف البرتغاليين، لأن هذه المنطقة كانت بعيدة عن الصراع العسكرى البرتغالى - المملوكى، أو البرتغالى ـ العثمانى، ولم توجه هاتان الدولتان المسلمتان قواتهما البحرية إلى شرق الجزيرة العربية وإنما ركزتا جهودهما العسكرية بوجه خاص على الساحل الغربى من الهند، باعتباره أساس التواجد المسيحى البرتغالى ومقر السلطة ونائب ملك البرتغال ومركز التجمعات البحرية البرتغالية، واستطاع البرتغاليون منذ بداية القرن السادس عشر الاستيلاء على مملكة هرمز واحتلال الساحل العربى المواجه لهرمز والجزر التابعة لها والمدن الساحلية واقاموا فيها الحصون القوية والاستحكامات العسكرية ووطدوا نفوذهم وسيطروا على طريق التجارة الشرقية الذى يمر بالخليج العربى وهيمنوا على اقتصاد الامارات السياسية الواقعة شرق الجزيرة العربية، ثم وقع الفرس اتفاقا مع البرتغاليين لمساعدتهم ضد العثمانيين، وبذلك اعتقد البرتغاليون أن شرق الجزيرة أصبح خاضعًا لهم دون منافس، وان كانت هناك بعض الانتفاضات الشعبية من حين إلى آخر وخاصة فى البحرين والقطيف وكان البرتغاليون يقضون عليها باستخدام المدفعية الثقيلة وغيرها من الأسلحة الحديثة[22].

تغير الوضع السياسى بصورة مفاجئة منذ مجىء العثمانيين الذين أرادوا مد نفوذهم الفعلى من شمالى الخليج العربى إلى جنوبه والقضاء على النفوذ المسيحى البرتغالى فى هذه المنطقة الهامة من الشرق الإسلامى[23]. أما البرتغاليون فأرادوا القضاء على بداية التواجد العثمانى الناشئ فى شمال الخليج العربى، وخاصة بعدما ضم العثمانيون حصن القطيف كما استنجد الشيخ راشد بن مغامس شيخ البصرة السابق بالبرتغاليين المسيحيين ضد العثمانيين ليعيدوا إليه أملاكه مقابل

إعطاء امتيازات واسعة للبرتغاليين الذين أرادوا أن يغتنموا هذه الفرصة ويعيدوا سيطرتهم على القطيف ولذلك وجه البرتغاليون حملة كبيرة لاستعادة حصن القطيف، واسندت قيادتها إلى «انطونيو دى نورنها» الذى كان نائبا للموانئ فى الهند، على رأس ألف ومائتى جندى تقلهم سبع سفن حربية كبيرة الحجم وسفن متوسطة وصغيرة الحجم بلغ مجموعها تسعة عشر سفينة، إضافة الى قوات من مملكة هرمز شاركت فى الحملة وقدر عددها بأكثر من ثلاثة آلاف مقاتل للانتقام من السكان المحليين فى القطيف واجلاء الحامية العثمانية التى لم يتعد عدد افرادها أربعمائة مقاتل، ولكنهم دافعوا عن أنفسهم ببسالة وشجاعة وان كانوا اضطروا فى النهاية الى الاستسلام للبرتغاليين بعد ان عمد هؤلاء إلى فرض حصار على الحصن استمر ثمانية أيام، ولم يكتف "انطونيو دى نورنها" بمحاصرة القطيف وإنما واصل الزحف بقواته إلى البصرة باعتبارها قاعدة جديدة للأسطول العثمانى فى الخليج العربى[24]، ومساندة حاكم البصرة المنشق.

لم يستطع القائد البرتغالى «انطونيو دى نورنها» تنفيذ خطته الإرهابية فى السيطرة على البصرة، وذلك بسبب وصول معلومات عن تلك الخطة إلى «بلير بك» «البصرة» الذى أسرع بتنفيذ خطة لافشال الهجوم المرتقب بحيث جعل القائد البرتغالى يعتقد بأن العثمانيين قد جمعوا حشوداً كبيرة من القبائل العربية فى «البصرة»، وبما أن القائد البرتغالى كان يخشى مواجهة تلك الحشود والقوات العربية فإنه عدل عن خطة الهجوم مفضلا التراجع إلى «القطيف»، وهناك علم بأنه خدعه ولم يثبت وجود أية استعدادات بحرية فى «البصرة» لتلاقى الهجوم البرتغالى[25].

يرجع فشل القائد البرتغالى «انطونيو دى نورنها» فى احتلال ميناء البصرة أو ضربها بالقنابل كما فعل فى حصن «القطيف»، لأن هذا الميناء كان حصينا ومحكما ولم يكن من السهل إسقاطه فخشى القائد البرتغالى ان يستغرق الحصار مدة طويلة فيتمرد عليه البحارة والضباط[26]. وكان استعادة البرتغاليين «القطيف» واعادة الحاكم المحلى الموالى لمملكة هرمز التابعة لهم خوفا من أن يؤدى وجود العثمانيين فى القطيف إلى زعزعة نفوذهم فى البحرين وفى الخليج العربى[27].

إن هذا العمل الإرهابى الانتقامى من جانب البرتغاليين ضد عرب «القطيف» و«البصرة»، كان حافزا قويا للعثمانيين فى القيام بعمل ايجابى ضد القوات الأوربية الغازية فى مياه الخليج العربى وخاصة أن مناطق البصرة والاحساء والقطيف والبحرين أصبحت تابعة لحكومة الاستانة، فاعتبر العثمانيون أن الاعتداء المسيحى الإرهابى البرتغالى عدوان سافر عليهم وعلى ممتلكاتهم فى الخليج العربى[28].

خطة بيرى بك الريس 1551:

أدت العمليات الحربية الإرهابية البرتغالية سواء الناجحة أو الفاشلة إلى تعميق الاتجاه لدى السلطات العثمانية فى الآستانة نحو إرسال خطة بحرية كبيرة ضد التهديدات البرتغالية وعدوانها فى المياه الإسلامية الجنوبية، وخاصة تدمير الأسطول البرتغالى لقلعة «القطيف» وإجلاء الحامية العثمانية عنها كان يعنى ضياع هيبة العثمانيين فى المنطقة ولا يمكن استردادها إلا بإرسال حملة كبيرة لمنازلة البرتغاليين والتفوق عليهم[29].

أكدت المواجهة العثمانية البرتغالية فى «القطيف» للعثمانيين، أنه لا قبل لهم بالتصدى للبرتغاليين فى معارك بحرية نظامية، وان التفوق البحرى البرتغالى لا يمكن مواجهته إلا بعمليات عسكرية غير نظامية، وذلك لعدم التكافؤ فى القوة البحرية بين الطرفين. وأنيط القيام بتلك العمليات البحرية غير النظامية أو الفدائية إلى مجموعة من أشهر قباطنه الدولة العثمانية الذين خلد الكثير منهم أسماء لامعة ليس فى المجال العسكرى فحسب وإنما فى المجال العلمى أيضًا، ومن أهم القادة الذين اشتهروا بعلوم الملاحة وفنون البحر «بيرى بك الريس»، «سيد على الريس»، «على بك الحلبى»، وتعددت ميادين العمليات الحربية العثمانية ضد البرتغاليين فى الخليج العربى والبحر الأحمر ويتضح من ذلك بأن العثمانيين كانوا مصممين على العمل لانتزاع السيادة البحرية البرتغالية من تلك البحار[30].

قرر السلطان سليمان القانونى أن يرد على العدوان الإرهابى المسيحى البرتغالى على «القطيف» والبصرة بإرسال حملة بحرية إلى الخليج العربى تستهدف الاستيلاء على جزيرة هرمز والحاق ادارتها بالبصرة، وصدرت التعليمات اللازمة إلى ترسانة السويس التى اصبحت من أقوى القواعد العثمانية البحرية بأن تعد

وتجهـز على وجه السرعـة ثلاثين سفينة ذات أحـجام وأنواع مخـتلفة[31] من نوع «البـارستـارده» و«القادرغة» و«القـاليتـة» و«التاليـون[32]»، وكان على ظـهر هذا الأسطول الكبير ستة عشر ألفا من المقاتلين[33].

تحركت الحملة فى 29 ديسمبر 1551 من القاعدة البحرية فى مدينة السويس متـجهة إلى الخلـيج العربى، ووضعت الحـملة تحت قيـادة «بيرى بك الريس» أو (محـيى الدين الريس) الذى كان أحد أبرز القـادة البحريين العـثمانيـين فى القرن السادس عشر (1465 ـ 1554) واشتهر فى عهد الـسلطان بايزيد الثانى باعتباره من أهم قادة البحريين فى البحر المتـوسط ثم عاون السلطان سليم الثانى فى فتح مصر وفيما تلا ذلك من عمليات فى البحر الأحمر ووضع أكـبر موسوعة بحرية عثمانية فى ذلك الوقـت. «كتاب بحرية»[34]، كما كـان جغرافيا مـعروفا وفنانا فى رسم الخرائط صنف كـتابًا فى الملاحة فـى بحر ايجه والبـحر المتوسط وخـريطة الجانب الغربى من العالم[35]. وكان «بيرى بك الريس» قد عين فى عام 1547 قائدا عامًا للاسطول العثمـانى فى المحيط الهندى اضافة إلى منصب قـبطان أسطول مصر أو قبـودان مصـر أى قائد القوات البـحرية فى مـصر[36]، وكان قـد تم فصل هذين المنصبين عن حكومة جنوبى اليمن.

نجد أن من أهم أهداف الحملة اضافة إلى محاربة التواجد المسيحى البرتغالى فى الخليج العـربى، تهدئة أوضاع عـدن الثائرة ضد الـعثمـانيين[37]. بعد أن كان البرتغاليون أرسلوا حملة بحرية كبيرة إلى البحر الأحمر ووصلت السويس واحتلت عدن[38]. فخـرج «بيرى بك» الريس» من السويس ووصل الى «جـدة» وبعد أن طاف حـول غرب وجنوب سـواحل الجزيرة العـربيـة وأعاد الـسيطرة التامـة على عدن[39]. الذى كـان قد وصل على رأس سـفـينتين كـبيرتين من نوع «غـراب grabs»[40] تمكن فيها من استرجاع السيادة العثمانية على عدن ثم مكث يومين فى ميناء «الشحر»[41] فى حضرموت بقيادة السلطان الكثيرى وأخذ بعض احتياجات الأسطول ثم واصل سيره تجاه مدخل الخليج العربى.

أما البرتغاليون الإرهابيون المسيحيون فما أن سمعوا بنبأ قدوم الحملة البحرية العثمانية بهدف ضرب حامـياتهم المنتشرة فى سواحل الخليج العربى، حتى سادت

تلك المستعمرات حالة من الخوف والفوضى وعدم الاستقرار فى الأوضاع الداخلية[42]، وأثناء وجود «انطونيو دى نورنها» نائبا للموانئ فى الهند فى جزيرة هرمز بعث ببعض السفن البرتغالية لاستطلاع النشاط الذى كان يقوم به القائد العثمانى بيرى بيك الريس[43]، ولمعرفة مواقع البحرية العثمانية فى محاولة للقضاء عليها قبل أن تصل إلى أهدافها، ولكن هذه السفن لم تتمكن من الأسطول العثمانى نظرا لأنه لم يستقر فى مكان واحد فترة طويلة بل كانت الخطط الرئيسية «لبيرى بك الريس» كما يبدو القيام بغارات مفاجئة على الحاميات البرتغالية والاستيلاء على ما عسى أن يكون فى حوزتها من معدات وذخائر حربية ومواد غذائية أو بضائع ثم الانتقال إلى موقع آخر لنفس الهدف، وبهذه الطريقة أفلت الأسطول العثمانى من عيون جواسيس البرتغاليين[44]، بل إن بعض تلك السفن الاستطلاعية البرتغالية كادت أن تقع فى قبضة الأسطول العثمانى، لكنها استطاعت الافلات بصعوبة.

أولا: الهجوم العثمانى على مسقط:

قبل وصول «بيرى بك الريس» إلى مسقط، تفرقت سفنه بسبب الضباب الكثيف وتحطم بعضها بالقرب من «صحار» فى عمان بينما توجه ببقية سفنه إلى مسقط[45] التى كانت تمثل القاعدة الثانية للبرتغاليين بعد جزيرة «هرمز» فى ذلك الوقت، وما أن وصل «بيرى بك الريس» إلى هناك حتى ضرب حصارا محكما حول المدينة، ومنع عنها وصول الامدادات والمؤن والذخائر، علما بأن الحامية المكلفة بالدفاع عن مسقط كانت قد اتخذت الاحتياطات اللازمة فأجلت نساء وأطفال البرتغاليين إلى جزيرة هرمز بينما بقى الجنود وعددهم ستون مقاتلا بقيادة «جوادى لزبوا» فى قلعة مسقط الحصينة، ورغم قلة عددهم، إلا أنهم صمدوا أمام العثمانيين الذين كانوا يقذفون القلعة البرتغالية فى مسقط بالمدافع والقنابل الثقيلة ليل نهار طيلة ثمانية عشر يوما، وبعد أن يئس البرتغاليون من وصول مساعدات أو نجدات عسكرية لهم، كما نفد ما عندهم من طعام وماء، طلبوا الاستسلام[46].

نجح بذلك «بيرى بك الريس» فى مهاجمة القلعة البرتغالية فى مسقط وتدميرها وأرغم قائد الحامية على الاستسلام للعثمانيين[47]، وطلب القائد

البرتغالى من «بيرى الريس» أن يسمح له ولمن معه من أفراد الحامية البرتغالية فى مسقط بالانتقال إلى هرمز بسلام، ولكن «بيرى بك الريس» بادر بعد سيطرته على قلعة مسقط بتجريد الحامية من سلاحها[48] وعامل قائد الحامية وكبار ضباطها معاملة سيئة بعد أسرهم وكان عددهم حوالى ستين مقاتلا، ثم أمر بنقل المدافع والذخائر البرتغالية إلى سفنه، وبعد أن أنهى «بيرى بك الريس» تلك العمليات البحرية توجه إلى جزيرة «هرمز»[49]، ويصف الكاتب «فاريا داى سوازا» نشاط بيرى على النحو التالى[50]:

«تقدم أسطول العدو نحو مسقط التى صمدت ما يقرب من شهر ضد الحملة العثمانية العظيمة إلا أنها اضطرت فى النهاية إلى الخضوع لهم، ثم أمر القائد العثمانى بالقبض على رجال الحامية وبعد قليل أطلق سراح بعضهم مقابل فدية وشغل القائد البرتغالى وبعض الجنود فى تجديف السفن».

ثم يتابع الكاتب البرتغالى قوله[51]:

«وقد سيطر القائد بيرى بيك، كما أسر الحامية البرتغالية، و60 من رجاله ونقلوا إلى السفن العثمانية وبعد ذلك غادر «بيرى بك» إلى «هرمز».

ثانيا: الهجوم العثمانى على هرمز:

توجه «بيرى بك الريس» بأسطوله بعد أسر الحامية البرتغالية فى مسقط إلى جزيرة «هرمز» وكان قائدها البرتغالى «دى الفاروري» اتخذ كافة الاحتياطات الكاملة للدفاع، فحشد فى القلعة رجاله البالغ عددهم تسعمائة جندى برتغالى ومعهم كميات كبيرة من السلاح والذخائر والمواد الغذائية والمياه تكفيهم مدة طويلة، وعندما وصل «بيرى الريس» إلى هرمز أمر رجال الأسطول بالنزول إلى البر، وقام بحصار تام ثم أمر بإطلاق القذائف على القلعة من كل جانب لمدة عشرين يوما بدون توقف إلا أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها إضافة إلى ذلك فأنهم تكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات ثم قرر «بيرى بك» الانسحاب إلى جزيرة «قشم»، وقد وصف لنا «فاريا داى سوازا» «هذه الموقعة بقوله[52]:

«ولدى وصول العثمانيين بالقرب من جزيرة هرمز، رست سفنهم فبادورا إلى إنزال جنودهم إلى البر، ثم رفعوا بطاريات المدفعية وثبتوا مدافع كثيرة وأخذوا

يطلقونها بعنف ودون تـوقف مدة شهر. . استمـر حصار القلعة مدة عـشرين يوما ولكن العثـمانيين يئسوا مـن اخضاع القلعة بجانـب أنهم تكبدوا خسائر كـثيرة فى جنودهم وأسلحتهم».

ثم يتابع «فاريا داى سوازا» قوله[53]:

«وكان مع «دى الفارودى نورنها» 900 رجل فى الحامية، كمـا التجأ حاكم البلدة وأسرته وقاضى المحكمـة إلى الحامية من العدوان العثـمانى، وكان الأسطول العثمـانى قد أعد نفسه لحصـار طويل واستولى على 40 مركبا شـراعيا كانت فى الميناء، وبعد رسو الأسطول العثمانى نزل الرجال إلى البر وأقاموا معسكراتهم فيها ثم أخذوا فى بناء تحصيناتهم ونصب المدافع التى استـخدموها بشدة متناهية وبدون توقف لمدة شهر واحد. وكنتيجة للخسائر الفـادحة التى تكبدها العثمانيون فقد أمر قائدهم رجاله بنهب المدينة، وبـعد ذلك أبحر إلى «قشم» التى كان لجأ إليـها عدد كبير من أهالى هرمز، وفى «قشم» استولى العـثمانيون على كميات من الغنائم ثم انسحبوا».

اتجه بعـد ذلك «بيرى بك الريـس» بالأسطول العثـمانى إلى جزيـرة «قشم» متعقبا البرتغاليين هناك وعملوا فيها كما عملوا بمسقط وهرمز ثم انسحبوا منها بعد أن سمع «بيرى بك» عـن تحرك الأسطول البرتغالى من مركـزه فى الهند من «غوا» الى قاعـدته فى البصرة ليـستطيع الصمـود أمام أسطول العدو الإرهابى البـرتغالى القادم من الهند ومعرفة حجمه[54].

عودة بيرى بك الريس إلى السويس:

عندمـا عرف «بيـرى بك الريس» أثناء وجـوده فى البـصـرة بتقـدم اسطول برتغالى قوى نحـوه واحتمال غلق مضـيق هرمز بوجهه أسرع فى مغـادرة البصرة ويصحـبتـه ثلاث سفن فقـط تاركا بقيـة أسطوله هناك[55]. وفى الطريق تحطمت سفينة واحـدة من السفن الثلاث من نوع «القادرغة» بالقرب من البـحرين، وتوجه «بيـرى بك» بالسفـينتيـن الباقـيتـين إلى مصـر تاركـا سفن الأسطول العـثمـانى بالبصرة[56]. اما المسـؤولون البرتغاليون فى الهند فـعندما سمعـوا بالحوادث التى تجرى فى الخليج العربى والتهديدات العثمانية لمستعمراتهم، والنشاط البحرى الذى

قام به «بيرى بك الريس» ضد تواجدهم فى المنطقة، قرروا إرسال أسطول كبير بقيادة نائب الملك البرتغالى «فيرناندو دى نورنها» الذى خرج به من «غوا» فى سبتمبر 1552 لانقاذ جزيرة هرمز، ولما وصل إلى الجزيرة وجد العثمانيين قد انسحبوا من تلقاء أنفسهم، ورأى القائد البرتغالى أن الحاجة لا تدعو لوجود أسطولهم الكبير فى المنطقة فعاد إلى «غوا» دون قتال[57].

لم تؤثر عمليات بيرى بيك الحربية على استراتيجية المنطقة أو تخفف من النفوذ البرتغالى[58]. وأن مصادمات بيرى بيك الريس كانت تؤكد بأن كفة البرتغاليين هى الراجحة رغم الازعاج الشديد والاضطراب فى صفوفهم الذى كان قد سببته عمليات «بيرى بك» ضدهم[59]، وكانت بداية حملة «بيرى بك» موفقة عندما نجح فى مواجهة «مسقط» وفى الاستيلاء على قلعتها وأسر قائدها البرتغالى واستطاعت ان تزلزل مركز البرتغاليين القوى لأول مرة فى مدخل الخليج العربى[60]، ولكن عدم تمكن بيرى بيك من اخراج البرتغاليين من هرمز أعطى المجال أمام التفوق البرتغالى الذى أصبح واضحا فى أعقاب انسحاب أسطول بيرى بيك من جولاته فى الخليج العربى وظل الأسطول البرتغالى هو المسيطر على مياه المنطقة[61]. ولكن الأسطول العثمانى سرعان ما بدا يظهر من جديد فى موانئ الخليج العربى بعد حملة بيرى بيك[62].

إعدام بيرى بك فى الأستانة:

نظرا لأهمية تلك الحملة التى أعقبها اعدام قائدها بيرى بك الريس» فى الأستانة ولما يكتنفه من غموض وملابسات حول ذلك فإننا سوف نورد بعض الآراء حول ذلك وقد تكون أقرب إلى الصواب، ومن أهم هذه الآراء ما يقول د. جمال زكريا قاسم فى هذا الموضوع[63]: بأن الأوامر الصادرة من الأستانة إلى «بيليربى» البصرة فى أكتوبر عام 1552 توضح فيه التعليمات التى أعلنت إلى «بيرى بك»، وفيها كان يتحتم عليه بعد حملته الناجحة على مسقط أن يتجه إلى البصرة للاستعانة ببعض قواتها لكى يقوم بالهجوم على «هرمز» و«البحرين»، غير أن «بيرى بك» أغراه سهولة الانتصار فى «مسقط» فتوجه مباشرة إلى «هرمز» وأطلق المدافع على قلعة البرتغاليين وحاصرها ستة عشر يوما ولكن البرتغاليين تمكنوا من

الدفاع عن أنفسهم واضطر «بيرى بك» إلى الانسحاب إلى جزيرة «قشم» ومنها إلى «البصرة» بعدما استولى على غنائم كثيرة حيث كان الأثرياء من التجار يقطنون تلك الجزيرة، وفى البصرة وقع الخلاف بينه وبين «البليربى» ولذلك غادر المدينة حاملا معه الغنائم التى حصل عليها ومن ضمنها الأسرى البرتغاليين، وقدرت بعض المصادر قيمة غنائمه بأكثر من مليون ريال ذهب، فى الوقت الذى أرسل فيه بليربى البصرة تقريرا إلى السلطان العثمانى، ويبدو أن هذا التقرير لم يكن فى صالح بيرى بيك إذ أنه على أثر وصوله إلى السويس استدعى من قبل السلطان العثمانى للرد على التهم المتعلقة بقلة كفاءته وعدم نجاحه فى العمليات الحربية فى الخليج العربى، وصدر ضده الحكم بالاعدام وقطعت رأسه بالفعل فى الآستانة عام 1553.

يتابع د. جمال زكريا قوله[64]:

بأن الكثير من المصادر لم تستطع أن تعلل السبب الحقيقى لاعدام بيرى فيما أشار البعض إلى أن السبب الحقيقى لم يتضح تماما ومنهم من أكد كما فعل «فاريا دى سوازا» أنه تجاوز التعليمات الصادرة إليه وهو الأمر الأكثر احتمالا، إذ أن السلطان سليمان الثانى قد أمر بيرى بيك فى أن لا يجد فى أخذ هرمز قبل أن يذهب أولا إلى البصرة لكى يأخذ جنودا اضافيين غير أن «بيرى بك» نتيجة لما وجده من ضعف البرتغاليين فى مسقط اعتقد أن الحالة فى هرمز ستكون متشابهة. واعتقد أن بإمكانه بالأسلحة والذخائر التى استولى عليها من قلعة البرتغاليين فى مسقط أن يخضع البرتغاليين فى هرمز ولكنه فشل بسبب صمود القلعة البرتغالية الحصينة فى هرمز.

أما د. عبد العزيز الشناوى فيقول[65]:

أن «بيرى بك» ضرب حصارا محكما على قلعة البرتغاليين فى جزيرة هرمز وكادت تسقط فى أيدى العثمانيين لولا أن بيرى بيك أمر برفع الحصار عنها فجأة، واتجه بسفنه إلى البصرة وكان السبب فى انسحابه من جزيرة هرمز هو الخدعة التى لجأ إليها أسيره قائد حامية مسقط البرتغالية، إذ أدخل فى روعه بأن أسطولاً برتغاليًا كبيراً خرج من الهند فى طريقه إلى هرمز لتدمير الأسطول العثمانى فى

مياه الخليج العربى، ونصحه بالإسراع إلى مـغادرة المنطقة قبل أن يغلق البرتغاليون مضيق هرمـز فى وجه الأسطول العثمانى، اضـافة إلى هذه النصيحة الخـادعة فإنه قدم لبـيرى بيك بعض الأمـوال الذى قبلهـا، وبما أن الأسطول لا يستطيـع العودة مباشرة إلى السويس لحاجة وحدات الأسطول إلى الإصلاح والتزود بالمؤن فقد ترك بيرى بيك الأسطول العثـمانى فى البصرة وعاد بسفنه الثـلاث إلى السويس بعد أن ملأها بالأموال التى جمعها من مهـاجمة الاهداف البرتغالية فى الخليج العربى وما كاد يصل إلى القـاهرة حتى قبض عليـه والى مصر وأرسله إلى السلطان سليـمان القانونى مع تـفاصيل مـا حدث ورأى السلطان أن تصرف بـيرى بيك كان خـيانة عظمى فأمر باعدامه ومصادرة أمواله ومقتنياته.

يقول مصطفى عقيل الخطيب فى اطروحة الماجستير، بأن القائد البرتغالى «جوادى ليـزبوا» الذى كان أسـيرا فى الأسطول الـعثمـانى قد نصح «بـيرى بك» بالتوجه إلى البصرة، ولما وصل الأسطول إلى البحرين تمكن من الهرب، وكان هذا سببا فى استدعاء بيرى بيك إلى الآستانـة ومحاكمته وقد صدر الحكم بضرب عنقه بالسيف[66]. ويقول د. قيس بأن اعدام «بيرى» فى الآسـتانة لعدم اطاعته للأوامر مما أدى إلى فشل الحملة وتدنى سمعة البحرية العثمانية كما ترك انطباعا فى المنطقة بأن البرتغاليين لا يمكن قهرهم[67].

قد يكون سبب إعـدام «بيرى بك» هو ما جاء فى قول د. جـمال زكريا بأن القائـد بيرى بيك لم يطع الأوامـر بالتوجـه إلى البصـرة لأخذ مزيد مـن القوات والذخيـرة نظرا لعلم السلطان سليمـان القانونى بقـوة التحصـينات البرتغـالية فى هرمز، وليس مـعقولاً بأن يأخذ الـقائد العثمـانى نصيحـة أسيره البرتغـالى بعدم مواجهة الأسطول البرتـغالى والذى عرف عن بيرى بيك مواجهته للسـفن المسيحية الاوربية سواء فى البحـر المتوسط أو البحر الأحمر وبشجاعتـه فى القتال، وكذلك من غير المعقـول أن يأخذ هذا القائد المعروف الرشاوى من البرتغـاليين وخاصة من اسيره بعدما كان قد استولى على غنائم كثيرة من هرمز وقشم.

حملة الريس مراد بك 1553:

نظرا للنتائج السلبيـة التى انتهت إليها الحملة البحـرية «البيرى بك الريس»،

فرض على العثمانيين أن يحاولوا من جديد إنهاء التواجد البرتغالى فى مياه الخليج العربى[68]. وبرغم انشغال العثمانيين فى صراعهم مع الصفويين الذين كانوا أعدوا حملة عسكرية عام 1553 مما اضطر الدولة العثمانية إلى عقد معاهدة «اماسيا» لعام 1553، وبمقتضى هذه الاتفاقية حدث تعديل طفيف على الحدود العثمانية ـ الفارسية وقسمت جورجيا إلى مناطق نفوذ مشترك وخيم السلام على العلاقات بين الجانبين[69] لفترة قصيرة مما أتاح الفرصة للدولة العثمانية للتوجه لمحاربة الغرب المسيحى «دار الكفر» على الجبهة الأوروبية والبرتغال فى المياه الجنوبية.

اهتم السلطان سليمان القانونى باعادة الأسطول العثمانى المتجمع فى البصرة إلى قاعدة السويس البحرية دون أن يتعرض لهجوم الأسطول البرتغالى عليه ولتحقيق هذا الهدف تم الاتصال السريع مع «الريس مراد بك» «سنجق القطيف» وكان يقيم فى البصرة فى ذلك الوقت[70] واصدر إليه السلطان القانونى أوامره بالابحار إلى السويس، وبعدها تابع «الريس مراد بك» عملية تجميع الأسطول العثمانى الموجود فى البصرة عام 1553[71]. وأعد سفنًا أخرى لكى تنضم إلى الأسطول ثم عبر الخليج العربى نحو البحر الأحمر لمواجهة الأسطول البرتغالى المتجه نحو «جدة»[72]. كان «الريس مراد بك» له خبر سابقة بحروب البرتغاليين فى الخليج العربى، وكانت تحت قيادته خمسة عشرة سفينة للقيام بهذه الحملة البحرية الجديدة، وقام «مراد بك» بجهود يائسة لاستدارج الأسطول البرتغالى خارج القواعد والحصون البرتغالية فى الخليج العربى وخاصة فى جزيرة «هرمز»[73].

اصطدم «الريس مراد بك» بالأسطول البرتغالى الذى يقوده «ديجو دى نورنها» فى مدخل الخليج العربى بالقرب من جزيرة هرمز أمام السواحل الفارسية حيث القاعدة والحصن البرتغالى القوى، ولكن المعركة لم تسفر عن انتصار حاسم لأى منهما[74]. وفشل «الريس مراد» فى ارجاع الأسطول العثمانى الذى كان راسيا فى ميناء البصرة إلى السويس وإنما اضطر إلى إرجاعه ثانية إلى ميناء البصرة نظرا لإصابة بعض السفن ومن الصعب إبحارها إلى السويس لمسافة طويلة، ولم تكن هذه الحادثة بأية حال نهاية المطاف للعثمانيين لانقاذ أسطولهم الراسى فى

البصرة وإنما أمر السلطان سليمان القانونى بتعيين «سيد على الريس» الذى يعتبر من أبرز أعلام القادة البحريين العثمانيين ليتولى هذه المهمة[75].

خطة سيد على الريس 1554:

شعر السلطان القانونى الذى كان يقيم فى «حلب» وقتذاك بقلق بالغ على أسطوله الراسى فى ميناء البصرة، وكان من بين أفراد الحاشية قائد بحرى يعد من أعلام السلاح البحرى العثمانى وترك بصمات قوية فى تاريخ البحرية كما يعتبر جغرافيًا عثمانيًا مشهورًا وهو «على شلبى» أو «سيد على الريس» كما تسميه الوثائق العثمانية[76] والذى نال سمعة طيبة فى غزوات البحر المتوسط[77].

فأمر السلطان القانونى بتعينة «قبودان مصر» وقبطانا لاسطول البحر الأحمر مع تكليفه بمهمة أخرى هى فرض السيادة العثمانية على الخليج العربى[78]: وطلب منه السفر فورا من مدينة حلب إلى البصرة عن طريق البر وأن يقود الأسطول العثمانى فى رحلة العودة إلى السويس، ووصل «سيد على الريس» إلى البصرة فى 6 يناير عام 1554 وشرع فى اصلاح السفن واعادة بناء ميناء البصرة وتشييد أسطولها من جديدًا[79] وتجهيزه. فى 30 من أغسطس من نفس العام أبحر من البصرة على رأس خمس عشرة سفينة[80] عن طريق البحرين و«رأس مسندم»[81]، بعدما وصلته الأنباء بأن البرتغاليين متجهون لاستعادة مسقط بقيادة «فيرناند دى نورنها» القائد البرتغالى الذى كان قد علم بوصول «سيد على الريس» إلى «البصرة» واعداده للأسطول وتأكد له أن العثمانيين يشكلون خطرًا على المستعمرات والمراكز البرتغالية ليس فى الخليج العربى فقط وانما فى المشرق الإسلامى كله، ودبر خطة محكمة للقضاء على هذا الخطر، وكان «سيد على الريس» قد توجه إلى «هرمز»، فى حين كان الأسطول البرتغالى الضخم قد أقبل على أثره من الهند وانتشر جواسيس البرتغاليين فى كل مكان متخفين فى زى صيادى الأسماك لعدم إثارة أية شكوك حولهم ونقلوا إلى قائدهم أخبار وصول الأسطول العثمانى فأرسل القائد البرتغالى مجموعة من السفن الحربية الكبيرة إلى مسقط فى حين ترك نحو أربعين سفينة فى عرض البحر لمراقبة تحركات الأسطول العثمانى، وعند علم القائد البرتغالى بأن «سيد على الريس» متجه إلى «مسقط» فسار خلفه، وعندما بلغ «سيد على الريس» شواطئ المدينة هاجم الحامية البرتغالية التى كانت قد وصلت مؤخرا

وانتصر عليها فانسحبت الحامية إلى الداخل[82]. ثم قرر سيد على الريس مهاجمة هرمز بعد ابحاره من مسقط والتقى بالأسطول البرتغالى الكبير الذى كان قد وصل بالقرب من «خورفكان» - هى الآن من أجمل مدن دولة الإمارات العربية المتحدة على خليج عمان - فشن هجوما عنيفا على العثمانيين.

تقابل الأسطولان البرتغالى والعثمانى ودارت معركة حامية[83] وشرسة والتحم فيها الجانبان بالأيدى[84]، ويمكن اعتبارها من أهم المعارك العثمانية البرتغالية فى الخليج العربى. وكانت هذه المعركة من أكبر المعارك التى قاتل فيها البرتغاليون منذ أن حطموا قلاعهم فى مياه الخليج العربى[85]. ووصف «سيد على.الريس» فى كتابه «مرآة الزمان» هذه المعركة بأنها كانت من أعنف المعارك البحرية التى خاضها الأسطول العثمانى بل كانت أكبر من المعارك التى خاضها «خير الدين بربروس» فى البحر المتوسط، وكان «سيد على الريس» قد عمل معه فترة من الوقت، وسجل الأسطول العثمانى بقيادة «سيد على الريس» انتصارا كبيرا على البرتغاليين[86] برغم التفوق الكبير فى حجم ونوع سفن الأسطول البرتغالى الذى بلغ عدد سفنه أكثر من خمسة وثلاثين سفينة فى حين كان الأسطول العثمانى خمسة عشرة سفينة وتم طرد الأسطول البرتغالى من مضيق «هرمز»[87] وتراجعه إلى قواعده فى جزيرة «هرمز»، بينما توجه الأسطول العثمانى بالقرب من «مسقط». وبعد انسحاب الأسطول البرتغالى لم يلبث أن أعيد اعداده وتجهيزه وتمكن «فيرناندو دى نورنها» من دخول المعركة للمرة الثانية ضد الأسطول العثمانى[88]، وحدث التصادم بالقرب من ساحل عمان بين الأسطول البرتغالى الذى تم تعزيزه بقطاعات بحرية جديدة وقوية وزاد عدده وأصبح يتكون من اثنين وأربعين سفينة مقابل الأسطول العثمانى الصغير المكون من خمسة عشرة سفينة بعضها قد تعطلت وأصيبت فى تلك المعركة ولم يتم اصلاحها نظرا لبعد قواعدها فى البصرة أو السويس، ومع ذلك صمم القائد العثمانى «سيد على الريس» على مواجهة الأسطول البرتغالى الكبير وجرت معركة طاحنة تكبد الأسطولان خسائر فادحة فى الأرواح والسفن، فتعطل بعضها وجنح البعض الآخر إلى ساحل الباطنة العمانى واستقبل عرب عمان جموع العثمانيين الجرحى أو الذين وصلوا سباحة إلى الساحل بكل ترحاب وقدموا لهم كل عون ومساعده وانتهت المعركة دون أن يظفر أحد بانتصار حاسم[89].

أراد «سيد على الريس» بعد تلك المعركة تجميع الأسطول العثمانى للتوجه به إلى السويس، ولكن سوء الأحوال الجوية وشدة العواصف البحرية والرياح الموسمية العكسية التى هبت فى الصيف غيرت اتجاه السفن العثمانية وجرتها إلى القارة الهندية، ولاقى الأسطول العثمانى الأهوال الكبيرة فى ذلك، ولكن «سيد على الريس» نجح واستطاع فى آخر الأمر أن يقود الأسطول العثمانى إلى ميناء «سورات» التابع لحاكم «كجرات» الهندى المسلم[90]، حتى لا تتعرض السفن العثمانية للهجمات البرتغالية من قواعدها فى «غوا» القريبة من سواحل مملكة «كجرات». فبلغت السفن مدينة «سورات» بعد مرور ثلاثة أشهر على إبحارها من «البصرة»، ونظرا لصعوبة عودة معظم البحارة وجنود الأسطول العثمانى إلى ميناء السويس فى مصر، فقرروا الالتحاق بخدمة سلطان «كجرات» المسلم والاستقرار فى الهند، أما «سيد على الريس» فقد أبى عليه ولاؤه للدولة العثمانية وللسلطان سليمان القانونى وقرر العودة إلى الآستانة على الرغم من إلحاح سلطان «كجرات» عليه بالدخول فى خدمته مقابل إغراءات كثيرة ومرتب ضخم، أما الأسطول العثمانى الذى وصل إلى «سورات» فلم يكن قد تبقى من سفنه سوى بعض السفن بينما الباقى قد جنحت وتعطلت من المعركة، ولذلك قدم «سيد على» تلك السفن لحاكم «كجرات» على أن يدفع ثمنها فيما بعد للسلطان العثمانى، وبعدها عاد «سيد على الريس» ومعه خمسون جنديا إلى الآستانة عن طريق البر عبر آسيا الوسطى حتى لا يقع أسيرا فى أيدى السلطات الفارسية المعادية للعثمانيين، وفى 30 أبريل عام 1557 وصل «سيد على الريس» إلى الآستانة أى بعد مضى أكثر من عامين على مغادرته مملكة كجرات فى الهند[91].

فشل الهجوم البرتغالى على البصرة 1556:

وطد البرتغاليون بعد خطة «سيد على الريس» عزمهم على انهاء وجود العثمانيين فى الخليج العربى، ولذا فإنهم أعدوا خطة بحرية كبيرة فى عام 1556 واتجهوا بها إلى البصرة قاعدة العثمانيين البحرية، ومن سوء حظهم أن خطتهم منيت بالفشل بسبب رداءة الأحوال الجوية التى صادفتها، إضافة إلى المقاومة العنيفة من العثمانيين ومن دفاعاتهم فى البصرة، مما اضطرهم إلى الانسحاب والعودة إلى جزيرة هرمز دون تحقيق أهدافهم فى الاستيلاء على البصرة[92].

رحلة سيد على والسيادة العثمانية على البحرين:

عندما خرج «سيد على الريس» من البصرة عام 1553 على رأس الأسطول العثمانى لمحاربة البرتغاليين فإنه توجه إلى القطيف فسأل عن البرتغاليين فلم يعرف عن تواجدهم فعبر إلى البحرين وسأل حاكم البحرين «مراد رئيس» الذى أخبره بأن البرتغاليين ليسوا فى البحر، وكان سيدى على الريس شاعرا وأديبًا ومما كتبه عن رحلته إلى البحرين ما يلى[93]:

«وصلت إلى مدينة القطيف الواقعة بالقرب من الحسا (الأحساء) وهناك وجدنا دليلا فسألناه عن العدو البرتغالى ولم نتمكن من الحصول على خبر بهذا الشأن فاجتزنا البحر إلى البحرين حيث التقينا بمراد رئيس (رئيس مراد) سألناه كذلك عن العدو فقال أيضا أن العدو ليس بالبحر، وفى البحرين وجدنا - ويا لها من حكمة عجيبة - الغواصين وكان واحد منهم يمسك بيده من زق بماء عذب من القاع، وكان هؤلاء الغواصون يأتون بالماء العذب إلى مراد رئيس دائما. وفى أيام الصيف يكون هذا الماء أكثر برودة من المياه الأخرى وأكثر عذوبة أيضا وحيث أنه كذلك فقد كان مراد رئيس يكثر الشرب منه. وقد أرسل مراد رئيس إلى هذا العبد (الكاتب سيدى على يقصد نفسه) من هذا الماء كنوع من مظاهر الاحترام، والحقيقة أن هذا الماء - كما يقول السكان جيد جدا وأن الآية الكريمة (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) إنما تتحدث عن هذا وهم يعتقدون أن هذا الماء هو سبب إطلاق هذا الاسم على هذا البلد».

أبلغ سيدى على رئيس حاكم البحرين مراد رئيس قرار السلطان العثمانى الذى أصدره بالنسبة للحكام الموالين وهو أنه لا يحق لأى والٍ أو مسئول كبير من العثمانيين دون أخذ أمر من السلطان أن يقض بأى شكل من الأشكال مضاجع الدول التى تدخل تحت حماية الدولة العثمانية وأكد لحاكم البحرين أن علاقات الود والصداقة بين والى البحرين والدولة العثمانية ستستمر فى طريقها المعهود وأنه من الممكن لوالى البحرين التعايش الطيب مع الحكام العثمانيين فى المنطقة وأن السلطان يقظ لأى اعتداء برتغالى على سواحل البحرين وأن الديوان السلطانى سيقدم كل عون ممكن[94]، ومن هذا يتضح بأن البحرين كانت موالية للدولة

العثمانية فى هذا الفترة وأن حاكمها أصبح يتمتع باستقلال محدود كما جرى تبادل المراسلات بين حاكم البحرين والدولة العثمانية ومنح حاكم البحرين لقب «سنجق باد» فى عام 1558، ولكن يبدو أن هذه العلاقة لم تستمر لفترة طويلة عندما قرر حاكم القطيف دخول البحرين، وبسبب تصرفه تعكرت العلاقات العثمانية مع البحرين.

هجوم والى الاحساء العثمانى على البحرين:

توجه مصطفى باشا «بليربى الاحساء» فى عام 1559 إلى شواطئ البحرين، ويبدو أن ذلك التصرف كان بدون علم السلطان العثمانى، لمحاصرة المنامة ومعه عدد كبير من انكشارية بغداد[95]، على رأس أسطول عثمانى من البصرة وفيه سفينتان كبيرتان من نوع «غاليون» وسبعون سفينة ذات حجم صغير من نوع «صندل» بالمجاديف، وحاصر العثمانيون القلعة بألف ومئتى جندى مقاتل[96]، وكان يحكم جزيرة البحرين رئيس مراد، وحين وصلت أخبار هذا الحصار إلى هرمز بادر البرتغاليون بإرسال قطع من أسطولهم للتصدى للعثمانيين[97]، ووصل الأسطول البرتغالى تحت قيادة «سالفرودى سلفيرا» وحاصر الأسطول العثمانى[98].

جمع مصطفى باشا قواده من ذوى الرأى واستشارهم فأشاروا عليه بحراسة جزيرة البحرين خشية الهجوم البرتغالى المفاجئ عليها حتى وصول الامدادات اللازمة من والى بغداد، وعندما شعر مصطفى باشا بأن الأمور لا تسير فى صالحه فالبرتغاليون على وشك أن يحكموا حصارهم حوله والدولة الصفوية تسعدها أن يشتركوا فى الإجهاز على القائد العثمانى، وحاكم البحرين يراقب الأمور وهو لا يستطيع أن ينسى أن مصطفى باشا دخل جزيرته رغم ولائه للسلطان واقرار السلطان العثمانى له على جزيرة البحرين، ولهذا فإنه اتصل بحاكم البحرين «مراد الريس» عارضا عليه أن يترك الجزيرة بشرط أن يقدم له السفن التى تنقله هو ورجاله ويدفع قيمة نقلها، ولكن حاكم البحرين رفض ذلك فانسحب مصطفى باشا بقواته إلى مكان بعيد عن الشاطئ فى داخل الجزيرة لا تصل إليه قذائف السفن البرتغالية، وانتظروا ثمانية أيام وصل خلالها مدد من «بغداد» يتكون من ثلاثمائة فارس وأربعمائة مقاتل مسلح[99].

خرج الريس مراد حاكم البحرين من القلعة ومعه ثلاثمائة جندى وانضم إلى صفوف البرتغاليين وطارد الاثنان الجيش العثمانى داخل الجزيرة، لكن العثمانيين نصبوا كمينا للبرتغاليين خلف النخيل وقتلوا عدداً كبيراً منهم بما فيهم القائد البرتغالى «الفارو دى سلفيرا»(100)، كما انتصرت القوات العثمانية على قوات حاكم البحرين وأسرت معظم الجنود وقد غير ذلك سير المعركة لصالح العثمانيين، وبذلك تمكن العثمانيون من الحاق خسائر جسيمة باعدائهم إذ بلغ عدد القتلى سبعين قتيلا(101) اضافة إلى الأسرى. وبمساعدة النيران الموجهة من سفنهم حاصر البرتغاليون العثمانيين على الشاطئ(102)، وبسبب نقص مؤن العثمانيين وذخيرتهم قرروا إنهاء هذا الصراع والدخول فى مفاوضات مع البرتغاليين ولم تنجح المفاوضات وقال حاكم البحرين أن هذه الحملة هاجمت البحرين دون موافقة السلطان سليمان القانونى ودون علم أوامره، فأجابه الوفد العثمانى بأن السلطان باق على عهده وأن الحملة بالفعل لم تكن بأمره وهو يطلب المعذرة(103) وفى النهاية اتفق الجانبان على أن يسلم العثمانيون ما لديهم من أسلحة ومعدات والأسرى والخيول وغرامة 10.000 دوكات إلى البرتغاليين(104)، واكتفى السلطان سليمان باصدار فرمان بمنح حاكم البحرين «رئيس مراد» لقب سنجق بيك على الرغم من النفوذ البرتغالى الذى كان واضحا فى الجزيرة(105).

يقول «محمد عدنان مراد» بأن البرتغاليين اصطدموا بالعثمانيين الذين حاولوا بدورهم اخضاع البحرين لسيطرتهم ونجحوا فى بادئ الأمر، ولكن بعض السكان من الأصل الفارسى عاونوا شيخ هرمز والبرتغاليين مما أدى إلى انسحاب القوات العثمانية واستعادة الجزيرة للسيطرة البرتغالية(106).

فترة الهدوء 1560، 1581:

توقفت الحملات العثمانية فى هذه الفترة على مراكز وتجمعات البرتغاليين فى الخليج العربى وانحسر النفوذ العثمانى عن البحرين، إلا انها ظلت مع ذلك تشكل منطقة عازلة بين الجانبين، فالعثمانيون فى الإحساء والقطيف والبصرة، والبرتغاليون فى جزيرة هرمز ومسقط، ويبدو أن البرتغاليين حاولوا مهادنة العثمانيين ويتضح ذلك عندما أوفد نائب الملك فى الهند رسولا إلى الأستانة فى

عام 1562، لعرض مشروع للسلام بين الدولتين، وهو المشروع الذى لم يكتب له النجاح والتنفيذ بسبب اصرار السلطان العثمانى على كسر نظام الاحتكار البرتغالى وتأمين الطرق البرية والبحرية وحمايتها لصالح الرعايا والتجار التابعين للدولة العثمانية[107]. ثم جرت محاولة ثانية عندما اتصل على باشا والى البصرة بالحاكم البرتغالى فى هرمز بهدف استئناف العلاقات التجارية عبر الخليج العربى، ومن هذا المنطلق بعث البرتغاليون «انطونيو تكسيرا» فى عام 1563 إلى الأستانة لمقابلة السلطان العثمانى وإشعاره برغبة والى البصرة فى اعادة العلاقات التجارية الحرة مع هرمز، وتقابل هذا المبعوث البرتغالى مع السلطان سليمان القانونى فى الأستانة الذى أخبره على حد قول «سوسه»[108]:

«بأنه (أى السلطان سليمان القانونى) لا يطلب السلام من أحد وإذا كان ملك البرتغال يحتاج إلى السلام فإنه ينبغى عليه أن يبعث رسولا كبيرا من حاشيته أو بلاطه إلى الأستانه لمناقشة الموضوع».

اضطر المبعوث البرتغالى إلى العودة إلى هرمز دون تحقيق أى تقدم، وبرغم فشل الاتصالات العثمانية ـ البرتغالية لتحسين العلاقات التجارية بينهما إلا أن حدة الصراع قد خفت، كما قلت حالة الصدام المسلح والمواجهة العنيفة بينهما فى المياه الشرقية إلى حد كبير ولجأ كل من الطرفين العثمانى والبرتغالى إلى المحافظة على مكتسباته الاقتصادية فى المناطق الخاضعة له وتشجيع التجارة عبر تلك المناطق التى لم تكن تخلو من المناقشة بين الجانبين[109]. وكان نائب الملك البرتغالى فى الهند قد بعث فى 11/ 12/ 1563 بتقرير مهم جدا إلى الملك البرتغالى «جوا الثالث» يقول فيه، بأنه كلف أحد أتباعه من البرتغاليين بمرافقة مبعوث البصرة خلال تنقلاته بين هرمز والهند والبصرة، بقصد التفاوض، والتقرير يتعلق بأوضاع مدينة البصرة الطبوغرافية وموقع المصب وبأسوار المدينة وتحصيناتها ومواقع أبوابها وبالقوة العسكرية المتوفرة لديها من الاسلحة والحامية والأسطول، وكذلك الأوضاع الاقتصادية من رفاهية سكانها ورواج تجارتها، وأن أهمية التقرير يرجع إلى أن محرره أرسل خصيصا لهذه الغاية، وكان عليه أن يجمع تلك المعلومات التى كانت تتعلق بمشروع هجوم برتغالى على المدينة لأنه أولى اهتماما خاصا لأماكن إنزال الجنود ونقط الضعف فى التحصينات ووسائل الدفاع المتوفرة[110].

يرجع توقف الصراع العثماني ـ البرتغالى فى الخليج العربى، بسبب انشغال الدولة العثمانية فى صراعها ضد الدولة الفارسية عندما أقدم الشاه «طهماسب» على التقدم إلى الأراضى العثمانية وبمجرد توقف هذه العمليات فى عام 1575، جدد السلطان العثمانى أوامره بفتح البحرين وطرد البرتغاليين منها، وأصدر فرمانا إلى الوالى العثمانى فى بغداد لاستطلاع الموقف بعد أن كتب والى الاحساء العثمانى يطلب منه السماح له بفتح البحرين الذى سيضمن 400000 «فلورى» سنويا، ولكن هذا المشروع توقف بعد أن تبين للدولة العثمانية أن هذا الدخل ليس وشيك الظهور، وإنه قد يقل عن النفقات والمصروفات المحلية[111]، وبالتالى لا يغطى الميزانية ويكلف الخزنية أكثر مما قد تستفيد منه الدولة العثمانية ولو حتى من الناحية السياسية.

حملة على بيك على مسقط 1581:

لم تحاول الدولة العثمانية تجديد نشاطها فى الخليج العربى بعد فترة الهدوء من عام 1560 إلا فى عام 1581 عندما فقدت البرتغال استقلالها بعد الاحتلال الاسبانى لاراضيها فى عهد الملك فيلب الثانى التى استمر حوالى ستين عامًا[112]. وقدرت أهمية الاستفادة من هذه الفرصة. وجهز العثمانيون آخر حملة لإخراج البرتغاليين من مسقط عام 1581، حيث أعد والى اليمن «مرآة الزمان» وكان ايطاليا اعتنق الدين الإسلامى، حملة صغيرة وأسند قيادتها إلى على بيك لاستعادة مسقط وكانت ذلك آخر حملة جهزها العثمانيون إلى الخليج العربى[113].

اشتهر «على بيك» كقائد بحرى وأصاب الملاحة البرتغالية بأضرار جسيمة فى المحيط الهندى[114]، وفى عام 1581 تمكن «على بيك» من الاستيلاء على مسقط التى أبحر إليها فى ثلاث سفن من ميناء «مخا» اليمنى[115]، وعندما وصل على بيك إلى مسقط شن هجوما مفاجئا على البرتغاليين الذين لم يكونوا مستعدين اطلاقا وسلط عليهم المدافع الثقيلة من البحر بينما الأهالى عرب عمان شاركوا فى الهجوم على الحامية البرتغالية من البر[116]، مما أثار الفزع فى صفوفهم ففر البعض إلى داخل البلاد والبعض الآخر استسلم وبذلك تحقق النصر وسلم العدو، إلا أن العثمانيين انسحبوا فجأة إلى عدن بسبب ما ترامى إلى أسماعهم من قدوم

أسطول برتغالى إلى الميناء، وكانت هذه المعركة آخر المعارك التى خاضها العثمانيون فى صراعهم ضد البرتغاليين فى مياه الخليج العربى فى القرن السادس عشر[117]. وبعد انسحاب القائد العثمانى على بيك عاد البرتغاليون إلى مسقط ولكنهم وجدوا المدينة مدمرة ومنهوبة[118].

لم تكن لتلك العمليات التى قادها «على بيك» أية فائدة تذكر بالنسبة للعثمانيين بل على العكس من ذلك جعلت البرتغاليين ينظرون إلى ضرورة تعزيز قواتهم فى مسقط وبناء التحصينات اللازمة لهم وتقويتها، واعتبر البرتغاليون سيطرة العثمانيين على مسقط بمثابة عار لحق بسلاحهم البحرى مما اضطرت معه الحكومة الاسبانية التى كانت تشرف على المستعمرات البرتغالية فى ذلك الحين إلى اصدار تعليماتها بتقوية التحصينات العسكرية وزيادتها وبناء قلعتين كبيرتين لا تزالان قائمتين إلى يومنا هذا تحيطان بخليج مسقط وتكسبه جواً من الغموض والرهبة، وعرفت هاتان القلعتان باسم قلعة «كابيتان» و«سان جوا» فى حين تعرفان حاليا بقلعتى «الميرانى» و «الجلالى» وترجع هذه التسمية إلى الفرس[119] الذين أطلقوا على هاتين القلعتين عندما دخلوا مسقط بطلب من الامام المخلوع «سيف بن سلطان الثانى» مساعدة «نادر شاه» لارجاعه إلى الحكم عن طريق القوات الفارسية بين عامى (1738ـ1741)، ولم تكن التركة التى خلفها الاستعمار المسيحى البرتغالى فى مسقط مقتصرة على المبانى العسكرية وإنما جاء البرتغاليون بروح التعصب الإرهابى الدينى الصليبى المعروف لدى مبشريهم وقاموا ببناء ثلاث كنائس فى مسقط ولا تزال الكنيسة الصغيرة أو المعبد الصغير الذى بناه البرتغاليون باقيا حتى الآن فى قلعة «الميرانى» اما الكنيستان الأخريان فمن المحتمل أنهما قد تهدمتا بفعل الزمان[120].

على بيك والصراع العثمانى ـ البرتغالى فى شرق أفريقيا:

لم يقتصر الصراع العثمانى ـ البرتغالى على الخليج العربى بل امتد إلى بحر العرب وسواحل شرق أفريقيا، وان جهود على بيك لم تقتصر على مدينة مسقط وإنما اتجه إلى مدن «ممباسة» و«لامو» و«ملندى»، وكان البرتغاليون منذ بدء زحفهم على بحار الشرق قد استولوا على معظم موانئها، واتخذوا من الحصون والقلاع

التى أنشأوها مثل قلعة «موزمبيق» و «قلعة المسيح فى ممباسا» كمحطات تمد سفنهم الذاهبة إلى الهند والآتية بالمؤن والعتاد[121].

عندما وقعت البرتغال تحت قبضة الأسبان عام 1580، اغتنم سكان السواحل هذه الفرصة وثاروا عليهم وأخرجوهم من مدينة «ممباسا»، ورغم أن القائد البرتغالى «داميدا» كان قد أحرق المدينة بعد قصفها بالقنابل عام 1505 إلا أن شيخها عاد إليها بعد انسحاب الأسطول المسيحى البرتغالى وشكل جيشا من العرب والافارقة وأعلن الثورة على البرتغال عام 1528، وطلب من سكان «زنجبار» و «بمبا» بالتعاون معه، ولكنهم رفضوا وصادف مرور القائد البرتغالى «دى كونها» فى طريقه إلى الهند مع «البوكيرك»، فهوجمت «ممباسا» من جديد واضطر سكانها للاستسلام وتعهد حاكمها بدفع الجزية وعدم الاتصال بالعثمانيين الذين كانوا قد سيطروا على عدن منذ عام 1538، وعندما سمع شيخها بتفشى الأوبئة فى الجيش البرتغالى أخذ فى التلكؤ فى تنفيذ الاتفاقية مما جعل البرتغاليين يطلقوا النار على مدينة «ممباسا» وينهبوها ويدمروها مرة أخرى[122].

ظهر على بيك فى هذه الأثناء بالاسطول العثمانى عام 1585 أمام سواحل شرق أفريقيا، وكان على بيك من مجاهدى البحر وحارب فى اسطول «خير الدين بربروس» فى البحر المتوسط، وأدى ظهوره إلى رفع معنويات السكان الذين لاقوا الأمرين من الإرهاب المسيحى البرتغالى فأعلنوا ولاءهم للسلطان العثمانى[123]، وحاول على بيك أن يعتمد على تأييد السكان المسلمين فى شرق أفريقيا وشجعهم على القيام بالثورة ضد البرتغاليين والعمل على ضمهم إلى الدول العثمانية، وأخذ يطمئنهم بوصول أسطول عثمانى كبير فى الطريق إليهم، ونجح على بيك فى فرض السيادة العثمانية على كثير من المقاطعات فى شرق افريقيا مثل «ممباسا» و «لامو» و «مقديشو» و «بات» ولكن الاسطول العثمانى الكبير الذى وعد به لم يصل، وتقدم عوضا عنه اسطول برتغالى بقيادة «دى كونها» تمكن من قمع الثورات الناشبة[124]. وعاد حاكم «ملندى» لخيانته وتعاون مع البرتغاليين ضد سكان شرق أفريقيا مما اضطرت الامارات والمشيخات الافريقية للتسليم بدفع الجزية والتبعية البرتغالية.

استنجد سكان شرق افريقيا بعلى بيك الذى عاد إلى المنطقة عام 1588 على

رأس قوات كبيرة، وأخذ يحصن مدينة «ممباسا» ويضع فيها الحامية العثمانية، وبينما يستعدون للدفاع عن مدينة «ممباسا» ضد الاسطول البرتغالى القادم من البحر، فإذا بسكان «ممباسا» والعثمانيين يفاجأون بخطر قادم من الداخل، عندما خرجت القبائل الافريقية المتوحشة من أكلة لحوم البشر من حوض نهر «الكنغو» الأعلى، واجتاحت شرق افريقيا وطافت «بموزمبيق» ونشرت الدمار والخراب فى كل مكان وصلت إليه، كما أحاطت بمدينة «ممباسا» الثائرة والسواحل القريبة منها، وتسمى هذه القبائل المتوحشة «بالوازمبا»، وبذلك وقعت المدينة بما فيها سكانها الافارقة والعرب والعثمانيين بين حصارين، الأول من البرتغاليين الذين وصلوا من الهند ويحاصرونهم من أمامهم فى البحر بالأسطول الحربى، ومن الخلف القبائل الوحشية القادمة من أواسط غابات وأدغال أفريقيا، وكان خطر هؤلاء أشد من البرتغاليين فحاولت الحامية العثمانية الهرب سباحة بما فيها القائد «على بك» ولكن البرتغاليين المحاصرين أسروهم وقتلوهم[125].

يقول د. جمال زكريا، بأن البرتغاليين نجحوا فى القبض على «على بيك» وأسره وإنه أرسل إلى «لشبونة» حيث أجبر على اعتناق المسيحية ومات هناك[126].

دخل البرتغاليون مدينة «ممباسا» بعد حرقها وتهديمها على يد قبائل «الوازمبا» المتوحشة وتحطمت آمال مسلمى شرق افريقيا من عرب وسواحليين فى التخلص من نير الإرهاب المسيحى البرتغالى، والمدينة الوحيدة التى كافحت وصمدت أمام الغزاة هى مدينة «مقديشو» بسبب قربها من المساعدات العربية، ولا تزال آثار لبعض المدن العربية باقية فى غابات كينيا ويعتقد بأن سكانها هجروها خوفا من القبائل المتوحشة أو قتلوا عن بكرة أبيهم من قبل تلك القبائل آكلة لحوم البشر «الوازمبا» الذين يشكلون الآن اكثرية ساحقة لسكان شرق أفريقيا بعدما تزاوجوا مع العرب الحضارمة والشيرازيين وأصبح يطلق عليهم شعب أفريقيا أو الشعب السواحلى بفرعها الشمالى ذى الاصل العربى الحضرمى والجنوبى الذين يدعون الانتماء إلى أسرة الحسن الشيرازى ويفتخرون بماضى دولة «الزنج»[127].

يمكن القول بأن العثمانيين خرجوا من الصراع البحرى مع البرتغاليين فى نهاية القرن السادس عشر، ولم يعد بمقدورهم ارسال حملات أخرى إلى الخليج

العربى أو المحيط الهندى للتصدى للنفوذ البرتغالى، ومع ذلك فقد ظل العثمانيون يتمتعون بنفوذ سياسى واسع فى المنطقة العربية وبعض منافذها البحرية مثل البحر الأحمر، وأصبح هدفهم الأساسى هو تحقيق عوائد مادية واقتصادية، وهذا هو سبب تمسكهم بالمنطقة فى الفترات التالية ومحاولة دفع أى خطر خارجى عنها[128]. ولكنهم لم يفكروا فى إعادة الكرة من جديد فى الخليج العربى، وبذلك خرجت الدولة العثمانية عن سياستها التقليدية التى جعلت منها حامية العالم الإسلامى من الغزو البرتغالى والاسبانى، سواء فى الغرب أو الشرق، وبخروج العثمانيين من ساحة الصراع فى الخليج العربى، أصبح على القوة العربية المحلية القيام بمسئوليتها فى المنطقة، وظهرت قوة عربية اسلامية ناشئة وهى إمامة اليعاربة فى عمان، لكى تنهض بالتعاون مع القبائل العربية فى المنطقة لتحرير سواحلها من الإرهاب المسيحى البرتغالى، وهو الدور الذى لعبه عرب الخليج، مستغلين الظروف الداخلية التى كانت تمر بها الامبراطورية البرتغالية، ويقفون منها موقف التحدى ويشكلون عاملا مهما من عوامل انهيارها[129] ليس فى الخليج العربى وإنما فى شرق افريقيا أيضا، وان سقوط الدولة النبهانية وقيام الإمامة اليعربية فى عمان كان يعنى الاطاحة بالنظام القديم وقيام نظام سياسى جديد فى الخليج العربى، وخاصة إمامة اليعاربة التى أخذت على عاتقها الجهاد ومقاومة البرتغاليين وطردهم من الخليج العربى وملاحقتهم فى مستعمراتهم على سواحل ايران الجنوبية وشرق افريقيا وبذلك قامت الإمامة اليعربية.

تحليل الصراع العثمانى البرتغالى:

أولا: من الناحية السياسية:

عند تحليل الصراع العثمانى ـ البرتغالى نتطرق أولا، إلى وجهة النظر الغربية وخاصة المؤرخ البريطانى «أرنولد توينبى» الذى يؤكد على ضعف القوة البحرية العثمانية في خلال النصف الأول من القرن السادس عشر بقوله[130]:

«فشلت الهجمات البحرية العثمانية فى الانتصار على الاساطيل البرتغالية سواء فى غرب البحر المتوسط أو المحيط الهندى، ولو كانت تلك الهجمات ناجحة لأدت إلى قطع المواصلات البحرية بين البرتغال والهند». ثم يضيف إلى أن

«التقصير العثماني البحري أدى، من الناحية الاستراتيجيية، إلى غلق العالم الإسلامي بواسطة الأمم الأطلسية، وهذه الأخيرة استخدمت فيما بعد تفوقها البحري في سبيل السيطرة السياسية على الأقطار الإسلامية».

أما الاستاذ «كارلوكيبولا» الذي يقرر في مؤلفه المعنون «المدافع والمراكب الشراعية والامبراطوريات» بقوله[131]:

«إن ميزان القوى العالمية أصبح في صالح الغرب منذ القرن الخامس عشر عندما استغل الملاحون الأطلسيون البدع التكتيكية في فن الملاحة وصناعة المدافع كي ينشروا تفوقهم على المحيطات، في حين أن المجتمعات الآسيوية فشلت في الاستجابة للتحدي الأوربي لأن عوامل حضارية ـ اجتماعية قوية منعتها من تبني التكنولوجيا الغربية المتفوقة».

إننا نجد عند تحليل الصراع العثماني ـ البرتغالي، بأن الحملات العثمانية الأولى بدأت بأساطيل قوية وكبيرة بقيادة سليمان الخادم «وبيري بك»، وكبدت البرتغاليين خسائر كبيرة[132]، ولكنها لم تستمر أو تتطور بل العكس تراجعت وأصبحت الحملات العثمانية البحرية بعد «بيري بك» ضعيفة غير مؤثرة بل وأضعف من سابقاتها، فالحملة الأولى على يد سليمان الخادم ضمت أكثر من ثلاثين سفينة ثم خمسة وعشرين سفينة بقيادة بيري بيك ثم أصبحت خمسة عشرة في حملة مراد بيك، وأخيرا حملة علي بيك على مسقط عام 1581 كانت مؤلفة من ثلاثة سفن فقط، في حين كانت سفن الأسطول البرتغالي لا تقل عن ثلاثين سفينة ذات الأحجام الكبيرة والتسلح الجيد.

كف العثمانيون بعد حملة «بيري بك» عن إرسال حملات بحرية كبيرة، ولجأوا إلى الهجمات الخاطفة البحرية غير المستديمة وإلى الحملات البرية غير الجدية مما أدى ذلك إلى نمو القوة البحرية البرتغالية في المياة الجنوبية وفي تصاعد مستمر خلال الصراع ضد وقف المحاولات العثمانية لإنهاء الوجود البرتغالي في المنطقة[133]. ولم يكن في مقدور العثمانيين أن يرسلوا حملات بحرية أخرى إلى الخليج العربي لإنهاء الوجود البرتغالي، لأن السلاح البحري العثماني كان قد توقف عن النمو منذ منتصف القرن السادس عشر تقريبا، وأصبح النشاط البحري

للدولة العثمانية محدودا فى نطاق ضيق لا يتعدى سواحل اليمن والمناطق المجاورة للمدخل الجنوبى للبحر الأحمر، وكان هدف الدولة العثمانية هو غلق البحر الأحمر فى وجه الأسطول البرتغالى[134]. أما بالنسبة للمؤرخين المسلمين المعاصرين ومن بينهم العثمانيين فيشيرون بوجهة نظرهم حول الصراع العثمانى البرتغالى بأن الدولة العثمانية فى القرن السادس عشر كانت قوية استطاعت المحافظة على العالم الإسلامى وطرق الحج والمدن المقدسة كما حمت الحدود الإسلامية من هجمات البرتغاليين والاستعمار الإرهابى المسيحى الأوربى بواسطة سفنها الساحلية من نوع «الغاليون»[135]. وفيما يلى سوف نورد بعض الآراء للمؤرخين العرب فى هذا الشأن فيقول د. جلال يحيى[136]:

كانت الدولة العثمانية منذ أن تولى السلطان القانونى أمور السلطنة قد ورث منها مشكلات الأقاليم التى كان والده السلطان سليم قد فتحها، ومع السيطرة على الشام ومصر ورثت الدولة العثمانية مشكلات التجارة العالمية بين الشرق والغرب ومشكلات تجارة التوابل والبهارات، ووصول البرتغاليين إلى مياة الهند، وكان على السلطان سليمان القانونى أن يواجه الموقف ويواجه غزو البرتغاليين الذين كانوا قد التفوا حول العالم الإسلامى من الجنوب ووصلوا إلى المحيط الهندى ثم أخذوا يهددون بالتدخل فى الخليج العربى والتدخل كذلك فى البحر الأحمر من الهجوم والضغط من الخلف فى المشرق الإسلامى ولأول مرة فى تاريخ المنطقة.

أما الدكتور صلاح العقاد فيقول[137]:

حاولت الدولة العثمانية الدفاع عن العالم الإسلامى فى هذه الأرجاء وكان لدى الباب العالى الرغبة لتحقيق هذا الدور لابعاد الغزو البرتغالى من الخليج العربى على نسق الدور الذى لعبته الدولة العثمانية فى وجه الغزو الاسبانى لحوض البحر المتوسط، وفى هذه الفترة يبدو أن شواطئ الخليج العربى كانت خلوا من أى تنظيم سياسى يشبه الدولة ما عدا عمان، فقد كانت منذ عهد بعيد أكثر ازدحاما بالسكان وأقرب إلى المجتمعات الحضرية، وساعد على هذا التنظيم النسبى وجود المذهب الاباضى الذى اشتهر بنظام الإمامة على أساس البيعة لا التوارث.

أما المؤرخ والسياسى محمد عدنان مراد فيقول[138]:

«لم تكن محاولات العثمانيين للدفاع عن المنطقة جدية مستمرة لكى تعطى النتائج الإيجابية بسبب بعد المنطقة عنهم وانشغالهم بحروب داخل القارة الأوربية، وعدم تفكيرهم بالامتداد فى بلاد لا تقدم لهم الجزية. والواقع أن الاستراتيجية العثمانية، إن صح أن يقال عنها استراتيجية، كانت قصيرة النظر، فكان الأولى للعثمانيين عوضا عن التوجه إلى أوربا واستنفاذ قوتهم فى بلاد تفوقهم حضارة وذات تاريخ قتالى عريق، التوجه نحو الشرق وأفريقيا واعادة الامبراطورية الإسلامية إلى وحدتها والامتداد فى أفريقية وكان بالامكان جعلها فى ذلك الوقت جميعها مسلمة».

ثانيا: من الناحية الاقتصادية:

رغم السيطرة البرتغالية على المياه الشرقية فإن سيطرة العثمانيين على البحر الأحمر قد مكنت السلطان سليمان القانونى من استعادة قسط كبير من التجارة الدولية القديمة عبر مصر والشام فى الوقت الذى كانت تعوز فيه للبرتغاليين القوة البحرية اللازمة لاحكام حصار الطرق القديمة[139].

حاول البرتغاليون فى منتصف القرن السادس عشر منع التجارة المتجهة إلى البصرة، ففى رسالة مؤرخة فى 24/ 11/ 1550 من قاضى هرمز إلى الملك البرتغالى يخبره فيها بأن نائب الملك بالهند منع جميع التجار مهما كانت جنسيتهم، أن يلتحقوا بالبصرة وهدد من فعل ذلك بالعقاب الشديد والأسر، كما جدد القبطان الحالى نفس العمل الذى أعلن حالة الحصار ضد البصرة ومقاطعتها تجاريا، ولكن هذه المقاطعة لم تعط نتائجها لاستمرار التجار فى الإقبال على البصرة من البحرين[140]. مع هذا الاحتكار الاقتصادى للبرتغاليين وما بذلوه من جهد فى هذا السبيل لقطع الطرق التجارية التى تربط الهند واندونيسيا بالخليج العربى والبحر الأحمر فإنهم لم ينجحوا، واستمرت الاقاليم العثمانية تتسلم التوابل والبهارات بصورة مباشرة من الهند واندونيسيا أثناء القرن السادس عشر رغم وجود بعض النقص فى كمية البهارات أحيانا، ولكنها لم تنقطع واستمرت عمليات تبادل البضائع الهندية مع التجار الأوربيين فى أسواق حلب والقاهرة

والآستانة وبورصة، وكمثال على استمرار التبادل التجارى مع الشرق الإسلامى نجد فى عام 1554، اشترى البندقيون وحدهم ستة آلاف قنطار (القنطار يساوى 100 كجم) من البهارات فى الاسكندرية، ولو نظرنا إلى مشتريات البندقيين السنوية والبالغة 12 ألف قنطار فى الفترة من 1560 ـ 1564، نجدها هى نفس الكمية تقريبا التى كانوا يشترونها قبل تغير الطريق التجارى من قبل البرتغاليين[141].

بدأت الحركة التجارية السابقة تعود من جديد إلى الظهور عبر البحر الأحمر والخليج العربى، وأصبحت الأسواق فى مصر والشام مزدهرة من جديد حتى إن الاسكندرية حصلت عام 1564 تقريبا على شحنات من الفلفل تساوى أو ربما تزيد على حجم تلك الشحنات التى كانت تصل من هذه السلعة إلى «لشبونة» عاصمة البرتغال نفسها[142]، كما استمرت البضائع تصل إلى ميناء «جدة» فى كل عام بحوالى عشرين سفينة محملة بالبضائع الهندية والإندونيسية، وكان الحجاج العائدون إلى الأقاليم العثمانية يحملون معهم تلك البضائع من البهارات والأنسجة والأصباغ الهندية، وفى عام 1562 ارتفعت قيمة الضرائب الجمركية فى دمشق على البهارات القادمة مع قوافل الحجاج إلى عشرة آلاف دوقية ذهبية (دوقية تساوى حوالى دولارين و 25 سنتا) بينما استمر وصول البضائع الشرقية عبر الخليج العربى فى نفس الوقت، ويقول أحد الرحالة البريطانيين «ج. الديريد» الذى زار البصرة عام 1583 بقوله ما يلى[143]:

«تصل شهريا إلى ميناء البصرة سفن مختلفة من «هرمز» محملة بجميع أنواع البضائع الهندية كالتوابل والأدوية وصبغة النيلة والمنسوجات».

يقول المؤرخ عبدالقادر عبدالله العيدروس الذى عاصر تلك الفترة من القرن السادس عشر وذكر فى كتابه «النور السافر» بأن التجارة كانت عامرة ومزدهرة فى «سوارت» التى هى من أهم موانئ مملكة كجرات الإسلامية فى الهند وكانت تجارتها مستمرة مع مصر والمدن العربية الأخرى حيث يقول[144]:

«بأن «سوارت» فى أيامه السعيدة كانت طافحة بالمشايخ .. مملوءة بأعيان التجار .. وكانت عامرة أشد العمارة يجلب إليها سائر البضائع والنفائس للتجارة وكان يسافر فيها عدد من المراكب والسفن إلى سائر النواحى كمصر وغيرها من المدن».

ازدهرت مدينة حلب التى كانت فى تلك الفترة من أهم مراكز القوافل التجارية التى تأتى من العراق وفارس، وأصبحت أسواق مصر والشام من أكبر أسواق العطارة والحرير فى شرق البحر المتوسط، وكان التوازن دقيقًا بين الحركة التجارية القديمة والحالية ولو أن التوازن كان يميل فى نهاية الأمر وبطريقة لا رجعة فيها فى صالح الطريق الجديد[145] حول رأس الرجاء الصالح ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد نهاية النفوذ البرتغالى فى القرن السابع عشر.

أسباب إخفاق العثمانيين فى إبعاد البرتغاليين من الخليج العربى:

نتناول بعض الأسباب التى أدت إلى فشل المحاولات العثمانية فى ابعاد البرتغاليين من المياه العربية. ومن هذه الأسباب ما يلى:

أولا: طبيعة الحملات البحرية:

ترجع طبيعة الحملات البحرية بالتأكيد إلى طبيعة الحروب الصليبية التى دفعت بالشرق إلى التفوق البرى وبالغرب الأوربى إلى التفوق البحرى، وكان اعتماد الحملات الصليبية الأوربية إلى الشرق على السفن مما زاد مران الملاحين الأوربيين الذين عرفوا أساليب اعداد الأساطيل والحملات البحرية الطويلة التى تحملهم لمسافات كبيرة، وكان اعتمادهم الرئيسى على الأساطيل فى مهاجمة موانئ المسلمين فى المشرق، وقلة ما نجد حملة صليبية لا يرافقها أسطول «جنوى» أو «بندقى» ويساهم فى الحروب والغنائم[146]. وهذا ما جعل الغرب المسيحى الأوربى يكسبون خبرة واسعة فى أساليب الحرب البحرية، وعندما خفت الملاحة فى الشرق وقلت سفنه وأغلقت ثغوره، وعرف الغرب موضع الضعف فى الشرق الإسلامى فى هذه الناحية، فصار يهاجمه من البحار ويحصره فى المياه إذا أراد أن يصيب منه مغنما لا يصيبه فى البر، ونجد أوربا كلها تخاف من اجتياح العثمانيين الذين يغزون قلب أوربا حتى يحاصرون أسوار «فينا»، فلا يجد الأوربيون سبيلا لردهم إلا إجبار الدولة العثمانية بالدخول فى حرب بحرية تتجلى عن هزيمة للأسطول العثمانى فى معركة «ليبانتو» عام 1571 فى عهد سليمان القانونى، أى فى أوج التفوق الإسلامى البرى[147].

ثانيا: السفن الحربية:

خاض العثمانيون حربا محيطية غير تلك الحروب البحرية التى تعودت عليها أساطيلهم فى البحر المتوسط أو فى البحر الأسود[148]. وبذلت الدولة العثمانية مجهودات كبيرة فى البحر الأحمر والخليج العربى من أجل الاحتفاظ بأسطول قوى يمكنه مقاومة البرتغاليين، وهذا كان يتطلب من العثمانيين القيام بنفقات كبيرة فى الرجال والمعدات، وكان عليهم احضار المخزونات والمعدات والمدافع والأخشاب عبر البر إلى السويس أو إلى مواقع أخرى عبر أنهار العراق حتى البصرة، وأن طريقة صناعة السفن من الانشاءات والبناء المستخدمة فى البحر المتوسط لا تصلح فى المياه العربية القريبة من المياه العميقة فى المحيط الهندى، ولذلك فإن الأمر كان يتطلب العثور على فنيين وبحارة وبالمهارة والكفاءة العالية من أجل بناء وتسيير السفن من هذا الطراز المعدل لمجاراة السفن البرتغالية ذات التقنية العالية، ورغم تلك الصعوبات فإنهم واجهوا صعوبات أخرى مثل قلة الموانئ الصالحة فى الخليج العربى والبحر الأحمر، ومع ذلك فإن العثمانيين تمكنوا من الوصول إلى حد كبير من النجاح، وحتى نهاية النصف الثانى من القرن السادس عشر لم يكن البرتغاليون على درجة من القوة تسمح لهم بالحصول على التفوق الكامل ليس فقط فى الخليج العربى وإنما فى المحيط الهندى[149].

رغم التجهيزات الفلكية المتقدمة للسفن العثمانية، إلا أن التفوق كان واضحا فى الصناعة البحرية وأن صناعة السفن البرتغالية كانت فى تطوير مستمر فاق تطور صناعة السفن العثمانية خاصة السفن المعروفة باسم «كرافيل» التى جهزت فيما بعد بالمدافع وكثافة النيران وازدادت سرعتها بعد تجهيزها بالأشرعة المثلثية التى أخذوها من السفن العربية واستطاعت الإبحار فى البحار العالية وفى المحيط[150]. وأن طبيعة بناء الأسطول البرتغالى كانت هى الأنسب لمعارك فيما وراء البحار، كما كانت قدرات الأسطول البرتغالي البقاء بصفة مستمرة ما وراء البحار بعيدا عن بلادهم برتغال، كانت لا تبارى من جانب الأسطول العثمانى[151]. فى حين كان الأسطول العثمانى مؤلفا من سفن صغيرة من نوع «غاليون» غير قادر على التأثير الفعال ضد السفن المحيطية الكبيرة، وخاصة فى عرض البحار، وقد أشار «السير

توماس شيرلى» عام 1607 على سبيل المثال[152]. «إن سفينة حربية بريطانية واحدة باستطاعتها نحر عشرين سفينة عثمانية صغيرة (غاليون)».

ثالثا: الإمدادات والتجهيزات:

ما يسترعى انتباه المؤرخين هو سرعة تجهيز الحملات البرتغالية وإدامة المعركة، فلم تكد يخرج أسطول إلى بحار الشرق إلا ويلحق به أسطول آخر بكامل تجهيزاته وعتاده، وكان التنسيق تاما بين تلك الأساطيل والتوقيت دقيقًا، ولهذا فإن البرتغاليين لم يكونوا يستسلمون فى حصار ما، ويدافعون أطول مدة ممكنة وهم يعلمون بأن النجدة سوف تصلهم منذ خروجهم من البرتغال ويعرفون عددها ومن هم قادتها، مما كان عاملا مهما فى رفع معنوياتهم القتالية ويجعلهم يصبرون على الحصار ويدافعون الدفاع المستميت بأمل وصول النجدات، إضافة إلى توفير القيادات المدربة والعناصر الشابة خاصة من طبقة النبلاء الذين كانوا يفضلون القيام بالمغامرات البحرية البعيدة عوضا عن البقاء تحت ظلم الملك[153]. فى الوقت الذى كانت قطع الأسطول البرتغالى تتوافد على المحيط الهندى عن طريق رأس الرجاء الصالح الطويل، كان العثمانيون يبنون اسطولا لكل حملة فى السويس الأقرب إلى ذلك المحيط[154]، يضاف إلى ذلك صعوبة تجهيز وادامة الأسطول العثمانى لكى تكفى قواته لمواجهة الأساطيل الأوربية فى البحر المتوسط والمحيط الهندى فى وقت واحد، إضافة إلى انشغال العثمانيين فى نفس الفترة بالحروب البرية الطويلة ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة وضد الإمبراطورية الفارسية الصفوية[155]. ومن الواضح أن العثمانيين تداركوا دلالات الثورة المحيطية منذ تولى السلطان سليم الأول، وفى عهد خلفه السلطان سليمان القانونى وجدوا أنفسهم وقد دخلوا فى صراع عالمى مع القوة الألمانية ـ الأيبيرية التى سيطرت على أواسط أوربا وغربها، وبدأت تنعم بموارد الطرق المحيطية الجديدة والمستعمرات[156].

رابعا: اختلاف مفهوم الدفاع:

اختلف مفهوم الدفاع والقتال بين الجانبين، ففى الوقت الذى كان البرتغاليون يعتبرون الدفاع عن مراكزهم فى الخليج العربى كدفاع عن ذاتهم ويعتبرونها أحد أهم المراكز الرئيسية أو ربما كان أكبر مركز لهم فى المحيط الهندى، ولذا فإن

دفاعهم يختلف اختلافا كليا من ناحية الحماس والتصميم إذا ما تركنا الجانب الدينى والتعصب الصليبى، بينما كان دفاع العثمانيين الذين يعتبرون المنطقة طرفا بعيدا من أطراف دولتهم فى قتالهم على قواد غرباء عن المنطقة وجنود متطوعين لم يكن هدفهم سوى جمع الغنائم(157).

خامسا: عدم مشاركة عرب المنطقة:

هناك عدة آراء حول مشاركة أو عدم مشاركة القوة العربية المحلية وتعاونها مع الدولة العثمانية، ومن الآراء التى تقول إن القوة العربية كان موقفها سلبيًا ولم تتعاون مع الحملات العثمانية، يقول د. عبدالعزيز نوار(158).

«إن هذا الضعف فى المياه الجنوبية الإسلامية يرجع فى الواقع إلى أن قوى اليمن والخليج العربى والهند لم تكن على استعداد لتعاون كامل منسق مع الحملات العثمانية، فضلا عن أن معظم تلك القوى وضعت مصالحها الخاصة فوق المصالح العامة».

يقول أحمد عبدالرحيم مصطفى(159):

«كان رد زعماء القبائل العربية فى منطقة الخليج العربى على التوسع العثمانى هو التعاون مع البرتغاليين الذين بنوا قلعة فى كل من مسقط وهرمز وزودوها بالحاميات ثم نزلوا فى القطيف بهدف عرقلة تحويل البصرة إلى قاعدة بحرية عثمانية».

يعلل د. محمود الداود على عدم تعاون أبناء المنطقة بقوله(160).

«إن أهالى مسقط وهرمز من المسلمين لم يتعاونوا مع العثمانيين رغم أنهم كانوا حماة العالم الإسلامى واعتبروهم محتلين جددا، لا يقلون طمعا عن البرتغاليين الذين حرموا العرب من مصدر ثروتهم وهى التجارة».

ويقول «تشارلز بلغريف» الضابط البريطانى بأن أبناء المنطقة تعاونوا مع العثمانيين حيث يقول(161):

«إن العرب كانوا ينظرون إلى البرتغاليين بأنهم كفار ولا يجوز التعاون معهم وانضموا إلى العثمانيين المسلمين» فى حين يقول محمد عدنان مراد بأن العثمانيين لم يقدموا المساعدة اللازمة لأبناء المنطقة أو يمدوهم بالسلاح حيث يقول(162):

«ولم يحاولوا الاعتماد على السكان المحليين أو يمدوهم بالمال والسلاح وكان باستطاعة هؤلاء لوحدهم اخراج البرتغاليين ولكن العثمانيين كانوا يخافون من تسليح السكان أكثر من خوفهم من الاحتلال البرتغالى».

أما د. صلاح العقاد فيقول بأن البحارة العثمانيين لم يحاولوا اقامة حكم مستقر بعد طرد البرتغاليين من مراكزهم وأن العرب فيما بعد استطاعوا طرد البرتغاليين من الخليج العربى حيث يقول(163):

«ولكن مثل هؤلاء البحارة لا يكلفون أنفسهم عناء الحكم المستقر. وهكذا قيض للدول والشعوب التى هى أكثر التصاقا بمنطقة الخليج أن تقوم بمهمة تحرير بلادها من الغزو البرتغالى. وقد بدأت بذلك الدولة الصفوية ثم تبعها عرب عمان مع ملاحظة أن الفرس استعانوا بالانجليز وبالقبائل العربية النازلة على الشاطئ الشرقى، بينما اعتمد العرب على أنفسهم فى النضال ضد الغزاة».

الخلاصة:

يتضح من خلال تلك الدراسة أن الدولة العثمانية وخاصة السلطان سليمان القانونى كان قد بذل جهدا كبيرا فى ابعاد النفوذ الإرهابى المسيحى البرتغالى من مياه الخليج العربى عن طريق أسطوله، الذى كان دائما محل رعايته واهتمامه رغم اخفاقه، ومع ذلك لا يمكننا أن نحمل هذا الاخفاق للاسطول العثمانى أو السلطان سليمان القانونى، ولكن للظروف الدولية وخاصة مجابهة الدولة العثمانية بمفردها للقوة الأوربية فى جبهات القتال فى قلب أوربا نفسها والانتصارات التى حققتها على تلك القوة الأوربية التى فتحت جبهة جديدة بالمواجهة البحرية وخاصة فى الشرق الإسلامى، ولعلمها بأن القوة العثمانية قوة برية أكثر منها بحرية، والتفوق البحرى الأوربى كان واضحا منذ الحملات الصليبية وحتى عصر الاكتشافات البحرية. ومع ذلك فإن الدولة العثمانية بذلت أقصى جهدها لمجابهة الإرهاب المسيحى البرتغالى فى المنطقة، ورغم اخفاقها فى اخراج البرتغاليين من الخليج العربى، إلا أن الدولة العثمانية استطاعت أن تحافظ على الوطن العربى والعالم الاسلامى وخاصة الديار المقدسة فى الحجار وفلسطين من عبث الإرهاب المسيحى الأوربى، وهذا فى حد ذاته يعتبر فى نظرنا انتصارا كبيرا للدولة العثمانية. كما لا ننسى أنها كانت مشغولة دائما فى جبهات القتال فى أوربا التى كانت تسمى «دار حرب».

الهوامش:

(1) Sidney Nettleton Fisher - The Middle Easr P. 191.

(2) د. عبدالعزيز محمد الشناوى ـ بحوث مؤتمر شرق الجزيرة، ص 687.

(3) د. صلاح العقاد ـ التيارات السياسية فى الخليج العربى جـ2.

(4) أرنولد. ت: ويلسون ـ تاريخ الخليج ص83.

(5) د. صلاح العقاد ـ المرجع السابق ص5.

(6) عائشة السيار ـ دولة اليعاربة ص 285.

(7) د. جمال زكريا قاسم ـ الخليج العربى فى عصر التوسع الأوروبى الأول ص85.

(8) د. مصطفى عبدالقادر النجار ـ مجلة دراسات تاريخية ص98.

(9) د. مصطفى عبدالقادر النجار ـ نفس المرجع ص98.

(10) مصطفى خطيب عقيل ـ التنافس الدولى فى الخليج العربى ص33.

(11) د. صلاح العقاد ـ المرجع السابق ص20.

(12) د. عبدالعزيز محمد الشناوى ـ المرجع السابق ص683.

(13) مصطفى خطيب عقيل ـ المرجع السابق ص33.

(14) د. عبدالعزيز سليمان نوار ـ الشعوب الإسلامية ص142.

(15) ج . ج . لوريمر ـ دليل الخليج جـ1 ص 16.

(16) د. جمال زكريا قسام ـ المرجع السابق ص86.

(17) مجلة الوثيقة ـ مقالة عن البحرين ص116.

(18) د. عبدالأمير محمد أمين ـ المصالح البريطانية فى الخليج العربى ص 133.

(19) ج . ج . لوريمر ـ المرجع السابق ص17.

(20) محمد عدنان مراد ـ صراع القوى ص 141.

(21) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص86.

(22) د. عبدالعزيز الشناوى ـ المرجع السابق ص683.

(23) د. عبدالعزيز الشناوى ـ نفس المرجع ص 684.

(24) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص86.

(25) د. جمال زكريا ـ نفس المرجع ص87.

(26) مصطفى عقيل خطيب ـ المرجع السابق ص 38.

(27) مجلة الوثيقة ـ المرجع السابق ص141.

(28) مصطفى عقيل خطيب ـ المرجع السابق ص75.

(29) د. عبدالعزيز نوار ـ المرجع السابق ص143.

(30) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص78.

(31) د. عبدالعزيز الشناوى ـ المرجع السابق ص684.

(32) مجلة الوثيقة ـ المرجع السابق ص141.

(33) د. عبدالعزيز نوار ـ المرجع السابق ص143.

(34) أحمد عبدالرحيم ـ فى أصول التاريخ العثمانى ص98.

(35) مجلة الوثيقة ـ المرجع السابق ص 141.

(36) فالح حنظل ـ المفصل فى تاريخ الإمارات العربية المتحدة ص49.

(37) د. عبدالوهاب القيسى ـ مجلة الخليج العربى لعام 1980 عدد (6) ص49.

(38) أحمد عبدالرحيم ـ المرجع السابق ص98.

(39) د. عبدالوهاب القيسى ـ المرجع السابق ص49.

(40) HADRAMI CHRONICLES - BY R . B . Serjeant. P. 109.

(41) HADRAMI CHRONICLES - Ibid P. 109.

(42) مصطفى عقيل خطيب ـ المرجع السابق ص34.

(43) أرنولد ويلسون ـ المرجع السابق ص83.

(44) مصطفى عقيل خطيب ـ المرجع السابق ص35.

(45) مجلة الوثيقة ـ المرجع السابق ص141.

(46) مصطفى عقيل خطيب ـ المرجع السابق ص35.

(47) Sir Charles Belgrave: - The Pirate Coast P. 8.

(48) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص82.

(49) أرنولد ويلسون ـ المرجع السابق ص83.

(50) مصطفى عقيل خطيب ـ المرجع السابق ص35.

(51) أرنولد ويلسون ـ المرجع السابق ص84.

(52) مصطفى عقيل خطيب ـ المرجع السابق ص36.

(53) أرنولد ويلسون ـ المرجع السابق ص84.

(54) مصطفى عقيل خطيب ـ المرجع السابق ص36.

(55) د. عبدالوهاب القيسى ـ المرجع السابق ص49.

(56) مجلة الوثيقة ـ المرجع السابق ص142.

(57) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص87.

(58) فالح حنظل ـ المرجع السابق ص87.

(59) د. عبدالعزيز نوار ـ المرجع السابق ص143.

(60) د. عبدالعزيز الشناوى ـ المرجع السابق ص687.

(61) د. عبدالعزيز نوار ـ المرجع السابق ص143.

(62) Sir Charles Belgrave - O. P. ict P. 8.

(63) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص88.

(64) د. جمال زكريا ـ نفس المرجع ص88.

(65) د. عبدالعزيز الشناوى ـ المرجع السابق ص684.

(66) مصطفى عقيل خطيب ـ المرجع السابق ص35.

(67) د. عبدالوهاب القيسى ـ المرجع السابق ص 49.

(68) د. عبدالعزيز نوار ـ المرجع السابق ص143.

(69) د. بدر خصوصى ـ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربى ـ العدد 44 ص 149.

(70) د. عبدالعزيز الشناوى ـ المرجع السابق ص685.

(71) د. طارق الحمدانى ـ مركز دراسات الخليج العربى، جامعة البصرة ـ دراسات فى تاريخ الخليج العربى ص33.

(72) د. بدر الخصوصى ـ دراسات فى الخليج العربى ص26.

(73) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص89.

(74) د. عبدالعزيز نوار ـ المرجع السابق ص143.

(75) د. طارق الحمدانى ـ المرجع السابق ص194.

(76) مجلة الوثيقة ـ المرجع السابق ص142.

(77) د. عبدالوهاب القيسى ـ المرجع السابق ص49.

(78) أحمد عبدالرحيم ـ المرجع السابق ص99.

(79) أحمد عبدالرحيم ـ المرجع السابق ص99.

(80) مجلة الوثيقة ـ المرجع السابق ص142.

(81) د. بدر الدين عباس الخصوصى ـ المرجع السابق ص76.

(82) مصطفى عقيل خطيب ـ المرجع السابق ص38.

(83) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص79.

(84) د. بدر الدين عباس الخصوصى ـ المرجع السابق ص26.

(85) مصطفى عقيل الخطيب ـ المرجع السابق ص38.

(86) د. جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق 89.

(87) نونو ـ بى ـ سلفا ـ مجلة الوثيقة عام 1986، العدد (8) ـ ص 129.

(88) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص89.

(89) د. عبدالعزيز الشناوى ـ المرجع السابق ص 686.

(90) د. عبدالعزيز الشناوى ـ نفس المرجع ص 696.

(91) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص89.

(92) مصطفى عقيل الخطيب ـ المرجع السابق ص38.

(93) مجلة الوثيقة ـ المرجع السابق ـ وانظر مرآة الممالك ص37 و ص 38 الطبعة التركية، إسطنبول 1313هـ.

(94) مجلة الوثيقة ـ المرجع السابق ص143.

(95) د. جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص89.

(96) نونو ـ بى ـ سلفا ـ المرجع السابق ص139.

(97) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق 89.

(98) نونو ـ بى ـ سلفا ـ المرجع السابق ص129.

(99) مجلة الوثيقة ـ المرجع السابق ص146.

(100) نونو ـ بى ـ سلفا ـ المرجع السابق ص130.

(101) مصطفى عقيل الخطيب ـ المرجع السابق ص38.

(102) نونو ـ بى ـ سلفا ـ المرجع السابق ص 130.

(103) مجلة الوثيقة ـ المرجع السابق ص 149.

(104) د. عبدالعزيز نوار ـ المرجع السابق ص143.

(105) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص89.

(106) محمد عدنان مراد ـ المرجع السابق ص141.

(107) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص90.

(108) د. طارق الحمدانى ـ المرجع السابق ص 198.

(109) د. طارق الحمدانى ـ نفس المرجع ص 198.

(110) د. أحمد بوشرب ـ مجلة الخليج العربى ـ عام 1984، العدد (1) ص 38.

(111) د. عبدالعزيز نوار ـ المرجع السابق ص 143.

(112) Sir Charles Belgrve - OP. Cit. P. 8.

(113) مصطفى عقيل الخطيب ـ المرجع السابق ص39.

(114) د. صلاح العقاد ـ المرجع السابق ص21.

(115) عائشة السيار ـ المرجع السابق ص21.

(116) مصطفى عقيل الخطيب ـ المرجع السابق ص39.

(117) مصطفى عقيل الخطيب ـ نفس المرجع ص39.

(118) أرنولد ويلسون ـ المرجع السابق ص85.

(119) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص91.

(120) د. جمال زكريا ـ نفس المرجع ص91.

(121) د. جمال زكريا ـ نفس المرجع ص91.

(122) محمد عدنان مراد ـ المرجع السابق ص142.

(123) محمد عدنان مراد ـ نفس المرجع ص 142.

(124) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص92.

(125) محمد عدنان مراد ـ المرجع السابق ص142.

(126) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص 92.

(127) محمد عدنان مراد ـ المرجع السابق ص144.

(128) د. طارق الحمدانى ـ المرجع السابق ص194.

(129) د. جمال زكريا ـ المرجع السابق ص92.

(130) د. عبدالوهاب القيسى ـ المرجع السابق ص50.

(131) د. عبدالوهاب القيسى ـ نفس المرجع ص50.

(132) د. عبدالعزيز نوار ـ المرجع السابق ص144.

(133) د. عبدالعزيز نوار ـ نفس المرجع ص144.

(134) د. عبدالعزيز الشناوى ـ المرجع السابق ص 687.

(135) د. عبدالوهاب القيسى ـ المرجع السابق ص50.

(136) د. جلال يحيى ـ العالم الإسلامى الحديث والمعاصر ص197.

(137) د. صلاح العقاد ـ المرجع السابق ص13.

(138) محمد عدنان مراد ـ المرجع السابق ص144.

(139) أحمد عبدالرحيم مصطفى ـ المرجع السابق ص 99.

(140) د. أحمد بوشرب ـ المرجع السابق ص38.

(141) د. عبدالوهاب القيسى ـ المرجع السابق ص 50.

(142) د. جلال يحيى ـ المرجع السابق ص 405.

(143) د. عبدالوهاب القيسى ـ المرجع السابق ص 50.

(144) عبدالقادر بن عبدالله العيدروس ـ النور السافر ص 272.

(145) د. جلال يحيى ـ المرجع السابق ص 405.

(146) حسين مؤنس ـ الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ص43.

(147) حسين مؤنس ـ نفس المرجع ص43.

(148) د. عبدالعزيز نوار ـ المرجع السابق ص 144.

(149) د. جلال يحيى ـ المرجع السابق ص 405.

(150) محمد عدنان مراد ـ المرجع السابق ص133.

(151) د. عبدالعزيز نوار ـ المرجع السابق ص 145.

(152) د. عبدالوهاب القيسى ـ المرجع السابق ص49.

(153) محمد عدنان مراد ـ المرجع السابق ص 134.

(154) د. عبدالعزيز نوار ـ المرجع السابق ص145.

(155) د. عبدالوهاب القيسى ـ المرجع السابق ص49.

(156) أحمد عبدالرحيم مصطفى ـ المرجع السابق ص99.

(157) محمد عدنان مراد ـ المرجع السابق ص142.

(158) د. عبدالعزيز نوار ـ المرجع السابق ص 124.

(159) أحمد عبدالرحيم مصطفى ـ المرجع السابق ص 99.

(160) مصطفى عقيل الخطيب ـ المرجع السابق ص 36.

(161) مصطفى عقيل الخطيب ـ نفس المرجع ص 36.

(162) محمد عدنان مراد ـ المرجع السابق ص142.

(163) د. صلاح العقاد ـ المرجع السابق ص21.

المراجع:

أولا : المراجع العربية:

1 ـ أحمد عبدالرحيم مصطفى ـ فى أصول التاريخ العثمانى ـ دار الشروق ـ بيروت ـ 1982 .

2 ـ أرنولد . ت. ويلسون ـ تاريخ الخليج ـ وزارة التراث القومى والثقافة ـ مسقط 1981 .

3 ـ أمين سعيد ـ الخليج العربى ـ دار الكاتب المصرى ـ بيروت ـ تاريخ الطبع غير مكتوب.

4 ـ بدر الدين عباس الخصوصى ـ دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر ـ ذات السلاسل ـ الكويت ـ 1984 .

5 ـ ج.ج. لوريمر ـ دليل الخليج ـ ترجمة وطباعة مكتب أمير دولة قطر ـ الطبعة الثانية ـ التاريخ غير معروف .

6 ـ جلال يحيى (دكتور) ـ العالم الإسلامى الحديث والمعاصر ـ المكتب الجامعى الحديث ـ الإسكندرية 1982 .

7 ـ جمال زكريا (دكتور) ـ الخليج العربى دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الأول دار الفكر العربى ـ القاهرة 1985 .

8 ـ حسين مؤنس ـ الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ـ مطبعة حجارى ـ القاهرة 1938 .

9 ـ صلاح العقاد (دكتور) ـ التيارات السياسية فى الخليج العربى ـ مكتبة الانجلوا ـ مصرية ـ القاهرة 1974 .

10 ـ عبدالأمير محمد أمين (دكتور) ـ المصالح البريطانية فى الخليج العربى ـ مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة ـ بغداد 1977 .

11 ـ عبدالعزيز نوار (دكتور) ـ الشعوب الإسلامية ـ دار النهضة العربية ـ بيروت 1973 .

12 ـ عبدالقادر عبدالله العيدروس ـ النور السافر ـ عام 1012 هجرية .

13 ـ عائشة السيار ـ دولة اليعاربة ـ وزارة الإعلام والثقافة بدولة الإمارات العربية المتحدة ـ بيروت 1975 .

14 ـ فالح حنظل ـ المفصل فى تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة ـ لجنة التراث والتاريخ ـ أبو ظبى 1985 .

15 ـ لجنة تدوين تاريخ قطر ـ البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ـ الدوحة 1976 .

16 ـ محمد عدنان مراد ـ صراع القوى فى المحيط الهندى والخليج العربى ـ دار دمشق 1984 .

17 ـ مصطفى عقيل الخطيب ـ التنافس الدولى فى الخليج العربى ـ دار دمشق 1984 .

18 ـ مركـز دراسات الخلـيج العربى بجـامعـة البصـرة ـ دراسات عن تاريخ الخليج العـربى والجزيرة العربية ـ البصرة 1985.

ثانيا : المراجع الأجنبية:

(1) HADRAMI CHRONICIES BY R.B Serjeunt - The Portuguess In the South Arabian Coast - Librairie De Liban - Beirut 1974.

(2) Charles Belgrave (Sir) - The Pirate Coast - Librarie De Liban - Beirut - 1972.

(3) Sidney Nettleton Fisher - The Middle East - third Edition - ALFRED - A - KNOPF. NEW YORK - 1979.

ثالثا: الدوريات:

1 ـ أحمد بوشرب (دكتور) ـ مجلة الخليج العربى ـ السنة 1984 ـ العدد (1)

2 ـ بدر الدين الخصـوصى (دكتـور) ـ مجلة دراسات الخليج والجـزيرة العربيـة ـ العدد (44) أكتوبر 1985.

3 ـ على عنام ـ مجلة الخليج العربى ـ السنة 1985 ـ العدد (2)

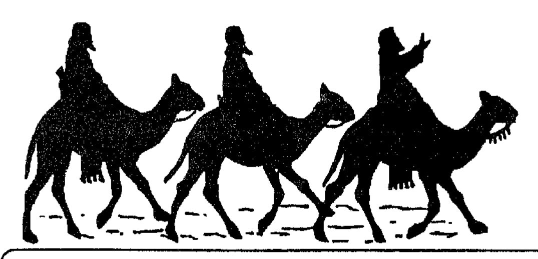
4 ـ عبدالوهاب القيسى ـ مجلة الخليج العربى ـ السنة 1980 ـ العدد (1)

5 ـ لجنة تحرير مجلة الوثيقة ـ السنة 1982 ـ العدد (1)

6 ـ مصطفى عبدالقادر لجار (دكتور) ـ مجلة دراسات تاريخية ـ السنة 1980 ـ العدد (3)

7 ـ نونو ـ بى ـ سلفا ـ مجلة الوثيقة ـ السنة 1986 ـ العدد (8)

الفصل الثانى



تنافس شركتى الهند الشرقية الهولندية والبريطانية فى بندر عباس فى النصف الأول من القرن السابع عشر

بندر عباس (1623 ـ 1645)

نشر هذا البحث فى مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد (80) لعام 1996 ـ الكويت.

مقدمة

حاولت أن اقتصر في هذه الدراسة على فارس وميناءها بندر عباس، وكان اختيارى لهذه الفترة بالذات أى عام (1623م) وهو العام التالى لطرد البرتغاليين وعام الامتيازات التجارية للهولنديين ومن قبلهم للبريطانيين، وبذلك يمثل البداية الحقيقية للوجود المسيحى الأوروبى فى الخليج العربى بعد الاستعمار المسيحى البرتغالى مرورا من البوابة الاقتصادية التجارية للوصول إلى البوابة السياسية والعسكرية. أما ختام الدراسة فكانت عام 1645 وهى فترة أوج التفوق التجارى الهولندى مع خروج البريطانيين من بندر عباس وإغلاق مقر شركتهم وبذلك خرجوا من المنافسة التجارية مع هولندا.

بدأت بالدوافع التى كانت وراء مجىء الهولنديين إلى المنطقة ومن ثم كيف بدأ هذا التنافس من ميناء بندر عباس الذى أصبح بوابة فارس على العالم الخارجى والنشاط الاقتصادى وبعدها ننتقل إلى الامتيازات الفارسية للهولنديين، والموقف البريطانى ثم الأساليب والطرق التى اتبعها الهولنديون فى منافسة البريطانيين وأخيرا نصل إلى نتائج هذا التنافس الذى أدى إلى تدهور التجارة البريطانية مع تفوق التجارة الهولندية وأسباب هذا التفوق.

دوافع التوجه الهولندى نحو بحار الشرق والخليج العربى:

نجحت الشورة البرجوازية فى المناطق الشـمالية من الأراضى المنخفـضة (أى هولندا) فى عام 1566 بطرد الإقطاع الإسبـانى، مما ساعدها فى تطور الرأسمـالية الزراعيـة، وبالتالى نجاحها فى التـجارة[1]، بنقل المنتـجات الشرقـية من إسبـانيا والبرتغال إلى ميناء «انتوريب»[2]، ومنها إلى مختلف مدن وموانئ أوروبا، وحققوا من وراء ذلك مكاسب كـبيـرة. مما أدى إلى الازدهار والانتعـاش الاقتـصادى فى أسواق هولندا، وظهـور الطبقة البـرجوازية التجارية مـع نمو الشركات الرأسمـالية الاحتكارية فى هولندا قبل غيرها من البلدان الأوروبية، مما جعلها أكثر هذه البلدان تطورا[3]، فى المجالين التجارى والصناعى، ولكن ما الذى دفعهم نحو الشرق؟ قد يكون هناك عدة دوافع سوف نتناول أهمها وهى:

أولا: مضايقات الإسبان للهولنديين:

استعمرت إسبانيا هولندا لفترة من الزمن ولكن جاء خروجها نتيجة لضغوط سياسـية أوربية وللمقـاومة الهولندية، مما نتج عنه عـداء تقليدى، فى الوقت الذى كان الاستياء الإسبانى يتزايد من نشـاط الهولنديين اللافت للنظر فى مـوانيهم. ورغم أن الإسبان والبـرتغال كانوا يجلبون مختلف السلع من الشـرق والغرب بعد عناء وجهـد كبير، إلا أن الهـولنديين كانوا يحقـقون أرباحا كـبيرة بجهـود بسيطة وذلك بنقل تلك المنتجات من موانئ إسبـانيا والبرتغال إلى الموانئ والمدن الأوربية. وهذا مـا دفع الإسبـان بعد ضـمهم للبـرتغال عـام 1580م إلى مضـايقة التـجار الهولنديين والتعـرض لسفنهم إلى درجة إغراقها وأسرها فى بـعض الأحيان لمنعهم من التعامل مع الموانئ الإسبانية البرتغالية[4].

ثانيا: رفع أسعار السلع التجارية من قبل البرتغال:

بدأت التجارة البرتغالية تتدهور بعد وقوعها تحت السيطرة الاسبانية وسياستها المعادية تجاه البرتغال ومستعمراتها، مما حدا بالتجار البرتغال إلى رفع أسعار سلعهم القادمـة من الشرق، وهذا بالتـالى أثر فى التجار الهـولنديين الذين كانوا يشـترون تلك السلع بأسعار عالية مما يعنى صعوبة تسويقها فى مدن وموانئ أوروبا، وبالتالى تأثيرها فى الأوضـاع الاقتصـادية. وهذا ما دفع الهولنديـين إلى التفكير فـعليا فى

ايجاد حل المشكلة التى يعانى منها نظام الاقتصاد الرأسمالى الناشئ، وكان البديل هو التوجه مباشرة نحو الشرق لتحقيق عدة أهداف، وذلك بعد التصدى للأسطول البرتغالى والإسبانى فى تلك الفترة، ولا سيما أن الأسطول الهولندى الناشئ كان قد حقق عدة انتصارات على الأسطول الإسبانى والبرتغالى وكسر الاحتكار الاستعمارى لاسبانيا والبرتغال مما مهد السبيل أمام السفن الأوروبية للتوجه نحو الشرق، وكان أهم أهداف الهولنديين من التوجه إلى الشرق ما يلى:

أولا: الحصول على السلع والمنتجات الشرقية بأسعار رخيصة وبكميات كبيرة دون أية ضغوط لتحقيق مزيد من الأرباح مقابل تكاليف قليلة خاصة إذا ما استعمروا أو سيطروا على المواد الخام الأولية واحتكروا مقدرات الشعوب والمصالح الاقتصادية، ومن هنا كانت بداية التفكير الاستعمارى الإرهابى لإيجاد مستعمرات فيما وراء البحار أسوة بجيرانهم الإسبان والبرتغال.

ثانيا: وهو مرتبط بالهدف الأول، وهو إيجاد أسواق لتجارتهم ومنتجاتهم، لأن النظام الرأسمالى الذى بدأ فى النمو، يحتاج إلى أسواق لتصريف المنتجات، وإلا فإنه يصاب بالركود، ولهذا كانت بداية إيجاد الأسواق والمستعمرات مع بداية قيام النظام الرأسمالى وما هو قائم حتى الآن.

فرغم استقلال كثير من دول العالم الثالث إلا أنها فى حقيقة الأمر مستعمرات اقتصادية وسياسية، ورهينة بالقروض والمعونات المتسلطة بالتبعية لهذا النظام الرأسمالى الذى يصعب استمراره بدون تلك السياسة.

لهذا كانت الرأسمالية تخلق القلاقل والمشكلات، وتغير أنظمة الحكم بشتى الأساليب والطرق سواء بانقلابات أو إثارة الشعوب تحت ستار إسقاط أنظمة الحكم الديكتاتورية وشعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان حتى تستمر فى نهب ثروات ومقدرات الشعوب وتمنع الأمن والاستقرار كما تمنع قيام التنمية الصناعية والتطور الاقتصادى والعسكرى.

وهذا يعود إلى أن نجاح أنظمة العالم الثالث فى التنمية والاستقلال من التبعية يعنى انهيار النظام الرأسمالى، وإن اختلفت الأساليب والطرق باختلاف التطور الحالى عن القرون الماضية، ولكن الأهداف الرأسمالية ما زالت قائمة منذ بداية القرن السابع عشر وحتى يومنا هذا هى نفسها لم تتغير.

التوجه نحو الشرق وإنشاء شركة الهند الشرقية الهولندية 1602:

بينما كانت البرتغال تحاول المحافظة على سرية الطريق إلى الهند، تمكن الهولندى «هوبن فان لينشوتن» "Hubhen Vanlinschoten" من إخفاء هدفه، وذلك بالانضمام إلى الرهبنة رغم اختلاف المذهب البروتستانتى الهولندى عن الكاثوليكى البرتغالى، واستطاع أن يصل إلى الهند عام 1583 برفقة أسقف «غوا» وعمل أمينا لأسرار كبير الأساقفة، كما جمع معلومات عن المتوجات ذات القيمة التجارية والمواصلات. وعندما عاد إلى هولندا عام 1592، قام بنشر هذه المعلومات، مما كان له أصداء واسعة لدى تجار البلاد الذين يعانون من الضائقة المالية والتجارية بسبب اضطهاد البرتغاليين لهم[5].

إثر انتشار هذه المعلومات قام تسعة من تجار هولندا عام 1594 بتأسيس شركة «الأراضى البعيدة»، وقاموا بإيفاد أسطول تحت قيادة «كورنيليس» "CORNELIS HOUTMUN" ، والذى شجع نجاحه إنشاء العديد من الشركات والمؤسسات التجارية فى هولندا التى رأت حكومتها ضرورة دمج مؤسساتها وشركاتها التجارية فى شركة احتكارية واحدة وكبيرة، وصدر مرسوم ملكى بتأسيس شركة «الهند الشرقية الهولندية» فى مارس عام 1602 مع امتياز لمدة عشرين عامًا، وبعد تأسيسها وجدت هذه الشركة نفسها أمام السوق الآسيوى الكبير[6]، وأصبحت لها فعاليتها فى مجال التجارة الدولية، وأداة للاستعمار الهولندي فيما وراء البحار، ودخلت فى صراع عنيف مع الإسبان والبرتغال فى الشرق.

استطاعت هولندا أن تحكم سيطرتها على جزر «ملايو» و«أرخبيل اندونيسيا» بعد عدة معارك حربية مع البرتغاليين، ففى عام 1607 وصل الهولنديون إلى الملايو وأندونيسيا، واحتلوا جزيرة «ملقا» وأسسوا مدينة «بتافيا» عام 1619 كما احتلوا جزيرة سيلان (سيرلانكا حاليا)[7].

بذلك ترسخت أولى الأطماع الاقتصادية للرأسمالية المسيحية الهولندية فى الشرق على الرغم من عدم ظهور سفنها فى الخليج العربى فى ذلك الوقت، ولكن بعد ذلك بوقت قليل توجهت إلى «اليمن» ثم إلى الخليج العربى. على الرغم من

كون شركة الهند الشرقية الهولندية شركة تجارية رأسمالية احتكارية، إلا أنها من الناحية الفعلية كانت دولة مسيحية إرهابية استعمارية كبيرة فى آسيا، إلى درجة أنها خرجت عن نطاق الشركات الرأسمالية الاحتكارية وبدأت تنشئ علاقات سياسية مع دول آسيا، وأحيانا تعقد أحلافا عسكرية وتمتلك الأساطيل الحربية، ولكنها تحولت فيما بعد عام 1800 إلى واقعها الحقيقى كحكومة إرهابية مسيحية استعمارية فى أندونيسيا(8).

التوجه الهولندى إلى السواحل اليمنية 1614:

استطاع الهولنديون أن يثبتوا أقدامهم فى الشرق الأقصى وخاصة اندونيسيا، وكان الحضارمة قد سبقوهم إلى هناك ونشروا الإسلام عن طريق التجارة، واستمروا فى حركة الملاحة بين أندونيسيا وسواحل «حضرموت».

لذلك فكر الهولنديون فى التعامل مع الحضارمة مباشرة وذلك عام 1614 عندما أرسل الحاكم الهولندى «لبانتام» أول سفينة تجارية وهى «تاسو» بقيادة «بيترفان دون بروكة» لدراسة الأحوال الاقتصادية، وما مدى إمكانية التجارة مع موانئ حضرموت(9).

استطاعت السفينة أن تجمع معلومات قيمة عن التجارة فى أهم المدن مثل «شحر» «مخا»، «عدن»، «قشن» وحققت هذه الرحلة نتائج جيدة(10)، مما شجع الهولنديين على الاستمرار بالتجارة إلى هناك، وتعهد السلاطين فى «حضرموت» واليمن بفتح موانيهم أمام التجارة الهولندية التى أخذت تزداد يوما بعد يوم.

لكن عندما استولى الهولنديون على السفن البرتغالية خلال صراعهم مع هذه الأخيرة كانت تلك السفن تحمل بضائع تخص الحضارمة مما أثار غضب اليمن، وأدى ذلك إلى سحب الامتيازات التجارية الممنوحة للهولنديين فى الموانئ الحضرمية واليمنية، ابتداء من «قشن» وحتى عدن و«مخا»، وطرد المسؤولين الهولنديين من تلك الموانئ(11).

خسرت الشركة الهولندية كل شىء ابتداء من الامتيازات وحتى الأرباح التجارية التى كانت تجنيها من نقل البضائع والتعامل مع هذه الموانئ، ولهذا فكر الهولنديون فى إيجاد معقل آخر لأطماعهم الاقتصادية التوسعية بعدما فشلوا فى

تثبيت أقدامهم فى موانى حضرموت، ولما كانوا يمرون عن طريق هرمز ومسقط فى رحلاتهم من أندونيسيا إلى سواحل حضرموت، فإنهم فكروا فى منطقة الخليج العربى وبخاصة فارس، وقرروا التوجه فى معاملاتهم إلى فارس على أساس أنها أكثر ربحا وفائدة من مغامراتهم مع عرب اليمن[12]، ولم يكن الهولنديون يتوقعون تلك الامتيازات السخية من حكام فارس إضافة إلى أهمية بلاد فارس التجارية منذ فترة طويلة[13].

التوجه البريطانى نحو الشرق:

بداية التوجه البريطانى نحو بحار الشرق كانت فى 13 من فبراير عام 1601، عندما تحركت الرحلة الأولى، فى حين جاءت الرحلة الثانية بعد أكثر من عامين، ولكنهما لم يتجها نحو الساحل الهندى، وإنما توجهتا نحو جزيرة سومطرة وجاوة وملقا، فى جنوب شرق آسيا[14].

ولأن الشركة البريطانية شركة ناشئة، فإنها لم تجرؤ على التوجه إلى الهند، لأن بريطانيا كانت ما تزال فى حرب مع إسبانيا الموحدة مع البرتغال، والتى تملك قوة كبيرة فى الهند، فأرادت تجنب المواجهة العسكرية على الأقل فى المرحلة الأولى.

قررت الشركة بعد انتهاء الحرب بين البلدين بموجب اتفاق لندن عام 1604، أن تقيم علاقة مع الهند بموافقة البرتغال، لاسيما وأن الرحلتين إلى جنوب آسيا لم تحققا أهدافهما لعدم وجود ما يمكن للشركة البريطانية أن تبيعه هناك لتشترى بثمنه ما تحتاج إليه من توابل، ولهذا أرسلت الشركة البريطانية رحلتها الثالثة فى مارس عام 1607 إلى الهند[15]، وهى أول رحلة تجارية بريطانية إلى الهند، ومنها بدء التطلع الاستعمارى الإرهابى المسيحى البريطانى لاتخاذ الهند كقاعدة للانطلاق نحو بقية المناطق الأخرى لإيجاد مستعمرات فى آسيا وشرق أفريقيا والخليج العربى.

التعاون الأنكلو-هولندى فى الخليج العربى:

أخذ الهولنديون يتطلعون من باتافيا (جاكرتا حاليا) إلى الخليج العربى، ووجدوا فى حكام فارس خير معين لتحقيق أطماعهم لضرب البرتغاليين من جهة وضرب أية مقاومة عربية قد تظهر ضدهم من جهة أخرى[16]، وبخاصة بعد طرد

عرب حضرموت واليمن لهم من موانيهم، إضافة إلى مقاومة الحضارمة مع الوطنيين الأندونيسيين ووقوفهم معهم ضد إرهاب الاستعمار المسيحى الهولندى هناك، وتشكيلهم جبهة إسلامية ضد الوجود الاستعمارى المسيحى الإرهابى الأوروبى فى الأرخبيل الأندونيسى.

سنحت للهولنديين فرصة ذهبية لتحقيق أطماعهم عندما عقدوا اتفاقية مع البريطانيين فى مجال تسليح السفن الأخيرة، لإرسالها إلى فارس محملة بالصوف، وبما أن القدرة التسليحية ضعيفة لدى البريطانيين ولم تكن تصل إلى مستوى الهولنديين فى تلك الفترة لمواجهة البرتغال المتمركزين فى جزيرة هرمز بمدخل الخليج العربى، مما يعيق تجارتهم إن لم تتكبد خسارة فادحة، اقترح أحد أعضاء شركة الهند الشرقية البريطانية، إدخال هولندا فى مجال التسليح مع بريطانيا لاستطاعتها إرسال سفنها إلى الخليج العربى متى أرادت وكيفما تشاء[17]، وخاصة بعد تفوقها الساحق على البرتغاليين فى أرخبيل «ملايو» وأندونيسيا فى الوقت الذى كان فيه الهولنديون تواقين لدخول الخليج العربى وإيجاد مراكز تجارية لتعويض فشلهم وفقدان امتيازاتهم التجارية بعد طردهم من موانئ «حضرموت» واليمن.

بما أن الهولنديين يدينون بالمذهب البروتستانتى فهم أقرب إلى البريطانيين من البرتغاليين الكاثوليك، وبرغم المساعدة الهولندية فى مجال التسليح والصداقة والمذهب الدينى، إلا أن الهدف الحقيقى من وراء ذلك كان مشاركة البريطانيين فى التجارة فى بداية الأمر، ومن ثم منافستهم، مما يوضح أطماعهم الاقتصادية منذ البداية، كما أن التحالف البريطانى مع الفرس سهل دخول الهولنديين إلى الخليج العربى.

لهذا يمكن القول بأن التعاون الأنكلو- هولندى لإخراج البرتغاليين من جزيرة «هرمز» وتسليمها للفرس لم يكن مجرد رغبة فى القضاء على البرتغاليين، بقدر ما كان طمعا فى احتلال محلهم والهيمنة التجارية على الأسواق الفارسية وهذا ما حدث فعلا بمجرد طرد البرتغاليين حيث بدأ التنافس الانكلو- هولندى.

يرى معظم المؤرخين الأوروبين أن الاقتصاد الأوروبى والعالمى دخل فى تلك الفترة أى مع بداية عام1620[18] فى انتعاش وذلك قبل سقوط هرمز بسنتين، وقد

يرجع ذلك لتدفق الفضة الإسبانية من العالم الجديد إلى أسواق أوروبا[19]، مما عزز التنافس الأنكلو- هولندى ضد الوجود البرتغالى فى الشرق ثم فيما بينها.

الاستقرار فى بندر عباس

أ) نبذة عن بندر عباس:

يقع ميناء بندر عباس (وهى جملة فارسية تعنى بالعربية «ميناء عباس») فى مدخل الخليج العربى إلى الشمال الشرقى من جزيرة قشم وإلى الغرب من جزيرة هرمز، وبذلك يطل على مضيق هرمز، قام ببناء هذه المدينة أو الميناء «الشاه عباس الأول»، وأطلق عليه اسمه، وذلك بعدما أصدر أوامره إلى «وردى خان» حاكم فارس بإعداد حملة قوية إلى «جمبرون» وطرد البرتغاليين منها «وهو الاسم القديم لبندر عباس» وكان على رأس هذه الحملة إمام «قلى خان» حاكم «لار» ابن «وردى خان»، وبعد الحصار الفارسى للمدينة توقفت مياه الشرب والمواد الغذائية والحاجات الضرورية إلى «هرمز»، إلا أن إمام «قلى خان» اضطر إلى فك الحصار والانسحاب من المنطقة بسبب وفاة والده «وردى خان» ثم صدر مرسوم من الشاه عباس بتعيين إمام «قلى خان» حاكما لمقاطعة فارس خلفا لوالده وكلف باحتلال ميناء «جمبرون» بأية وسيلة ممكنة.

جهز إمام قلى خان حملة ثانية تولى قيادتها بنفسه وتمكن من طرد العدو ودخول المدينة المحررة عام 1615 وبعد أن تمت سيطرته عليها أمر بهدم القلعة البرتغالية وشرع فى بناء قلعة فارسية على بعد ثلاث أميال من البحر، وهكذا فقد البرتغاليون هذا الميناء إلى الأبد، وتوسعت مملكة فارس وامتدت لأول مرة إلى حدود «بلوشستان» بعدما كانت تلك المنطقة تحت سيطرة مملكة هرمز العربية التى حكمت المنطقة لفترة طويلة أكثر من قرن ونصف. كان شاه عباس يهدف من وراء تحويل الميناء إلى مركز تجارى رئيسى يجذب التجارة القادمة إلى فارس والخليج العربى ويكون بديلا عن هرمز[20]، التى دمرها الشاه عباس بنفسه ونقل معظم بناياها حتى الحجارة كى لا تقوم لها قائمة فيما بعد أسر القوات البريطانية للبرتغاليين[21].

أطلق البرتغاليون فى القرن السابع عشر على المدينة التى بنيت مكانها بندر

عباس تسمية تهكمية من باب السخرية بالأسرة الصفوية الحاكمة فى فارس، وهى تسمية «جمبرون» أو «كودوران» وهى تعنى بالعربية «برغوث البحر أو الجمبرى»[22].

قد تكون مأخوذة من العربية إلى البرتغالية، وعلى كل حال فإن هذه التسمية استمرت بالنسبة للأوربيين حتى القرنين السابع والثامن عشر والبعض استمر بها حتى القرن التاسع عشر.

ب) قدوم الهولنديين والبريطانيين إلى بندر عباس:

قدم الهولنديون مساعدات حربية فى مناسبات عديدة لكل من بريطانيا وفارس ضد البرتغاليين[23] وكان هذا أمرا طبيعيا نتيجة للصراع البرتغالى ـ الهولندى، سواء فى موانئ شبه جزيرة «أيبيريا» أو الصراع فى مياه المحيط الهندى، وهذا ما انعكس على أوضاع البرتغاليين فى الخليج العربى عندما أرسل الهولنديون بعض سفنهم الحربية إلى هناك[24].

إثر طرد البرتغاليين من معقلهم الرئيسى فى مدخل الخليج العربى بهرمز عام 1622 أنشأت شركة الهند الشرقية البريطانية والهولندية مقراً للوكالة التجارية فى هرمز، ولكن خبرة الهولنديين الطويلة فى النشاط التجارى دفعتهم إلى نقل مقر وكالتهم التجارية من هرمز إلى بندر عباس وذلك قبل أن ينتقل البريطانيون، مما أفادهم فى التعرف بسرعة على المنطقة، وعلى النشاط التجارى وسرعان ما أصبح ميناء بندر عباس يعج بالحركة التجارية، نظرا لانتقال الوكالة الهولندية والبريطانية[25]. وهاجرها سكان هرمز إلى بندر عباس نظرا لقلة الماء والزاد الذى كان يأتيهم من المناطق البرية المجاورة.

قام الهولنديون بالدفاع عن بندر عباس عندما أشركوا سفنهم الحربية مع السفن البريطانية لصد الهجوم البرتغالى أمام الميناء عام 1625، ونتج عنه هزيمة الأسطول البرتغالى[26]. وبعدها رفض الهولنديون دفع الضرائب فى بندر عباس أسوة بالبريطانيين نظرا لاشتراكهم فى الدفاع عن هذا الميناء التجارى مما أغضب البريطانيين وشاه فارس، ولكن الهولنديين لم يعيروا ذلك أى اهتمام واستمروا فى عدم دفع الرسوم والضرائب، ومن هنا بدأ التنافس الأنكلو ـ هولندى تجاريا فى بندر عباس.

التنافس الأنكلو.هولندى:

بذل البريطانيـون والهولنديون جـهوداً كبـيرة لمنافسـة البرتغاليـين فى المجال التجارى والعسكرى، ولم يتحـقق نجاح البريطانـيين والهولنديين فى انتـزاع تجارة الخليج العربى من البرتغاليين إلا بعـد جهود مضنية فى هذا المجال[27]، فقد كانت هولندا أكثر القوى إسهاما فى تصفية الوجـود البرتغالى فى البحار الشرقية فى نهاية القرن السادس عشر وبالتالى كانت أكثر هذه القوى استفادة من هذه التصفية.

بمجـرد زوال الخطر البرتغـالى، واجـه البريطـانيون خطرا من نوع آخـر، إذ سرعـان ما ظهر الهولنديون منافـسين أشداء للبـريطانيين[28]، الذين لم يستطيعوا التقـاط أنفاسهم لتثبيت المصالح السيـاسية والاقتـصادية وأصبح أصدقـاء وحلفاء الأمس، أعـداء اليـوم، ودخـلوا فى صـراع وتنافس تجـارى، وتغلـبت المصـالح الاقتصادية على الأخـوة البروتستانتية الدينية والصـداقة القديمة[29]، مما كان له أثر كبير فى المنظور القريب للنشاط التجارى الهولندى.

فى حـين نظر الهـولنديون لهـذا التنافس من وجـهـة أخرى. حـيث كـان البرتغـاليون خصومـهم منذ أن حرموهم تجـارة «أيبيريا» الى شمـال أوروبا، ولهذا دخلوا فى صراع وتنافس مع البرتغال، ونجحوا فى إقصائهم عن تجارة جنوب شرق آسيا والشرق الأقصى، واليوم وجدوا أنفـسهم مع أصدقائهم البريطانيين الذين جاء دورهم الآن، وذلك للسيطرة على معظم تجارة الشرق وسلعها الهامة[30].

ومن هذا دخل الهولنديون فى تنافس تجـارى من نوع جديد دون اللجوء إلى القـوة العسكرية إلا فى أضـيق الحـدود، وفى حالات طارئة، ولهـذا أرادوا كسـر احتكار تجارة الحـرير البريطانية فى فارس، ومـعارضة الامتيازات الـتى منحها لهم الشاه بعد طردهم البرتغال من «هرمز» [31]، وخاصة بالحصول على ضرائب مدينة بندر عباس مناصفة.

أولى خطوات الهولنديين كانت الامتناع عن دفع الرسوم والضرائب المفروضة على سلعهم لبريطانيا وفارس فى بندر عباس عام 1625، مما كان له أبعد الأثر فى عوائد الدخل التجارى البريطانى، ولم يكتـفوا بذلك وإنما دمروا المراكز والوكالات التجارية لشركة الهند الشرقية البريطانية فى «جاوة، وسيام» وحتى الصين[32].

الامتيازات الهولندية فى فارس والتخوف البريطانى:

استطاع «هاربرت فينش» "HARBERT BISNICH" المبعوث الهولندى، بعد مفاوضات مع الشاه عباس الصفوى عام 1623 الحصول على فرمان لتأسيس مصنع هولندى للحرير فى بندر عباس إلى جانب المصنع البريطانى، مع امتيازات كثيرة لم يكن يتوقع الهولنديون أنفسهم أن يوافق شاه عباس عليها بهذه السهولة، رغم اعتراض المسؤولين الفرس والبريطانيين، ومن أهم البنود فى الفرمان الفارسى والذى يتكون من ثلاثة وعشرين بندا والذى تم توقيعه فى 17/ 11/ 1623(33):

1 ـ تسهيلات تجارية واسعة فى البيع والشراء فى جميع المدن والموانئ الفارسية دون استثناء.

2 ـ عدم تحديد نوع معين من المنتوجات أو المواد الخام الأولية من الأسواق الفارسية، وإنما ترك لهم حرية الاختيار والحجم والكمية والنوع الذى يريدونه.

3 ـ عدم إلزامهم بدفع العوائد الجمركية نقدا.

4 ـ حرية استخدام أوزانهم الخاصة فى المعاملات التجارية وفى الأسواق الفارسية.

5 ـ الحرية الكاملة فى وكالاتهم التجارية، ولا يحق للرعايا الفرس الدخول إلى الوكالات الهولندية إلا بعد موافقة رئيسها بالسماح له بإذن مسبق.

6 ـ حرية استخدام القوة العسكرية إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

7 ـ تعهد الشاه الفارسى بتغطية الخسائر التى قد تلحق بهم نتيجة السرقة أو السطو، على وكالتهم فى بندر عباس.

8 ـ حرية ممارسة الشعائر المسيحية، وبناء الكنائس والأديرة، ومما جاء فى الفرمان أنه إذا ما اعتنق أحد الهولنديين الدين الإسلامى فلهم الحق فى نفيه خارج فارس ومصادرة أمواله.

9 ـ حرية اقتناء وامتلاك الأسلحة والعبيد وعدم الارتباط بالمحاكم الفارسية.

ولم يكتف شاه فارس بذلك الفرمان وإنما أصدر أوامره إلى شعبه بتقديم كافة التسهيلات الممكنة للهولنديين، من توفير القوافل والمأكل والمشرب والسكن إذا ما طلبوها، كما أعفاهم من الضرائب الجمركية الباقية من أول عام 1623 وسلم

رسالة إلى حاكم هولندا معبرا فيها عن ترحيبه بقدوم الهولنديين إلى فارس والسماح لهم بإقامة وكالات تجارية فى بندر عباس، وفى أية مدينة يختارونها فى أنحاء مملكته.

يتضح من ذلك أن الفرس هيأوا الجو المناسب لتحقيق الأطماع الاقتصادية للاستعمار الأوروبى فى الخليج العربى، ومنذ تلك الفترة وحتى يومنا هذا. وإن اختفت الفرمانات السابقة فإن هذه الامتيازات والاتفاقيات الاقتصادية والسياسية غير المتكافئة بين دول الخليج العربى والدول المسيحية الأوروبية الصناعية الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية سواء امتيازات البترول أو غيرها، فهى أشبه بالفرمات القديمة وإن اتخذت ثوبًا جديدًا يناسب هذا العصر، ويساير السياسات الإرهابية الاستعمارية المعاصرة.

على كل حال فقد زادت المصالح التجارية الهولندية فى فارس بصفة خاصة والخليج العربى بصفة عامة نتيجة للسياسة التى اتبعها شاه فارس، والذى أخطأ فى تقديراته لأنه كان يتوقع من تقديم تلك الامتيازات السخية الحصول على المساعدات العسكرية الهولندية ضد الجارة المسلمة، الدولة العثمانية، بغية التوسع تجاه العراق وضد عرب عمان فى المنطقة المعروفة اليوم برأس الخيمة وخورفكان، وذلك بعد ما رفضهما البريطانيون، إلا أن الهولنديين أيضا رفضوا تقديم المساعدة العسكرية ضد أحد من العثمانيين أو العمانيين، وإنما كان هدفهم فى تلك الفترة احتكار التجارة مع فارس وتحجيم المصالح البريطانية(34).

الموقف البريطانى من الامتيازات الفارسية للهولنديين:

أصاب البريطانيين ذعر وخوف من الامتيازات التى منحها شاه فارس للهولنديين وخاصة لدى المسؤولين فى شركة الهند الشرقية البريطانية التى كانت على علم بمجريات الأمور، ومدى خطورة المنافسة الهولندية على مصالحها التجارية فى المنطقة خوفا من ضياع النفوذ التجارى والسياسى الذى كانوا قد حققوه فى فارس، لأن الهولنديين ركزوا نشاطهم التجارى لانتزاع امتيازات كثيرة من شاه فارس من أجل الحصول على حصة كبيرة فى تجارة الحرير.

احتج بعض المسؤولين فى شركة الهند الشرقية البريطانية بأنهم قدموا

تضحيات كثيرة للفرس فى مختلف المناسبات، وخاصة فى صراعهم ضد البرتغال، واليوم يجدون الفرس يفضلون الهولنديين عليهم تجاريا، مما جعلهم يسيطرون على تجارة الحرير ويلحقون خسائر كبيرة بالبريطانيين الذين لم يتمكنوا من مجاراة الهولنديين[35]. وكان البريطانيون يتذمرون من الأساليب الهولندية ومخططهم تجاههم. فقد كتب «فيرلانا» "FURSLANA" مدير الوكالة البريطانية فى «سورات» خطابا إلى إدارة الشركة بلندن عام 1623 محذرا «بأن الهولنديين شعب فاسق ومتعطش لإراقة الدماء وأنهم ارتكبوا فى هذه المناطق أبشع الجرائم والأعمال الوحشية فقتلوا أصدقاءهم وأعداءهم على حد سواء ثم جبذر من التعامل معهم»[36].

زاد التخوف البريطانى عندما جدد الشاه عباس معظم امتيازات شركة الهند الشرقية البريطانية بعد فترة قصيرة عام 1624، إلا أنه رفض بعض الفرمانات الضرورية التى لها طابع تكميلى فقط، لعدم شراء البريطانيين الحصص المخصصة لهم من الحرير، وهذا راجع لشدة منافسة الهولنديين الذين لم يعطوا مجالا للبريطانيين لشراء الحرير من الأسواق الفارسية، وقد أوجد المؤرخ البريطانى ج.ج. لوريمر بعض التبريرات لهذا الإخفاق والفشل فى منافسة الهولنديين بقوله «إنه كان ناجما عن ارتقاء شأن مذهب المتطهرين فى بريطانيا وتأثيره فى سائر الأحوال البريطانية» [37].

وجه الهولنديون ضربة أخرى للمصالح الاقتصادية البريطانية عقب وفاة الشاه عباس عام 1629 عندما تمكنوا من خليفته الشاه صفى فى أخذ امتيازات جديدة تفوق ما أخذه البريطانيون الذين فقدوا بموت شاه عباس صديقا مخلصا ومؤيدا مما شكل تهديدا لنفوذهم فى فارس، وكانت العادة قد جرت بتجديد الامتيازات والترخيصات التجارية وما إليها مما يكفله شاه فارس، كلما تولى حاكم جديد[38]. لأن الامتيازات السابقة كانت تنتهى بوفاة صاحبها الذى منحها ولا بد من تجديدها كلما تولى حاكم جديد فى فارس. وهذا ما لم تكن تدركه شركة الهند الشرقية البريطانية حسب ما قاله المؤرخ البريطانى لوريمر، وهذا يصعب تبريره لأنه ليس من المعقول ألا تعرف شركة الهند البريطانية وهى خبيرة فى شؤون وأمور المنطقة وبخاصة فارس.

على أية حال فإن الشـركة البريطانية قامت بتجـديد فرمان عام 1617 بعدما تعهدت من قبل وكـيلها بأن يأخذوا من الشاه كل عام ما قـيمته (20) ألف تومان من الحرير مقـابل دفع ثلث المبلغ نقدا علما بأن تنفيذ هـذا الفرمان يتطلب أن تنفق شركة الهند الشرقيـة البريطانية حوالى (1500) جنيه استرلينى كل عام ثمنا لهدايا لشاه فارس ورجال البلاط[39].

الأساليب التى اتبعها الهولنديون فى منافستهم ضد البريطانيين:

أدرك الهولنديون وهم المتمرسون فى التجارة العالميـة نتيجة للظروف الطبيعية لبلادهم، وخـبرتهم فى التـجارة الأوروبية، وخـاصة مع بلاد البلطيق، الأهمـية الحيوية للخـليج العربى، فلهذا ركزوا جـهودهم على تثبيت الوجـود التجارى فى بلاد فارس وبخاصة فـى بندر عباس، وعملوا منذ البداية على إقصـاء البريطانيين من المنافسـة التجارية، وذلك مع بداية إنشـاء وكالتهم جنبـا إلى جنب مع الوكالة البريطانية فى بندر عباس، مما كان سببا من أسباب التنافس بين الطرفين. ولإزاحة النفوذ البريطانى استـخدم الهولنديون مختلف الأساليب، وسـوف نستعرض بعض هذه الأساليب التى اتبعها الهولنديون فى منافستهم منذ الوجود البريطانى فى «بندر عباس».

أولا: كسب التجار الفرس:

أخذ الهولنـديون يسعون إلى الإساءة إلى البـريطانيين وشركتـهم لدى أعيان البلاد والتجار ورجال البلاط الفارسى بمخـتلف الوسائل، واستغلال الخلافات بين التجار الفـرس والبريطانيين حول الأسـعار، وكان الهولنديون يشـترون السلع التى يرفضهـا البريطانيون نتيـجة ارتفاع أسعـارها لكسب التجار الفرس إلى جـانبهم، وشراء الحرير بأسعار أعلى من الأسعـار التى يشتريها البريطانيون، وهذا الأسلوب اشتهر به الهولنديون مع تخفيض أسعار البيع[40].

وهذا أدى إلى عدم قدرة البريطانيين على شراء الحرير وبالتالى إلى نقص فى مدخولهم التجارى، وتقلصت استثمـاراتهم فى بندر عباس، لارتفاع أسعار الحرير وبلتالى نجح الهولنديون فى حرمان البريطانيين من أهم سلعة مربحة.

ثانيا: الامتناع عن دفع الضرائب والتخويف:

امتنع الهولنديون عن دفع الرسوم والضرائب فى بندر عباس، نظرا لحصول البريطانيين على نصف الدخل بموجب الامتياز الذى منحه شاه عباس مقابل طردهم للبرتغاليين من هرمز، واتبع الهولنديون أسلوب التخويف، فأشاعوا أنهم دفعوا عشرة آلاف روبية للبريطانيين مقابل تركهم بندر عباس لكى يحتفظ الهولنديون بالتجارة لأنفسهم، ومما أثار تخوف البريطانيين هو منع الحكومة الفارسية الوكيل البريطانى من القيام بأى نشاط معاد ضد الهولنديين، ووعدته باتخاذ الإجراء المناسب تجاه الهولنديين.

ثالثا: بيع وشراء مختلف البضائع:

اعتمد البريطانيون على بيع المنسوجات الصوفية وشراء الأصواف عندما لم يتمكنوا من شراء الحرير نظر لسياسة الاحتكار التى اتبعها الهولنديون الذين اعتمدوا على بيع مختلف أنواع السلع، منها التوابل والبهارات والمنسوجات والمصنوعات الهولندية الأخرى، وشراء مختلف البضائع والسلع الفارسية ويعرضون أثمانا مرتفعة للسلع التى يحصلون عليها[41].

ركز الهولنديون على نوعين من البضائع وهما التوابل وشراء الحرير، نظرا لأن آسيا كانت تأتى فى المرتبة الثانية فى استهلاك التوابل بحوالى (200) ألف ليرة بعد أسواق أوربا، التى تستهلك (450) ألف ليرة[42].

أصبحت تجارة التوابل والبهارات تحت سيطرة الهولنديين الذين اتخذوا من ميناء بندر عباس مركزا تجاريا وتكفلوا بتزويد فارس بحاجتها من الفلفل والقرنفل وجوز الطيب فى حين لم يتمكن البريطانيون من تصريف سلعهم ومنتجات بلادهم[43].

رابعا: استخدام القوة:

استخدم الهولنديون القوة العسكرية وهو نفس الأسلوب الذى اقترحته شركة الهند الشرقية البريطانية لحمل المسؤولين على إعطاء حقوق استثنائية فى تجارة البلاد[44].

هاجم الهولنديون قلعة «قشم» عام 1645 فى الوقت الذى كان أسطول هولندى كبير يرابط فى الخليج العربى، وقد أدى هذا الهجوم إلى تخوف الشاه الذى طلب هدنة من القائد الهولندى الكومندور «يلوك» وعرض اتفاقا للسلام ومنح امتيازات تجارية، واستقبل شاه فارس فى أصفهان القائد الهولندى، وتم التصديق على شروط السلام، وتوقفت العمليات العسكرية وعقد اتفاقا حصل بموجبه الهولنديون على امتيازات شراء الحرير وحق تصديره دون دفع أية رسوم مما أثر كثيرا على التجارة البريطانية فى المنطقة(45).

خامسا: احتكار الحرير:

حصلت شركة الهند الشرقية البريطانية فى بداية عام 1633 على عقد من شاه فارس بنقل الحرير، غير أن الهولنديين كانوا لها بالمرصاد ومستعدين باتباع شتى الطرق والأساليب لإفشال هذا العقد واحتكار تجارة الحرير بأى ثمن، ولهذا فإنهم اتفقوا سرا مع بعض التجار الفرس وتلاعبوا بالكميات المنقولة من الحرير مما ألحق خسارة كبيرة لشركة الهند الشرقية البريطانية قدرت بآلاف التومانات، ولم تغامر الشركة البريطانية مرة أخرى بأن تطلب من شاه فارس عقد أية اتفاقية جديدة لشراء الحرير رغم حاجتها الماسة خوفا من الهولنديين ومزايداتهم بأسعار أعلى أو أية أساليب أخرى(46).

كثيرا ما كان الهولنديون يبيعون منتجاتهم ومن العائد يشترون معظم الحرير الفارسى وبذلك احتكروا الحرير وأصبح التبادل التجارى لصالحهم(47).

استغل الهولنديون ضائقة البريطانيين من النقص الحاد فى الحرير الخام، وانشغال شاه فارس فى الحرب مع الدولة العثمانية وحصلوا على صفقة تجارية فى إبريل من عام 1625 من وكيل شاه فارس «مولايم بك» "MULLIAM BAG" لمدة ثلاثة أعوام مع تثبيت أسعارها والكميات المخصصة، وبلغت قيمة الصفقة (600000) فلورن، وعندما وصل خبر الصفقة إلى البريطانيين اندهشوا وأصيبوا بصدمة وخيبة أمل لأن مخازنهم كانت شبه خاوية من الحرير الخام الفارسى فى تلك الفترة ولم يتمكنوا من الوصول إلى شاه فارس نظرا لانشغاله فى ميدان القتال(48).

سادسا: تقديم الرشاوى لرجال الحكومة الفارسية:

قدم الهولنديون رشاوى إلى رجال الحكومة الفارسية وإلى الموظفين العاملين فى الجمارك، وبقية القطاعات العامة الرسمية، وهو ما يحدث حاليا فى الدول النامية وخاصة بعض الدول العربية حيث يدفع رجال الشركات الغربية بل وحكوماتها، لتمرير الصفقات السياسية والاقتصاية الرشاوى للوزراء وكبار موظفى الحكومة مما يؤدى إلى سوء الإدارة والفساد وتراكم الديون، حيث لم تستطع بعض هذه الدول سداد فوائد مستحقات الديون، وبالتالى فدفع الرشاوى لرجال الحكومة مرض قديم وليس جديداً حاليا، ابتدعه المسيحيون الأوربيون وخاصة الهولنديون ثم سرعان ما لحق بهم البريطانيون والآن يستخدمه الأمريكيون فى منطقتنا العربية والإسلامية.

أكدت التقارير والرسائل من وكيل شركة الهند الشرقية البريطانية فى بندر عباس اتباع أسلوب الرشاوى التى قدمها الهولنديون لرجال الحكومة الفارسية، وذلك فى الرسالة التى بعثها إلى مقر الشركة فى سورات بالهند حيث يقول فيها(49):

«لقد عينا محاسبا يحسب لنا الخسارة ذلك، نظرا للحالة البائسة التى تمر بها تجارتنا ومن الأفضل لنا أن نفكر بطريقة نصلح بها الحال وأن التجار هنا ليس لديهم رغبة فى الاتجار مرة أخرى، والتجارة الأهلية باتت غير مربحة أيضا حيث دخل الهولنديون كل مكان وكل منفذ، ويدفعون الرشاوى هنا وهناك والعامل الوحيد الذى يقلقنا هو التنافس الهولندى معنا ونحن نعرف تصرفاتهم أنهم يرغبون فى أن نخسر لنذهب بعيدا عن هذه التجارة التى جاؤوا من أجلها بعد أن عرفوا أن لنا تجارة مربحة وحرة هنا».

استطاع الهولنديون عام 1624 إقناع شاه فارس عن طريق الرشاوى التى قدموها لحاشيته والتى لعبت دوراً فى إقناع الشاه بالإصرار على تسليم كامل الحرير نقداً والذى سبق وأن سلم البريطانيين بقيمة «100000» جنيه استرلينى مقابل تسلم الشاه نصف المبلغ بضائع، وفعلا تم التوصل إلى ما أراده الهولنديون ولكن البريطانيين أصروا على تطبيق بنود العقد كاملا، مما جعل هذه التصرفات تؤثر على النشاط التجارى البريطانى وادت إلى تدهورها خلال العامين الأخيرين، مما

دفع وكيل الشركة البريطانية فى بندر عباس إلى طلب (30000) ألف فلورن لتغطية الخسائر ومواجهـة نفقات الشركة البريطانية بغية المحـافظة على ما تبقى من النشاط التجارى(50).

سابعا: تقديم الهدايا لشاه فارس:

حصل الهولنديون من خلال تقديم الهـدايا للشاه وكبار الموظفين فى البلاط وأسرة الصفويين على امتيازات كثيرة وأولوية وسمعة طيبة، وهذا ما كانوا يهدفون إليه حـتى يحتكروا التجـارة فى فارس ويخرجـوا البريطانيين خـارج دائرة النشاط التجارى والسياسى.

تسببت زيارة سفير امبـراطورية المغول الإسلامية فى الهند إلى فارس فى عام 1629 فى خسارة كبيرة لشركة الهند الشرقية البريطانية، عندما أصر شاه فارس بأن يحول ثلثا حمولة إحدى سفن الأسطول البريطانى هدايا له(51).

يقول «فوستر»: «فى حفلة استقبال الشاه لسفير امبراطورية المغول الإسلامية فى الهند أراد أن يقدم له هدية ثمنها مئـتا بالة من الحرير فى الوقت الذى لم يكن لدى الهولنديين سوى اثنتين وأربعـين بالة، فأسرعوا لشراء مائة وثمانيـة وخمسين بسعـر خمسيـن تومانا للبالة الواحـدة، أى بزيادة قدرها ثمانيـة تومانات على كل بالة، ولم يتركوا مـجالا للشاه لشراء الحرير مـن البريطانيين الذين عرضوا بقـيمة أربعين تومـانا خوفا من حصول تقـارب بينهما، وقدمت تلك البالات إلى الشاه مجانا كهدايا فى احتفال أقيم بهذه المناسبة (52).

نتائج التنافس الأنكلو.هولندى:

لعب الهولنديـون دورا فى التصدى لسـياسة الهـيمنة البريطانـية فى الخليج العربـى، والتى كانت قائـمة على منع غـير البريطـانيين من الإيجـار والاتجار فى الخليج العربى(53)، مما دفع الهولنديين إلى التنافس لشل حركة البريطانيين التجارية إذ لم يكن لإنهاء وجودهم من بندر عباس.

بذل الهولنديون جهودا كبيرة فى التنافس التجارى مع البريطانيين الذين كانوا قد حقـقوا نفوذا فى الخليج العربى بعـامة، وفى فارس وبندر عباس بخـاصة بعد

جهد وعناء كبير، إلا أن مجيء الهولنديين حلفاء الأمس وأعداء اليوم شكل خطرا كبيرا فى المنافسة وأدى إلى نتائج لم تكن فى صالح بريطانيا فى المدى القريب أى خلال القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر عندما بدأ النفوذ التجارى الهولندى فى التراجع، ولكن فى الفترة التى نحن بصدد دراستها سوف نستخلص بعض النتائج، ومن أهمها ما يلى: أولا تدهور التجارة البريطانية وثانيا تفوق التجارة الهولندية.

أولا: تدهور التجارة البريطانية:

تدهورت التجارة البريطانية فى بندر عباس بسبب الأساليب التى اتبعها الهولنديون فى منافستهم، وهذا لم يؤثر على التجارة البريطانية فى فارس فحسب، وإنما على التجارة الأخرى التى اعتبرتها بريطانيا من شؤونها بين ساحل «كوراماندل» ومنطقة مدخل الخليج العربى التى استولى عليها الفرس بمساعدة بريطانيا بعد طرد البرتغاليين من هرمز، ورغم الخسائر الكبيرة التى لحقت بالبريطانيين إلا أنهم ظلوا متمسكين بمناصفة دخل الجمارك مع الفرس فى ميناء بندر عباس(54).

منذ البداية شهدت التجارة البريطانية تدهورا ملحوظا، فلم تزد فى المتوسط عن ألف وستمائة جنيه استرلينى سنويا، وبحثت إدارة شركة الهند الشرقية البريطانية موضوع تصفية أعمالها وإغلاق وكالتها فى بندر عباس، وجرت مناقشات حول ذلك، بين المقر الرئيسى للشركة فى «لندن»، والمقر الإقليمى فى «سورات» بالهند، ولقى معارضة شديدة من بعض رجالها الذين قالوا بأن البريطانيين قدموا مساعدات كبيرة للفرس وقاموا بطرد البرتغاليين، والآن يتمتع الهولنديون بامتيازات واسعة وإعفاءات كاملة من الرسوم الجمركية والضرائب، ورغم أن البريطانيين يدفعون رسوما مخفضة إلا أن تفضيل الهولنديين أدى إلى احتكارهم تجارة الحرير.

طرح المتخصصون عدة تساؤلات منها هل يجب استخدام القوة لإجبار شاه فارس على تغيير سياسته؟ وهل يمكن إرسال قوة برية أو فرض حصار بحرى فقط، فى حين كان رأى الأغلبية أن تجارة فارس لا تساوى قيمة أو تكاليف الحملة.

مع استمرار هذا التدهور وصلت تعليمات إلى الوكالة البريطانية فى بندر عباس من مقرها الإقليمى فى «سورات» بضروة تصفية أعمالها تمهيدا لإغلاقها وعندما علم شاه عباس تدخل شخصيا لمنع التصفية ووعد البريطانيين بأن يمنحهم امتيازات جيدة، ولكن تلك الامتيازات كانت مؤقتة لتخدير الموقف أكثر من علاجه، واستمرت الأوضاع وظل التدهور على حاله، فى حين اتبع الهولنديون أسلوبا آخر وهو زيادة حجم الاستيراد فى الشهر الواحد من أجل زعزعة استقرار البريطانيين وإثارتهم حتى يرحلوا، وهذا ما يؤكد الرسالة التى بعثها ممثل الوكالة فى بندر عباس إلى زميله فى الوكالة البريطانية فى أصفهان يقول:(55).

«لقد أفرغت السفن الهولندية بضاعتها قبل ساعات قلائل حيث كانت محملة بأنواع البضائع من «بتافيا» وهولندا وهذا شيء يخيفنا إذا ما استمرت الحالة لفترة طويلة على هذا النشاط اليومى المستمر، إضافة إلى أن السفن كانت تحمل بعض الأسلحة ومن المحتمل أن تصل سفينة أخرى خلال دقائق وتخرج سفينة أخرى محملة بالبضائع الفارسية بعد يومين أو أقل».

يتضح من ذلك زيادة حجم النشاط التجارى الهولندى فى بندر عباس وأثره السلبى على النشاط التجارى البريطانى لأنه كان من الطبيعى أن يقبل التجار الفرس على شراء بضائع جديدة تصل كل يومين أو أقل أحيانا، أكبر من إقبالهم على السلع البريطانية التى لا تصل إلا خلال شهر أو أكثر من ذلك فى بعض الأحيان، وخوفا من التدهور السريع فإن الشركة البريطانية عينت وكيلا جديدا اسمه «كيرج» "KERIDGE" رئيس الوكالة البريطانية نفسه فى سورات مشرفا مباشرا على مصالح الشركة فى فارس مع إعطائه كافة الصلاحيات اللازمة عند الحاجة.

بعد وصول الممثل الجديد إلى بندر عباس عام 1625 قام بدراسة أوضاع المنطقة والنشاط التجارى وقام بمقابلة المسؤولين الحكوميين والرسميين والتجار الفرس، وبعد ذلك قرر تصفية أعمال الوكالة التجارية. غير أن وكيل الشركة الرسمية فى سورات «كيرج» اتهم الهولنديين بالتآمر ضد مصالح البريطانيين(56). فى حين طلب ممثل الشركة فى بندر عباس عدم التسرع فى تصفية الوكالة والبقاء رغم الخسائر، لأن ذلك قد يشجع الهولنديين على الانتقال من التفوق التجارى إلى التفوق السياسى ليس فى فارس فقط وإنما فى الخليج العربى.

جاءت هذه الفكرة خوفا من ظهور فراغ بعد انسحاب البريطانيين من فارس مما قد يشجع الهولنديين على ملئه، وفى أثناء المناقشات حول تلك المشكلة، وقع نزاع شخصى بين «روبرت شيرلى» ومبعوث شاه فارس فى لندن فتدخل الملك البريطانى وأرسل مبعوثا خاصا ويدعى السير «ديدموركتن» لهذا الذى استمر الهولنديون فى تفوقهم التجارى[57].

يبرر لوريمر المؤرخ البريطانى تدهور التجارة البريطانية بوجود خونة فى صفوف البريطانيين، ففى عام 1637 وبعد أن مات جيبسون الوكيل البريطانى فى أصفهان تبين أنه كان يقرض الهولنديين من أموال شركة الهند الشرقية البريطانية مما مكنهم من ابتياع الحرير وضرب التجارة[58].

استمر الهولنديون باحتكار معظم السلع حتى اضطر البريطانيون التقدم بطلب إلى شاه فارس يدعون فيه إلى[59]:

1 ـ الحد من تصرفات الهولنديين والمعاملة السيئة من قبل التجار الفرس أنفسهم تبعا لذلك.

2 ـ السماح للبريطانيين بإعادة التصدير لاكثر من سنة للحد من الاحتكار الهولندى للسلع.

3 ـ منع زيادة الضرائب على البضائع الهندية.

4 ـ أن يولى عناية أكثر المبريطانيين.

5 ـ تجديد عقد الشركة.

كل ما فعله الشاه تجاه هذا الطلب، هو تنفيذ الفقرات (4.3.2) أما الفقرتان (5.1) فلم يستجب لهما، لأنه كان يخشى الهولنديين، ووعد بأنه سيتعاون معهم لاتخاذ خطوات للحصول على تعويضات من الهولنديين لصالح البريطانيين بعد خسارتهم من الفلفل التى قدرت بأكثر من (100000) ليرة.

تراجع عوائد البريطانيين من الجمارك فى بندر عباس:

زادت حدة التنافس عندما رفض الهولنديون دفع الجمارك للبريطانيين فى ميناء بندر عباس حيث كان نصيب البريطانيين (50٪) من دخلها السنوى بموجب الامتيار الذى حصلوا عليه من شاه عباس مقابل إخراج البرتغاليين من هرمز وتسليمها للفرس.

ولهذا ظل نصيب البريطانيين من عوائد الجمارك بميناء بندر عباس مخيبا للآمال وفيما يلى جدول يوضح ذلك[60].

السنوات	نصيب البريطانيين من عوائد الجمارك
1630 ـ 1631	55 تومان
1632 ـ 1633	هبط 242 تومان
1639 ـ 1640	341 تومان
	200 تومان حصلت بصعوبة عن متأخرات العوائد على الفرس، وكان ثمة أمل فى تحصيل 500 تومان عن نفس العام ولكن ذلك لم يحصل.
1640 ـ 1641	700 تومان حيث ارتفعت العوائد

ترجع ضآلة العوائد الجمركية فى بعض الأعوام إلى عدة أسباب بحسب تبريرات المؤرخ البريطانى لوريمر(61) منها:

1 ـ سوء الأحوال التجارية فى بعض الأعوام.

2 ـ نصب واحتيال بعض الفرس.

3 ـ إهمال بعض العاملين فى شركة الهند الشرقية.

4 ـ رفض الهولنديين دفع عوائد المستحق عليهم.

اتهم كابتن «ويدل» فى عام 1630 بارتكاب خطأ كبير أدى إلى خسارة، ورغم أنه حصل للشركة (200) جنية استرالينى فى بندر عباس إلا أنه أقام حراسة تراقب المركز الجمركى مما نتج عنه خسائر مادية قد ترجع إلى تلاعب بعض الفرس، إلا أن الوضع تحسن قليلا فى عام 1633 بجهود «لوقتوس» الوكيل البريطانى الجديد الذى قام بنشاط لإنعاش الحركة التجارية للشركة.

هبطت عوائد الجمارك فيما بين عامى 1627 ـ 1638 إلى حدها الأدنى وبرر البريطانيون ذلك بوجود تواطؤ بعض ربابنة سفن الشركة ووكلائها والمسؤولين الفرس، وذهب بعض البريطانيين حرصا على مصالح الشركة إلى حد التوصية باستخدام القوة لإرغام الفرس على التعامل التجارى الشريف (على حد قولهم) وقيل مرة إن نصيب البريطانيين لو حصل كاملا قد يصل إلى خمسة آلاف أو ستة آلاف تومان أى أكثر من خمسة عشر ألف جنيه استرلينى فى العام، وقد قال «ماندلسلى» أحد سفراء «دوق هولشتاين» إلى شاه فارس عندما زار بندر عباس عام

1637 إن البـريطانيـين لم يكـونوا يحـصلوا بالفـعل على أكـثـر من عـشـر مـا يستحقونه[62].

بعض خسائر التجارة البريطانية:

رغم التـقـارب البريطانـي ـ الهولندى فـى أوربا، إلا أن ذلك لم يمنع من التنافس فى الخليج العربى، فقد استمرت المنافسة الأنجلو ـ هولندية إلى درجة بات من الصعب على البريطانيين معها الاستمرار لشدة المنافسة الهولندية.

نلاحظ ذلك من حـجم الخسائر التى لحـقت بالتجـارة البريطانيـة من جراء التنافس الهولندى والأسـاليب التى استخـدموها ضدهم، ففى الفـترة من 1624 ـ 1627 قدرت خسائر شركة الهند البريطانية بما يلى[63].

1 ـ (74.638) ألف فلورن بضـائع تالفة نتـيجـة بيع الهـولنديين بضائعـهم بأسعار منخفضة.

2 ـ (50.000) ألف فلورن بضـائع وأطعمـة، وهذا يعنى خـسارة تقـدر بـ (30.000) ألف فلورن.

3 ـ (20.000) ألف فلورن بضائع شحنت وبقيت كاسدة حتى عام 1624.

4 ـ خسر البريطانيون (77.200) ألف فلورن من جراء تكدس البضائع وعدم سماح الهولنديين لهم بنقلها فى سفن أهلية بغيرهم.

وهذه الخسائر أدت إلى قلة عـوائد شركة الهند الشرقية البريطـانية فى الفترة من 1626 ـ 1632.

تراجع الصادرات البريطانية أمام الهولندية:

أ ـ تجارة الحرير:

أدى تفوق الهولـنديين على البريطانيين في تجارة الحـرير إلى تراجع حاد فى الصادرات البريطانيـة من هذه التجارة في فارس، وفيمـا يلى جدول يوضح الفرق فى الميزان التجارى لصالح شركة الهند الشرقية الهولندية، وفى صادرات الشركتين من الحرير الفارسى للأعوام (1626 ـ 1635) بالبالات (وزن البالة الواحدة يساوى مائة كغم).

يتـضح من ذلك تفوق الهـولنديين في الصـادرات على البريطانيـين ويرجع

جدول يوضح صادرات شركتى الهند الشرقية البريطانية والهولندية من الحرير الفارسى للأعوام (1626 ـ 1635)[64].

السنة	شركة الهند الشرقية البريطانية	شركة الهند الشرقية الهولندية	المجموع
1626	105	352	457
1627	60	602	662
1628	938	350	1288
1629	93	910	1003
1630	186	297	483
1631	790	-	790
1632	350	750	1100
1633	224	193	417
1634	110	784	894
1635	370	870	1241
المجموع	3227	5108	8335

انخفاض نسبة الصادرات الهولندية عام 1628 لتحسن وضع البريطانيين فى عهد شاه عباس، وقبل وفاته بالتحديد، وفى عام 1631 بسبب حصول البريطانيين على امتيازات من شاه صفى علما بأن الشركة البريطانية كانت تقايض بمختلف أنواع البضائع والأنسجة والفولاذ والأقمشة الهندية والقطن وغيرها مقابل الحرير الفارسى، غير أن خسائرها بلغت (214.798) ألف جنيه استرلينى، خلال خمس سنوات.

هذا راجع إلى التنافس الهولندى إضافة إلى نسبة الكمية المسلمة إلى شركة الهند الشرقية البريطانية، حيث كانت عام 1637 أقل بنسبة (25٪) من الكمية السابقة، وهى ذات نوعية سيئة أما النوعيات الجيدة فكانت ترسل إلى هولندا مباشرة.

كثيرا ما كان الهولنديون يبيعون منتجاتهم ومن العائد يشترون معظم الحرير،

وأصبح التبادل التجارى لصالحهم[65]، وكان الهولنديون قد احتكروا تجارة الحرير العالمية، وفيما يلى توضيح لـ تجارة الحرير الهولندية، ونسبة الحرير الفارسى من تجارة الحرير العالمية فى عام 1630[66].

الحرير الفارسى والأرمينى المصدر عن طريق البر عبر روسيا إلى موسكو وأرشغل "ARCHNGEL" ومنها إلى هولندا.	400
الحرير المصدر من ميناء سورات على بواخر شركة الهند الشرقية الهولندية	400
الحرير الفارسى المصدر من مينا بندر عباس	400
الحرير من موانى إيطاليا و «ليفنتا» "LAVANT"	300
المجموع بما يعادل 420.000 رطل	1500

ولم يبق فى يناير من عام (1640) أى نوع أو كمية من الحرير أمام البريطانيين للشراء وعندما وصلت سفينة لشركة الهند الشرقية البريطانية، وحاولت الحصول على كمية من الحرير للشراء لم تجد للحرير أثرا.

السبب فى ذلك راجع إلى وصول أربعة سفن هولندية إلى بندر عباس قبل شهر من وصول السفينة البريطانية، فأفرغت السفن الهولندية حمولتها من الفلفل الأسود، وأخذت معظم كميات الحرير إضافة إلى السكر.

ب ـ تجارة صبغة النيلة:

لم يكتف الهولنديون بمنافسة البريطانيين فى تجارة الحرير، وإنما شملت معظم السلع والمنتجات، ومنها تجارة صبغة «النيلة» التى لم يسمحوا للبريطانيين بنقلها بواسطة العربات، فاضطروا لنقلها بواسطة الجمال فتعرضت للتلف، فخسروا فى هذه الصفقة عدة آلاف من التومانات.

جـ ـ الفلفل الأسود:

عرض البريطانيون فى مارس عام 1637 كميات كبيرة من الفلفل الأسود بأسعار تراوحت ما بين (100 ـ 155) فلورن لكل وزنة، بينما عرض الهولنديون أسعاراً تتراوح ما بين (55 ـ 60) فلورن لكل وزنة، مما دفع التجار الفرس لشراء

الفلفل الأسود الهولندى الرخيص الثمن، بينما لم يشتر أحد الفلفل الأسود البريطانى الذى تعرض للكساد، وبذلك خسر البريطانيون كثيرا.

د ـ القرنفل:

اتصفت العلاقات الانجلو ـ هولندية بالتذبذب بين التقارب والتنافر، ففى عام 1633 حاول البريطانيون تحسين علاقاتهم مع الهولنديين للوصول إلى التعامل التجارى بدون تنافس، والموافقة على إيجاد طريقة معينة فى المنطقة لتجارة القرنفل، لأنها كانت أصبحت تعانى من العجز والكساد فى نهاية عام 1633 وهى السلعة الوحيدة التى لم يتاجر بها الهولنديون فى المنطقة، ولهذا خشيت الشركة البريطانية عليها كثيرا.

طلبت من الهولنديين التوقف عن المنافسة حتى يلتقى ملك هولندا ملك بريطانيا، وفعلا تم الاتفاق بينهما، وأعطى بموجبه للهولنديين حق شراء كل القرنفل من البريطانيين، ويلتزم الهولنديون بدفع مبلغ (1.000.000) و(200.000) روبية سنويا فى نهاية كل ثلاث أعوام من أرباحهم و(500000) روبية تدفع من القرض السنوى، ولكن لم يستمر الحال حسب ما أراده البريطانيون، فسرعان ما عاد الهولنديون إلى مضايقاتهم التجارية وإغراق السوق بالسلع مما اضطر الوكيل البريطانى للشركة فى بندر عباس أن يكتب لإدارة الشركة فى سورات الرسالة التالية(67).

«يرجى عدم إهمال طلباتنا ورغباتنا وقد كتبنا لكم عدة مرات بأن رحلاتنا إلى بلاد فارس مخيفة وفاشلة ويجب أن تتوقف ويحل محلها وكالات تجارية فى أوربا، طالما يوجد معنا صديق يضمر لنا العداء وطالما يوجد هبوط فى التجارة بصورة عامة، حتى تجارة الفلفل والقرنفل التى كانت مصدر ربحنا، إضافة إلى ارتفاع أسعار الأقمشة التى ندخلها قياسا بأقمشة الهولنديين، لذا نؤكد مرة أخرى على ضرورة إعطاء اهتمام أكثر بنا وبوضعنا الذى أصبح سيئا فى هذه المنطقة».

جهزت شركة الهند الشرقية الهولندية فى مارس 1640 كميات من القرنفل قدرت بقيمة (70.000) روبية، فسدّت حاجة السوق، وقطع الهولنديون الطريق أمام البريطانيين الذين استلموا طلبية صغيرة جدا بعد شهر، ولم يستطعوا تجهيزها لأنها تكاد تسد النفقات التى ستصرف على النقل والتعبئة.

وقرر مسئولو الشركة البريطانية تصفية وكالتها فى «أصفهان»، ورفض العاملون فى شركة الهند الشرقية أوامر شركتهم، وأجلوا تنفيذها حتى لا يعطوا مجالا لمنافسة الهولنديين.

ثانيا: التفوق التجارى الهولندى:

يبدو أن الهولنديين قد حققوا تفوقا واضحا، فقد شهدت الفترة (1622 ـ 1641) سيادة التجارة الهولندية على فارس وميناءها بندر عباس الذى كان يعج بالسفن والبضائع الهولندية[68].

نلاحظ ذلك من خلال الأعلام المرفوعة على السفن الراسية مقارنة بالأعلام البريطانية المرفوعة على سفنها، وكان متوسط السفن الهولندية التى تتردد على «بندر عباس» حوالى ثمانى إلى عشر سفن سنويا، وتتراوح قيمة التجارة مع فارس ما بين مائة ألف وعشرة آلاف جنيه استرلينى سنويا[69].

وفيما يلى يوضح الجدول حركة السفن الهولندية ومحتوياتها مع حمولاتها خلال (1637 ـ 1640) والواصلة إلى ميناء بندر عباس[70].

السنة	عدد السفن	حمولاتها	جهة الاستيراد	مبلغها/ فلورن
1638	8	توابل	بتافيا	
1638	8	سلع أخرى	شرق آسيا	214.262.000
	2	فلفل أسود	ملبار	28.607.000
1639	4	سكر	سورات	36.278
	1	سكر	مخا	450.000
1640	2	فلفل، جوزة الطيب، القرنفل	بتافيا	220.424.000
	2	ثلاث بلا ملابس	بتافيا	46.268.000
	4	(44) بالة أقمشة قطنية	بتافيا	548.000.000
	2	زنجبل، صمغ، هيل، بخور، خشب الصندل	بتافيا	

زاد الهولنديون فى عام 1641 من حجم صادراتهم والتبادل التجارى فأغرقوا السوق الفارسية بالبضائع الهندية والأوربية بأسعار رخيصة، تقل عن سعر التكلفة لضرب التجارة البريطانية، وإخراجها من المنافسة التجارية، حتى تصبح المنطقة خالية من أى منافسة وبالتالى يكتمل احتكار تجارة الصادرات الفارسية[71]، وبات من الصعب على البريطانيين الاستمرار فى التجارة ومنافسة الهولنديين.

لكى يتفادى البريطانيون هذا الموقف، وجدوا أنفسهم فى موقف حرج، وأنه من الضرورى شحن ممتلكات الشركة من بندر عباس وإرسالها إلى البصرة لتوفير الأمن والاستقرار، وفعلا وصلت الممتلكات فى شهر يونيو من عام 1654[72] ولكن الهولنديين لم يتركوا مجالا للبريطانيين، ووسعوا رقعة حربهم التجارية إلى العراق فأرسلوا أسطولا مكونا من ثمانى سفن إلى البصرة، مما أدى إلى تدمير مؤقت لأعمال الشركة البريطانية التى أنشئت مؤخراً[73].

هكذا تزعزع مركز البريطانيين وغدا الهولنديون أسياد المنطقة واحتكروا تجارة فارس[74]، منذ بداية القرن السابع عشر، ووصل الاحتكار ذروته فى منتصف هذا القرن، خصوصا بعد طرد الاستعمار الإرهابى المسيحى البرتغالى بتحرير مسقط عام 1650، وأعقب ذلك ازدياد هذا النفوذ حتى منتصف القرن الثامن عشر، مع تعرضها لبعض الهزات بسبب الأوضاع السياسية فى فارس نتيجة لتغير أنظمة الحكم والأسر الحاكمة فيها.

أما بالنسبة للشركة البريطانية، فرغم محدودية النشاط التجارى، إلا أنه لم يقض عليه نهائيا، وقد يرجع ذلك إلى نوع التنافس الذى كان تجاريا أكثر منه سياسيا أو عسكريا رغم الأسطول الهولندى القوى فى الخليج العربى، كما أن العلاقات الهولندية فى أوربا كانت جيدة وأقرب إلى التحالف على عكس العلاقات بينهما فى الخليج العربى والذى كان فيه التنافس والتنافر قائما ومستمراً.

فعلى الرغم من الوضع السياسى القوى إلى حد ما للبريطانيين، إلا أنهم لم يتمتعوا بنفوذ قوى فى الخليج العربى فى تلك الفترة، وإنما استفادوا من تلك التجربة وثبتوا هذا النفوذ مع بداية القرن التاسع عشر[75].

أسباب التفوق الهولندى التجارى:

سبق وأن درسنا التفوق الهولندى التجارى والتراجع البريطانى، ولكن ما

هى الأسباب؟ وكيف تفوقت هولندا فى التجارة؟ هذا ما سوف نحاول الإجابة عنه، ويمكن تلخيص عدة أسباب أهمها:

1 ـ حصول هولندا على استقلالها من أسبانيا: وكانت من أغنى الأقاليم السبعة ولا ننسى أن الهولنديين كانوا بحارة ماهرين بسبب طبيعة بلادهم، قبل أن يكونوا تجارا بارعين يتمتعون برؤوس أموال كبيرة[76].

ولذلك أدركوا قيمة البحر والتجارة وأهمية المشرق والدول الواقعة على سواحل المحيط الهندى بدرجة أولى ثم منطقة الخليج العربى وفارس بدرجة ثانية فى التجارة العالمية فى تلك الفترة.

2 ـ اعتبرت الحكومة الهولندية أن من مصلحتها العليا جعل شركة الهند الشرقية الهولندية قوة عسكرية منذ بداية تأسيسها[77] وذلك لحماية المخاطر المستقبلية التى قد تتعرض لها، ولهذا فإن الشركة كانت لها عدة حقوق خاصة منها استقلالية الإدارة والسيادة، ولها كامل التصرفات والحقوق لعقد وتوقيع المعاهدات والاتفاقيات مع الحكومات والدول الأجنبية ومع القبائل والقوى الأخرى فى آسيا[78].

لهذا اعتمد الهولنديون على أسطول بحرى قوى، فقد كان هذا الأسطول كبيرا ورخيصا، ويتألف من عشرة آلاف سفينة من مختلف الأحجام، وهى معظمها تجارية تتحول إلى عسكرية، وعلى ظهرها مائة وستون ألف من البحارة[79].

أما السفن الحربية فى البداية فلم تكن تتجاوز عشر سفن، ولكن ارتفعت عددها بعد مرور عشرين عاما على تأسيس الشركة إلى سبع وعشرين سفينة حربية جيدة التسليح ترابط فى الهند، إضافة إلى وجود ثلاثين مصنعا وعشرين حصنا وقلعة فى آسيا ثم ازداد عدد قطع الأسطول بشكل كبير، وكثيرا ما كانت تساعد حكومتها فى أوربا فى أوقات المحن، فقد فقدت أربع سفن حربية فى الصراع مع بريطانيا فى الحرب الأولى عام 1639، فى حين كانت التضحية الكبرى فى الحرب الثانية مع بريطانيا، عندما ساعدت الشركة بعشرين سفينة حربية، وكلفها ذلك ما يعادل خمسة ملايين فلورن[80].

3 ـ دخل الهولنديون فى التنافس مع البريطانيين بخبراتهم الطويلة، سواء من خلال تعاملهم التجارى السابق فى أوربا الغربية وخاصة بين البرتغال وأسبانيا

ووسط أوربا ودول البلطيق، أو بتعاملهم التجارى بين منطقة المشرق فى المحيط الهندى ثم مجيئهم إلى الخليج العربى بعامة وبندر عباس وفارس بخاصة.

ظهرت الخبرة الهولندية الطويلة فى التجارة قبل البريطانية، نتيجة لظهور الطبقة البرجوازية والرأسمالية التجارية فى هولندا قبل بريطانيا، التى كانت تعتمد فى تلك الفترة على تجارة الأصواف، إضافة إلى المحاولات الهولندية الوصول إلى الشرق قبل بريطانيا.

ولعل من الأسباب التى جعلت الشركة تنجح فى مشروعاتها التجارية أيضا، هو اتخاذها مقرا خارج هولندا وهو فى بتافيا (جاكرتا حاليا) لأعمالها فى آسيا ومنها كانت ترسل معظم الرحلات والتعليمات إلى سفنها ووكالاتها فى المنطقة ومن بينها فارس(81).

4 ـ عدم حصول شركة الهند الشرقية البريطانية على الكميات الكافية من الحرير الفارسى بعد وفاة شاه عباس الأول عام 1627، أثر على صادراتها عبر ميناء «بندر عباس»، مما يعنى نهاية الاحتكار البريطانى لتجارة الحرير، فى حين حصلت شركة الهند الشرقية الهولندية، على مكاسب تجارية واسعة فى فارس واستمرت فى تركيز امتيازاتها وزيادتها عندما تمكنت فى عام 1636 من الحصول على امتيازات كبيرة، منها احتكار تجارة الحرير الخام وتصديره إلى الخارج. وفقد الشاه السيطرة على هذه التجارة، ولم يستطع إصدار أية تعليمات بخصوصها إلا بعد موافقة الهولنديين، مما أثر على تدهور التجارة البريطانية وحرمها من شراء الحرير، كما اتفق الهولنديون مع شاه صفى لشراء الحرير بأسعار مرتفعة مقابل عدم بيعه للتجارة فى الأمم الأخرى، كما أصبح الهولنديون يزودون جميع أنحاء فارس بالتوابل والبهارات والأقمشة والحرير والتعامل بالنقد والذهب والفضة وجنوا من تجارة فارس أرباحًا كبيرة(82).

ركز الهولنديون على تجارة التوابل والبهارات من جنوب شرق آسيا، تلك التجارة التى لم يشارك فيها البريطانيون وخاصة بعد سقوط «ملقا» من البرتغاليين تحت أيدى الهولنديين وأصبح طريق التوابل إلى جزر الهند الشرقية تحت سيطرتهم، حيث كانت مدينة «ملقا» الحصن الذى يتحصن فيه البرتغاليون ويسيطرون على الطرق التجارية للتوابل فى تلك المنطقة، وبعد احتلال الهولنديين

لها أصبح مركزهم لا يضارع فى التجارة مع الشرق وبخاصة ماليزيا وأندونيسيا. إلى جانب احتكار الهولنديين تجارة الحرير الفارسى وبذلك لم ينافسوا البريطانيين فقط وإنما أصبحوا أسياد التجارة فى آسيا تقريبا فى تلك الفترة.

5 ـ غالبا ما كان يجمع الذين يملكون الشركة بين وظيفتين أساسيتين هما عضوية مجلس إدارة الشركة وعضوية مجلس الوزراء الهولندى، وبالتالى كان لهم تأثير قوى فى اتخاذ القرارات المصيرية والحاسمة لصالح الشركة ومن ورائها الحكومة. مما جعلهم أكثر تقبلا للنفقات والتضحيات التجارية، وفرض سياسة الامتيازات بشتى الوسائل بخاصة القوة العسكرية في مختلف أنحاء العالم نتيجة لوجود الاعتمادات المالية الضخمة التى كانت تمول الشركة الهولندية والدعم والعون الكبير المتواصل الذى كان يأتيها من الحكومة، سواء كان دعما سياسيا أو ماديا. بينما لم تجد شركة الهند الشرقية البريطانية هذا الدعم من حكومتها التى كانت تحد من الامتيازات الاستثنائية للشركة فى لندن، كما لم تكن شركة الهند البريطانية تملك أى تأثير على حكومتها للنشاط التجارى.

اعتبرت الحكومة الهولندية شركتها أو التعامل التجارى مع المشرق، مسألة وطنية وقومية هامة يجب مساندتها بكل الوسائل، فى حين نظرت الحكومة البريطانية إلى شركتها فى تلك الفترة بأنها أمر يخص القطاع الخاص[83]، وأنها كانت تسمح من وقت لآخر للمجموعات والأفراد بممارسة التجارة فى المحيط الهندى إلا أن احتكارها للتجارة لم يكن تاما[84] وبذلك تمتعت الشركة الهولندية باحتكار تام بينما تعرضت الشركة البريطانية لانتقادات كثيرة وتدخل مجلس الدولة الهولندى ليقضى على المعارضة المحلية للشركة وإنشاء شركة احتكارية قوية، ودمجت ست شركات أو مشروعات فى مؤسسة واحدة وهى شركة الهند الشرقية الهولندية، وأصبح فى وسعها الاحتفاظ بأسطول كبير بنفقات أقل مما يعنى ضمان النجاح فى العمليات التجارية[85].

هذا إلى جانب تصميم الشركة والحكومة معا على احتكار تجارة التوابل والبهارات والحرير، ومحاولة الحصول على أكبر نصيب ممكن من شركة وميراث الاستعمار المسيحى البرتغالى فى المحيط الهندى.

6 ـ أنشأت شركة الهند الشرقية الهولندية عدة محطات بحرية ومراكز لإنشاء وصيانة السفن ومخازن ومستودعات للوقود والبضائع على طول الطريق إلى الهند، نظرا لحاجة الشركة المتزايد إلى النشاط التجارى، كما انتزع الهولنديون رأس الرجاء الصالح من البرتغاليين وأقاموا محطة لتموين سفنهم مما وفر على الشركة الوقت والجهد ومكنها من نشاط كبير[86].

7 ـ انتهج الهولنديون سياسة المضاربة، وحققوا من ورائها أرباحا كبيرة، فعلى سبيل المثال جاوزت ديونهم لدى تجار الأرض فى إيران مبلغ (100) ألف جنيه استرلينى، ولما كان رصيدهم المخزون من الحرير قليلا فقد عجزوا عن الوفاء بديونهم ولم يستطيعوا فى نهاية الموسم دفع سوى (165) ألف جنيه، مما أوقع تجار الأراضى فى حجز مؤقت على صادراتهم من الحرير[87]. وبذلك أصبح الباب مفتوحا لتجارة الحرير الهولندية.

8 ـ تمتع الهولنديون بشبكة واسعة للتجارة تمتد من اليابان فى الشرق الأقصى مرورا بالصين وجنوب شرق آسيا والهند والخليج العربى، وأفريقيا حتى غرب أوربا ومنها إلى شرق ووسط أوربا ودول بحر البلطيق ومنها بالطرق البرية إلى آسيا عبر روسيا.

بذلك تمكنوا من نقل وتصريف مختلف المنتجات والسلع فى هذه الأسواق الواسعة والكبيرة والمتنوعة.

الخلاصة:

يمكن القول إن هذا التفوق الهولندى ونجاح المشروعات التجارية فى المحيط الهندى وخاصة فى بندر عباس وفارس والخليج العربى، راجع إلى افتقار المؤسسات البريطانية ليس لوسائل الدفاع فقط، وإنما إلى ما كان يملكه الهولنديون من المهارة البحرية والحنكة التجارية وحب المغامرة والتضحية والفداء، ودعم الحكومة بلا حدود والخبرة والدبلوماسية فى المفاوضات. وحتى عام 1649 استمر الهولنديون فى تصاعد وبدا أنهم سوف يحصلون على مكاسب وامتيازات من شاه فارس الذى كان يخاف منهم أكثر مما كان يحترمهم.

وذلك بالرغم من أن الشركة الهولندية والشركات الأوربية الأخرى اقتصرت

على نقل التجارة بطريقة تقليدية فى آسيا كما كان يفعل التجار العرب وخاصة الحضارمة، ونظم الهولنديون طريقة تجارتهم بدءا من اليابان وحتى الخليج العربى بطريقة المبادلة التجارية، وبنقل المواد من مكان إلى آخر، ومن جراء فرق الأسعار كانوا يحصلون على فائض فى المال لشراء التوابل والبهارات والحرير ومن ثم احتكروا بيعها.

ولم يظهر التعامل مع البضائع المصنعة فى أوربا وينتشر إلا فى بداية القرن الثامن عشر تقريبا، وكان الفرق بين التجار العرب والشركات الأوربية هو أنها مارست الاحتكار بشتى الطرق وبخاصة العسكرية لبعض المنتجات مما أضر بمصالح الشعوب الآسيوية.

لقد كانت دوافع ووسائل الشركات الأوربية وخاصة الهولندية فى البداية مالية وتجارية أكثر منها سياسية استعمارية، ولكنها تحولت إلى الهدف الأخير نتيجة لتزايد الرغبة فى نهب ثروات الشعوب، مما جعلها تتحول إلى استعمار إرهابى متسلط جعل تلك الشعوب لا تستطيع التحكم فى مقدراتها على نحو يوثر فى أنظمة الحكم الرأسمالى الغربى المسيحى وخاصة الاقتصاد.

اتبعت الحكومة الهولندية فى هذه الفترة سياسة المتاجرة وكسب الثروة عن طريق رؤوس الأموال المتدفقة من البنوك والشركات، وعدم التدخل فى الأمور الداخلية للمناطق التى كانوا يتعاملون معها، وإنما اكتفوا باحتكار التجارة.

ولهذا يمكن اعتبار بداية القرن السابع عشر فترة إنشاء وانتشار الشركات التجارية الرأسمالية الأوربية والتى أصبحت احتكارية إرهابية فيما بعد ثم جلبت الاستعمار على شعوب المنطقة، ليس لاستمرار نهب خيراتها وإنما لعدم إتاحة الفرصة لنهوض تلك الشعوب لحماية ثرواتها، وبينما استسلمت تلك الشعوب للاستعمار الإرهابى الأوربى وشركاته وبينما اشتد نشاط الأسطول الهولندى واستعمر اندونيسيا ثم جاء بعده الاسطول البريطانى واستعمر الهند ثم الاستعمار الفرنسى واستعمر معظم أجزاء أفريقيا.

وأخيرا جاء الأسطول الامريكي ليفرض على العالم الثالث أمنه وواقعه وإرادته.

الخاتمة:

أتمنى أن أكون قد وفقت في دراسة هذه المرحلة التي بدأت بعد طرد الاستعمار الإرهابي البرتغالي الأوربي ومجيء الاستعمار الهولندي والبريطاني الأوربي، في بداية النصف الأول من القرن السابع عشر حيث ذهب قيصر وجاء قيصر بثوب جديد. وإن هذه الحقبة تمثل بداية ظهور الشركات الرأسمالية الأوربية التي تحولت إلى شركات احتكارية ثم أداة من أدوات الاستعمار الإرهابي المسيحي.

ولعل الدراسة تكشف عن أن الأطماع الاقتصادية التجارية تأتي بالصداقة فإذا ما وجدت ثروات مع ضعف الدول فإنها تتحول إلى سياسة نهب واستعمار وإرهاب أو هيمنة سياسية كما تتحول إلى استعمار عسكري إذا ما كان ذلك ضروريا للحفاظ على مصالحها كما تفعل الدول الغربية الآن - وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية - في منطقة الخليج العربي العزيزة على قلوبنا.

الهوامش :

(1) عباس العصفور: بحوث المؤتمر الدولى للتاريخ ص 98.

(2) ميناء انتورين أو انتوريوب من الموانئ الذى اشتهر منذ تلك الفترة وحتى يومنا هذا ويعتبر حاليا من أهم موانئ بلجيكا إن لم يكن الميناء الرئيسى.

(3) عباس العصفور : المرجع السابق ص 98.

(4) مصطفى عقيل الخطيب: التنافس الدولى فى الخليج العربى ص 144.

(5) أرنولد . ت. ويلسون : تاريخ الخليج ص 126.

(6) ARTURATTMAN: DUCH ENTERPRISE IN THE WORLD BULLION TRADE (1550 - 1800) P.9

(7) عباس العصفور: المرجع السابق ص 99.

(8) وزارة الخارجية الهولندية: هولندا والعالم العربى ص 30.

(9) بيرين جاكلين: اكتشاف جزيرة العرب ص 30.

(10) مصطفى عقيل الخطيب: المرجع السابق ص 147.

(11) بيرين جاكلين: المرجع السابق ص 30.

(12) D.W.DAVIES: APRIMER OF DUTCH SEVENTEENTH CETURY OVRSEAS TRADE. P.97.

(13) D. W. DAVIES. IBID. P. 97.

(14) عبدالعزيز عبدالغنى إبراهيم: حكومة الهند البريطانية والإدارة فى الخليج العربى ص 14.

(15) سليم طه التكريتى : المقاومة العربية فى الخليج العربى ص 63.

(16) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعى: غزاة فى الخليج ص 30.

(17) JONUTHANI. ISRAEL: DUTCH PRIMACY IN WORLD TRADE (1585 - 1740) P. 121.

(18) JONATHANI. ISRAEL: IBID P.121.

(19) د. عبدالعزيز محمد الشناوى: المراحل الأولى للوجود البرتغالى فى شرق الجزيرة العربية. بحث مقدم إلى مؤتمر شرق الجزيرة العربية ص 655.

(20) LAURENCE LOCKHRT: OP. CIT. P. 106.

(21) د. عبدالعزيز محمد الشناوى : المرجع السابق ص 965.

(22) LAURENCE LOCKHART: OP. CIT. P. 106.

(23) د. صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى ص 30.

(24) د. بدر الدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر ج1 ـ ص 36.

(25) LAURENCE LOKART: OP. CIT. P. 106.

(26) د. بدر الدين عباس الخصوصى : المرجع السابق ص 26.

(27) د. عبدالعزيز محمد أمين: بحوث المؤتمر البترولى للتاريخ ص 652.

(28) د. بدر الدين عباس الخصوصى : المرجع السابق ص 35.

(29) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 31.

(30) أرنولد . ت. ويلسون: المرجع السابق ص 128.

(31) حسن أحمد إبراهيم : المطامع الأوربية فى الخليج . بحث مقدم إلى مؤتمر شرق الجزيرة العربية ص 895.

(32) سليم طه التكريتى: المرجع السابق ص 63.

(33) مصطفى عقيل الخطيب: المرجع السابق ص 149.

(34) مصطفى عقيل الخطيب: نفس المرجع ص 150.

(35) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 71.

(36) مصطفى عقيل الخطيب: المرجع السابق ص 150.

(37) ج. ج. لوريمر: دليل الخليج ج1 ص 12.

(38) د. بدر الدين عباس الخصوصى ـ المرجع السابق ص 37.

(39) ج. ج. لوريمر: المرجع السابق ص 62.

(40) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 31.

(41) د. بدر الدين عباس الخصوصى ص 37.

(42) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعى: المرجع السابق ص 46.

(43) أرنولد . ت. ويلسون ـ المرجع السابق ص 132.

(44) د. بدر الدين عباس الخصوصى: المرجع السابق ص 31.

(45) ج. ج. لوريمر: المرجع السابق ج1 ص 69.

(46) KRISTOF GLAMANN: DUTH- ASIATIC TRADE (1620 - 1740)
P. 120.

(47) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعى: المرجع السابق ص 56.

(48) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعى: نفس المرجع ص 56.

(49) ج.ج. لوريمر: المرجع السابق ص 62.

(50) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعى: المرجع السابق ص 58.

(51) محمد أمين : الخليج العربى ص 24.

(52) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 31.

(53) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعى: المرجع السابق ص 47.

(54) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعى: نفس المرجع ص 48.

(55) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 31.

(56) ج.ج. لوريمر: المرجع السابق ص 69.

(57) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعى: المرجع السابق ص 59.

(58) ج.ج. لوريمر : المرجع السابق ص 62.

(59) ج.ج. لوريمر: نفس المرجع ص 63.

(60) ج.ج. لوريمر : نفس المرجع ص 63.

(61) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعى: المرجع السابق ص 50.

(62) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعى: نفس المرجع ص 58.

(63) KRISTOF GLAMANN: CIT. P. 120.

(64) JONOTHAN I.ISRAEL: OP.CIT. P. 154.

(65) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعى: المرجع السابق ص 55.

(66) أرنولد. ت. ولسون: المرجع السابق 132.

(67) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 32.

(68) د. هيفاء عبدالعزيز الربيعى: المرجع السابق ص 62.

(69) أرنولد.ت. ويلسون : المرجع السابق ص 30.

(70) محمد أمين: المرجع السابق ص 30.

(71) ج.ج. لوريمر: المرجع السابق ص 61.

(72) د. محمد رشيد الفيل: الأهمية الاستراتيجية للخليج العربى ص 51.

(73) د. عبدالأمير محمد أمين: المصالح البريطانية فى الخليج العربى ص 21.

(74) د. جلال يحيى : العالم الإسلامى الحديث والمعاصر ص 280.

(75) C.W.DAVIES: OP. CIT. P. 97.

(76) KRISTOF GLAMANN. OP. CIT. P. 7.

(77) د. جلال يحيى: المرجع السابق ص 280.

(78) KRISTOF GLAMANN: OP.CIT. P.6.

(79) C.R. BOXER: DUTH MERCHANTS AND MARINERS IN ASIA (1602 - 1795) P. 89.

(80) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 59.

(81) د. حسن أحمد إبراهيم : المرجع السابق ص 89.

(82) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 37.

(83) د. جلال يحيى: المرجع السابق ص 484.

(84) C.R.BOZER. OP. CIT. P.93.

(85) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 32.

(86) محمد عدنان مراد: صراع القوى فى المحيط الهندى والخليج العربى ص 166.

(87) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص 32.

المراجع:

أولا : المراجع العربية:

1 ـ أرنولد . ت. ويلسون: تاريخ الخليج: وزارة التراث القومى والثقافة. مسقط 1981.

2 ـ أمين سعيد: الخليج العربى: دار الكاتب العربى بيروت.

3 ـ بدر الدين عباس الخصوصى (دكتور) دراسات فى الخليج العربى الحديث والمعاصر. الجزء الأول. ذات السلاسل الكويت 1984.

4 ـ بيرين جاكلين: اكتشاف جزيرة العرب.

6 ـ ج.ج. لوريمر: دليل الخليج. القسم التاريخى. ترجمة وطباعة دولة قطر. الدوحة.

6 ـ جمال زكريا قاسم (دكتور): الخليج العربى عصر التوسع الأوربى الأول. دار الفكر العربى. القاهرة 1985.

7 ـ جلال يحيى (دكتور): العالم الإسلامى الحديث والمعاصر: المكتب الجامعى الحيث الإسكندرية 1982.

8 ـ فؤاد سعيد العابد (دكتور): سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ذات السلاسل. الكويت 1981.

9 ـ سليم طه التكريتى: المقاومة العربية فى الخليج العربى. وزارة الثقافة والإعلام. دار رشيد. بغداد 1982.

10 ـ صلاح العقاد (دكتور): التيارات السياسية فى الخليج العربى. مكتبة الانجلوا المصرية ـ القاهرة 1974.

11 ـ عائشة السيار: دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا. دار القدس. بيروت 1975.

12 ـ عبدالأمير محمد أمين (دكتور): المصالح البريطانية فى الخليج العربى. مركز دراسات الخليج العربى. مسقط 1983.

13 ـ عبدالعزيز عبدالغنى إبراهيم (دكتور): حكومة الهند البريطانية والإدارة فى الخليج العربى، دراسة وثائقية. دار المريخ. الرياض 1983.

14 ـ عبيد طويرش: الصراع حول مضيق هرمز: اتحاد كتاب وأدباء الإمارات. الشارقة 1990.

15 ـ محمد رشيد الفيل (دكتور) : الأهمية الاستراتيجية للخليج العربى. رابطة الاجتماعيين. الكويت 1974.

16 ـ محمد أمين: الخليج العربى.

17 ـ محمد عدنان مراد. صراع القوى فى المحيط الهندى والخليج العربى. دار دمشق 1984.

18 ـ مصطفى عقيل الخطيب: التنافس الدولى فى الخليج العربى (1622 ـ 1763). المكتبة العربية ـ بيروت 1981.

19 ـ هيفاء عبدالعزيز الربيعى (دكتورة): غزاة فى الخليج . دار الكتب للطباعة والنشر. جامعة الموصل 1989.

20 ـ وزارة الخارجية الهولندية : هولندا والعالم العربى. لاهاى 1987.

ثانيا: بحوث وندوات:

1 ـ حسن إبراهيم (دكتور): ندوة تاريخ شرق الجزيرة العربية . لجنة التاريخ. الدوحة. المطامع الأوربية فى الخليج العربى 1976.
2 ـ عبد العزيز الشناوى (دكتور): ندوة تاريخ شرق الجزيرة العربية. لجنة التاريخ الدوحة 1976.
3 ـ عبدالعزيز العصفور: بحوث المؤتمر الدولى للتاريخ (25/ 3/ 1973). منشورات وزارة الإعلام. العراق. بغداد 1974.
4 ـ عبد الأمين محمد أمين: بحوث المؤتمر الدولى للتاريخ (25/ 3/ 1973) منشورات وزارة الإعلام العراق. بغداد 1974.

ثالثا: المراجع باللغة الأجنبية:

1) Artur Attman: Dutch Enterprise in The World (Bu1-1800) Kungl. Vetenskaps. Och. Vitte-lion Trade (1550-Rhets. Samhallet. Gteborg-1983.
2) C.r.Bozer - Dutch Merchants And Mariners in Asia Orum Reprints. London 1988. (1602 - 1795) Vari.
3) D.W. Dvies Aprimer Of Dutch Seventeenth Century Overseas Trade - Martinus Nijhoff The Hague 1961.
4) Kristof Glamann: Dutch - Asiatic - Trade (1620 -1740) - Martinus Nijhoff-the Hague 1958.
5) Laurenc Lockhart - Famous Cities Of Iran-published Walter Pearce & Co. Brent Ford Middle-sez 1939.
6) Jonathan l.lsrael-Dutch Primacy In World Trade (1585 - 1740) Clarendon Press Oxford 1989.

الفصل الثالث



هجرة القبيسات الأولى من أبوظبي إلى العديد والدور البريطاني في النصف الأول من القرن التاسع عشر

« دراسة وثائقية »

نشر هذا البحث في مجلة دراسات تاريخية ـ العددان 45 ـ 46 آذار ـ حزيران 1993 ـ دمشق.

مقدمة

نتناول في هذا البحث هجرة القبيسات الأولى إلى العديد من عام (1835 ـ 1837) والموقف البريطاني تجاهها، ودوره المزدوج في البداية بعدم معارضة سياسة التجزئة التي مارستها في المنطقة وتمشيه معها، وخاصة تجاه رأس الخيمة وأبوظبي، وتفتيت وحدة ساحل عمان بعد انفصاله عن عمان الام، في نهاية الدولة اليعربية، وصولا إلى اعترافها بانفصال دبي عن أبوظبي 1833. ثم محاولة بريطانيا الاعتراف بانفصال القبيسات عن أبوظبي (1835 ـ 1837).

لقد فشلت عملية الانفصال بسبب ضعف الأسرة وصغر حجمها وعدم مقدرتها على حفظ المصالح البريطانية. إضافة إلى التخوف البريطاني من تحول منطقة «العديد» إلى مصدر ازعاج وتهديدها للامن البريطاني. لذلك فان بريطانيا تراجعت عن مواقفها السابقة بتشجيع الانفصال وقيام امارات جديدة، إلى السماح لحاكم أبوظبي باسترجاع اسرة القبيسات بشن حملة عسكرية.

تقوم هذه الدراسة أساسا على الوثائق التي تنشر لأول مرة، والتي تلقي الضوء على ما كان يجرى من مراسلات بين حاكم أبوظبي، وشيخ القبيسات المنشق، والوكلاء البريطانيين في الشارقة والبحرين، والمقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، وحكومة بومباي في الهند.

أسرة القبيسات: القبيسات أسرة صغيرة تعمل في صيد الاسماك واللؤلؤ وبناء السفن، من تحالف عشائر بني ياس في إمارة أبوظبي، يعيش غالبية أفرادها فصل الشتاء بمنطقة «ليوا»، على أطراف الربع الخالي في الظفرة، ويملكون اشجار نخيل وأغنام وماعز. وهم الذين قاموا ببناء مدينة على الساحل الجنوبي «لخور العديد» في بداية القرن التاسع عشر، عرفت بمدينة «العديد»، التي اكتسبت أهمية استراتيجية عندما جاء العثمانيون إلى الاحساء وقطر، إذا كانت الحد الفاصل بين النفوذ العثماني والبريطاني في شرق الجزيرة العربية، اضافة إلى حكم أسرة القبيسات واقامتها هناك في تلك الفترة. وتحظى حاليا المنطقة بأهمية كبيرة، لوجود احتياطي من البترول فيها، ولكونها الحد الفاصل بين امارة أبوظبي وقطر والسعودية. كما أن السعودية تسعى لايجاد منفذ بحري لتصدير النفط في المستقبل القريب.

أسباب هجرة القبيسات من أبوظبى إلى «العديد»: عندما قامت السلطات البريطانية بجمع الغرامة التى فرضتها على حاكم أبوظبى خليفة بن شخبوط، لتعديه وتعرضه للسفن البريطانية فى الخليج العربى، هرب رعاياه فى كل الاتجاهات ليتفادوا دفع أنصبتهم، إلى درجة ان بريطانيا طلبت من بقية حكام مشيخات ساحل عمان عدم استقبال الهاربين من أبوظبى. ومن هؤلاء الهاربين كان أهل «القبيسات»، الذين تركوا ديارهم وديونهم دون سداد وانتقلوا إلى «العديد» فى المنطقة الساحلية الجنوبية الغربية غير الاهلة بالسكان، بزعامة خادم بن نهيمان، وأسسوا لانفسهم موطنا جديدا هناك.

إضافة إلى الضرائب كان هناك سبب آخر وراء خروج أسرة القبيسات من «أبوظبى»، وهو الأمل فى تكوين مشيخة مستقلة أسوة بمشيخة دبى التى انشقت وانفصلت عن «أبوظبى» عام 1835 بعدما شجعتها بريطانيا لإضعاف قوة أبوظبى و«رأس الخيمة» وتجزئة أملاكها إلى امارات صغيرة، حتى تستطيع مواجهتهم بأسطولها فى الخليج العربى. وبذلك كانت بعض القيادات والزعامات المحلية من القبيسات وراء قيام مشيخة مستقلة عن مشيخة أبوظبى دون أن تدرك الدوافع البريطانية وراء ذلك، وتكون بذلك قد وضعت مصلحتها الخاصة ونظرتها الضيقة فوق مصلحة بنى ياس او امارة أبوظبى الوطنية العليا.

لكننا نلاحظ توجه شيخ القبيسات إلى البحرين بعدما اسكن افراد اسرته فى «العديد»، وقد يرجع ذلك لطلب الحصول على مساعدات مالية ومعنوية من بعض افراده المقيمين فى البحرين والذين لا يتجاوزن العشرين شخصا[1]. ويبدو أنه حاول الحصول على دعم من حاكم البحرين، إلا أنه لم يوفق فى ذلك نظرا للعلاقة القوية بين حاكم البحرين وحاكم أبوظبى، وخاصة أن الاخير كان دائما يبعث بقواته لمساعدة حاكم البحرين كلما حاولت قطر الانفصال عنها.

إعلان استقلال العديد وموقف حاكم أبوظبى: أعلن خادم بن نهيمان شيخ القبيسات انفصاله واستقلاله عن أبوظبى وعزمه على اقامة مشيخة خاصة به فى العديد، وقام بحفر ابار المياة العذبة واسكن جماعته هناك. وأول رد فعل كان من قبل خليفة بن شخبوط، إنه كتب إلى الوكيل البريطانى فى الشارقة الملا حسين يبلغه بأمر الانفصال، وبأنه لن يسكت هذه المرة على اقتطاع جزء من امارته أو قبول انفصاله عنها، علما بأن «البوفلاسة» كانوا قد انفصلوا عن ابوظبى وأقاموا

لهم مشيخة خاصة بهم فى عهد خليفة نفسه عندما هاجروا إلى دبى وأعلنوا الاستقلال عام 1833. وقد اعترفت بريطانيا بذلك ومنعت أبوظبى من استعادة دبى.

خاطب حاكم أبوظبى المقيم السياسى البريطانى فى 15/ 11/ 1835 بقوله:

إن القبيسات هى جزء من قبيلته وان مساكن افرادها واسرها موجودة، ولكنهم غادروا أبوظبى باختيارهم إلى مدينة الدوحة، وطلب منهم شراء عدد كبير من املاكهم، وبما انهم خرجوا عن طاعته وسيادته فإنه غير مسؤول عن تصرفاتهم التى قد تلحق ضررا بالغا بالامن فى المياة الاقليمية مما قد يشكل خطرا ومصدر ازعاج وقلق للسلطات البريطانية[2]. وإنه يهدف إلى إعادتهم إلى منازلهم، وبالتالى إلى سلطته وسيادته. وإنه يعلم المقيم السياسى البريطانى أولا بأول. حتى لا يتخذ المقيم عدم إخباره بتصرفاته المستقبلية ذريعة ضده.

بناء على ذلك فإنه طلب من المقيم السياسى البريطانى السماح له بإعادة افراد أسرة القبيسات، أو أن يطلب منهم العودة طوعا إلى أبوظبى، وانه ينتظر استلام الرد سريعا قبل ان يتحالفوا مع القبائل الاخرى وخاصة قبائل شرق الجزيرة العربية مثل «الهواجر» و «بنى مرة»، مما يعنى حدوث شغب وفوضى، علما ان القبيسات حتى تلك اللحظة لم يكونوا قد انضموا إلى أية قبيلة أو تحالف غير أبوظبى.

اختتم خليفة بن شخبوط طلبه بقوله:

أنت موقن انهم من رعايانا ومن المهم أن تأمروهم بالعودة، ونأمل إما أن تسمح بأن نرجعهم أو أن تأمرهم انت بالعودة.

يتضح من ذلك مدى التزام حاكم أبوظبى باتفاقيات الهدنة البحرية التى فرضتها بريطانيا على حكام مشيخات ساحل عمان، اضافة إلى طلبه الموافقة البريطانية لنقل قواته عبر البحر إلى العديد، لاعادة المنشقين إلى سيادته.

حذر المقيم السياسى البريطانى حكومته من مغبة تجاهل طلب حاكم أبوظبى، الامر الذى قد يثير هؤلا القبيسات المنشقين ويدفعهم إلى أعمال مخلة بالامن فى المنطقة والى تجاوز اتفاقيات الهدنة البحرية فى مياة الخليج العربى. ولم تشأ بريطانيا التدخل آنذاك إلا فى اطار مصلحتها، وأرسلت عام 1836 أسطولا صغيرا مؤلفا من ثلاث سفن حربية إلى «البدع والوكرة والعديد» وأخذت تعهداً كتابيا من

حكام تلك المناطق بعدم التعرض للسفن والمصالح البريطانية فى الخليج العربى، ومراقبة الساحل وبذل اقصى طاقة ممكنة للحيلولة دون التعرض لسفنها، ولضمان تنفيذ المطالب البريطانية.

كما طلبت من خادم بن نهيمان القبيسى تقديم كفالة تقدر بقدر معين من المال أو الممتلكات العينية ترد إليه عندما يظهر سلوكا متجاوبا، ويظهر أن العهد الذى قطعه على نفسه غير كاف لان بريطانيا كانت تخشى ان تتحول «العديد» إلى قاعدة لضرب السفن والمصالح البريطانية فى الخليج العربى من المقيمين فى تلك المنطقة أو المناطق المجاورة لها. وهذا يعنى انها لم تكن تمانع فى انفصال «العديد»، بشرط الالتزام بالامن البريطانى والتعهد بذلك، وفى الوقت نفسه تتخلى عن التزاماتها تجاه حاكم أبوظبى الذى وقع أيضا تلك التعهدات، كما تحاول تجزئة مشيخته الكبيرة إلى مشيخات صغيرة.

أثنى «ويلوغبى» وزير الدولة فى حكومة بومباى على تصرفات المقيم السياسى البريطانى تجاه القبيسات بتسوية خلافاتهم مع حاكم أبوظبى بموجب رسالة بعث بها بتاريخ 9/ 7/ 1826[3]: أمرنى حاكم المجلس ان اعلمك انك تصرفت بحكمة عندما بعثت برسالة إلى شيخ القبيسات توصيه فيها بتسوية خلافاته مع خليفة بن شخبوط وتعلمه فيها عن مغبة عدم الالتزام بهذه التوصية.

ولكن يبدو ان هذه المحاولات لم تنجح فى اقناع القبيسات فى التوصل إلى حل مرض، وذلك واضح من خلال الرسالة التى بعثها «ويلوغبى» وزير الدولة فى حكومة بومباى إلى المقيم السياسى البريطانى بتاريخ 9/ 9/ 1836، وجاء فيها[4]: اننى أعبر عن اسف الحكومة لفشل محاولاتك التوصل إلى صلح بين رعايا خليفة بن شخبوط وشيخ القبيسات.

برغم هذا الفشل فقد كان الاتجاه السائد لدى السلطات البريطانية هو المحافظة على كيان المشيخة الجديدة والاعتراف غير المباشر بها فى هذه المرحلة. فقد جاء فى رسالة من مكتب الاشراف فى بومباى إلى الكابتن «هنيل» مساعد المقيم السياسى البريطانى بتاريخ 17/ 12/ 1836[5]: نأمل ان نتمكن من الاحتفاظ باكواخ الخشب الخاصة (ويقصد فيها منازل العشيش والقصب) بأفراد القراصنة الذين توطدوا بالقرب من العديد.

وهنا نلاحظ استمرارية حكومة الهند البريطانية فى اطلاق اسم «القراصنة» على افراد القبيسات الذين استوطنوا فى العديد، أما قوله بالقرب من «العديد» فيقصد به السكن بالقرب من مياة «خور العديد».

ويتضح من هذه الرسالة رغبة بريطانيا فى تقديم الحماية غير المباشرة للقبيسات مع عدم التورط باعطاء أية تعهدات مكتوبة لهم، فقد كان «و.هـ. ولترس» رئيس الحكومة فى بومباى قد كتب إلى المقيم السياسى البريطانى بتاريخ 29/ 10/ 1836[6]: أود إعلامك أن حاكم المجلس قد أقر باجراءاتك المؤقتة والمتعلقة بنقل مدفعين و14 قذيفة مع توابعها اللازمة إلى السفن الحربية التى هى على وشك التوجه إلى العديد.

نجد من خلال رسائل المسؤولين فى الخليج العربى إلى حكومة الهند البريطانية التناقض فى السياسة البريطانية مع القبيسات، ففى حين لا تمانع فى المصالحة بين القبيسات وحاكم أبوظبى، فإنها تشجع الانفصال، وهذا يعني ان بريطانيا كانت تجس نبض القبيسات وخاصة إذا ما اثبتوا قدرتهم على حماية أنفسهم ونجحوا فى الاستقلال عن أبوظبى، كما فعلت البوفلاسة فى امارة دبى عندما انفصلوا وحافظوا على استقلالهم. ولا شك ان بريطانيا تدعم استقلال القبيسات. ولكنها فى حال فشلهم، سوف تعمل على تشجيع حاكم أبوظبى لإعادتهم إلى سيادته ولو بالقوة العسكرية، وهذا ما حدث فيما بعد، ونلاحظ هذا من الرسائل المتبادلة بين بريطانيا من جهه وحاكم أبوظبى والقبيسات من الجهة الاخرى.

وجدت بريطانيا فيما بعد ان التكوين الاسرى للقبيسات صغير لا يستطيع حماية «العديد»، أو يحول دون استخدامه كمركز لتهديد السفن والمصالح البريطانية والاخلال بالامن البريطانى، اضافة إلى ترك القبيسات يحكمون تلك المنطقة دون تقديم المساعدات اللازمة لهم يجعل وجودهم فى خطر بمواجهة القبائل القوية المجاورة. فى حين ان عدم السماح لخليفة بن شخبوط - المرتبط مع بريطانيا بمعاهدات الهدنة البحرية - باستعادة العديد، ومنعه من حرية الحركة فى البحر، كان من الممكن ان يشجع شيوخ القبائل الاخرى على تأسيس مشيخات صغيرة فى مناطق يصعب تقديم الحماية اللازمة لها لارتباطها بعمق الجزيرة العربية وقبائلها الكبيرة. مما يعنى بأنها ستكون بادرة مشيخة فى المستقبل لظهور كيانات ضعيفة لا

تستطيع حماية نفسها مما يترتب عليه جهد مضاعف من الأسطول البريطانى لمراقبة تحركاتها وحفظ أمنها.

المشكلات البحرية: حدث ما كان متوقعا، وبدأت المنطقة تشهد عدة أعمال سلب ونهب، وجاء فى الرسالة التى بعث بها «و.هـ.وولترس» رئيس الحكومة فى بومباى إلى المقيم السياسى البريطانى بتاريخ 20/10/1936[7]: وردت رسالة من الوكيل البريطانى فى الشارقة بأعمال السلب والنهب التى ارتكبها أفراد لهم علاقة بالعديد. وأود أعلامك أن حاكم المجلس راض عن نهج السياسة التى تتبعها فى اعتبار «شيخ البدع»(*) و«الوكرة»(**) و(العديد» وأبوظبى مسئولين عن تلك الأعمال، وكذلك قاسم بن جابر ورفاقه(***). ولو لم تكن هناك مساعدة من تلك الاماكن لما حصل المذكور على المنصب الرفيع الذى يتمتع به.

يبدو من تلك الرسالة استياء السلطات البريطانية وتخوفها من الاعمال التى تهدد أمن المنطقة، ولذا قدمت حكومة بومباى المعلومات الكاملة إلى المقيم السياسى البريطانى عن «البدع» و«الوكرة» وهما من أهم المدن القطرية، فى حين أن «العديد» من المناطق التابع لمشيخة أبوظبى، وزاد من التخوف على المصالح البريطانية، وخاصة من قبل قاسم بن جابر، كما كان من قبل ذلك رحمة جابر الجلاهمة، وتحدث عن أهمية الموقع الجغرافى «للبدع» و«الوكرة» و«العديد»

* **البدع:** تعتبر البدع حاليا أحد الأحياء المهمة فى مدينة الدوحة عاصمة قطر، وقد لعبت مدينة البدع فى القرن التاسع عشر دورا مهما فى تاريخ قطر بصفة خاصة: إذ كانت من أهم المدن لكونها مقر الحكم لفترة طويلة، وذلك قبل أن تتوسع مدينة الدوحة وتضم البدع إلى أحيائها. وقد أسس مدينة البدع أفراد من أسرة «السودان» ومفردها «السويدى» والتى هاجرت من ساحل عمان، كما توجد بعض أفرادها فى العراق، ومن أهم شخصياتها «توفيق السويدى» الذى كان وزيرا للخارجية فى العهد الملكى فى العراق.

** **الوكرة** : تعد مدينة الوكرة من المدن المهمة فى شبه جزيرة قطر، وقد لعبت دورا بارزا فى تاريخها، ولاسيما انها كانت تربط الطريق القادم من ساحل عمان إلى مدينة البدع والدوحة فى الشمال، وكثيرا ما تمتعت بحكم ذاتى ولفترات طويلة.

*** **قاسم بن جابر**: كان من الزعماء البارزين فى الخليج العربى، وهو الذى تصدى للاستعمار البريطانى وقام بعدة عمليات ناجحة ضد سفن الأسطول البريطانى، وكان قاسم ابن جابر قد اتخذ من قطر والعديد مقرا لعملياته العسكرية ضد الوجود البريطانى فى الخليج العربى، وضد كل من يتعامل مع الاستعمار البريطانى، ولهذا كانت بريطانيا تحذر زعماء المنطقة كشيخ البدع وشيخ الوكرة وغيرهم من التعامل مع قاسم بن جابر.

ومميزاتها للسفن الحربية[8]، حتى يأخذ المقيم السياسى البريطانى بعين الاعتبار تلك التوجهات.

أمام هذه الاتهامات، وخاصة الموجهة إلى شيخ العديد، فإن شيخ القبيسات بادر إلى شرح وجهة نظره للمقيم السياسى البريطانى بتاريخ 7/ 1/ 1837 يقول فيها[9]:

اذكرك بما كنت قد ذكرته فيما يتعلق بالعهود التى قطعتها على نفسك أمامنا، القائلة بإنه سيتم تجديد هذه العهود لدى الاستيلاء على قوارب (القرصنة). فليكن معلوما لديك أنه لا سلطة لنا عليهم نظرا لانهم تحت إمرة خليفة بن شخبوط.

انت تعلم أننا أعداء هذا الشيخ وان العرب القراصنة وضعوا انفسهم تحت حمايته ولن نسمح لهذا الشرير ان يدخل إلى أراضينا. ولقد اعتقل الشيخ خليفة ابن شبخوط أحد أفراد اسرتنا وقمنا بالمقابل فى اعتقال اهالى أبوظبى، وكنت قد طلبت أن نتركهم وشأنهم، وقد نفذنا ما طلبته إلا أنك لم تأخذ بعين الاعتبار حرية جماعتنا. وأرسل إلينا ردا على ذلك مرفقا بمسدسين وبعض مسحوق البارود.

يبدو من رسالة شيخ القبيسات بأنه غير قادر على تحقيق الأمن ومنع حوادث السلب والنهب التى تنطلق من منطقته، كما أنه يلقى اللوم على حاكم أبوظبى ويطلب من المقيم السياسى البريطانى إرسال مسدسين وبعض مسحوق البارود، ونعتقد أنه لو لم يكن شيخ القبيسات موقنا باستجابة المقيم السياسى البريطانى لما كتب يطلب ذلك.

أرسل ملا حسين الوكيل البريطانى فى الشارقة بتاريخ 23/ 3/ 1837 برسالة إلى المقيم السياسى البريطانى يبلغ فيها عن الأحوال فى الساحل العربى، وانه حدث نزاع بين حاكم أبوظبى وشيخ قبيلة المزاريع، بسبب مقتل اثنين من اقرباء قاسم بن جابر فى أبوظبى، ويقول أيضا بان قاسم بن جابر من أسرة المزاريع وليس من أسرة القبيسات كما ذكر فى سجلات بومباى[10]. كما بعث الوكيل البريطانى فى البحرين برسالة إلى المقيم السياسى البريطانى بتاريخ 5/ 4/ 1837 جاء فيها[11]: ظهر العداء علنا بين بنى ياس والقبيسات، وكتبت إلى خادم بن نهيمان شيخ القبيسات رسالة تهديد، ويساورنى الشك أن يكون خادم بن نهيمان شخصيته سيئة.

بعث «س. هنيل» المقيم السياسى البريطانى رسالة إلى «ج.ب. ويلوغبى» رئيس حكومة بومباى بتاريخ 9/ 4/ 1837 يقول فيها[12]: أرفق لحاكم المجلس الرسالة الواردة من ملا حسين الوكيل فى الشارقة يعلمنا فيها عن بداية العداء السحيق والذى يهدد العلاقة بين خليفة بن شخبوط حاكم أبوظبى وخادم بن نهيمان شيخ العديد، أحد رعاياه المتمردين. ومن المحتمل ان ينشأ العنف بين الطرفين المتنافسين خارج مسار السفن التجارية التى تبحر شمال وجنوب الخليج العربى. وإنى لا اتوقع حدوث أمور وخيمة العواقب والتى ربما نتجنبها باستمرار المراقبة الصارمة لاعمال المتحاربين.

أما عن التخوف من حدوث مشكلات اثناء موسم الغوص فيقول المقيم السياسى البريطانى فى رسالته إلى «ج.ب. ويلوغبى» رئيس حكومة بومباى بتاريخ 29/ 4/ 1837: «أعتقد أنه من المحتمل أن يحل هدوء فى موسم صيد اللؤلؤ على الرغم من وجود خطر ضئيل بأن يتوقف هذا الهدوء بسبب حالة الحرب المستمرة بين العديد وأبوظبى، فقد لاحظت حاليا واستنادا لمعلوماتى السابقة بأنه لا يتوقع أن ينشأ أى ضرر منهم (يقصد أبوظبى والعديد) أو من غير المحتمل أن يكبح أو يبطل هذا الضرر عن طريق مراقبة هذه الأطراف المتورطة مراقبة صارمة وقوية[13].

برغم ذلك فقد حدثت بعض المشكلات، ففى الرسالة التى بعثها الوكيل البريطانى فى البحرين إلى المقيم السياسى البريطانى بتاريخ 6/ 5/ 1837[14] قال: أفاد خادم بن نهيمان فى رسالته الموجهة إلى بقوله: «ذهبت جماعتنا إلى أبوظبى للحصول على مؤن فألقوا القبض على ستة رجال وقتلوهم بنهب سفينة «بقارة واحدة» (وهى نوع من السفن الكبيرة التى كانت وما زالت بعضها تستخدم مع إضافة الاجهزة الملاحية والميكانيكية الحديثة) ومارسوا طغيانهم، فالرجاء اعلام المقيم بهذا الامر». ويقول الوكيل البريطانى فى البحرين: «أنا موقن أن اللوم يقع على عاتق خادم بن نهيمان» [15].

لهذا فإن الموقف البريطانى تغير وبدأت بريطانيا تشعر بأن تشجيعها للقبيسات أو على الأقل سكوتها عنها من شأنه أن ينعكس سلبا على علاقاتها مع حاكم أبو ظبى، الذى سيفقد الثقة فى الموقف البريطانى ويجعله يشك فى نوايا البريطانيين، مما قد يدفع به إلى البحث عن دعم خارجى لموقفه. وهذا ما جعل

الإدارة البريطانية تعيد تقييم سياسته بهذا الشأن، ولذا فإنها وافقت على طلب حاكم أبوظبي لاسترجاع رعاياه من العديد.

إعادة العديد إلى أبوظبي:

طلب خليفة بن شخبوط من سلطان عمان امداده بقذائف مدفع ومسحوق البارود للقيام بهجوم على العديد، إلا أنه لم يستجب لطلبه[16]. وأثناء لقاء حاكم أبوظبي بالمقيم السياسي البريطاني الذي زاره في أبوظبي وبحث معه الاعمال العدوانية التي حدثت بين أبوظبي والعديد، سأل خليفة بن شخبوط عما إذا كان الصراع مع قبيلة القبيسات يمكن أن يتوقف حتى نهاية موسم صيد اللؤلؤ، فأجاب بأن دماء كثيرة قد أهدرت من الطرفين، ومن المستحيل أن يتوقف العداء. وأضاف بأنه في انتظار ورود الاذن مني لإرسال قوة لمحاصرة العديد، وتمنى في الوقت نفسه بأنه ينبغي منع الزعماء المجاورين من مساعدة القبيسات أثناء اقتحام العديد[17]. فأجاب المقيم السياسي البريطاني بقوله: بأنه سيكون هناك حصار حقيقي مميز، ولكنه ضئيل، وعليه فقد وافق خليفة بن شخبوط.

بعث الوكيل البريطاني في البحرين بتاريخ 24/5/1837 برسالة إلى المقيم السياسي البريطاني يقول فيها[18]: وصلت أخبار تفيد بأن خليفة بن شخبوط وصل في 12 مايو إلى جزيرة «صير بني ياس» ومعه ثلاثمائة سفينة وسفينة القيادة «بتيل»، وأرسل من ذلك المكان ولده «شخبوط» و«ابن سلمى» إلى شيخ القبيسات لمحاولة اقناعه بالعودة بهدوء إلى أبوظبي والاقامة فيها، وفي حالة رفضهم لذلك فإنه (أي خليفة) سيستولي على العديد بالقوة.

هجوم خليفة بن شخبوط: بما ان موافقة بريطانيا على هجوم خليفة بن شخبوط على العديد يعني أنها ارادت وضع نهاية للمشكلة، كما ان الوكيل البريطاني في الشارقة والمقيم السياسي البريطاني طلب من حاكم دبي عدم التورط في إثارة المشكلة، سواء بمساعدة القبيسات أو باخبارهم عن الحملة العسكرية لأبوظبي، أو بايوائهم بعد استعادة العديد، ومحاولته مساعدته في الهجمات على أبوظبي، ولولا التحذير البريطاني لحاكمي دبي ورأس الخيمة لتطورت المشكلة، في الوقت الذي يجد فيه خليفة بن شخبوط مبررا لاستعادة دبي أيضا من المنشقين البوفلاسة.

حاول حاكم أبوظبي بوسائل سلمية مختلفة استعاده العديد، وطلب من رعاياه المنشقين بشتى الوسائل العودة إلى أبوظبي، ولكنهم أصروا على البقاء كمشيخة مستقلة، أملا فى الحصول على مساعدة من حكام دبى ورأس الخيمة والبريمى، ولاعتقادهم بأن بريطانيا لن تسمح لحاكم أبوظبى بالهجوم على العديد، فيما هم يطلبون الحماية البريطانية.

جعلت كل هذه العوامل القبيسات يتشددون فى عدم العودة إلى أبوظبى، والرغبة فى إقامة مشيخة مستقلة، وكان الاعتقاد السائد لديهم أنه فى حالة الهجوم عليهم فإنهم سوف يستطيعون الصمود والمقاومة، وان حكام دبى والبريمى ورأس الخيمة سوف يقومون بهجوم مضاد من الخلف على أبوظبى مما قد يجعل خليفة بن شخبوط يسحب قواته لمواجهة الخطر القادم على مشيخته من الخلف. ولذلك لم يكترثوا لرسائل التحذير التى وجهت إليهم من أبوظبى أو الرسائل التى أرسلها حاكم دبى عن الحملة العسكرية لأبوظبى.

أما عن هجوم خليفة بن شخبوط على العديد، فسوف نورده كما جاء فى التقريرين التاليين، الأول من الوكيل البريطانى فى الشارقة، والثانى من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى، نظرا لان التقريرين يمثلان واقع الحال من وجهات النظر الرسمية:

1 ـ تقرير الوكيل البريطانى فى الشارقة:

نظرا لما يمثله الوكيل البريطانى فى الشارقة من مكانة ادارية وسياسية فى مشيخات ساحل عمان، وباعتباره شاهد عيان، فإن تقريره ذو أهمية فى معرفة الاحداث التى جرت والملابسات التى صاحبتها، وفيما يلى نص التقرير(19).

غادر خليفة بن شخبوط أبوظبى ومعه أربع مائة وخمسون مركبا من جميع الاحجام بغرض شن هجوم على العديد، وكان قد وصل إلى هناك فى الرابع عشر من شهر مايو ، مما أثار الرعب والهلع بين سكان العديد، الذين لم يصدقوا من قبل انه كان جادا فى نواياه القتالية. وبالرغم من أن أهالى دبى كانوا قد بعثوا بمركب لتحذيرهم، إلا أنه مكث لبعض الوقت فى عرض البحر، حيث كان يقوم بصيد اللؤلؤ، إلا أنه وصل قبل وصول خليفة بن شخبوط بخمسة أيام، وأوصل الرسائل التى كان يحملها ولكن القبيسات اصروا على رفضهم الوثوق بالمعلومات

التى وصلتهم، وذلك لان واحدا من أسرة البوفلاسة الذى كان قد وصل مؤخرا من الشارقة، أكد لهم أنه لا أساس لصحة هذه المعلومات، وإن حاكم أبوظبى لن يجرؤ على بدء القتال ضدهم لانه يعرف تمام المعرفة أن الشيخ مكتوم حاكم دبى والشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة سوف يقومان بشن هجوم عليه من الخلف. واعتماداً منهم على هذا الاعتقاد لم يقوموا بأية استعدادات، وفوجئوا بوصول حاكم أبوظبى على رأس قواته، ولم يكن لديهم أكثر من مئة وخمسين عبدا وخادما فى المدينة، ولكن كان هناك مركبان «بقارة» تابعان لدبى، وعلى متن أحدهما عبدالله بن بدر وابن أخ أو ابن أخت الشيخ مكتوم.

بغض النظر عما سبق، فقد اقيمت الاستعدادات للدفاع، وتم إرسال عشرة أفراد تحت قيادة غايب بن هامل لاحتلال البرج الذى يشرف على المياة الاقليمية، بينما اقام الباقون التحصينات فى المراكز الدفاعية الاخرى.

بعد ان وصل الشيخ خليفة إلى العديد بفترة قصيرة، وكان قد ترك خمسه عشر مركبا مقابل المدينة، توجه نحو البر، مقابل الابار حيث كان هو أول شخص يطأ الشاطئ بقدمه وما لبث أن اكتشف أمر الذين كانوا يحرسون آبار المياه، علما بأنهم لم يكونوا مزودين بالمدفعية. وقد شجعتهم هذه الظروف للقيام بهجوم عام تحت قيادة الشيخ نفسه، كما تمت اقامة سلالم بالاضافة الى الرماح التى بحوزتهم.

امطر رجال الحصن بنبالهم من جميع الجهات، وتم قتل جميع افراد الحامية بالسيف، وعندما رأى أهالى العديد ذلك، فقدوا الأمل فى المقاومة اذ أنهم فقدوا البرج البحرى، ولم يفكروا الا بالفرار، فامتطى كل من خادم بن نهيمان وشقيقه جواديهما ولاذا بالفرار، أما محمد بن علي وعبده وبعض أصدقائه فقد نجحوا فى ركوب «البقارة» الخاصة به فى البحر، وتبعتهم أربعة مراكب تابعة لأبوظبى، ولم يعرف ما إذا كانت قد لحقت به أم لا. أما بالنسبة للمركبين الخاصين بدبى فى «العديد»، فقد وصل أحدهما بسلام إلى مينائه فى دبى ومعه «بقارة» صغيرة تابعة لدبى، وعلى متنه اثنان وعشرون من السكان، إلا أن الحظ لم يحالف المركب الاخر، والذى كان على متنه ابن اخ أو ابن أخت الشيخ المكتوم وقريبه الذى يدعى عبدالله بن بدر، فيقال أن ملاحى المركب كانوا قد اشتركوا فى القتال، وعندما فقد الجميع، حاولوا الفرار حاملين معهم عشرين شخصا من السكان، إلا انهم وقعوا

فى أيدى قوات أبوظبى، فقتلوا مع خمسة من ملاحى المركب، ومن بينهم قريب لحاكم دبى، وقد صرح بعض أفراد قوات أبوظبى أن قريبى الحاكم قد قتلا وهما يقاتلان على البر. وبعد ان تم الاستيلا على المكان بعد حصاره، نقل الشيخ خليفة بن شخبوط جميع النساء والاطفال مع متاعهم، ودمر جميع الابراج والمنازل، ورمى فى الابار اثنتى عشرة جثة من القتلى، ثم قام برمى بقية الجثث فى الابار الأخرى ثم ملأها ببقايا الابراج المدمرة مزيلا كل أثر لهم، وحتى لايستخدموا تلك الآبار مرة أخرى. وكان من بين السكان تاجر بحرينى قد جاء إلى العديد لشراء بعض اللآلئ، ويقال بأنه كان يحمل أشياءً كثيرة ذات قيمة، منها بعض الأموال النقدية والأرز والاقمشة.

ويذكر البعض من قوات أبوظبى ان خمسين شخصا من الاعداء قد قتلوا كما تم أسر خمسين آخرين، واحتجار ثلاثين مركبا بالاضافة إلى «بقارة» و«بغلة» كان الشيخ سلطان بن صقر قد أعطاهما إلى محمد بن عتيق.

علمت أن الشيخ خليفة بن شخبوط كان قد بعث بسبعة مراكب إلى الوكرة لكى يطلب تسليم خمسة وعشرين رجلا من القبيسات الذين كانوا قد التجأوا إليه، بالاضافة إلى مركبين من مراكبهم كانا قد استعملا لهذا الغرض، وهو يخشى من أن يبدأوا عمليات سلب وما إلى ذلك. وكان الشيخ خليفة بن شحبوط ينوى العودة إلى أهالى دبى الذين تنتفخ صدروهم بالكبرياء ويميلون دائما إلى إثارة الفوضى والشغب. فعند معرفتهم بأن الشيخ خليفة بن شخبوط قد تلقى إذنا بالتوجه إلى العديد، سارعوا إلى اعلام أهل العديد بدلا من التزامهم الصمت كباقى القبائل، كما أنهم بعثوا برسلهم إلى الشيخ سلطان بن صقر، ويتهموننى بأننى كنت الوسيط الذى استطاع الشيخ خليفة بواسطته الحصول على اذن للقتال.

منذ ذلك الحين بعثوا بمركبين إلى جميع أفراد أسرهم الذين كانوا فى مغاصات اللؤلؤ. ويقول البعض ان الغرض من ارسال هذه المراكب كان لتحذيرهم من أى هجوم قد يحصل من جهة أبوظبى، ويقول البعض الآخر أنهم قد أدلوا بارشاداتهم إليهم لكى ينتهزوا أقرب فرصة للانتقام من أهالى أبوظبى لموت أقرباء شبخهم. لو أن الامر كان كذلك فإن أهالى أبوظبى لن يصبوا انتقامهم على رعايا الشيخ مكتوم فقط، بل أنهم سوف يقومون على الأرجح على حلفائه أيضا، كالشيخ سلطان بن صقر، وبذلك يكون قد تم خرق لموسم الصيد بأكمله.

لدى وصول الاثنين وعشرين هاربا من «العديد» إلى دبي بعث بهم الشيخ على متن مركب إلى «رأس الخيمة»، وقد طلب من الشيخ سلطان بن صقر ان يزودهم بمركب وبعض الرجال للتوجه إلى البحر سرا والبدء بشن الهجمات على أبوظبى. وعندما وصلوا إلى عاصمة رأس الخيمة وأبدوا للشيخ سلطان بن صقر عن رغباتهم، عبر الشيخ عن أسفه الشديد لسماع أنباء محاصرة العديد، وأخبرهم أنه من المستحيل الان وفى ظل هذه الظروف أن يزودهم بالمساعدة التى طلبوها، لان جميع المراكب الان فى مغاصات اللؤلؤ. ولكنه وعدهم بتنفيذ رغباتهم عند انتهاء موسم الصيد وعودة المراكب والرجال.

تابع الشيخ قائلا: إنه عندما جاء المقيم السياسى البريطانى لزيارة الساحل الغربى من اجل اقامة الصلح، فإنه لم يكن لديه (أى الشيخ سلطان) أية فكرة عن أنه قد سمح لخليفة بن شخبوط بشن الحرب على العديد. وعندما منحهم طلبا على الشارقة بمبلغ مئة كرون، أرسل بهم إلى ذلك المكان، وعندما استلموا المبلغ عادوا إلى دبى، وأخشى الان ان يقوم سكان دبى بتزويدهم سرا بوسائل الهجوم على أبوظبى. ولقد مضى وقت منذ ان زارت آخر سفينة حربية الساحل، ولا حاجة للتكرار بأن لا شيء يمنع ارتكاب الاعمال غير القانونية مثل زيارة الطرادات الحربية المستمرة للموانئ العربية.

2 ـ تقرير المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى:

بعث (س. هنيل) المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بمذكرة فى تاريخ 17/ 6/ 1837 إلى (ج.ب. ويلوغبى) وزير الدولة فى حكومة بومباى بعد استيلاء «أبوظبى» على «العديد» مباشرة، جاء فيها[20]: لى الشرف أن أبلغ حاكم المجلس الموقر عن الاستيلاء على «العديد» فى 14 من الشهر الجارى من قبل شيخ أبوظبى خليفة بن شخبوط. وقد تم نقل التفاصيل التامة لهذا الهجوم فى الرسالة المرفقة للوكيل من الشارقة، غير أننى لا أرى ضرورة الدخول فى دقائق هذا الهجوم.

يبدو من هذا التقرير أن أسرة القبيسات قد سمحت لنفسها أن تباغت على حين غرة، إذ فقدت خمسين رجلا لدى مقاومة قوات أبوظبى، وذلك عندما وجدوا ان المدخل إلى المياة العذبة قد عزل الباقين منه فاستسلموا. ومع ذلك

استطاع بعض زعماء القبيلة الهروب إلى الداخل، ونجح آخرون فى الافلات من سفن أبوظبى والوصول إلى عرض البحر فى قواربهم.

توجه الشيخ خليفة بن شخبوط لجعل هذه المنطقة غير مأهولة وذلك بهدم جميع الحصون والمبانى، وجعل الابار عديمة الفائدة بقذف جثث المذبوحين فيها، وملئها بعد ذلك إلى القمة بأنقاض الحصون وما جاورها. وبالرغم من ذلك، فهناك بعض الأسباب التى يخشى أن تؤدى إلى جر شيخ أبوظبى إلى الحرب مع شيخى دبى ورأس الخيمة بسبب عمله البطولى، فما زلت أنظر إلى أمر ترحيل قبيلة القبيسات من «العديد» على أنه أمر مفيد، إذ لم يعد للشيخ خليفة عذر فى أن يقلل من مسؤولية خط الساحل بأكمله، وهو الخط الواقع بين «العديد» وأبوظبى والمشتمل على منطقة «حيزان». ولقد تردد على جزيرة «بنى ياس» فى السنة الماضية الرجل الشرير قاسم بن جابر وأصحابه الخارجون عن القانون.

حول حجز قارب دبى فى «العديد» وفقدان بعض أفراد طاقمه الذين نوه عنهم الوكيل، فإننى لا أشك أن يثير الشيخ مكتوم هذا الحادث ليبرر قيامه بأية محاولة للمعاقبة، إما علنا بواسطة أسرته، أو سرا عن طريق دعم القبيسات الذين لجأوا إلى مينائه بهدف ارتكاب عدوان على أبوظبى.

ومع هذا فإننى أرى أن التدخل غير ملائم، ومخالف للاصول والقواعد البحرية لقاربى شيخ دبى فى العداءات القائمة بين الشيخ خليفة ورعاياه المتمردين، ولقد ثبت هذا تماما بواسطة نقل أحد القاربين عشرين من السكان، ومحاولة القارب الثانى القيام بنفس العمل. كما أرى أن يرفع اللوم فى انتهاك الهدنة عن كاهل حاكم أبوظبى ويوضع على عاتق شيخ دبى.

واضح من فحوى رد الشيخ سلطان بن صقر على أسرى «العديد»، والذين طلبوا منه الوسائل التى تمكنهم من مهاجمة قوارب أبوظبى، التحريض من شيخ دبى. كما إنه من الواضح أنه على الرغم من كونه ما زال يكره الاستيلاء على العديد، إلا أنه لا يميل إلى سحب رعاياه من مغاصات اللؤلؤ ليكون نصيرا للأسرة المهزومة. ولقد تأكدت من هذا الامر لدى تسلمى رسالة من شقيقه صالح شيخ الشارقة، وبعد الإشارة إلى نجاح شيخ أبوظبى، اعرب عن أمله أن لا يسمح له بأن ينفض الهدنة إذا تمت السيطرة على الروح المخادعة والمضطربة لشيخ دبى. ولدى أمل بأن تبقى الأمور هادئة على الاقل فى فترة صيد اللؤلؤ.

أرسلت الآن رسائل إلى شيخ دبى أحذره فيها من انه سيكون مسؤولا عن أى عمل عدوانى يرتكبه اللاجئون من «العديد» إلى منطقته، وسأرسل سفينة الشركة المبجلة الحربية (مكيف) بأقرب وقت لدى عودتها إلى هذا الميناء، وأعلن فيها عدم السماح له بانتهاك الهدنة أو اتخاذ أى اجراءات لها طبيعة عدائية حيال أبوظبى على الاقل قبل انتها الفترة المحددة له. وبالنسبة لقسم من تقرير الوكيل فيه أن الشيخ خليفة قد أرسل قوارب إلى الوكرة والبدع طالبا أن يسلم إليه أفراد معنيون ينتمون إلى العديد لجأوا إلى تلك المناطق. وفى ذلك الوقت وصلتنى أخبار أن الشيخ خليفة توجه شخصيا إلى ساحل قطر مكتفيا بتحذير الزعماء المجاورين بأنه سيعتبرهم جميعا مسؤولين فى حالة انتهاز أسرة القبيسات فرصة الحماية المقدمة إليهم ليقوموا بإزعاج رعاياه أو أتباعه.

علمت من الجميع أن سلوك الشيخ خليفة بن شخبوط يتميز بالاعتدال ازاء رعاياه المتمردين منذ أن قام بإخضاعهم مرة ثانية، واستعاد جميع الناس الذين تم ترحليهم إلى أبوظبى قواربهم، كما أصدر الشيخ عفوا عاما وصفح عن اللاجئين الذين ربما يختارون العودة، ووعد فى الوقت نفسه أن يرد لهم سفنهم وممتلكاتهم شريطة أن يسلكوا فى المستقبل سلوك الرعايا المطيعين والمسالمين.

ترتبت بعض النتائج على استعادة العديد، ومن أهمها عودة الاستقرار إلى المشيخة وعودة القبيسات إلى ديارهم.

نتائج الدراسة:

أولا: توجه القبيسات إلى دبى والتخوف من تطور الاوضاع فى امارات ساحل عمان: بعد دخول قوات أبوظبى إلى العديد واستعادته، هرب معظم أفراد القبيسات. فالبعض توجه إلى قطر، والبعض الاخر توجه إلى المشيخات الشمالية فى ساحل عمان، وخاصة إلى مشيخة دبى التى كانت تدعم الانفصاليين بغية ممارسة الضغط على أبوظبى واشغالها باتجاه «العديد» وإضعافها حتى لا تحاول استعادة المنشقين الذين أسسوا لانفسهم مشيخة دبى، ونتيجة لفشل شيخ القبيسات فى تحقيق الانفصال، أراد حكام دبى استخدامهم من جديد كورقة ضغط على أبوظبى، ولكن المقيم السياسى البريطانى حذرهم من الاخلال بالأمن أو تقديم أية مساعدة للقبيسات من أجل القيام بهجمات على أبوظبى. وطلب «س. هينل»

المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى من العميد البحرى القائد سرية الأسطول البريطانى فى الهند اصدار تعليمات إلى قائد السفينة الحربية التى كانت راسية فى ميناء «باسيدو» بجزيرة «قشم»، التوجه إلى الشارقة ودبى وتحذير الشيخ مكتوم حاكم دبى بأنه سيكون مسؤولا عن اية أعمال يقوم بها أفراد أسرة القبيسات، الذين اتخذوا من دبى ملجأ لهم، وفى حالة ارتكابهم أية أعمال مخلة بالأمن ومخالفة للأصول أثناء وجودهم تحت حماية شيخ دبى ضد سكان أبوظبى أو أفراد آخرين، فسيكون «مكتوم» مسؤولا عن أعمالهم تلك مسؤولية مباشرة[21].

أرسلت رسالتان إلى سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة، الأولى من المقيم السياسى البريطانى يقول فيها[22]: بالنسبة لرعايا دبى والذين قدموا لمساعدة القبيسات وقضى عليهم أثناء مهاجمة قوات أبوظبى للعديد، فإن خرق اتفاقية الهدنة قد تم من حكام دبى وسكانها، وإليك مزيدا من المعلومات بهذا الشأن:

أرسل أكثر من قاربين من قبل الشيخ مكتوم لتحذير أسرة القبيسات من الشيخ خليفة بن شخبوط على وشك مهاجمتهم، وعلمنا الان أن القتال قد جرى بين أفراد طاقم القاربين وقوات أبوظبى. ولو أنهم ذهبوا بهدف التزود بالماء لكان من الغريب أن القارب الذى احتجزه شيخ أبوظبى وهرب عائدا إلى دبى، كان مكتظا بأفراد من القبيسات وممتلكاتهم.

باختصار فإن تدخلهم بين الشيخ خليفة بن شخبوط وأعدائه سيؤدى إلى وقوع العواقب الوخيمة على رؤوسهم.

وفى الرسالة الثانية من مساعد المقيم السياسى البريطانى إلى سلطان بن صقر يقول:

أود إعلامك ردا على ما ذكرته فى رسالتك بأن الشيخ خليفة بن شخبوط قد استأذن لمهاجمة دبى، وأنه جرى إعلامك بشكل خاطئ حول هذا الموضوع، ومع ذلك إذا كان خليفة بن شخبوط قد استأذن، فليكن معلوما لديك أنه لن يمنح أى إذن للقيام بذلك طالما اتفاقيات الهدنة سارية المفعول، كما أنه لن يسمح للزعماء الذين وقعوا على وثيقة الهدنة أن يعلنوا الحرب ضد بعضهم البعض فى الفترة المحددة فى وثيقة الهدنة.

تأسف الحكومة البريطانية جدا عندما ترى أن التفاهم التام الذى استمر طوال

السنوات العشر الماضية بين مشايخ العرب قد تلاشى، وطالما أن حروبهم مع بعض ظاهرة للعيان ومعترف بها، فإن الحكومة البريطانية لن تتدخل فى أية منازعات داخلية. وأنا واثق أن خليفة بن شخبوط ليست لديه النية فى مهاجمة دبى كما ذكرت، ولكن تحت أى ظرف من الظروف سيكون لك ولا شك مطلق الحرية فى دعم أصدقائك وحلفائك فى الساحل العربى فى حالة مهاجمتهم من قبل قوى أخرى[23].

هذه إشارة واضحة لمساعدة شيخ رأس الخيمة لحاكم دبى فى حال مهاجمتها من أبوظبى، أى أن السياسة البريطانية لم تكن تهتم بانهاء المنازعات أو فرض الأمن إلا إذا كان ذلك يشكل تهديدا لمصالحها وليس لمصالح مشيخات ساحل عمان.

تأكيدا على هذه السياسة فقد بعث (س. هنيل) المقيم البريطانى تقريرا عن ذلك إلى (ج.ب.ويلوغبى) رئيس حكومة بومباى بتاريخ 1837/7/15 جاء فيه[24]: على الرغم من الازعاج والفزع المستقرين فى أذهان شيوخ رأس الخيمة ودبى بسبب استيلاء وتدمير العديد من قبل خليفة بن شخبوط، إلا أنه لم تجر أعمال عدوانية أو ارتكاب لأى حوادث «قرصنة» سواء من قبل جماعة خادم بن نهيمان أو معظم أفراد القبيسات الذين هربوا لدى سقوط بلدتهم، وتم اقناعهم بوضع شروط مرضية عقدها حاكم أبوظبى معهم للعودة والاستقرار فى ديارهم فى أبوظبى، ومن المحتمل أن يحذو حذوهم بقية الهاربين. وهكذا فإن حدوث اضطرابات نتيجة محاولاتهم للثأر من الطرف المعتدى سيتقلص بشكل نسبى.

ولى أمل كبير أن لايحدث انتهاك للهدنة يستدعى تدخلنا، ولكن تحت أى ظرف من الظروف سأعتبر أنه من واجبى أن أبذل قصارى جهدى للمحافظة على عدم انتهاك هذه الهدنة، وفيما يتعلق بالاعتقاد بوجهة النظر التى أبداها الشيخ سلطان بن صقر من أن شيخ أبوظبى قد أضمر نوايا سيئة حيال دبى، أرى أنه من غير المحتمل اطلاقا أن يكون الشيخ خليفة بن شخبوط قد تشجع نتيجة للنجاح الذى لاقته حملته على العديد لأن يحاول إعادة دبى تحت سيطرته. ومع ذلك صرحت فى رسالتى الموجهة إلى شيخ رأس الخيمة، أن الشيخ خليفة بن شخبوط لم يصرح لى عن نوايا كهذه، وإذا استأذن فيما بعد لمهاجمة دبى خلال فترة الهدنة

فسأرد عليه برفض قاطع. وفى حالة تقديم طلب الاذن بعد فصل صيد اللؤلؤ، فسأخبره بضرورة الرجوع إلى الحكومة قبل اعطائه ردا محددا بهذا الخصوص.

فى حين بعث مكتوم بن بطى شيخ دبى برسالة إلى المقيم السياسى البريطانى بالوكالة بتاريخ 22/ 7/ 1837، يحاول فيها تبرئة نفسه من تهمة مساعدة القبيسات التى وجهتها إليه بريطانيا، ويطلب إعادة بعض ممتلكاته التى فقدت أثناء مهاجمة العديد، وقد جاء فيها[25]: سبق أن أعلمتنا أن سفينتى (بقرة) العائدتين لنا قد غادرتا (العديد) للمشاركة فى الحرب ضد خليفة وأنك بعيد النظر ومتفهم للأمور أكثر من الآخرين، وإذا تلقيت أنباء تعود إلى سفينتى «البقارة»، فأرجو أن تسمح لى باعلامك أننا لو كنا ننوى القيام بمساعدة العديد فى الحرب لما اتفقنا قبل ابرام الهدنة دون أن تعلما بالعمليات التى عزم على القيام بها الشيخ خليفة بن شخبوط، وبعد أن شاهدتا قوة تقترب منهما هربتا كلتاهما ودخلتا «خور العديد»، ولدى وصول خليفة تم احتجازهما، وبعد أن استولى الشيخ خليفة بن شخبوط على «العديد» حاولت السفينتان الهرب، ألا أنه تمت مطاردتهما وتم الاستيلاء على إحداهما وقتل أفراد طاقمها بعد 24 ساعة من الاستيلاء عليها. ولن نقوم بأى عمل يغاير رغباتكم، ونفيدكم أن رجالنا الذين قتلوا كانوا تحت حمايتكم.

سبق أن ذكرت أن الأربعة والعشرين رجلا من أهالى العديد هم معنا، وأننا بالتعاون معهم فقد نقضنا الهدنة، ولكن إذا كان بوسع هؤلاء الرجال أن يقدموا لنا مساعدة فعالة فإنهم سيظهرون قوتهم وهم فى بلدهم.

لم نبعث بالرسالة الموجهة إلى عبدالله بن أحمد التى سبق أن أرسلتها الينا، وكنت ترغب أن تبعث بها إلى البحرين، نظرا لأننا نخاف من الشيخ خليفة بن شخبوط لذا نعيدها إليك راجين أن تقوم بإرسالها عن طريق أية سفينة من سفن الحكومة التى قد تتوجه إلى البحرين، فيكون ذلك كرما منك ويرجى إعلامنا لدى استلامك الرد عنها.

ثانيا: فقدان بعض الممتلكات الخاصة والأضرار الناجمة عن الهجوم: لاشك أن أى هجوم أو معركة لابد أن تخلف وراءها دمارا تبعا لنوع الهجوم وقوته، وخاصة عندما هاجمت أربعمائة سفينة وما عليها من قوات منطقة «العديد»، التى لا تتجاوز قواتها ثلاثمائة مقاتل، فإنها لابد تخلف دمارا وأضرارا ليس للقبيسات فقط، وإنما لغيرهم من المقيمين فى «العديد» أو القادمين أو العائدين، من التجار

وغيرهم. ومن هذا الأضرار فقدان بعض الممتلكات لتجار المنطقة. وخاصة تجار البحرين الذين كانوا فى «العديد» أثناء المعارك، فقام حاكم البحرين عبدالله بن أحمد بكتابة رسالة عن سرقة ممتلكات بعض من تجار البحرين وفقدانها. ورد عليه المقيم السياسى البريطانى فى 28/ 6/ 1837 برسالة يقول فيها[26]: بالنسبة لما ذكرت حول سرقة ممتلكات التجار المعنيين والمقيمين فى «العديد»، والتى قام بها أفراد من قوات أبوظبى لدى استيلائهم على «العديد»، فأود أن أعلمكم أن العداوة المستمرة بين أهالى أبوظبى والعديد مسألة غير محمودة السمعة، ومنذ أربعة أشهر قتل فى خيران أبوظبى (جمع خور للمياه الأقليمية فى أبوظبى) عدة أفراد من كلا الطرفين.

مضى الآن أكثر من عام منذ أن تسلم الشيخ خليفة بن شخبوط إذن الحكومة لاعادة رعاياه المتمردين إلى سلطته، وتحت هذه الظروف فإن هؤلاء الأفراد الذين استمروا فى الإقامة فى العديد، ذلك المكان الذى يجرى فيه القتال، يستحقون اللوم لأنهم عرضوا أنفسهم إلى خطر النهب مع المقيمين الآخرين عند مهاجمة مكان اقامتهم.

كما ذكرت فإننى لا أستطيع أن أطلب من الشيخ خليفة بن شخبوط التخلى عن الممتلكات المحتجزة، إلا أننى سأكتب له وأوضح له بطريقة ودية وذلك من أجل إزالة كل أسباب الفوضى والاضطراب، لذلك من المستحسن إعادة الحاجيات للأفراد والرعايا التابعين لسلطة شيوخ «العديد»، حيث إن الشيخ خليفة على وفاق ودى معهم، ولدى وصول رد منه فسأنتهز أول فرصة للاتصال معك مرة أخرى.

بعدما بعث المقيم السياسى البريطانى برسالة إلى خليفة بن شخبوط بتاريخ 6/ 7/ 1837، عن الأضرار التى لحقت بتجار البحرين مع نسخة من رسالة حاكمها يطلب فيها إذا أمكن استعادة تلك البضائع، وجاء فيها[27]: أود إعلامك أننى تسلمت مؤخرا رسالة من الشيخ عبدالله بن أحمد شيخ البحرين من قبل اتباعك حال استيلائهم على «العديد». وبما أننى متأكد أنه لدى بعض رعاياك المتمردين تحت سلطتك يعانون من ضيق، فأنا واثق بأنك ستتخذ اجراءات لاستعادة البضائع المأخوذة من الأفراد المذكورين آنفا واعادتها إلى أصحابها الشرعيين، وقد ارفقت لك لائحة بالممتلكات المذكورة لاعلامك بها.

ثالثا: عودة القبيسات إلى أبوظبى واستقرارهم فيها: برغم تصرفات

القبيسات وخروجهم عن سيادة أبوظبى، ومحاولة الاستقلال وعمل كيان خاص بهم، وبرغم فشلهم واستيلاء خليفة بن شخبوط على «العديد» ثم هروبهم والتجائهم إلى دبى، وعلى الرغم من اغراءات حاكم دبى للقبيسات لمهاجمة أبوظبى أو خلق المشكلات، إلا أن خليفة بن شخبوط تصرف بحكمة وسعة صدر عندما أصدر العفو العام عن جميع أفراد القبيسات، ورد إليهم جميع سفنهم وممتلكاتهم التى صودرت أثناء الحرب، أو بعدما تركوا أبوظبى، ثم قام بتقديم الاغراءات المادية السخية لتشجيعهم على الاستقرار والعمل من جديد تحت سيادة أبوظبى.

الخلاصة:

أتمنى أن أكون قد وفقت فى اعطاء الصورة الواضحة، من خلال الوثائق الرسمية لأطراف المشكلة المتمثلة فى محاولة شيخ القبيسات اقامة مشيخة مستقلة أسوة بمشيخة دبى التى أقيمت قبل ذلك بعامين، معتمدا على بريطانيا وعارضا عليها الدخول تحت حمايتها، وذلك باقتطاع الاجزاء الجنوبية الغربية من إمارة أبوظبى التى تعادل مساحة إمارة قطر والبحرين والكويت معا. ولكن بريطانيا رفضت ذلك لارتفاع تكاليف حماية الأمن والاستقرار، إضافة إلى قربها من قبائل وسط وشرق الجزيرة العربية، مما يصعب معه التحكم وتقديم الحماية الكافية.

لا ننسى أن بريطانيا كانت تشجع الانقسامات والتجزئة إضافة إلى حكام مشيخات الساحل العمانى أيضا، كما حدث لحاكمى دبى و«رأس الخيمة»، اللذين شجعا انفصال «العديد» عن أبوظبى، ولكنها عندما وجدت أن ذلك لا يتفق مع أمنها ومصالحها، مع ارتفاع تكاليف حمايتها، فإنها تخلت عن القبيسات، وسمحت لحاكم أبوظبى باسترجاع العديد، فعاد الاستقرار والأمن إلى مشيخات ساحل عمان من جديد.

ولكن المشكلة لم تنته عند هذا الحد، فقد هاجرت أسرة القبيسات للمرة الثانية عام 1849، ولكن حاكم أبوظبى استطاع اعادتها بالحكمة والدبلوماسية قبل تفاقم الأمور، ثم هاجرت الأسرة للمرة الثالثة عام 1869، وكادت بذلك أن تخلق مشكلة كبيرة، فبعد مجيء الحملة العثمانية عام 1871 ودخول حاكم قطر تحت السيادة العثمانية، وحدودها تتاخم منطقة «العديد» وبتشجيع من حاكمها الجديد قاسم بن ثانى، قامت أسرة القبيسات بالانفصال عن أبوظبى، ولكن هذا الانفصال كانت له أبعاد جديدة، وهذا ما سوف نتناوله فى بحث خاص.

الهوامش والمصادر ووثائق تنشر لأول مرة

(1) R/15/1/68 صفحة (180): رسالة من الوكيل البريطانى فى البحرين إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بتاريخ 23/ 9/ 1835.

(2) R/15/1/68 صفحة (204 ـ205): رسالة من خليفة بن شخبوط إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى 15/ 11/ 1835.

(3) R/15/1/69 صفحة (7): من «ويلوغبى» وزير الدولة فى حكومة بومباى إلى المقيم بالوكالة فى الخليج العربى 9/ 7/ 1836.

(4) R/15/1/69 صفحة (11): من «ويلوغبى» وزير الدولة فى حكومة بومباى إلى المقيم بالوكالة فى الخليج العربى، رقم (1690) 9/ 9/ 1836.

(5) R/15/1/69 صفحة (43): من مكتب الأشراف ـ بومباى إلى المكتب الكابتن «س. هنيل» مساعد المقيم السياسى البريطانى بالوكالة فى الخليج العربى، رقم 2622 (17/ 12/ 1836).

(6) R/15/1/69 صفحة (13): من «و.هـ. وولترس» رئيس الحكومة إلى المقيم السياسى البريطانى بالوكالة فى الخليج العربى، قلعة بومباى 29/ 10/ 1836.

(7) R/15/1/69 من «و.هـ. وولترس» رئيس الحكومة إلى المقيم السياسى البريطانى بالوكالة فى الخليج العربى، رقم (2055)، ـ قلعة بومباى ـ 20/ 10/ 1836.

(8) R/15/1/69 صفحة (26): من ويلوغبى وزير الدولة فى حكومة بومباى إلى المقيم السياسى البريطانى بالوكالة فى الخليج العربى، رقم (2183) قلعة بومباى (19/ 11/ 1836).

(9) R/15/1/69 صفحة (24): من خادم بن نهيمان شيخ العديد إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى (7/ 1/ 1837).

(10) R/15/1/75 صفحة (81): رسالة من ملا حسين الوكيل البريطانى فى الشارقة إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى (23/ 3/ 1837).

(11) R/15/1/75 صفحة (49): من الوكيل البريطانى فى البحرين إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى (5/ 4/ 1837).

(12) R/15/1/75 صفحة (17 ـ 18) : من «س. هنيل» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلى «ج.ب. ويلوغبى» رئيس حكومة بومباى، الدائرة السياسية 9/ 4/ 1837.

(13) R/15/1/75 صفحة (13ـ 17) : من المقيم السياسى البريطانى فى الخيج العربى إلى «ج. ب. ويلوغبى» وزير الدولة فى حكومة بومباى 29/ 4/ 1837 صفحة التقرير الثانية.

(14) R/15/1/75 صفحة (31 ـ 32): من الوكيل البريطانى فى البحرين إلى المقيم السياسى البريطانى بالوكالة فى الخليج العربى (6/ 5/ 1837).

(15) R/15/1/75 من الوكيل البريطانى فى البحرين إلى المقيم السياسى البريطانى بالوكالة فى الخليج العربى (6/ 5/ 1837).

(16) R/15/1/75 صفحة (123): من الوكيل البريطانى فى مسقط إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بالوكالة عام (1837).

(17) R/15/1/75 صفحة (13 ـ 17): من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلى «ج. ب. ويلوغبى» وزير الدولة فى حكومة بومباى (29/ 4/ 1837)، صفحة التقرير رقم (4).

(18) R/15/1/75 صفحة (64 ـ 66): من الوكيل البريطانى فى البحرين إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بالوكالة 24/ 5/ 1837.

(19) R/15/1/75 صفحة (69 ـ 76): من ملا حسين الوكيل البريطانى فى الشارقة إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى (1/ 6/ 1837).

(20) R/15/1/75 صفحة (66 ـ 72): من «س. هنيل» المقيم البريطانى فى الخليج العربى إلى «ج.ب. ويلوغبى» وزير الدولة فى حكومة بومباى (17/ 6/ 1837).

(21) R/15/1/72 صفحة (66 ـ 72): من «س. هنيل» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلى العميد البحرى قائد سرية الأسطول البحرى الهندى (14/ 6/ 1837).

(22) R/15/1/74 صفحة (5 ـ 6) من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلى الشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة (14/ 7/ 1837).

(23) R/15/1/74 صفحة (5 ـ 6): من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بالوكالة إلى الشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة (14/ 7/ 1837).

(24) R/15/1/72 صفحة (88 ـ 90): من «سى . هنيل» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلى «ج. ب. ويلوغبى» رئيس حكومة بومباى (15/ 7/ 1837).

(25) R/15/1/75 صفحة (141 ـ 142): من مكتوم بن بطى حاكم دبى إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بالوكالة (22/ 7/ 1837).

(26) R/15/1/74 صفحة (2 ـ 3) : من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلى الشيخ عبدالله بن أحمد حاكم البحرين (28/ 6/ 1837).

(27) R/15/1/74 صفحة (4): من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلى الشيخ خليفة بن شخبوط حاكم أبوظبى (6/ 7/ 1837).

الفصل الرابع



محاولة انفصال العديد عن أبو ظبي والموقف البريطاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

«دراسة من خلال المراسلات الرسمية»

نشر هذا البحث في ـ المجلة العربية للعلوم الإنسانية العدد ـ التاسع والأربعون ـ السنة الثالثة عشرة خريف عام 1994 ـ الكويت.

مقدمة

يحتوى هذا البحث على هجرة القبيسات وهى فرع من تحالف بنى ياس التى تقطن فى صحراء ليوا بمشيخة أبو ظبى على أطراف الربع الخالى، وقد هاجرت أسرة القبيسات ثلاث مرات إلى منطقة «العديد»، وقد أدت هجرتها الثالثة والأخيرة إلى قيام مشكلة بين حاكم أبوظبى وبريطانيا حول هذه الأسرة المنشقة.

كما أدى إلى التغير فى الموقف البريطانى من سياسة التجزئة فى ساحل عمان إلى المحافظة على وحدة أراضى مشيخة أبوظبى، ليس حفاظا على تلك المشيخة ولكن خوفا من التدخل العثمانى بعدما دخل المنشقون القبيسات تحت سيادة حاكم قطر الذى كان خاضعا للسيادة العثمانية.

قد لا يكون هذا البحث ذا أهمية حاليا، ولكنه فى المستقبل القريب إن لم يكن البعيد ستكون له أهمية قصوى، وسوف يشهد صراعا عنيفا حول ملكية وسيادة منطقة العديد. نظرا لما تحتوى عليه من احتياطى كبير للبترول حسب تقارير الشركات الأمريكية واليابانية، إضافة إلى موقعها الفريد. وهناك بعض المشاكل التى دفنت حية تحت التراب بين الدول المجاورة لها لأسباب سياسية، ولست أريد أن أوضح أكثر من هذا لأن المهتم بها سوف يعرف أهميتها جيدا.

خور العديد:

يقع هذا الخور على شاطئ مشيخة أبوظبى عند أقصى نهايتها الغربية بحوالى مائة وثمانين ميلا تقريبا إلى الغرب من مدينة أبو ظبى، وتقع حدود مشيخة قطر قريبا من هذا المدخل أو إلى جواره مباشرة[1]. ولا يوجد هناك أية حياة الآن، ولكن بعض الصيادين يستخدمونها فى فصول الشتاء لاصطياد بعض أنواع الأسماك الجيدة، أما القرية التى سكنها القبيسات فكانت تقع على الجانب الجنوبى من الخور وعلى مقربة من المدخل، وكانت تتكون من مائة منزل تقريبا وكان السكان يعيشون على صيد الأسماك ويشربون المياه من أربع آبار على بعد أقل من ميل وتحتوى على مياه حلوة على عمق قامتين وليس فيها مزارع أو نخيل. وكان يوجد فى عام 1856 حصن له برجان فى المدخل وسبعة أبراج أخرى متفرقة وحصن صغيرة لحماية الآبار بناها سكان المنطقة.

تعود مشكلة «العديد» إلى هجرة القبيسات، علما بأن هذه الأسرة كانت قد هاجرت عدة مرات من أبو ظبى إلى منطقة العديد نتيجة للخلافات التى كانت تنشأ مع حكام أبوظبى، ولكن الهجرة الثالثة والأخيرة أدت إلى ظهور مشكلة سوف نتناولها بالتوضيح.

هجرة القبيسات الثالثة إلى العديد عام 1869:

حاولت هذه الأسرة الانفصال للمرة الثالثة فى عام 1869، وأعلنت أنها لا ترضى بحكم زايد وانتقلت فى أعداد كبيرة إلى العديد[2]، بزعامة الشيخ بطى بن خادم القبيسى وخلعوا عنهم ولاءهم لحاكم أبوظبى[3]، واستقرت بعض أفرادها فى جزيرة «دلما» القريبة من سواحل «العديد»، واعتادوا بجلب المياه العذبة إليها فى أيام الغوص من آبار «العديد» وآبار سكاك وأمباك القريبة منها فى جنوب شبه جزيرة قطر والتى قد حفرها أفراد من قبيلة «بنى هاجر» و«آل مرة»، كما اعتادت بعض أفراد من «المناصير» المجىء إلى العديد فى فصل الشتاء[4].

ترجع هجرة القبيسات إلى عدة أسباب منها، وجود إغراء خارجى كما يقول لوريمر والذى كان قريبا من الأحداث «بأنه ليس هناك شىء يميز طابع هؤلاء البدو من رعايا شيخ أبوظبى أكثر من استعدادهم بعد أى إغراء طفيف لترك ديارهم

وللاستقرار فى أى مكان آخر، وكما حدثت هجرة البوفلاسة فى عام 1823، وهجرة القبيسات فى عام (1835 ـ 1849) وهذه المحاولة لتحرير أنفسهم من سيطرة حاكم أبوظبى بانتقالهم للإقامة بعيدا عنه ولأسباب لم تتأكد لنا، وقد تكون أسبابا تافهة لا قيمة لها»[5].

نعتقد أنه كانت محاولة بطى بن خادم القبيسى إعادة ما فعله والده خادم بن نهيمان القبيسى فى عهد خليفة بن شخبوط، تأسيس مشيخة مستقلة بزعامته، ومن المؤكد أن بطى كان قد أجرى الاتصالات مع المشيخة الناشئة فى قطر بزعامة قاسم بن محمد بن ثانى، وهو الذى كان يتطلع للثأر من زايد بن خليفة لهجومه على مدينة الدوحة وتدميرها فى موقعة خراب الدوحة الثانى عام 1867.

نشأت باستقرار القبيسات مشكلة ولكنها لم تكن جديدة على مشيخة أبوظبى ولا على حكم زايد بن خليفة[6]، وفى تاريخ 25/ 8/ 1869 أرسل بطى بن خادم القبيسى رسالة إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى، يطلب فيها حمايته من الشيخ زايد بن خليفة ويبدو أنه تطلع إلى تكوين مشيخة مستقلة أسوة بجيرانه طالبا الحماية البريطانية شارحا موقفه بقوله[7]:

«أنتمى إلى قطر منذ أن كان والدى وأجدادى فيها، وكنا قد أقمنا فى «العديد» وكان لنا فيها منازل ما زالت قائمة حتى الآن، وأجبرنا الشيخ خليفة بن شخبوط على مغادرة «العديد» وأخضعنا لإرادته، اضطررنا للموافقة على الذهاب إلى أبوظبى حيث عوملنا فيها بكل احترام، وبقينا معه لمدة قصيرة، قام الشيخ زايد بإقناعنا بالمجىء إلى قطر مع قواته (ويقصد مشاركة زايد فى حملة مع البحرين للقضاء على انفصال قطر فى وقعة خراب الدوحة الثانى عام 1867 ثم ذهبنا إلى الشارقة ونشبت معركة بيننا وبين أهالى الشارقة حيث قتل الشيخ خالد بن سلطان ثم عدنا فيما بعد إلى أبو ظبى وعلمنا أن الحكومة البريطانية لا توافق على هذه الأعمال».

يتضح من هذا بأن شيخ القبيسات يجد المبررات لانفصاله عن أبوظبى سواء بانتقال أجداده أو بعدم موافقته على الأعمال التى لا توافق عليها بريطانيا كالتى قام بها زايد فى قطر والشارقة والأعمال التى تصف بريطانيا بأنها إخلال بأمن المنطقة. ويتابع قوله[8]:

«لذا فقد انتقلنا من أبو ظبى إلى قطر حيث وجدناها تحت حماية الحكومة البريطانية (ويقصد اتفاقية 1868 بين بريطانيا والشيخ محمد بن ثانى) والناس هناك يعيشون فى سلام.

هدفنا هو أن نعيش بسلام ونكسب رزقنا، ولذا نود من الحكومة أن تبقينا تحت حمايتها وبهذا لا يمكن لأحد أن يتدخل بشئوننا.

الرجاء أن تزودونا بعلم وبذلك نكون فى أمان من الظلم.

وإذا لاحظتم أننا نتصرف عكس رغباتكم فباستطاعتكم أن تفرضوا علينا غرامة وأن تعاقبونا. نود الحصول على الرسالة التى تمنحنا هذه الحماية كى يعلم الجميع أننا تحت حماية الحكومة البريطانية وهذا هو هدفنا».

يتبين من هذا بأن القبيسات فكروا فى تكوين مشيخة صغيرة مستقلة ترفع علم مشيخات ساحل عمان تحت الحماية البريطانية، وإن شيخهم بطى بن خادم القبيسى رأى أن إعلان ولائه لقطر، مع تبعية «العديد»، أجدى وأنفع له[9]، وبان تصبح منطقة «العديد» مستقلة فيما بعد.

كما أكد القبيسات بأن جذورهم تمتد من «رأس الحالة» فى الشمال من منتصف الطريق فيما بين «العديد» و«الوكرة» إلى الجنوب والشرق على ساحل أبوظبى حتى نقطة فى مواجهة جزيرة «صير بنى ياس» وأدخلوا جزيرة دلما وغيرها من الجزر المجاورة التى تعتبر تابعة لأبوظبى[10].

أرسل الكولونيل «لويس بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر، رسالة بتاريخ 28/ 8/ 1869 إلى وزير الدولة فى الدائرة السياسية فى بومباى، ردا على رسالة شيخ القبيسات يقول فيها[11]:

«إن شيخ القبيسات بحد ذاته لا يتمتع بأهمية فائقة إلا أن رسالته التى تدور حول مراسلاته مع بقية الزعماء والتى قدمها لى الآن ذات اهمية حيث تدل على الرغبة الزائدة بترك عرب الساحل للقرصنة والسلب وتكريس انفسهم لصيد اللؤلؤ وبعض الأعمال المسالمة الأخرى. فقد جاء الشيخ شخصيا إلى «بوشهر» ليشرح لى وجهة نظره حول مدى صدق اقواله».

يتضح من الرسالة استمرار بريطانيا بإطلاق تسمية القراصنة على عرب ساحل عمان برغم فرضها عدة معاهدات ابتداء من عام 1820 إلى معاهدات الصلح البحرى، كما استمرت فى مناقشة هذا الموضوع ولم تحدد موقفها بوضوح، برغم موافقتها ضمنيا على إقامة القبيسات فى «العديد»، وذلك بعدم منعهم من الانفصال عن أبوظبى. لو قبلت بريطانيا هذا الأمر أو ما جاء فى رسالة شيخ القبيسات، لتكونت فعلا مشيخة عربية جديدة منفصلة عن أبو ظبى تقع جنوب قطر[12]، ولم يكن بوسع السلطات البريطانية اتخاذ موقف محدد إزاء تلك المنطقة، لأن رجالها يتبعون سياسة التجزئة تجاه مشيخات ساحل عمان، ويشجعون على قيام دويلات منفصلة، ولذا فإنهم اعتبروا «العديد» تابعا لقطر عند عقد اتفاقية 1868[13]، مع الشيخ محمد بن ثانى.

وفيما بعد وافقت بريطانيا على إقامة القبيسات فى «العديد» عندما أرسل المقيم السياسى البريطانى فى أغسطس 1869 بالموافقة على عودة القبيسات لسكن ديارهم القديمة، ولكن الموقف السياسى للمنطقة تغير عندما وصل العثمانيون فى حملة مدحت باشا إلى مدينة الدوحة، واتجهت أنظارهم بعد ذلك إلى الساحل الجنوبى للخليج العربى[14]. وهذه التطورات الجديدة أملت على بريطانيا أن تراجع حساباتها وأن تقف بجانب حاكم أبو ظبى والذى يرتبط باتفاقيات معها، وخشى البريطانيون من امتداد السيطرة العثمانية واستطاع زايد بن خليفة استغلال هذا الموقف لصالحه بعد منافسة المستوطنة الجديدة التى باتت تهدد اقتصاد مدينة أبوظبى، كما أنها أصبحت ملجأ يأوى إليه كل هارب من أداء دينه، فطالبهم بالوقوف معه أمام مشكلة الانفصال القبلى فى تحالف بنى ياس بخروج أسرة منها وهم جماعة القبيسات واستيطانهم فى العديد.

زايد يطالب باستعادة «العديد»:

بعد المساعدات التى تلقاها القبيسات من الشيخ قاسم بن ثانى حاكم قطر الجديد، طالب زايد بن خليفة بإعادة العديد والقبيسات إلى مشيخة أبوظبى بالصفة القانونية، ولكن المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى المقدم «بيلى» رفض هذا الطلب بحجة المحافظة على أمن الخليج العربى، ولكن زايد بن خليفة كرر الكتابة

إليه مذكرا الحكومة البريطانية بأن انفصال العديد عن أبوظبى يعتبر أمرا غير قانونى وأن «العديد» ستصبح ملجأ للهاربين كما تشكل خطرا على الملاحة البريطانية وتهدد مصالحها فى المنطقة، ولذا فإنه ستقوم قوات عسكرية لضرب بطى بن خادم القبيسى وأنه لن يستطيع السكوت أكثر مما هو عليه. بعد مطالبة زايد بن خليفة استعادة العديد بموجب معاهدة السلم الدائمة لعام 1853، وللظروف المستجدة على الساحة السياسية بعد وصول العثمانيين إلى المنطقة، كان المقيم السياسى البريطانى غير متأكد من تبعية «العديد» لأبوظبى حسب قوله، ورغبة منه فى تحرى الحقائق حول تبعية هذه المنطقة، أرسل مساعده «سميث» يزوده بالمعلومات الصحيحة عن كثب. كما قام بنفسه بإجراء أبحاث مستفيضه بهذا الخصوص.

وبعدها بعث العقيد «بيلى» مذكرة إلى حكومته يقول فيها:

«لما كنت غير واثق من أن «العديد» يمت فعلا إلى حاكم أبوظبى، ولما كنت راغبا فى مزيد من التحقق من أن مخاوف زايد تستند إلى مبررات صحيحة، فقد طلبت إلى الرائد «سميث»، أن يولى أثناء زيارته للساحل العربى هذه القضايا اهتمامه. ووصل الرائد «سميث» إلى الرأى القائل بأن «العديد» يمت إلى ابوظبى وأن مدن الشيخ تضررت تجاريا ضررا بالغا. ووجود هذه الأسرة ومستوطناتها إن عاجلا أو آجلا سيؤدى إلى اصطدام فى البحر».

يتابع قوله: «إننى رجوت شيخ أبوظبى مؤقتا عن عدم القيام بأى عمل فى البحر، ووصلت تحرياتى التى استندت فيها إلى الكثير من المصادر المستقلة فى مختلف مناطق الخليج العربى، والمعلومات التى جمعتها إلى الاستنتاج بأن «العديد» تتبع لأبوظبى بينما يتجاهلها حاكم قطر الذى تقع أراضيه على الجانب الآخر. ولقد وجهت رسالة بناء على تلك المعطيات إلى الأشخاص المقيمين فى «العديد»، وحذرتهم من أن عليهم إذا رغبوا فى الإقامة فى الأراضى التابعة لشيخ أبوظبى، أن ينسجموا مع حكمه»(15).

رد سكان «العديد» على قرار المقيم السياسى البريطانى مذكرينه بما قاله شيخهم بأن القبيسات عادوا إلى «العديد» بعد موافقة المقيم السياسى البريطانى بموجب رسالته المرسلة فى اغسطس عام 1869، ومما قاله شيخهم «إننا إذا آثرنا أن

نعــود إلى سكن ديارنا القديمــة قلنا أن نفــعل وذلك فى وسعنا أن نثـبت أن هذه الديار هى ديارنا القديمة»[16].

بوصول العثمـانيين إلى الدوحة، واعتراف قاسم بن ثانى بالسلطة العـثمانية شجع القبيـسات المطالبة بالاستقلال، وعند زيارة الرائد «سمـيث» للعديد فى نهاية شهر يوليـو لم يكتف بطى بن خادم برفضه العودة إلـى أبوظبى، وإنما حدد المنطقة التى يدعى السيـادة المستقلة عـليها، وهى تشـمل أراضى كثيـرة من إمارة أبوظبى وجزره مما أغضب «سميث» وجعله يعلق قـائلا إن مثل هذا الادعاء يمثل أكثر من نصف أراضى أبوظبى[17].

يبدو أن مهـمة «سميث» لم تنجح، لأن بطى بن خادم القـبيسى رفع العلم العثمانـى فوق قصره وطرد النقيب «سمـيث» وأعلن تبعيته لمشيـخة قطر التى تتبع الدولة العثمانية. ولولا التوسع العثمـانى لكان لهذه المشيخة أن تنجح فى انفصالها عن أبوظبى، ودخـولها فى معـاهدة مع بريطانيـا، وعلى كل فـإن «سمـيث» قدم تقريره، وجـاء فيه: «إن العـديد تتبع أبوظبى فـعلا وأن قيـام ذلك الوطن الجديد سيكون مـوئلا للفوضى ويـؤثر على أمن المنطقة، وسـيؤدى إلى صـدام بحرى لا محالة» وبعد أن استلم «بيلى» ذلك التقرير أعلن فى مايو 1871 ضم «العديد» إلى أبوظبى، وكان وكيل الخارجية فى حكومة الهند المستر «إينتشن» قد أعلن بأن المقدم «بيلى» قد أنهى موقف التردد من مشكلة العديد[18].

مع ذلك فإن الـسياسة البريطانيـة تجاه قضية «العـديد» كانت متحـفظة لعدة سنوات ولم تكن واضحة نتيجة لتواجد القوات العثمانية فى المنطقة، كما طرأ تغير شكلى متحفظ على رأى «بيلى» فى 31 يوليو 1871، فقد كـانت وجهة نظره بأن تسـوى المسألة سلمـيا بين زايد بن خليفـة وسكان «العـديد»، وكان يخـاف من تعقيدات المشكلة بسبب العثمانيين، فبرغم اعترافه بأن طلب زايد بن خليفة إرجاع من خرجوا عن طاعتـه حق من حقوقه المشروعة وأنه يتمـشى مع أحكام اتفاقيات الهدنة البـحرية، إلا أن الحكومة البريطانيـة اعترضت عندما طلب زايد بن خـليفة السمـاح له باستخدام سـفنه لنقل قواته ضد القـبيسات فى «العـديد»، وقد يرجع سبـب رفض بريطانيا إلى اعـتراض سكان «العـديد» على محـاولة إرجاعـهم إلى

ابوظبى، وأعلنوا أنهم مستقلون تحت راية اتفاقيات الهدنه البحرية، وقد حدد شيخهم حدود إمارته وأقربأن هذه الأرض هى موطنهم القديم الذى دافعوا عنه سابقا ضد حاكم أبوظبى وأنهم لا يعترفون بزايد بن خليفة شيخا عليهم وإنما بطى بن خادم القبيسى هو الحاكم الحقيقى للقبيسات، وأنهم لا يفكرون فى تعكير السلام فى البحر، كما أنهم عاجزو عن القيام بأى عملية بحرية، وكان والده قد تسلم العلم المحايد الذى يجوب البحر دائما فى ظله فهم لايعلقون آمالهم على دولة سوى بريطانيا، وأقروا بأن العلم العثمانى قد عرض عليهم بواسطة الشيخ قاسم بن ثانى وأنهم رفضوه لأنهم تحت الحماية البريطانية[19].

فى حين بعث زايد بن خليفة برسالة إلى المقيم السياسى البريطانى فى 20/ 9/ 1871 يقول فيها:

«كنت قد كتبت لى فيما يتعلق بممتلكاتى فى «العديد»، وإنك تحدثت الى الحكومة البريطانية حول هذا الموضوع، وإنك ستتصل بى على الفور لدى وصول الأوامر من الحكومة. ومن المؤكد أنك ستهتم بهذا الموضوع، مع العلم بأنى أقوم بمراسلتك منذ ثلاث سنوات، ومن المحتمل أنه قد ثبت لديك أن «العديد» تعود إلى منذ قديم الزمن حتى الآن، مع أنه انقضى وقت طويل وقد علمت بما قمت به إزاء المقيمين الذين قاموا بأعمال مخلة فى الأراضى العائدة إلينا، فقد عانيت الكثير ولكنى كنت دائما أستمع إلى نصائحك فأنا أثق بالله أولا ثم بك»[20].

استلم المقيم السياسى البريطانى هذه الرسالة، ورفعها إلى وزير الدولة فى الدائرة السياسية «ببومباى» فى 1/ 11/ 1871، قائلا فيها:

«عطفا على رسالتى وإلى المراسلات السابقة المتعلقة بالنزاع بين شيخ أبوظبى والمستوطنين فى «العديد»، تسلمت رسالة من شيخ أبوظبى والتى يرغب فيها بإلحاح معرفة رأى الحكومة حول هذا الموضوع.

أخشى أن يتعقد هذا الأمر الدقيق بسبب النفوذ التركى فى الخليج العربى، وصلتنى التقارير والإشاعات فى أكثر من مناسبة والتى مفادها أن المستوطنين فى «العديد»، يرفعون العلم التركى أيام الجمع، من المحتمل أن تكون جميع هذه التقارير غير صحيحة ومهما كانت هذه التقارير، فمن الواضح أن الدافع للقيام بذلك كان مضمرا»[21].

لهذا فإن الحكومة الهندية قررت فى 2 مايو 1872، ألا تتدخل بين الجانبين أبوظبى و«العديد»، وعدم إعطاء إجابة واضحة عن نواياها الشيخ زايد بن خليفة إلا إذا وجد المقيم السياسى البريطانى أن العديد قد تهدد المصالح البريطانية أو إذا عزم العثمانيون على فرض سيادتهم على «العديد»[22].

لكن عندما تم رفع العلم العثمانى فوق قلعة «العديد» بدأ البريطانيون يرون فى مسألة «العديد»، قضية ذات أبعاد أخرى.

الاهتمام البريطانى «بالعديد»:

بوصول النفوذ العثمانى إلى الأحساء وقطر، فإن الاهتمام البريطانى بهذه المنطقة اتخذ طابعا مميزا، جعلها تخشى امتداد ذلك النفوذ على مشيخات ساحل عمان مما يكشف عن مخططات السياسة البريطانية فى المنطقة، والتى كانت تقتضى بتفكيكها ليسهل السيطرة عليها وتمزيق مشيخة أبو ظبى وخلق مشيخة ضعيفة وجديدة فى العديد تعتمد عليها كليا، ولكن مجىء العثمانيين وانضمام حاكم قطر لهم، ورفع بطى بن خادم القبيسى العلم العثمانى ومحاولاته ربط مستوطنة «العديد» بقطر، أفسد حسابات البريطانيين وأثار مخاوفهم من أن يؤدى ذلك إلى تغلغل النفوذ العثمانى عبر العديد إلى مشيخات ساحل عمان.

لهذا سارعت بريطانيا إلى مجابهة الموقف، واتصلت بزايد بن خليفة وأبلغته بأنها تؤيد حقه فى العديد، فى الوقت نفسه أبلغت حاكم العديد بأنه ورعاياه يتبعون أبوظبى وعليهم أن يعلنوا ذلك وبأن لا يلجأ زايد بن خليفة إلى تحقيق ذلك بالقوة[23].

رغم ذلك فإن المقيم السياسى البريطانى رفض طلب زايد باستخدام القوة لاسترجاعها. وطلب منه تأجيل النظر فى موضوع العديد إلى فرصة أخرى مناسبة، وقد يرجع ذلك إلى أن الموقف فى المنطقة كان يهدد بالانفجار، بينما تجاهل وجود الحامية العثمانية التى وصلت مدينة الدوحة فى قطر وجاورت «العديد»، إلا أنه كتب إلى حكومته محذرا بأن اقتراب العثمانيين من حدود المشيخات سيؤدى إلى إثارة المشاعر الإسلامية فى المنطقة واحتمال قيام تعاون بين الباب العالى وحكام مشيخات ساحل عمان.

ايقن زايد عام 1872، بأنه لا بد من تعليق موضوع استعادة «العديد» لأن الموقف السياسى لم يعد مواتيا لشن حملته العسكرية ضد الانفصاليين، لأن جميع المؤشرات كانت تدل على أن بريطانيا لن تسمح له بذلك خوفا من أن تجر إلى حرب بين أبوظبى وقطر، وبالتالى قد يؤدى ذلك إلى نوع من الاحتكاك بين بريطانيا والباب العالى.

كانت التعليمات المعطاة إلى المقيم السياسى البريطانى «بيلى»، تقضى بأن يبلغ حكومته فورا عن أى تقدم عثمانى يهدف إلى السيطرة على «العديد». وتم فى هذا العام نقل «بيلى» الذى كان خبيرا بأوضاع المنطقة إلى منصب آخر وحل محله المقدم «روس» كمقيم سياسى بريطانى جديد فى الخليج العربى، وكانت التعليمات النهائية له إبقاء مشكلة «العديد» معلقة.

قد يرجع ذلك إلى أن الحملة العثمانية تركت أثرا كبيرا فى تفكير رجال السياسة البريطانية، ورأوا فيها بوادر خطيرة تهدد وجودهم ومصالحهم فى الخليج العربى بعامة ومشيخات ساحل عمان بخاصة، ولذلك لم يتركوا فرصة دون انتهازها فى تنبيه السلطات العثمانية إلى الاتفاقيات المبرمة بينها وبين مشيخات ساحل عمان، وحرصها على منع أى نفوذ أجنبى من التقدم نحوها، ورغم التطمينات العثمانية فإن البريطانيين لم يطمئنوا لنواياهم، بل سيطر الشك فى نفوسهم.

كان مساعد المقيم السياسى البريطانى «جرانت» - الذى قام بمهمة استطلاعية - يميل إلى الاعتقاد بأن زايد بن خليفة قد يلبى الدعوة لزيارة الأحساء للتشاور مع العثمانيين بسبب مشاكله مع قبائل «النعيم» فى البريمى والقبيسات فى العديد، وإحساسه بأن البريطانيين قد تخلوا عنه فى معالجة هذه المسائل، ورفع تقريرا عن المعلومات التى حصل عليها إلى المقيم السياسى البريطانى «روس»، والذى استنتج من هذا التقرير بأن الظروف التى تحيط بزايد بن خليفة قد تؤدى به إلى الوقوع فى النفوذ العثمانى فى الوقت الذى كان الباب العالى يعتبر مشيخات ساحل عمان والبريمى من ممتلكات مقاطعة الأحساء التابعة للبصرة وبغداد، مما قد يجعلهم يعملون على انتهاز أية فرصة مواتية لتحقيق ادعائهم، فرفع روس المقيم السياسى البريطانى رأيه إلى حكومة الهند مبينا بأن العديد من أملاك زايد بن خليفة، معتمدا

على ما كان قد توصل إليه المقيم «بيلى» فى بحثه السابق الذى أجراه عام 1871 حول تبعية« العديد» لحاكم أبوظبى[24].

كتب زايد بن خليفة فى شهر يونيو 1873، إلى المقيم السياسى البريطانى يخبره بأن أربعة من ضباط القوة العثمانية الموجودة فى قطر قد دخلوا إلى «العديد»، وهناك عقدوا عدة اجتماعات مع المنشق بطى بن خادم القبيسى، وأن أعلاما عثمانية قد وزعت على منازل البلدة، كما وافق بطى على دفع مبلغ من المال كضريبة سنوية للعثمانيين لقاء حمايته. وحذر زايد بن خليفة بأنه لن يسكت أكثر من ذلك وطلب القيام بعمل عسكرى لاستعادة «العديد» إلى حكمه.

أما المبلغ الذى وافق على دفعه فقدر بحوالى من أربعين إلى خمسين روبية عن طريق قاسم بن ثانى، أما الضباط العثمانيون فقد رحلوا عن «العديد» بعد أن منعتهم ندرة المياه عن إقامة موقع لهم[25]. وكان بطى بن خادم القبيسى قد كتب إلى المقيم السياسى البريطانى محذرا إياه من انتهاك حقوقه فى «العديد» لأن الدولة العثمانية ستحميه. كان شيخ القبيسات بطى بن خادم يرفع العلم العثمانى على العديد من وقت لآخر. وبخاصة عندما كان يترقب وصول ضيوف من العثمانيين، وفى المناسبات الأخرى كان يرفع علم معاهدات الهدنة البحرية التى أعطاها المقدم «بيلى» لوالده خادم بن نهيمان، وقد تجرأ بطى بن خادم القبيسى إلى درجة أنه أبلغ المقيم السياسى البريطانى أنه إذا لم تحترم حقوقه فى «العديد»، سيطلب الحماية العثمانية، مما جعل السلطات البريطانية تفكر فى احتمالات التدخل العثمانى فى حالة العداء بين أبوظبى و«العديد»، ولذا فإن المقيم السياسى البريطانى كتب فى 20 من أغسطس إلى حكومته يقول[26]:

«من المؤكد تقريبا بأنه فى ظل الوضع الراهن للأمور لن يقدم العثمانيون على إرسال حملة عدائية ضد أبوظبى أو أى ميناء عمانى آخر، وإذا ما وصلت أى قوات إلى هذا الموقع فسوف يكون ذلك بلا شك على دعوة من العرب أنفسهم».

استجابة لطلب زايد بن خليفة باستعادة العديد كان على المقيم أن يأخذ موافقة حكومته ولذا فإنه رفع الأمر إلى حكومته فى بومباى مطالبا النظر فيها بإيجابية لمشكلة «العديد»[27]، وأوضح بأنه لابد من أخذ بعض الأمور بعين

الاعتبار لكي تكون القرارات مناسبة على ضوء ما استجد من الأحداث، كالوجود العثماني في قطر ومحاولات الحكومة العثمانية الأخيرة التقرب من زايد بن خليفة، ولذا فإنه كتب إلى حكومته قائلا[28]:

«ربما يقوم شيخ أبوظبي بالتفاوض مع العثمانيين وطلب مساعدتهم لإجبار القبيسات الموجودين في «العديد» على الدخول في طاعته، يحتمل حينذاك أن يقوم زايد بن خليفة نفسه بتسهيل تدخل العثمانيين في شئون عمان بصورة عامة».

تابع «روس» تقريره قائلا بأن زايد قد طلب منه إذنا لعمل بحري ضد المتمردين في العديد على أساس أن الحملة البحرية أمر ليس عمليا بالنظر لعقبات وصعوبات الطبيعة، وأنه كان يميل إلى الاعتقاد بأن رفض مطالب زايد قد يلقى به في أحضان الحكومة العثمانية. من المصادفة أن «بيلي» المقيم السابق كان في زيارة إلى «سمالا» عند وصول تقرير «روس» مما جعل وزير خارجية حكومة الهند «اينشيسون» يطلب منه إبداء الرأى بهذا الموضوع فأجاب «بيلي» مؤكدا على رأيه السابق بأن شيخ أبوظبي له الحق في «العديد»، وبرغم ذلك فإنه يعتقد بأن التطمينات العثمانية بعدم التدخل في مشيخات ساحل عمان يمكن الوثوق بها إلى حد ما، وبالتالي فليس هناك داعٍ للتحرك ضد «العديد» ما لم تتحرك السلطات العثمانية في هذا الاتجاه وتخلف وعودها وتطميناتها[29].

جاء رأى «بيلي» متفقا مع رأى «إينشيسون» ولذا فإن الأخير بعث بتعليماته إلى «روس» في شهر أكتوبر عام 1872، جاء فيها بأن عليه أن يحاول قدر الإمكان التملص من إعطاء زايد إجابة واضحة على مطالبه، وبأنه لا داعي لتقديم جواب لزايد ما لم يواصل الإلحاح في طلب مثل ذلك وفي هذه الحالة يجب أن يقال له بأن الحكومة الهندية لا توافق على قيامه بحملة بحرية ضد «العديد»، بل وستعمل على إيقافها[30].

لذا يجب أن يبلغ حاكم أبوظبي بمعارضة الحكومة البريطانية لأي تحرك بحري مضاد «للعديد». ونظرا لموقف حكومة الهند بتجميد الوضع، كتب المقيم السياسي البريطاني بدوره إلى زايد بن خليفة في 27 أكتوبر 1973 بضرورة ضبط النفس ويبلغه بأن حكومة الهند سوف تمنعه من القيام بأية حملة عسكرية ضد

العديد إضافة إلى أنها ستتخذ إجراءات عملية لوقفه، مما جعل موضوع «العديد» معلقا إلى حين.

بينما كتب بطى بن خادم شيخ القبيسات رسالة إلى المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر والذى استلمها بتاريخ 9/ 9/ 1874، يقول فيها بطى بن خادم[31]:

«أود إعلامك أن زايد شيخ أبوظبى قال: «إننى سأذهب إلى «العديد» بحرا ولا أبالى بالمقيم السياسى ولا بأى شخص آخر».

الرجاء أن تكتب إلى شيخ أبوظبى أننا توطنا فى «العديد» بمشيئة الله أولا ثم بمقتضى أوامرك. وأنت تعلم أننا امتنعنا عن القيام بأية خطوة تعرض سلام البحار للخطر إلا أن زعيم أبوظبى ليس كذلك.

لذا فإنى واثق بأنك ستكتب لزعيم أبوظبى قريبا بأن يتركنى وأتباعى بشأننا فأنت تعلم أننا رعايا الله ورعاياك».

رد المقيم السياسى البريطانى عليها بتاريخ 15/ 9/ 1874 إلى بطى بن خادم يقول فيها[32]:

«ليس لدى معلومات بشأن ما يعزم عليه زايد فى مهاجمتك بحرا ولم يتسلم أى إذن بهذا الخصوص. ومن المفيد لك أن تبقى مع أتباعك بعيدين عن انتهاك قواعد البحار».

كتب زايد بن خليفة فى عام 1874 إلى المقيم السياسى البريطانى يبلغه بأن السلطات العثمانية المحلية كتبت إليه بأن العديد تحت حمايتها وتطالبه بعدم التدخل فى شئونها ورفض زايد تقديم تلك الخطابات للسلطات البريطانية[33].

حدث فى مجال العلاقات العثمانية مع مشيخات ساحل عمان، ما كان متوقعا عندما قام ضابط كبير من رئاسة الأركان العثمانية، فريق باشا بزيارة الأحساء، وهناك لفت نظر الضابط العثمانى المسئول عن تلك المنطقة، والتى يقضى بضرورة التحرك جنوبا تجاه مشيخات ساحل عمان وإثارة المشاعر الدينية الإسلامية عند الحكام لإبعاد النفوذ البريطانى عن المنطقة، وقد قام يوسف أفندى قائد الحامية العثمانية فى قطر بإرسال رسائل إلى حكام المنطقة، ومنها إلى زايد بن

خليفة حاكم أبوظبى، وحشر بن مكتوم حاكم دبى، يؤكد فيها رغبة الحكومة العثمانية فى التفاهم مع جميع شيوخ المنطقة لتنظيم علاقات جديدة فى الأمور السياسية والتجارية.

أما الرسالة الموجهة إلى زايد فقد تضمنت فقرة تقول بأن العديد تعتبر من المحميات العثمانية وأنه لا حق لزايد بالمطالبة فيها، وهذا ما جعل الأخير لا يتعاطف كثيرا مع الدعوة العثمانية بقدر ما تأثر بموضوع «العديد» الذى بدا وكأنه سيفلت من يده إذا لم يواجه الأمر بسرعة، ولحسن حظه كان المقدم «روس» فى المشيخات الشمالية، فذهب زايد لزيارته وقام بشرح وجهة نظره وتوضيح الأبعاد المختلفة لمشكلة «العديد»، كما أبلغه بالرسالة التى استلمها من يوسف أفندى، ثم كرر زايد مطالبته بألا تتدخل بريطانيا فى شئونه الداخلية وأنه ينوى مُهاجمة «العديد»، وعندما طلب «روس» هذه الرسالة أجابه زايد بأنه فقدها وعندما يجدها سيرسلها[34].

بعث زايد رسالة بتاريخ 11/1/1875 إلى المقيم السياسى البريطانى «روس» يقول فيها[35]:

«بالنسبة للرسالة التى بعثت بها السلطات التركية من قطر التى أعربت عن رغبتك فى الاطلاع عليها، لى الشرف أن أعلمك أن جميع محاولاتى للبحث عن هذه الرسالة باءت بالفشل.

يسرنى ألا تتدخل بينى وبين الأهالى المقيمين فى العديد».

بعث فى الأول من فبراير 1875 بطى بن خادم شيخ القبيسات رسالة إلى المقيم السياسى البريطانى يقول فيها[36]:

«تسلمت رسالتك وسررنا أنك بخير، وكلنا ثقة أننا تحت حمايتك وأننا بأمان من أن تحدث لنا أضرار بحرا».

تجاه تطور هذه الأحداث بعث المقيم السياسى البريطانى برسالة إلى وزير الدولة لحكومة الهند فى الدائرة الخارجية «بكلكتا»، يقول فيها[37]:

«كنت قد أبلغت فى رسالتى ذات الرقم (274/ 1313) المؤرخة فى 24/ 11/ 1874 أن شيخ أبوظبى أعلمنى عن تسلمه رسائل من المسئولين الأتراك

مفادها أن العديد هى تحت حماية الحكومة التركية، وأنه فقد الرسائل المعنية إلا أنه سيوافينى بها لدى العثور عـليها. وفى ذلك الحين تسلمت رسالة من شيخ أبوظبى يؤكد أنه غير قادر على العثـور على الرسالة ولا أن يفيد عن فحواها. لا شك أن لدى الشيخ زايد أسبـابا خاصة دعته لعدم إبراز الرسائـل، وكان فى بادئ الأمر قد عرض علينا تقديمها.

فأود أن أرفق الـرسائل المتبـادلة بينى وبين شـيخ «العديد» حـول الموضوع، والتى يبدى فيها تخوفه من أن تقوم أبوظبى بمهاجمته».

كمـا قام المـقيم السـياسى البـريطانى بإرسال رسـالة أخرى إلـى «ماركـيز سالسـبورى» وزير خارجـية الدولة لمجلس الهند فى لندن يقـول فيهـا عن رسائله الموجهـة إلى حكومة الهند والمـراسلات بين شيـخى أبوظبى والقبـيسـات وكذلك المتعلقة بالاحداث المنسوبة لـلعثمانيين لدى قيامهم بتقـديم عروض حماية مكتوبة لشيخ القبيسات فى «العديد»[38].

وعندما استلم «روس» خطابا من مساعـده الرائد «جرانت» يخبره بمعلومات وصلته من مـشيخـات ساحل عمـان حول الخطط العثـمانية بمد سـيادتها لتـشمل عمان، كـذلك تضمن الخطاب ترجمات للرسائل التى وصلت إلى شـيوخ المنطقة من المسئول العثمـانى «يوسف أفندى» وقد عقب «روس» على ذلك بقوله بانه من خلال المراسـلات العثمـانية يبـدو أنهم يحاولون إيجـاد علاقات ودية مع شـيوخ مشيخات سـاحل عمان لأغراض سياسية وتجارية ويظهر ذلك واضـحا من صياغة خطاب يوسف أفندى، كما أن حاكم دبى وأبوظبى ينفصلان من أى رغبة للدخول فى علاقاتهم مع السلطات العثمانية[39].

وأضاف روس يقول: «وبينما لا تدل هذه الرسائل بحد ذاتها على نية مؤكدة من العثمانيين للتدخل السـياسى فى عمان ولكن لدورها مع المعلومات الواردة من هناك لنجد أنها تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الأسباب متوفرة بأن عمليات العثمانيين فى تلك المنطقة تستدعى التشكيك اليقظ فى نواياهم، والأمر متروك لحكومة الهند لتقرر ما تراه مناسـبا للحصول على تفسيـر من الحكومة العثمانية حـول تصرفاتها المذكورة»[40].

بريطانيا تسمح لزايد باستعادة العديد:

حدث بعض التغير فى السياسة البريطانية تجاه زايد والسماح له باستعادة «العديد»، وذلك لسببين وهما:

أولا: التخوف من تحول العديد إلى ملجأ لضرب المصالح البريطانية وتهديد سفنها فى الخليج العربى.

ثانيا: عدم السماح للسلطات العثمانية بالمزيد من الاعتداء على الساحل العربى للخليج؛ لأن اتساع الحكم العثمانى يجعل الإشراف على القبائل البحرية ينتقل من المقيم السياسى البريطانى إلى السلطات العثمانية. فى الوقت الذى لم يكن المقيم السياسى البريطانى على استعداد للتنازل عن سيطرته وإيقاف عمل نظام المعاهدات البريطانية مع حكام مشيخات ساحل عمان، والسماح لحكام أبوظبى بالمضى إلى العمل ضد الانفصاليين فى العديد بالحملة البحرية، إلا إذا تحول ذلك المكان بالفعل إلى خطر يهدد المصالح البريطانية وسفنها فى مياه الخليج العربى.

لهذا السبب رفض المقيم السياسى البريطانى المطالب المتلاحقة التى قدمها زايد بن خليفة فى الأعوام السابقة للسماح له بمهاجمة هذه المستوطنة المنفصلة عن أبوظبى عن طريق البحر[41].

وسوف ترفض بريطانيا طلبا آخر لزايد عام 1874، ولكنها توافق فيما بعد وتسمح لزايد باستعادة خور «العديد» عندما تتعرض مصالحها فى الخليج العربى للخطر وذلك فى عام 1876.

ففى نوفمبر من عام 1874 بعث المقيم السياسى البريطانى يقول بأن الفرصة قد لاحت للقيام بإجراء مناسب، لأن زايد بن خليفة عاد يتحدث عن رغبته فى إخضاع المنشقين فى «العديد» بحملة بحرية، وأنه أخبره بأن حكومة الهند لا تسمح[42]، ثم أفاد زايد بن خليفة بأن الحكومة العثمانية تدعى حمايتها «للعديد» وأن الموظفين العثمانيين المحليين قد كتبوا إليه فى هذا الصدد، وكان المقيم السياسى البريطانى يعتقد بأن شيخ «العديد» لما خشى هجوم زايد بن خليفة، قد يكون التجأ إلى السلطات العثمانية وأن الرسائل التى أشار إليها زايد بن خليفة ربما كانت نتيجة ذلك الالتجاء، فى حين أقرت حكومة الهند إجراءات المقيم السياسى،

ولكنهـا قررت أن تنتظر ورود تقـارير أخرى بشـأن عروض الحماية والتى قـيل إن العثمانيين بعثوا بها إلى شيخ «العديد»[43].

تبين فى عام 1875 بأن شيخ العـديد كان يملك علمين أحـدهما لمشيـخات ساحل عمان تحت الحماية البريطانية والآخر للدولة العثمانية، وأنه يرفع أحدهما أو الآخر حسب ما تقتضيه المصلحة. وقد قال المقيم السياسى البريطانى فى تقريره إلى وزير الدولة لحكومة الهند[44]:

«يبدو أن لدى شيخ العديد علمًا تركيًـا كان يرفعه فى بعض المناسبات، وفى بعض الأحيـان يستخدم العلم البـريطانى للعرب الذين هم تحت الحماية البـريطانية إثباتا للعلاقات الودية مع الحكومة البريطانية.

توترت الأمـور فى عـام 1876 بين أبوظبـى و«العـديد»، عندمـا اعـتـدت مجموعات من قبائل آل مرة ومجموعات أخرى كانوا قد استوطنوا فى بلدة العديد، وانضموا إلى بطى بن خادم القبيسى، على بعض السفن التابعة لأبوظبى أثناء موسم الغوص، كما هاجمـوا سفينة ظبيانية كانت راسية فى ميناء الدوحة وقتلوا أفرادها، وفى شهر أغسطس أيضا هوجمت سفينتان لأبوظبى كانتا تمران بالقرب من العديد، من قبل رجال القبيسات وسلبوها وقتلوا أحد ملاحيها[45].

إزاء هذه الهجمـات كتب زايد إلى المقيم السياسى البـريطانى عن الاعتداءات التى وقـعت ضد سـفن أبوظبى ومـصـدرها «العديد»، كـمـا أوضح بأن انفصـال «العديد» سيؤدى إلى مشاكل أمنية وإلى عدم استتباب السلم فى المنطقة، وأكد على ضرورة القـضـاء على انفصال «العـديد» واستعادتهـا إلى أبوظبى وأن الوقت لم يعد يحتمل التأخير.

وقفت حكـومة الهند حائـرة حول هذه المشكلة وحـول ما يجب اتبـاعه من أسلوب لمعالجـة المشكلة التى أثارت حنق زايد فى الوقت الذى وجد الأخيـر عاجزا عن التصدى لها فى ظل الأوامـر البريطانية التى منعته من القيـام بأى أعمال بحرية ضد الانفصاليـين فى «العديد»، كما كانت بريطانيا تخشى أن تؤدى موافـقتها لزايد باستعادة «العديد» بأن يضطر الشيخ بطى القبيـسى إلى طلب الحماية العثمانية، كما أنها لا يمكنها تجاهل غضب زايد بن خليفة.

أصبح التفاهم مع الحكومة العثمانية بهذا الصدد ضروريا، للحصول على اعتراف بالسيادة البريطانية على الساحل العربي مما سيطلق يدها في التصرف لإيقاف الأعمال التي تهدد سفنها ومصالحها في الخليج العربي، ولذا قام الكابتن «بريدوكس» القائم بأعمال المقيم السياسي البريطاني بإرسال قائد الأسطول البريطاني في الخليج العربي الكابتن «جوثرى» إلى الدوحة والعديد في مهمة استطلاعية حول مدى تغلغل النفوذ العثماني في هذه المناطق.

وصل جوثرى بتاريخ 15/ 10/ 1876 إلى الدوحة واطلع على معسكر القوات العثمانية، كما علم أن حاكم قطر يدفع ضريبة للحكومة العثمانية تقدر بحوالى عشرة آلاف قران، وأنه لم يحاول النزول إلى الدوحة أو التحقيق مع حاكمها حول الاعتداءات التي حدثت ضد السفن الظبيانية، وفي 18 أكتوبر توجه إلى خور العديد وقد عدد المنازل بمائتي منزل، كما شاهد ثلاثين سفينة راسية في الميناء وأربعة لحراسة مدخل الخور والممر المائي المؤدي إلى بلدة العديد، ولاحظ الأعلام المرفوعة فوق الأبراج وكانت أعلام الهدنة البحرية[46].

بعد عودة «جوثرى» رفع تقريره بهذا الخصوص إلى «بريدو» مساعد المقيم السياسي البريطاني وهو بدوره رفع مذكرة إلى حكومته يقول فيها[47]:

«بالرغم من المبالغات في البيانات السابقة عن الحوادث البحرية فإنه يدل على أن اليقظة البريطانية قد خفت تجاه الساحل القطري منذ دخوله السيادة العثمانية، لأن القبائل العربية الخاضعة للسيطرة العثمانية تيسرت لها فرص أكبر من السابق للعمل ضد المصالح البريطانية ولا يمكن اعتبار شيخ العديد مسئولا عنها ولكنه عاجز عن كبح جماح البدو الذين وجدوا في موانئه ملجأ مناسبًا للتملص من إيقاع القصاص أو الثأر منهم على تعدياتهم، وأنه سيطلب من الوكيل البريطاني في الشارقة أن يتوصل إلى حل للمشكلة بالطرق السلمية بين شيخي أبو ظبي و«العديد»، وإذا لم تنجح هذه الجهود فإنه يجب السماح للشيخ زايد باستعادة السلطة وإخضاع المنفصلين عنه، ومع أنه يقال بأن لدى شيخ العديد علما عثمانيا لكنه من غير المحتمل تماما أن تتقدم الدولة العثمانية بأية ادعاءات بشأن العديد التي ظلت حتى السنوات القليلة الماضية جزءًا من إقليم «أبوظبي» بغير

منازع. وقـد أقرت الحكومـة الهندية وجهـة نظره وخولتـه الصلاحـيات الـلازمة لاستعادة العديد إلى حاكم أبوظبى [48].

قامت حكومة الهند برفع مذكرة إلى وزير الدولة حول قضية «العديد» مشيرة إلى الرسالة التى بعث بهـا مساعد المقـيم السياسى البـريطانى فى الخليج العربى، ومن الرسائل السابقة حول هذا الموضوع وشفعتها بالنقاط التالية[49]:

1 ـ إن الأعمال البحرية المشتكى منها قد ارتكبـتها جماعة من قبيلة بنى مرة وهى قبيلة تخضع اسميا للحكومة العثمانية.

2 ـ إن مرتكبى تلك الأعـمال قد انطلقـوا لغزوتهم من موانئ تابعـة لشيخ «العديد».

3 ـ إن شيخ العـديد لم يعارض أو يساعد اسـتخدام موانئـه كمكان انطلاق لغزواتهم وأعمالهم البحرية.

4 ـ إن سبب ضعف شيخ العـديد ناجم من كونه هو وأتباعه لا يشكلون إلا مستعـمرة صغيرة من الناس الساخطين الذين انفـصلوا عن قبيلتهم الأم الكبرى بنى ياس فى أبو ظبى.

5 ـ إن سبب تخلف حاكم أبوظبى عن إخضاع هؤلاء المنشقين فى «العديد» هو كونه قد منع من ذلك من قبل الحكومة البريطانية.

اختتمت تلك النقاط باقتراح هو محاولة إغراء الدولة العثمانية باتخاذ التدابير اللازمة لمنع قـيام أعـمال تهدد المصـالح البريطانيـة من قبل بنى مـرة. أو أن تقوم السلطات البريطانية فى الخليج العربى بالإجراءات اللازمة التى تحول دون استخدام موانئ العديد كمصدر لتلك العمليات.

وطلبت حكومـة الهند من الحكومـة البريطانيـة بأن تتولى وزارة الخـارجيـة مخاطبـة الحكومة العثمـانية حول العديد، أمـا بالنسبة لموانئ العديد فـإن مصلحة الحكومة البريطانية كحامية للسلام ضد الانتفاضات فى الخليج العربى أن تكون كل قبيلة مـتصالحة على الشاطئ العربى قـوية وغير مقسمـة، ومن الإنصاف أن تقوم الحكومة التى تمنع حاكم أبوظبى مـن إحلال النظام فى وسط قبيلته المنشقـة بتأمين هذا الحاكم من ناحية حاجته إلى الحصول على ولاء وخضوع هؤلا المنشقين عليه،

إما بـالطرق السلميـة أو إذا لزم الأمر بالطرق القـهرية. ثم أشـارت إلى صعـوبة إخضاع سكان العديد، قد يرجع إلى كونهم يرفعـون العلم العثمانى، كما لايوجد دليل ملموس بأنهم تحت السيـادة الفعلية العثمانية، فـإننا نرى أن مجرد رفع العلم العـثمانى لا يـستدعى بـحال من الأحوال تـقييـد حريتنا فـى التصرف تجـاه هذا الموضوع[50].

يتبين من هذا أن التغـير الذى حدث فى السياسة البـريطانية تجاه «العديد»، وهو ظهور عـبارات جديدة كالمحـافظة على وحدة مشيـخات المنطقة ويقصـد بها مشـيخة أبوظبى «وأن تكون قويـة وغير منقسـمة» ومنذ متى كـانت بريطانيا تريد وحدة المنطقة وقـوتها، وهى التى جزأتها إلى كيانات هزيلة، كـما تريد من حاكم أبو ظبى إخضاع المنشقين، ولعل سبب هذا التغير فى سياستها راجع إلى إستخدام القبائل العربية مـيناء «العديد» مسرحا لنشاطهم البحرى ضـد السفن البريطانية ومما قد يؤثر على أمن الملاحة والمصالح البريطانية فى المنطقة، كما نظروا إلى العلاقات الوثيـقة بين شـيخ «العديد» وحـاكم قطر بعين الرضـا لكون الأخيـر تحت الحكم العثمانى، كما كان سكان «العـديد» يدفعون الضريبة السنوية لحاكم قطر، لهذا كله قررت الحكومة البريطانية اتخاذ الإجراءات اللازمة لعودة خور العديد إلى أبو ظبى لخطورة انفصالها.

لهذا فإن وزير الدولة البريطانى بعدما تسلم تلك المذكرات من حكومة الهند راح يتصل بوزارة الخارجيـة طالبا منها إصدار توجيهات إلى السـفير البريطانى فى الأستانة بجلب انتباه الحكومة العثمانية بشدة إلى تزايد الأعمال البحرية ضد السفن البريطانية على امـتداد الساحل القطرى والذى نجم عن توسع السيادة العـثمانية فى تلك الناحيـة وطلب منه أن يلمح بتصميم الحكومـة البريطانية على عـدم السماح باخـتلال الأمن فى الخليج الـعربى من جـراء غارات تنطـلق من موانى خـاضعـة للحكومة العثمانية أو من قبائل تخضع للسيادة العثمانية وتنطلق غاراتها من أراضى شيوخ مستقلين هم أضعف من أن يمنعوا إساءة استخدام موانيهم[51].

كما نصـحت الحكومة البريطانية سـفيرها فى الأستانة بعـدم ذكر العديد أو الإشارة إليهـا عند تبليغ الحكومة العثمـانية عن العمليات التـى تمارس ضد السفن البريطانية فى الخليج العـربى، لأنه من المشكوك فيه ما إذا كانت الحكومة العـثمانية تمارس أى نفوذ فعال على شيخ بطى القبـيسى فى هذه المنطقة ولأن ذكر العديد قد

يثير مشكلة إقليمية بينهما[52]، وقد أنكرت الحكومة العثمانية أى معرفة عن الهجمات التى تشن ضد السفن البريطانية من سواحلها فى الخليج العربى، كما طلبت من السفير البريطانى «لايارد» تقديم مزيد من التفصيلات والإيضاحات حول هذه الموضوع.

طلبت حكومة الهند من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى شهر يونيو من عام 1877 أن يتفاوض بين الطرفين زايد وبطى القبيسى لحل مشكلة «العديد» بالطرق السلمية، وإذا فشلت هذه المحادثات فيجب مساعدة شيخ أبوظبى لإعادة سيادته على خور «العديد»[53]. ولكن شيخ العديد رفض الشروط التى عرضها الجانب البريطانى بالتوصل إلى الصلح فحذره المقيم السياسى البريطانى من موقفه هذا بأن بطى القبيسى يستند إلى الدولة العثمانية، وفى نفس الوقت كتب إلى زايد يخبره بأن حكومة الهند قد قررت عودة «العديد» إلى سيادته وأنها على استعداد لتعضيد محاولاته فى ذلك.

ينظر الساسة البريطانيون من أمثال «سالسبورى» و«ليتون» إلى السياسة العثمانية تجاه الخليج العربى بصفة عامة وتجاه العديد بصفة خاصة، بأنهم يستنزفون النفوذ البريطانى سواء بالطرق المباشرة أو باستغلال القبائل الساحلية التى كانت تساند السياسة العثمانية، كما كان «سالسبورى» يرى بأن انشغال العثمانيين فى حربهم ضد روسيا وانسحابهم من البلقان سببا كافيا لسكوت بريطانيا عما يجرى فى الخليج العربى، ولذا فإنه طلب السفير البريطانى فى «اسطنبول» السير «هنرى لايارد» فى شهر يوليو عام 1877 أن يلفت نظر الحكومة العثمانية إلى ما يشكله الأعمال البحرية على ساحل قطر و«العديد» من خطورة على المصالح البريطانية وسببها تزايد النفوذ العثمانى فى الخليج العربى والجزيرة العربية، وأن يحذر بأن الحكومة البريطانية لن تقف متفرجة من أية محاولات لخرق السلام والأمن فى الخليج العربى أيا كان مصدرها، كما أرسل تعليمات أخرى إلى «لايارد» بشأن العديد بأنه لا يرغب فى أن يتطرق السفير البريطانى فى مفاوضاته مع الحكومة العثمانية إلى أية عبارة تنطوى على التشكيك فى سلطة الدولة العثمانية على زعماء «العديد» وإلى عدم الإشارة إلى هذه المسألة بالذات[54]. علما بأن حكومة الهند كانت قد وافقت على طلب زايد بن خليفة لإعداد حملة عسكرية لاستعادة «العديد».

قام السفير لايارد بتقديم مذكرة إلى صفوت باشا وزير الخارجية العثمانية فى يوليو حول الشكوى البريطانية عن ارتكاب بعض الأعمال ضد مصالحها فى الخليج العربى من قبل القبائل الخاضعة للسيادة العثمانية، ولكن صفوت باشا أبلغ السفير بأنه لابد أولا من الاتصال بالوالى العثمانى فى البصرة لمعرفة رأيه قبل الرد على مذكرة الحكومة البريطانية، وفى بداية شهر أغسطس ذكر صفوت باشا للسفير البريطانى بأن رد الوالى العثمانى فى البصرة يتضمن التفسير الحقيقى للمشكلة، فقد أكد بأن الهدوء يسود المنطقة من أقصاها إلى أقصاها وأنه لم تقع أية أعمال ضد المصالح البريطانية كالتى أشار إليها السفير البريطانى. ولكن بعد الانتهاء من الحرب الروسية ـ العثمانية، أبدت الحكومة العثمانية استعدادها لمناقشة تلك الموضوعات ولكن بشروطها(55).

أما زايد بن خليفة فقد نفذ صبره وخاصة عندما علم بأن إحدى سفن أبوظبى قد تعرضت لهجوم من الجماعات المقيمة فى «العديد» فقرر إصدار أمر بالتجمع لمقاتليه فى أبوظبى فاجتمعت لديه كتائب من كافة عشائر وقبائل أبوظبى فى أوائل شهر ديسمبر، وحشد أسطوله البحرى المكون من سبعين سفينة مقاتلة بهدف تدمير «العديد» تدميرا كاملا، وقبل أن تغادر الحملة البحرية ميناء أبوظبى كتب زايد إلى المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر يعلمه بقراره النهائى بإعلان الحرب واسترجاع «العديد». وقد وصلت رسالة زايد بعد عودة المقيم السياسى البريطانى «روس» من إجازته فوجد قضايا كثيرة فى مقدمتها قضية «العديد»، كما وجد كتاب الهند والتى أعطته فيها صلاحيات حل المشكلة عسكريا إذا ما فشل الحل السلمى، فلما وافق المقيم السياسى البريطانى على مهاجمة «العديد» وبعث كتابه إلى زايد كانت قوات الأخير قد قطعت أكثر من نصف المسافة فى طريقها إلى «العديد»، مما حدا بالمقيم أن يركب السفينة الحربية «تبرز» للأسطول البريطانى واتجه مسرعا لملاقاة زايد قبل أن يصل الأخير إلى هدفه فى «العديد»(56).

وصلت الحملة البحرية بقيادة زايد بن خليفة لاستعادة «العديد» إلى «جبل الظنة» وجزيرة «صير بنى ياس» فى يناير من عام 1878 كانت أنباؤها قد وصلت إلى الشيخ بطى القبيسى ولم يكن فى مقدوره ولا شيخ قطر مقاومتها ففزع هو وقومه وهرعوا للهرب بأرواحهم وتم جمع النساء والأطفال فى قافلة وتم إرسالها إلى قطر فى حين بقى الرجال فى جمع أمتعتهم وأدواتهم الخاصة(57)، وخلعوا

أجزاء منازلهم ورموا بها فى الآبار ولاذوا بالفرار وذهب معظمهم إلى البدع فى قطر واحتموا بقاسم بن ثانى.

عندما وصل زايد على رأس حملته إلى «العديد» وجدها خالية فقد هرب سكانها وهجروها وقام رجال زايد بتدمير بلدة «العديد» ومسحوها عن وجه الأرض، وفى تلك الأثناء كان المقيم السياسى البريطانى قد وصل إلى جزيرة «قفاى» بطراده فشاهد من على بعد عشرين سفينة محملة بالنساء والرجال تابعة للقبيسات وهى تحاول الهروب إلى جهة الساحل القطرى ثم توجه إلى بلدة «العديد» فوجدها قد زالت من الوجود، وعرف أن زايد قد انسحب بقواته إلى ابوظبى بعد أن ترك حامية صغيرة من قواته هناك فأيقن المقيم السياسى البريطانى بأن العملية قد انتهت بالنجاح، فتوجه إلى مقره فى بوشهر ومنها كتب إلى حكومته يخبرها بانتهاء العمليات الحربية وباسترجاع «العديد» إلى أبوظبى.

الاحتجاج العثمانى ضد هجوم زايد على «العديد»:

بينما كانت المفاوضات البريطانية ـ العثمانية جارية حول مشكلة قبرص فى شهر مايو عام 1878، استدعى صادق باشا السفير البريطانى وقرأ عليه نص البرقية التى تلقاها من ناصر باشا السعدون الوالى العثمانى فى البصرة، تتضمن معلومات مثيرة عن هجوم بحرى لزايد بن خليفة وقدم احتجاج الحكومة العثمانية ضد السلطات البريطانية وسلمه إلى السفير البريطانى «هنرى لايارد»، وذلك فى اسطنبول فى 28 مايو من عام 1878 جاء فيها بأن صادق باشا وزير الخارجية العثمانية قد قرأ عليها برقية من والى البصرة يشكو فيها قيام زايد بن خليفة على رأس سبعين سفينة وبرفقة سفينة حربية بريطانية عليها المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر بمهاجمة بلدة «العديد» والتى هى محمية تابعة لقضاء قطر العثمانى، مما أسفر عنه فرار السكان وتبعه نهب القرية وتدميرها ونهب جميع مراكبها، ثم قال السفير البريطانى بأن الباب العالى أعرب عن أمله فى تقديم إيضاح لهذا التجاوز من قبل حاكم أبوظبى على الإقليم العثمانى، ولكن وزير الخارجية البريطانية اللورد «كران بروك» الذى حولت إليه أوراق القضية رفض أن يقدم أية إيضاحات تفصيلية إلا بعد التشاور مع حكومة الهند، كما لفت أنظار الخارجية البريطانية إلى

مراسلات وزارة الهند لعام 1877، والتى أوصت بتجنب البحث مع الباب العالى بشأن بلدة «العديد» كلما كان ذلك ممكنا[58].

عالجت حكومة الهند مشكلة العديد في ظروف التدخل العثمانى بمذكرة مؤرخة فى 12 مايو عام 1879، اعتمادا على مذكرة المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى حول المسألة الخاصة بالسلطة الشرعية العثمانية تتضمن ثلاث نقاط، وهى:

أولا: أنه لم يتضح بعد نية العثمانيين نحو بسط نفوذهم فى خور «العديد» وأنه على ما يعلم لم تقم أى سلطة أو سيطرة من هذا النوع.

ثانيا: استندت حكومة الهند بناء على تأكيدات العقيد «بيلى» عام 1871، بأن العديد لاتدخل ضمن حدود مقاطعة قطر.

ثالثا: لقد أشار التقرير إلى أن شيخ «العديد» يلح برغبته فى الاستقلال بحكم «العديد» ويطلب الاعتراف البريطانى بحكمه لكى يدخل تحت الحماية البريطانية، وكان ذلك غير جدير بالقبول إلا إذا كفت الحكومة البريطانية عن مطالبة شيخ أبوظبى «بالعديد»، لأن سكان «العديد» هم فى الأصل من أتباع أبوظبى ولايمكن الاعتراف باستقلالهم الكامل.

ثم تابعت المذكرة قولها فى ظل هذه الظروف والعامل الجغرافى «للعديد» لا يحق للدولة العثمانية أن يكون لها ولاء فى مناطق تقع خارج حدودها فكيف لها الحق بالمطالبة فى السيادة الشرعية على هذا الوضع؟ ثم إن حكام أبوظبى كانوا يطالبون «بالعديد» جيلا كاملا ويحكمونه من وقت لآخر إلى درجة اعتبر العرب سكان «العديد» من أتباع أبوظبى وأن حاكم أبوظبى فى «العديد» معترف به من قبل بريطانيا وقد أقرته منذ سنوات، أما المزاعم العثمانية التى ظهرت أخيراً، فقد قامت بناء على طلب من الشيوخ المحليين جهلا بالواقع، فقد تأكد عام 1877 أن والى البصرة لم يسمع قط عن اسم «العديد»، فليس للدولة العثمانية أى مطلب شرعى فى «العديد» ولو فرض بأن المسألة سياسية ولا تتصل بحقوق أبوظبى فهى مسألة تضر بالمصالح البريطانية وتضعف من نفوذها فى الخليج العربى، ولربما تحول الخليج العربى إلى ملجأ للأعمال البحرية ضد المصالح البريطانية إذا ملكت الدولة

العثمـانية سلطة «العديد» فـهو موقع مناسب لتلك العمليـات، وإذا عادت السلطة العثـمانية إلى «العديد» كـثرت معهـا الادعاءات وربما تخطتها إلى الجـزر المجاورة الملحقة به فتزيد القلاقل فيمتد إلى كل المنطقة ولا يمكن القضاء عليها والعثمانيون ينظرون إليها بلامبالاة(59).

عودة القبيسات إلى أبو ظبى:

عندما علم زايد بالظروف والحالة القلقـة التى يعيشها بطى وأفراد القـبيسات اللاجئـون إلى قطر، تأثر بحالتـهم وقرر أن يعـفو عنهم وأن يعيـدهم إلى ديارهم وقرر أن ينفذ عفوه عند رجـوعه من أداء فريضة الحج عام 1880م، وأمر ابنه الأكبر الشيخ خليفة بن زايد أن يتوجـه إلى البحرين وأن يتوقف فى طريق عودته فى بلدة الوكرة ليبلغ بطى القبـيسى وأتباعه عفو زايد عنهم، ولذا فقـد سار خليفة بن زايد بنفسـه حسب أوامر والده وأخبرهم بـعفوه فتقـبله بطى بلهفة شديدة وأظـهر ندمه على مـا فعله ثم قـرر العـودة إلى أبو ظبى، ولكن نظرا لالتـزاماته الماليـة وديونه المرهقة التى وقع فيـها كانت تمنعه من السفر علانيـة، ولذا اتفق مع خليفة بن زايد أن يعود إلى أبو ظبى عندمـا تسنح له الفرصة المنـاسبة، وجاءت هذه الفـرصة مع بداية موسم الغـوص الكبير، فـتظاهر بطى بن خادم القبيـسى وأفراد قبـيلته بأنهم متوجهون إلى مغاصات اللؤلؤ، وكانوا قد أرسلوا قبل ذلك نساءهم وأطفالهم إلى أبوظبى، ولكن بدلا من الذهاب إلى مغاصات اللؤلؤ توجـهت سفنهم مشرقا إلى أبوظبى، وعندما علم زايد بن خليفة بنجاح الخطة ذهب مسرعا إلى العديد وهناك استـقبلهم بكل حـفاوة فى حـين أعلن بطى بن خادم القـبيسـى ولاءه، وأظهر له الطاعة والإخلاص، فأمـر زايد أن تشيد للقبيسات مسـاكن فى «العديد» وتم حفر الآبار وتوزيع الأسلحة على العـائدين وعين مفارز لحـراسة المنطقة وأخرى لمـراقبة الطرق البرية والبحرية(60).

ثم رجع زايد بن خليفة ومعه أفراد من القبيسات إلى أبوظبى وهناك سلمهم أشجار النخيل التى كانت لهم وغيرها من أملاكهم التى تحفظ زايد بن خليفة عليها عندما انفصلوا عنه.

الخلاصة:

هذه الدراسة كانت عن محاولة أسرة القبيسات الانفصال والاستقلال عن القبيلة الأم، بنى ياس، وإنشاء كيان جديد تحت الحماية البريطانية.

شجعت بريطانيا إقامة مشيخة «العديد» بقيادة المنشقين القبيسات لاستمرار سياسة التجزئة وتفتيت مشيخة أبوظبى بعدما كانت نجحت بريطانيا فى فصل دبى عام 1830، ولكن مجىء الحملة العثمانية إلى قطر، جعل بريطانيا تخشى أن تنضم «العديد» إلى السيادة العثمانية أو أن تخضع أبو ظبى للعثمانيين حتى تمنع انفصال العديد.

كل ذلك جعل بريطانيا تفكر فى وقف امتداد النفوذ العثمانى بإعطاء الموافقة لحاكم أبو ظبى باسترجاع العديد بعد تردد استمر أكثر من ثلاثة أعوام.

والآن بدأت مشكلة «العديد» تثار من جديد ولكن بطريقة دبلوماسية هادئة بين أبوظبى والسعودية؛ نظرا لحساسية الوضع، وقد تكون قنبلة موقوتة لمشاكل المستقبل، ولهذا فإنها محاولة لنزع مشاكل الحدود كما نسعى لإزالتها بقدر الإمكان بمعرفة الحقائق الثابتة والمدعمة بالوثائق، ولهذا فإن الدراسة كانت من خلال المراسلات الرسمية.

الهوامش:

(1) ج.ج. لوريمر: دليل الخليج ـ القسم الجغرافى ـ الجزء الخامس ص 1736.

(2) دار الهلال: بلادنا العربية ـ أبو ظبى ص 58.

(3) جى. إى . سالدانا : وثائق التاريخ القطرى ص 65. رقم الوثيقة(49).

(4) . محمد مرسى عبد الله: دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها ص 218.

(5) ج.ج. لوريمر: الخليج ـ القسم التاريخى ـ الجزء الثالث ص 1165.

(6) دار الهلال : المرجع السابق ص 58.

(7) وثيقة رقم "L/P&S/5/15" ص 425 ـ 427. رسالة من بطى بن خادم بن نيهمان شيخ قبيلة القبيسات إلى المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر بتاريخ 25/ 8/ 1869.

(8) وثيقة رقم "L/P&S/5/15" نفس المرجع.

(9) زهدى سمور: ساحل عمان الجز الثانى ص115.

(10) ج.ج. لوريمر: المرجع السابق ص1166.

(11) وثيقة رقم "L/P & S/5/15" ص425 ـ رسالة من الكولونيل «الويس بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى بوشهر إلى وزير الدولة فى الدائرة السياسية بومباى بتاريخ 28/ 8/ 1869.

(12) د. صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى ص177.

(13) د. جمال زكريا قاسم: دولة الإمارات العربية المتحدة «دراسة مسحية» ص40.

(14) زهدى سمور: المرجع السابق ص115.

(15) جى. بى. كيلى: الحدود الشرقية لشبة الجزيرة العربية ص143. وانظر إجراءات الهند السياسية. المجلد (763) مارس (1872) رقم (369) من «بيلى» فى 11/ 3/ 1876.

(16) د. عبدالعزيز المنصور : التطور السياسى لقطر ص 69.

(17) جى. بى. كيلى: المرجع السابق ص 144. وانظر إجراءات الهند السياسية المجلد (763) مارس 1872 رقم (374) من سميث إلى بيلى فى 21 يوليو 1871 رقم (26).

(18) د. عبد العزيز المنصور : المرجع السباق ص90.

(19) د. عبدالعزيز المنصور: نفس المرجع ص 170.

(20) وثيقة رقم "L/p&S/9/19" ص 231 ـ 235 رسالة من الشيخ زايد بن خليفة إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» فى الخامس من رجب 1288 الموافق (20/ 9/ 1871).

(21) وثيقة رقم "L/P&S/9/19" ص 23 ـ 235 رسالة من الكولونيل «لويس بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» إلى وزير الدولة ـ الدائرة السياسية «بومباى» حررت الرسالة على متن السفينة الحربية البريطانية «هوغ رون» فى «جوادر» بتاريخ 1/ 11/ 1871.

(22) . محمد مرسى عبدالله: المرجع السابق ص 31.

(23) . فؤاد سعيد العابد: سياسة بريطانيا فى الخليج العربى. الجزء الثانى ص 85.

(24) د. فؤاد سعيد العابد: نفس المرجع ص 85.

(25) د . عبد العزيز المنصور: المرجع السابق ص 91.

(26) د. عبد العزيز المنصور: نفس المرجع ص 170.

(27) Clarence. c. Mann - Abu Dhubi - P. 54.

(28) فالح حنظل: المفصل فى تاريخ الإمارات العربية المتحدة . الجزء الثانى ص 641.

(29) د. فؤاد سعيد العابد: المرجع السابق ص 86.

(30) جى . إى. سالدانا : المرجع السابق ص 74 وثيقة رقم 58.

(31) وثيقة رقم "L/P&s/9/62" المجلد الثانى ص 355 ـ 365 رسالةمن بطى بن خادم بن نهيمان شيخ العديد إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» بتاريخ 9/ 9/ 1874.

(32) وثيقة رقم "L/P&S/9/62" ص355 ـ 365 من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» إلى بطى بن خادم بن نهيمان شيخ العديد. فى الثالث من شعبان (1291) الموافق 15/ 9/ 1874.

(33) ج.ج. لوريمر: المرجع السابق ص 1242.

(34) فالح حنظل: المرجع السابق ص 643.

(35) وثيقة رقم "L/P&S/9/62" المجلد الثانى ص 355 ـ 365 من الشيخ زايد بن خليفة بن خليفة شيخ أبوظبى إلى الكولونيل «ى.س.روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» فى الثانى من ذى الحجة 1291 الموافق 11/ 1/ 1875.

(36) وثيقة رقم "L/P&S/2/62" ص 35 ـ 365 رسالة من بطى بن خادم بن نهيمان شيخ العديد إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» فى الثالث عشر من ذى الحجة 1291 الموافق 1/ 2/ 1875.

(37) وثيقة رقم "L/P&S/5/15" ص 355 ـ 365 المجلد الثانى رسالة من المقدم

«ى. س. روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» إلى وزير الدولة لحكومة الهند. الدائرة الخارجية «كلكتا» بتاريخ 20/ 3/ 1875.

(38) وثيقة رقم "L/P&S/2/62" ص 355 ـ 365 المجلد الثانى من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» إلى «ماركيز ساليزبيرى» وزير خارجية الدولة لمجلس وزير خارجية الدولة لمجلس الهند . لندن بتاريخ مارس 1875.

(39) جى . إى. سالدانا: المرجع السابق ص 75. وثيقة رقم (59).

(40) جى. إى. سالدانا: نفس المرجع ص 76 وثيقة رقم (59).

(41) جى. بى. كيلى: المرجع السابق ص 145.

(42) جى. إى . سالدانا: المرجع السابق ص 77. وثيقة رقم (60) من الوكيل السياسى البريطانى فى ديسمبر 1874 رقم (146) خطاب المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى رقم (13/13/ 274) بتاريخ (21) نوفمبر.

(43) جى. إى. سالدانا: نفس المرجع ص 71. وثيقة رقم (61).

(44) وثيقة رقم "L/P&S/2/62" المجلد الثانى ص 355 ـ 365 رسالة من المقدم «ى. س. روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» إلى وزير الدولة لحكومة الهند. الدائرة الخارجية كلكتا بتاريخ 20/ 3/ 1875.

(45) د. فؤاد العابد: المرجع السابق ص 86.

(46) فالح حنظل: المرجع السابق ص 649.

(47) جى. إى . سالدانا: المرجع السابق ص 80 وثيقة رقم (64) وزارة الخارجية رقم (947) سياسى بتاريخ 7 مايو 1871.

(48) جى. إى. سالدانا: نفس المرجع ص 80 وثيقة رقم (64) الرسالة رقم (78) سياسى بتاريخ 10 مايو 1877 الأرقام (263 ـ 269).

(49) جى. إى. سالدانا: نفس المرجع ص 85 وثيقة رقم (65) الخطاب رقم (78) سياسى بتاريخ 10 مايو 1871.

(50) جى. إى. سالدانا: نفس المرجع ص 83 وثيقة رقم (62) بتاريخ 14 أكتوبر 1877 الوكيل السياسى فبراير 1878.

(51) جى. إى سالدانا: نفس المرجع ص 84. وثيقة رقم 66.

(52) د. عبدالعزيز المنصور : المرجع السابق ص 173.

(53) Muhummad Morsy Abdullah: The United Arab Emirates Amodern History P. 162.

(54) جى . بى . كيلى: بريطانيا والخليج جـ 2 ص 667.

(55) جى . بى . كيلى : نفس المرجع ص 668.

(56) فالح حنظل: المرجع السابق ص 651.

(57) فالح حنظل : نفس المرجع ص 652.

(58) جى . إى . سالدانا: المرجع السابق وثيقة رقم (71).

(59) د. عبدالعزيز المنصور: المرجع السابق ص 175.

(60) فالح حنظل : المرجع السابق ص 661.

المصادر والمراجع:

أولا: الوثائق الأجنبية غير المنشورة:

1 ـ وثيقة "L/P&S/5/515" ص 425 ـ 427 رسالة من بطى بن خادم بن نهيمان شيخ قبيلة القبيسات إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» بتاريخ 25/ 8/ 1869.

2 ـ وثيقة "L/P&S/5/15" ص 425 رسالة الكولونيل «لويس بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلى وزير الدولة فى الدائرة السياسية «بومباى» بتاريخ 28/ 8/ 1869.

3 ـ "L/P&S/9/19" ص 231 ـ 235 رسالة من الشيخ زايد بن خليفة إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» بتاريخ الخامس من رجب 1288 الموافق 20/ 9/ 1871.

4 ـ "L/P&S/9/19" ص 231 ـ 235 من الكولونيل «لويس بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلى وزير الدولة. الدائرة السياسية «بومباى» حررت الرسالة على متن السفينة الحربية البريطانية «هوغ روز» فى جوادر» بتاريخ 1/ 11/ 1871.

5 ـ "L/P&S/9/62" المجلد الثانى ص 355 ـ 365 رسالة من بطى بن خادم بن نهيمان شيخ القبيسات فى «العديد» إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» بتاريخ 9/ 9/ 1874.

6 ـ "L/P&S/9/62" ص 355 ـ 365 رسالة من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» إلى بطى بن خادم بن نهيمان شيخ العديد بتاريخ الثالث من شعبان (1391هـ الموافق 15/ 9/ 1874م.

7 ـ "L/P&S/9/62" المجلد الثانى ص 355 ـ 365 من الشيخ زايد بن خليفة شيخ أبوظبى

إلى الكولونيل «ى.س. روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» فى الثانى من ذى الحجة 1291 الموافق 11/1/1875.

8 ـ "L/P&S/9/62" ص 355 ـ 365 من بطى بن خادم بن نهيمان من شيخ العديد إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» فى الثانى عشر من ذى الحجة (1291) الموافق 1/2/1875.

9 ـ "L/P&S/9/62" ص 355 ـ 365 من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» إلى ماركيز ساليزبيرى وزير الخارجية ـ لندن ـ مارس (1875).

10 ـ "L/P&S/9/62" المجلد الثانى ص 355 ـ 365 من المقدم «ى. س. روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «بوشهر» إلى وزير الدولة لحكومة الهند. الدائرة الخارجية ككتا فى 20/3/1875.

11 ـ R/15/6/19 - NO - 381dated Therapia The I st October 1888 - From Sir W.A. White, her Majesty Anbassador at constantinople To The Marguis of salisbury, K. L, Secertary of stste, for Foraign Affairs - P.2.

12 ـ R/15/6/19 -No. 121, dated Constan tinople, The I st October 1888. P.2.

13 ـ R/15/6/19 -Translation from The Persianpaper "Ittalu" of 9th August 1888 P.3.

ثانيا : المراجع باللغة العربية:

1 ـ ج.ج. لوريمر : دليل الخليج . ترجم بإشراف ديوان حاكم قطر ـ الدوحة ـ الطبعة الثانية . السنة غير مكتوبة.

2 ـ جى. إى. سالدانا: الشئون القطرية. ترجمة أحمد العنانى. لجنة كتابة تاريخ قطر . الدوحة 1976.

3 ـ جى. بى. كيلى.

أ) بريطانيا والخليج . ترجمة محمد أمين عبدالله . وزارة التراث القومى والثقافة . عمان . مسقط 1979.

ب) الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية. ترجمة خيرى حماد. منشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1971.

4 ـ زهدى عبدالمجيد سمور: تاريخ ساحل عمان السياسى الجزء الأول. ذات السلاسل . الكويت 1985.

5 ـ دار الهلال : بلادنا العربية . أبوظبى . القاهرة.

6 ـ صلاح العقاد (دكتور):

أ) الاستعمار فى الخليج الفارسى: مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة 1956.

ب) التيارات السياسية فى الخليج العربى. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة 1974.

7 ـ عبدالعزيز المنصور (دكتور) : التطور السياسى لقطر ذات السلاسل . الكويت . الطبعة الثانية 1980.

8 ـ فتوح عبدالمحسن الخترشى (دكتورة) عبدالعزيز المنصور (دكتور):

أ) مصادر تاريخ قطر. الطبعة الثانية. ذات السلاسل . الكويت 1984.

ب) قطر وتطورها . ذات السلاسل . الكويت 1977.

9 ـ فؤاد سعيد العابد (دكتور) : سياسة بريطانيا فى الخليج العربى. الجزء الثانى. ذات السلاسل . الكويت 1984.

10 ـ فالح حنظل: المفصل فى تاريخ الإمارات العربية المتحدة . الجزء الثانى. لجنة التراث والتاريخ . أبوظبى 1983.

11 ـ محمد مرسى عبدالله (دكتور): دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها. دار القلم . الكويت 1981.

12 ـ محمود الداوود: الخليج العربى والعلاقات الدولية. معهد الدراسات العربية. القاهرة. السنة غير مكتوبة.

13 ـ معهد البحوث والدراسات العربية: دولة الإمارات العربية المتحدة. دراسة مسحية شاملة . القاهرة 1978.

14 ـ ناجى صادق شراب: دولة الإمارات العربية المتحدة . مؤسسة الاتحاد . أبوظبى 1983.

15 ـ وزارة الخارجية لدولة الإمارات العربية المتحدة الندوة الدبلوماسية الثامنة. أبوظبى 1980.

ثالثا: المراجع باللغة الأجنبية:

1 - Clarence c. Mann - Abu Dhabi - Khayats - Beirut - 1969.

2 - Mohammad Morsy Abdullah - The United Arab Emirates - London 1968.

الفصل الخامس



الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود فى قائمقامية قطر العثمانية

1871 - 1882

قدم هذا البحث ونشر ضمن أعمال - المؤتمر العالمي الثاني للدراسات العثمانية عن الحياة الاجتماعية في الولايات العربية في العهد العثماني - مركز الدراسات والبحوث العثمانية - حمامات في 5 مارس 1986 - تونس.

مقدمة

يعد البحث حول موضوع الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود فى قطر، من المواضيع المهمة، ولكن المشكلة الأساسية التى تواجه الباحث هى قلة المصادر والمراجع، وخاصة فى الفترة من دخول العثمانيين وحتى خروجهم من قطر، وذلك لعدة أسباب، أهمها: اعتبار هذه المرحلة من أهم مراحل فترة تأسيس مشيخة قطر، وخاصة بعد ظهور الشيخ قاسم ابن الشيخ محمد بن ثانى مؤسس الأسرة الحاكمة، إضافة إلى الدور الذى لعبه الشيخ قاسم فى بناء اركان حكم الاسرة فى الوقت الذى اشتد فيه الصراع البريطانى ـ العثمانى حول قطر ومحاولة بريطانيا إيجاد منفذ لها فى الدوحة، إلا أن الشيخ قاسم الذى طلب من القوات العثمانية الدخول إلى قطر ثم خضوعه لسيادة الباب العالى، جعله فى وضع أقوى ومتساو مع جيرانه، خاصة مع شيخ البحرين الذى كان يطالب بقطر باعتباره تابعا لشيخ البحرين، وكذلك مطالب شيوخ أبوظبى فى أجزاء من قطر، ولكون البحرين وأبوظبى خاضعتين للنفوذ البريطانى فإنه من الصعب على الشيخ قاسم الحصول على استقلاله إن لم يكن مستحيلا وإذا علمنا أن الامير سعود حاكم نجد العثمانى كان أيضا متعاونا مع البريطانيين ويطالب بل وأرسل رجاله لاحتلال قطر، كل هذه العوامل دفعت الشيخ قاسم أن يطلب الدخول فى طاعة السلطان عبدالحميد، ومن ثم يواجه المشاكل التى أثارتها بريطانيا عن طريق التجار الهنود، ولذلك كان اعتمادنا على الوثائق البريطانية المترجمة من قبل د. فتوح، ود. المنصور فى كتاب مصادر تاريخ قطر، وكتاب «جى اى سالدانا» والمترجم من قبل لجنة كتابة تاريخ قطر، وأيضا كتاب دليل الخليج للوريمر والذى عاصر تلك الفترة ثم كتب عنها بتكليف من حكومته، ولذلك فإن المصادر التى بين يدينا تعبر عن وجهة النظر البريطانية، ونظرا لصعوبة البحث عن الوثائق العثمانية التى جات فى هذه الفترة، وايضا لضيق الوقت حيث لم يكن أمامنا سوى بضعة أشهر للكتابة فى هذا الموضوع، فإنى بذلت كل جهدى للحصول على

مراجع أخرى، كما قـمت بتحليل المعلومات البريطانية وصياغتـها فى نظرة علمية منصفة وأتمنى أن اكون قد حققت بعضها على الأقل فى هذا البحث.

بدأت البحث بالموقع وأهم المدن فى قطر فى تلك الفترة، السكان والتركيب القبلى، وضع قطر قبل مجىء العثمانيين إليها، وبعد دخولهم، والموقف البريطانى من الوجود العثمانى فى قطر، مشكلة الرعايا البريطانين من التجار الهنود وطردهم من قطر والضغوط التى مارستها بريطانيا على الوالى العثمانى الشيخ قاسم ورفضه لهذه الضـغوط، والتهديدات ممـا اضطرت بريطانيا لتغـير من استخـدام القوة إلى سياسة المرونة واسـتخدام الطرق السلمية والتقرب من الشـيخ قاسم، مما أسفر عنه دفع الشيخ قاسم التعويضات للتجار الهنود والسماح لهم بعودتهم إلى قطر.

يكشف لنا هذا كـيف أن بريطانيا حـاولت استغـلال هذه المشكلة لصالحـها لإيجاد بعض النفوذ لولا وقوف قاسم فى مواجهة هذا المخطط البريطانى وإفشاله، إلا أن بريطانيا نجـحت فى سياستهـا بعد وفاة الوالى الشيخ قـاسم واستطاعت ان تطرد العثمانيين من قطر وان توقع اتفاقيـة الحماية مع ابنه الشيخ عبدالله بن قاسم الثانى. ولم تخرج بريطانيا من قطر إلا فى عام 1971 بعد سياسـة الانسحاب من شرق السـويس، واليوم تعتبـر قطر واحدة من أقطار الخليج العربى وأحـد أعضاء مجلس التعاون.

موقع قطر:

نجد أن شبه جزيرة قطر عبارة عن لسان كـبير من اليابسة يمتد داخل الخليج العربى فى منتصف المسافة تقريبا بين مدخل الخليج العربى فى مضيق هرمز ورأسه عند مصب شط العرب، وتبلغ مسـاحتها حوالى 4000 ميل مربع والطول حوالى 100 ميل، والعرض حوالى 55 ميل تقريبا[1] وتحيط بها مـياه الخليج العربى من الشمال والشـرق والغرب، أما الجنوب فتبدأ حـدودها من نهاية دوحة سلوى على الجانب الغربى من شـبة الجزيرة وتمتد هذه المنطقـة فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى أن تصل إلى آبار «اسكاك» ثم تمتـد بعد ذلك حـتى تصل إلى شرق الشمـال للطرف الشمالى للتلال الرملية «النقيان» ثم تتجه نحو الجنوب الشرقى للنهاية الجنوبية لهذه

التلال على الجانب الشمالى لمدخل خور العديد، وقد قيل انه يمكن لثلاثة رجال يقفون فى «دوحة سلوى» و«اسكاك» و«خور المحارف» على التوالى رؤية جميع ساحل قطر الجنوبى من البحر إلى البحر(2).

تحتل قطر أهم موقع فى الخليج العربى(3)، ولكن الجزء الاكبر من شبه جزيرة قطر عباره عن أرض صحراوية حصوية(4)، إلا أن بعض القبائل البدوية تجد لها فيه مراعى لمواشيها، كما توجد بعض قرى الصيد على الساحل مثل «الزبارة» و«خور حسان» وغيرها(5).

الدوحة:

هى عاصمة قطر كما تعتبر أهم مدنها وأكبرها سكانا ومساحة، ويسميها البدو أحيانا «دوحة قطر» كما كان يطلق عليها اسم البدع، وقد اشتهرت بهذا الاسم وهى المدينة الهامة فى قطر القديمة(6)، والبدع حاليا أحد الاحياء القديمة فى الدوحة وتقع على الجانب الشرقى لشبه جزيرة قطر، وعلى بعد حوالى 63 ميلا من الطرف الجنوبى لرأس «الركن» و45 ميلا شمالى خور «العديد»، وميناؤها يقع على الجانب الجنوبى من خليج عميق، وهو ميناء طبيعى يبلغ طوله حوالى ثلاثة أميال وهى محمية من جهتى الشمال الشرقى والجنوب الشرقى بصخور طبيعية، ويبلغ اتساع المدخل أقل من ميل من جهة الشرق ولكنه ضحل بين رءوس الصخور، وصعب بعض الشىء، ولا تستطيع المراكب ذات الغاطس الأكثر من 15 قدما المرور فيه ويتراوح عمق الميناء ما بين 3 إلى 5 (قامات) وقد بنيت المدينة فوق الأرض المرتفعة(7).

أسس البدع «أفراد من قبيلة السودان المهاجرين من أبوظبى وكانت مدينة مزدهرة ولكن المنازل ضيقة وصغيرة ويفصل بين الأزقة ممرات معتمة، وكانت بها مراكز لتجارة اللؤلؤ فى قطر أما مدينة الدوحة فقد أسسها أفراد من قبيلة «أبوعينين» الذين نزحوا إلى «الوكرة» فيما بعد(8)، وقد تعرضت الدوحة للتدمير مرتين فى الماضى وذلك بسبب الحروب القبلية والاقليمية التى كانت تدور بينها وبين أبوظبى والبحرين فى تلك الفترة(9)، وقد كان تعداد السكان فى الدوحة

أوائل القرن العشرين اثنى عشر ألف نسمة، وقد ذكر العثمانيون أن تعدادها كان عشرة آلاف، ويفصلها عن مدينة البدع حى صغير عرف «بالدوحة الصغيرة» أو «الدويحة» وقد كان حيا صغيرا تسكنه جماعات من الهولة ذات أصول إيرانية[10]، وتتكون مدينة الدوحة من تسعة أحيا وتمتد الواجهة الكلية للمدينة على البحر حوالى ميلين.

الوكرة:

تعتبر ثانى مدينة من حيث الاهمية بعد الدوحة[11]، وتقع إلى الجنوب الشرقى منها بحوالى 10 أميال على الساحل الشرقى لقطر وليس فيها ميناء، واعتمادها على ميناء الدوحة، ولكن لها ساحل يتكون من الشعب المرجانية الموجودة فى البحر ويمتد لمسافة ميل واحد من شمال إلى شرق «الوكرة»، إضافة إلى شعب مرجانية أخرى تمتد لمسافة سبعة أميال من الجنوب الشرقى كما تبرز من الساحل شعب مرجانية أخرى تعرف باسم «فشت الشويمة» أو «راس العلج» ولا تستطيع المراكب الكبيرة أو البخارية الرسو بها إلا على بعد ميلين على الاقل، والمنطقة الواقعة بين الوكرة والدوحة خالية من الزراعة وقاحلة، أما المنازل فتتكون من الطوب الاخضر ولا يوجد بها أعداد كبيرة من نخيل ليستعمل سعفه فى بناء المنازل، ولكن فى السنوات الاخيرة بنى بها حى يعرف باسم الرميلة على بعد 800 ياردة إلى أقصى شمال المدينة[12]، وقد تعرضت مدينة الوكرة أيضا للتدمير والخراب عندما هوجمت من قبل البحرين وأبوظبى عام 1867[13].

السكان:

لاشك أن للظروف البيئية والطبيعية والجغرافية، تأثيرا واضحا على نشاط الناس وأساليبهم المعيشية وخاصة سكان قطر لارتباطهم بالموقع البحرى الممتد، فاستفاد الناس من العمل فى مياة الخليج العربى منذ القدم فى نشاط اللؤلؤ وصيد السمك[14]، فقد كان اعتماد السكان الرئيسى فى الاقتصاد يقوم على عملية الغوص على اللؤلؤ وصيد السمك، وتعتبر عملية الغوص من الاعمال الشاقة، فيها الكثير من المخاطر اضافة إلى الأمراض الناتجة عنها كداء الرئة ونحوه وما يتعرض له الغوص من اخطار الاسماك المتوحشة، وكان يعمل فى الغوص اكثر من

نصف سكان قطر[15]، وكان سكان قطر قد عـرفو قيمة اللؤلؤ مـنذ مئات السنين فاهتموا باستـخراجه، كما كان لهـم اسطول بحرى يزيد عدده على اربـعمائة سفينة تعمل فى صـيد اللؤلؤ، وكـان اللؤلؤ يصدر إلى مـدينة بومباى بالهنـد ومنها إلى الدول الاوربية[16].

أما صيد الاسماك فيأتى فى المـرتبة الثانية بعد الغوص على اللؤلؤ من حيث الاهمية كمورد رزق للسكان، ومن المعروف ان الخليج العـربى غنى بكميات كثيرة ومتنوعة من الاسمـاك نظرا لوجود الاعشاب البحرية ونتـيجة للدفء الذى تمتاز به مياه الخليج العربى[17] وقد يرجع اتجاه السكان إلى البحر منذ أقدم العصور لجذب شبـه جزيرة قطر اضافـة لاحاطتهـا بالمياه فى معظم اجـزائها مما جعلهم يتـخذونه مصدرا للرزق والغذاء واكتسبوا فى ذلك خبرة ومهارة عظيمة[18].

اما النشاط الزراعى فقد كان مـحدودا نظرا لقلة المياه بالاضافة إلى أن التربة غير صالحة للزراعة فى معظـم ارجاء قطر لكونها صحراوية، وبعض المناطق مغطاة بطبقة من الحجارة والجير وملوحة التربة وشدة الحرارة[19]، اما مياه الامطار فقليلة وغير منتظمة ولا تتـعدى البوصتين سنويا ولا يمكن الاعتمـاد عليها فى الزراعة، فهى تكفى فقط لبـعض الاعشاب، ولهذا حفرت عدة آبار للمـياه العذبة فى وسط وغرب شبة الجزيرة القطرية[20].

يتركـز سكان قطر كمعظم سكان المنـاطق العربية على السـاحل الغربى من الخليج العربـى بدو وحضر، ويتـراوحون زيادة ونقصـا ويتألف التركـيب السكانى للمقيمين من مختلف الجماعـات والقبائل والتى تتواجد معظم عناصرها تقريبا فى كل من قطر والبحـرين، ولا يقل عدد سكان قطر المسـتقرين فى مـدينتى الدوحة والوكرة وفى قرى «الظعاين» «والذخيرة» «وابو الظلوف» و «هدية» و«خور حسان» «والوسيل» و«الرويس» و«خـور شقيق» و«سـميسـمه» عن 27 ألف نسمـة، إذا ما أضفنا لهـم أفراد القوات العـسكرية العثـمانية المتـواجدة فى الدوحـة، والعائلات القليلة من أصل زنجى والتى تعمل فى زراعة حديقتين أو ثلاث فى قطر، ويضرب عدد كبيـر من السكان المقيمين خيامهم فى الداخل اثناء فـصل الشتاء مع قطعانهم وماشيتهم، والبدو ينتمون إلى مختلف القبائل[21].

يتوزع السكان إلى عدة قبائل عربيــة اضافة إلى بعض العائلات من الـسادة، أما افراد القــوات العسكرية العثمانية فـإنها تبلغ حوالى ثلاثمائة وخمــسين رجلا، وكان يوجد فى السابق بعض الرعايا البــريطانيين من التجار الهنود والذين طردهم الشيخ قاسم فيمـا بعد نتيجة لتصرفاتهم غــير اللائقة، ولكن ما يزال منهم اثنان أو ثلاثة يقيمون اقـامة دائمة، ولكن اعمالهم التجارية لم تعد مـثمرة فى تجارة اللؤلؤ بعد ترحيل معظم الهنود[22].

يبلغ عدد السكان فى مـدينة «الوكره» حوالى ثمانية آلاف نســمة ويبدو أنهم ينتمون للقبائل التاليــة حسب تعدادهم: ال بوعينيين 200، العمامرة 100، عرب من نجد 250، خليفات 850، معاضـيد 350، ال بن مقلة 50، القبـيسات 75. هولة 1000، بحارنة 200، عبيـد محرورن 1000، زنوج لا يقيمـون مع اسيادهم 2000، ايرانيون 125، ويسكن حى «الرمـيلة» كل من الخليـفـات و«المعـاضيـد» وعبيدهم بصفة خـاصة، أما البحارنة والهولة فيعملون بالتجـارة والاعمال الحرفية ولا يوجد رعايا بريطانيون من أى نوع فى الوكرة[23].

التركيب القبلى لسكان قطر:

يتكون سكان قطر كغيرهـم من سكان الخليج العربى، من مجموعات عديدة من القبائل العــربية التى نزحـت من اليمن ومن وسط وغرب الجـزيرة العربية على فترات مختلفة، وأخذت تنتــقل فى منطقة الخليج العربى من مكان لاخر، اما طلبًا للرزق أو نتيجة لحروب قبلية فتنزح القبيلة أو جماعة منها من مكان إلى آخر[24]، اضافة إلى القبائل العربية يوجد بعض العبيد الذين تم جلبهم من مناطق متفرقة من أفريقيا وآسيا واعداد قليلة من البحارنة والهولة.

لهذا يمكن القول بأن النمط القبلى هو النموذج السـائد فى قطر وبقية المناطق فى الخليج العربى، وحتى هذه القبائل بعد ان استقرت توزعت على اجزاء من شبه جزيرة قطر وفى المدن والاحياء على شكل عائلات ممتدة، وتخضع هذه الاحياء لها وتسمى بأسمائها احيانا، ويعتبر شيخ كل قبيلة بمثابة رئيـسها والمسئول عن شئونها، وتخضع القــبيلة لإرادته وتأتمر بأمره، كمـا نلاحظ ان قبائل الحضــر هى التى تقيم على السواحل وتعمل بالتجارة والغوص وصيد الاسماك[25].

فيما يلى نتحدث عن هذه القبائل والعشائر القطرية:

آل مسلم:

والنسبة إليها «مسلمى» وهى عشيرة صغيرة فى قطر بينما كانوا يشكلون القوة الرئيسية والحاكمة لقطر فى القرنين السادس والسابع عشر، وينتسبون إلى بنى خالد، وكان شيخ البحرين قد أسكن عدداً منهم فى عام 1850 فى مدينة الدوحة، وذلك لموازنة نفوذ عشيرة «السودان» وينتقل آل مسلم فيما بين «فويرط» و«الحويلة» وقد بنوا قلعة الدوحة الحالية التى عرفت سابقا باسم قلعة «آل مسلم» كما أسسوا «الدويحة» وظلوا على علاقات وثيقة مع المعاضيد، ولكن عدة ظروف ادت إلى خفض عددهم فى تجارة اللؤلؤ وقليلون منهم من المجندين فى خدمة شيوخ آل خليفة(26).

المعاضيد:

النسبة إليها «معضادى» ومن الصعب ان تقرر ان كان «المعاضيد» أو جز منهم يعاملون كقبيلة مميزة أو أنه ينظر إليهم كشعبة من قبيلة «ال بن على» فى البحرين وقطر، وهى القبيلة التى تنتمى إليها الاسرة الحاكمة لذلك فإنها تعد القبيلة الرئيسية على الرغم من انها ليست أكبر القبائل(27).

يقال ان «المعاضيد» فى قطر يتصلون من ناحية الدم «بآل بوكوارة» الذين هم أنفسهم يدعون بأنهم من سلالة بنى تميم. ويتكون المعاضيد من سبع عائلات انقرضت منها واحدة، ومن العائلات الست الباقية: آل على، آل طلح، آل ثانى الذين ينكرون أية قرابة لهم بآل بن على، بينما يعترف العسيرى وآل فضل بذلك، وآل بن مقبل منقسمون، ولكن يبدو أن الباقين يدعون أنفسهم من آل بن على(28)، وكان آل ثانى قد وصلوا إلى قطر فى أوائل القرن الثامن عشر، وفى عهد محمد بن ثانى برزت زعامة ال ثانى للقبائل القطرية والتفوا حوله(29) وقد سميت آل ثانى نسبة للجد الاكبر ثانى بن محمد بن ثامر بن على(30).

المقيمون الاصليون من «المعاضيد» فى قطر موجودون فى الدوحة ولهم مائة منزل، وفى «الوكرة» 70 منزلا، وفى «الوسيل» خمسة منازل ولكن رئيسهم يعيش فى هذه القرية، والعائلات المختلفة من المعاضيد يعيشون مختلطين فى اقاماتهم المختلفة، ويشتغل المعاضيد فى تجارة اللؤلؤ والملاحة وتربية الجمال والماشية(31).

آل بوكوارة:

والنسبة إليهـا «كوارى» وتقيم هذه القبيلة بصفـة رسمية فى قطر ولهم 250 منزلا فى «سـميـسمـه» و150 منزلا فى «الضـعاين» ومـائه منزل فى «الفـويرط» وعشرون منزلا فى «الدوحة» وينقسم «آل بوكوارة» إلى أربعة أقسام وهى: آل عبد الشيخ، وآل كليب، وآل بهام، والمطاوعه، ويعملون فى تجارة اللؤلؤ وصيده وتربية الإبل والماشية ومنهـم أيضا بحاره، ويقال ان «آل بوكوارة» تربطهـم صلة دم وثيقة بالمعاضيد فكلاهما من بنى تميم(32).

آل بن مقلا:

وهى قبيلة صـغيرة وتدعى إنها فرع بوكواره الذين أنكروا عليـهم صحة هذا الادعاء، ويعملون فى صيد اللؤلؤ وتربية الماشية(33).

النعيم:

يسكنون قـرب الزبارة، وينزحون فى الطقس الحـار إلى البحـرين ويقيـمون معسكراتهم فى الجزء الشمالى من الجزيرة الرئيـسية وبعضهم يقضى الصيف بجوار الدوحة، وهم منفصلون تماما عن الجسم الاصلى للقبيلة فى البريمى وساحل عمان ولا يحافظون على الصلة بهم وان اجدادهم هاجروا من اليمن إلى عمان ومنها إلى قطر منذ بضـعة أجيـال، بناء على دعوة من الـعتـوب إلى قطر من أجل طرد ال مسلم، وقـد أصبح بعض النعيم الشـماليين صـيادى لؤلؤ ولكن الاغلبيـة رعاة، ويعتمـدون فى حياتهم على رعى الحيوانات. ويـدو النعيم الشمالية يكتـسبون من وراء شيوخ آل خليفـة وآل ثانى، وحماية هذه المشيخات يعتمـد اساسا عليهم اثناء غياب سفن صيادى اللؤلؤ عن مساكنهم، وقدرتهم أنهم يتمتعون بثقة فوق مستوى الشبهات، ويشتهر النعيم بأنهم يملكون أكثر من 100 حصان و600 جمل و1000 رأس من الماعز، وأهم أقسـامهم: آل بوخريبان، الجفافلة، المطاوعـة، القماطين، الزائده، خلوى، آل فهد، آل رمضان، الوارة، آل بوشامس، آل جمعان، الحتوم، آل حى، آل جبر. وهذه الاقسام وحتى الاقسام الاساسيـة مختلفة ويتبعون شيخين من قسمى آل حى وآل رمضان على التوالى، وينظر نعيم البحرين لشيخ «عجمان»

على إنه جفالى ويحتمل ان قسم جفافلة النعيم فى شمالى قطر، يناظر قسم القراطسه والذين يقيمون فى البريمى[34].

بنى هاجر أو الهواجر:

يعتبرون من البدو الرحل فى شرقى الجزيرة العربية، ويلفظ محليا «بنى هاير» و «الهواير» ومفردها «هاجرى» أو «هايرى» ومعظمهم يتواجدون فى سنجق الاحساء العثمانى ولكنهم لا يملكون اقليما معينا بعينه، باستثناء ارض كبيرة من قطر يعيش فيها فخذ «المنحضبة» من الهواجر وهم يصطحبون رفاقا من قبيلة عجمان نظراً لرباط الدم والقرابة وهى من القبائل اليمنية القوية المعروفة يتجولون بأراضيهم بحرية، وكثيرا ما يضرب الهواجر خيامهم جنوبا فى خور «العديد»، واحيانا يزورون المناطق الخاضعة لشيوخ الكويت، كما يزور بعضهم قرية «عنك» فى واحة القطيف سنويا، والقسم المستقر من الهواجر غير مرتبطين مع القبيلة، وطبائعهم فظه وخشنه، ولكنهم ذو فكر بناء ومزاجهم مرح يوفون بالوعود والعهود، وتتمتع نساؤهم بحرية كبيرة، ومع إنهم لا يملكون سفنا خاصه بهم إلا أنهم يعملون فى البحر، اما مهنتهم الرئيسية فهى رعاية الماشية ويعيشون على انتاج قطعان الماشية وتربية الحيوان والجمال ولديهم عدد صغير من مزارع النخيل فى بر «العقير» و«الظهران» وخيامهم ذات الوان سوداء بها خيوط بيضاء، ويبلغ عدد المقاتلين لديهم حوالى 1500 منهم 150 ينتمون إلى «المخضبة» و850 إلى «ال محمد» اما عدد أفرادهم الاجمالى فيبلغ 5000 نسمة، وتستحكم العداوه القوية بين الفخذين الرئيسيين وهما «المخضبة» و «آل محمد» وهى الحالة السائدة بينهما فى هذه الفترة، ولهذا فإنه لا يوجد شيخ واحد للقبيلة بأسرها، كما يتلقى وجهاء القبيلة معونه مالية من متصرف سنجق الاحساء العثمانى وهدايا من شيخ الكويت، وشيوخ آل ثانى فى قطر[35].

السودان:

والنسبة إليها «سويدى» وهم منتشرون فى ساحل عمان وقطر البحرين، ويقال أنهم هاجروا من اليمن وينحدورن من سلالة الاسود الكندى الحضرمى، ويسكنون فى الدوحة ويملكون 80 منزلا ويمكن تمييز السودان بسهولة عن القبائل

الأخرى التى يعيشون معها، وأهم الاقسام فى قطر هما آل رمضه وآل سالمين، وكانوا يتمتعون بقوة ونفوذ كبير إلا أن قوتهم ضعفت بعد عام 1768 نتيجة لهجوم شيخ أبوظبى والبحرين على قطر، وهم يعملون فى مهنة صيد اللؤلؤ والملاحة(36).

آل بوعينين:

هم فرع من فخذ «آل صبيح» من قبيلة «بنى خالد» المشهورة ويقيمون فى قطر والبحرين، وفى قطر يملكون 400 منزل فى مدينة الوكره ويعتمدون فى مصدر رزقهم على صيد اللؤلؤ وتجارته وليس بينهم مزارعون إلا أن جزءا منهم يعيش فى خيام خلال فصل الشتاء، ويقال إنهم أسسوا مدينة الدوحة فى أوائل القرن التاسع عشر ولكنهم اخرجوا منها عام 1828 إلى «الرويس» و«فويرط» وفى النهاية اقاموا فى «الوكرة»(37).

العمامرة:

النسبة إليها «عمارى» وهى تعمل فى شئون البحر وصيد اللؤلؤ والملاحة فى كل أجزاء الخليج العربى، وهى فقيرة نسبيًا ويقال إنها تنتمى الى فرع «عمار» المتفرع من قبيلة الدواسر، ولهم عشرون منزلا فى الدوحة، وعشرون فى الوكرة ويبلغ عددهم الكلى حوالى 900 نسمة، وتربطهم صلة قرابه بقبيلتى ال بواكرة و«المعاضيد»، كما انتقل البعض منهم الى البحرين مع العتوب وفى هذه الفترة يقوم عداء مستحكم فيما بينهم وبين «آل بن على» و«آل بجج» المتفرعين من «آل مرة»(38).

كبسة:

النسبة اليها «كبيسى»، وهى قبيله عربيه صغيرة وغير مستقره ويوجد أفرادها بصفة رئيسية فى قطر وان كان البعض يقيم فى البحرين، ومقرها الرئيسى فى «خويرحسان»، وفى الاولى يملكون 80 منزلا وفى الثانية 50 منزلا، كما يمتلكون منازل أخرى فى كل من «الهديه» و«سميسمه»، يعملون بصناعة اللؤلؤ ويملكون الجمال والاغنام والحمير والابقار، ويرحلون الى الاجزاء الداخليه فى فصل الشتاء ويتركون ماشيتهم مع البدو المحليين اثناء فصل الصيف ويتجهون الى البحر لصيد

اللؤلؤ، وكـان معظمـهم يقـيم فى وقت من الاوقـات ولكنهم اضطروا للرحـيل الى«خوير حـسان» بسبب تأزم المشـاكل كما شـاركوا فى تأسيس الزبارة مع قـبيلة النعـيم، ولكنهم عـادوا بعـد فـتـرة الى خـوير حسـان التى مـا زالت مـقـرهم الرئيسى(39).

السلطة:

النسبة اليها «سليطى» وهى قبيلة تقـيم بشكل مستقر فى قطر ويقال إنها فرع من «بنى مالك » وأنها وصلت من العراق العـثمانى عن طريق ايران ولذلك يمكن تصنيفهم ضمن الهولة الإيرانية وهم غير رحل، ويملكون 650 منزلا فى الدوحة، ويعيشون على صـيد اللؤلؤ والملاحة وتربية الماشية والابل، والبـعض منهم كان قد هاجر مع العتوب الى البحرين عام 1723، كما استقر بعضهم فى الدمام فى واحة القطيف فى أوائل القرن التـاسع عشر وقـد عاد بعضهم إلى قطر ثانيـة عام 1869 نتيجة لسوء التفاهم الذى حدث بين الدوحة ووالى البصرة(40).

المهاندة:

النسبة إليهـا «مهندى» وهى قبيلة من اشباه الرعـاة وتقول بعض المصادر انها قدمت من ايران إلى قطر والذين يرون هذا الرأى يتقبلون الحقيقة القائلة بأن القبيلة تنتمى إلى «الهولة» الإيرانية وأهم فروعها:ـ آل حسن، وآل إبراهيم، وهم يعيشون فى 500 منزل ويعملون بتجارة اللؤلؤ وصيده ويقومون بتربية الماشية والجمال(41).

وضع قطر قبل دخول العثمانيين:

خضـعت قطر منذ بداية التاريخ الحـديث لحكم بنى خالد أو أحد فـروعهم وخاصه ال مسلم، وهى احـدى القبائل العربية القوية ذات نـفوذ، وكان آل مسلم يدفعون الزكاه لبنى خالد الذين كانوا يسيطرون على الاحساء والساحل الشرقى من الجزيرة العربية ابتداء من قطر وحتى حدود البصرة(42). وكان نائب المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى قد بـعث بتقدير يقول فيه بأنه لم تتقرر مسألة السيادة أبدا بشكل عام فى هذه المـوقع ولـم يحصل ان بت على الاطلاق فى أمر السـيادة على شبه جزيـرة قطر ولا شك أنها كانت متنازعا عليهـا بين أبو ظبى وحاكم نجد العثـمانى، وفى وقت من الاوقات مـارس شيخ أبو ظبى السـياده على قطر،(43)

ولكن بعد وصول العتوب الى «الزبارة» فى الشمال الغربى من قطر أخذوا يمكنون لانفسهم في موطنهم الجديد ومن ثم انفرد آل خليفة فى حكم البحرين وخاصه بعد فتحها وطرد الفرس منها،[44] بينما كانت الزبارة خاضعة لهم وبعد ذلك توسعوا فى حكم شبه الجزيرة القطرية حتى شملت معظمها.

وصل فيصل بن تركى قائم مقام العثمانى فى نجد فى اوائل عام 1851 الى الدوحه خلال رحله كان يقوم بها فى اقاليم حكمه وقد أبى سكان «الدوحه» و«الوكرة» و«الفويرط» عقب زيارته رغبته فى التخلى عن ولايتهم لشيخ البحرين والانضمام الى رعايا الدولة العثمانية ولكن هذنه مواتيه عقدت فى يوليو عام 1851 جنبت آل خليفه المخاطر التى كانوا معرضين لها بفقدان أملاكهم فى قطر، كما كانوا قد فقدوا فعلا مدينة الدمام على شاطئ الاحساء، وكان الرائد «بيللى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى قد أفاد فى تقرير عام 1866 وأقرته حكومة الهند لاحقا عام 1867 بأن ولاء شيخ البحرين لنجد العثمانى كان مقصوداً للمحافظة على املاكه فى قطر اما بالنسبة لبلده البحرين فإنه كان مستقلا عنهم كل الاستقلال، والجزية التى يدفعها لنجد العثمانى كل عام وقدرها اربعة آلاف روبية فهو ينظر إليها على أنها ضريبة لحماية رعاياه فى قطر من أى هجوم قد تشنه القبائل الاخرى على البر، وفى الفترة ما بين عامى 1852 و1866 يبدو أن القائم مقام العثمانى فى نجد كان له ممثل فى الدوحة ولكن من المحتمل ان وكيله هذا إنما كان شيخا من شيوخ قطر[45].

حدث فى أكتوبر من عام 1867 هجوم مدمر على مدينتى الدوحة والوكرة واشترك فى هذا الهجوم كل من شيخ أبوظبى والبحرين معا، فى حين كان دافع الاخير هو رغبته فى معاقبة الاهالى بسبب تمردهم ضده، وان مدينتى الدوحة والوكره كانتا فى نهاية عام 1867 قد أزيلتا تماما من الوجود ولو إلى حين، فهدمت المنازل وهجرها اهلها، وقدرت الخسائر بمبلغ يزيد عن مائتى الف روبيه، وبعد اخفاق القبائل المنكوبة فى الحصول على ترضية عن طريق الاستغاثه بحاكم نجد العثمانى، شنت غاره انتقامية على البحرين ولكنها لم تنجح[46].

برز فى هذه الفترة الشيخ محمد بن ثانى المؤسس الأول للأسرة الحاكمة فى قطر إلى الساحة السياسية متبعا الأسلوب المرن والمعتدل فى إدارة شؤون حكمه مع

القبائل ولم يكن مطلق التصرف وكما برز ذلك من خلال حله لخلافاته مع آل خليفة فى البحرين عندما عقد معاهدة مع بريطانيا عام 1868 لفض خلافاته مع آل خليفة(47)، كما لزم محمد بن ثانى نفسه بموجب تلك الاتفاقية التى وقعها مع الكولونيل «بيللى» مع إنه ليس من الشيوخ الداخليين فى معاهدة «السلم البحرى» بألا يبحر لغرض عدوانى فى أى وقت وان يرجع إلى المقيم السياسى البريطانى بشأن أى خلاف أو سوء تفاهم يقع له مع الآخرين(48).

رغم ان هذه الاتفاقية تنطوى على الاعتراف الضمنى بالكيانات القبلية، إذ تعهد محمد بن ثانى بتأدية الجزية نيابة عن القبائل القطرية إلى شيخ البحرين(49)، إلا إنها تعتبر محاولة من بريطانيا لإدخال قطر ضمن حلقة النفوذ البريطانى فى الخليج العربى، رغم ان سكان قطر لم يمارسوا أى دور عدوانى مما قد يشكل خطرا على الملاحة أو على المصالح البريطانية فى الخليج العربى، ولكن نجد فيما بعد ان ابن الشيخ محمد ويدعى قاسم سوف يلجأ إلى العثمانيين للتخلص من التزامات والده تجاه البريطانين وشيوخ البحرين وبالتالى يصبح القائم مقام العثمانى فى قطر.

وقعت هذه الاتفاقية في جو من الضغط البريطانى وذلك عندما زار الكولونيل «بيللى» من البحرين إلى مدينة الوكرة فى قطر فى أوائل سبتمبر عام 1868، تصحبه السفن الحربية البريطانية مثل السفينة «فيجيلافت» والقارب المسلح «هيوروز» والباخرة «سند» وبعد وصوله إلى الوكرة اجتمع بكبار الشيوخ فى قطر على ظهر سفينة وأبلغهم استياء الحكومة البريطانية الشديد من حملتهم على البحرين وقال ان الحكومة تفهم حجتهم فى أنها لم تكن سوى حملة انتقامية وتعتبر ذلك سببا يهدئ من الاضطراب الذى أثارته الحملة وفى النهاية توصل إلى عقد اتفاقية مع الشيخ محمد بن ثانى فى 12 سبتمبر تعهد فيها بأن يعود إلى الدوحة التى هجرها، وان يقيم فيها فى سلام وألا يرتكب أى عمل عدوانى فى البحر، بل عليه ان يحيل كل الخلافات والمنازعات التى قد تنشب بينه وبين جيرانه إلى المقيم السياسى البريطانى للفصل فيها، ولا يساعد شيخ البحرين السابق، بل عليه ان يسلمه للسلطات البريطانية لو وقع يوما فى قبضته وأخيرا ان يقيم مع الشيخ الجديد فى البحرين نفس العلاقات التى كانت قائمة بينه وبين الشيوخ السابقين لهذه الجزر، وان يخضع لقرار المقيم السياسى البريطانى فيما يتعلق بأى خلاف فى

وجهات النظر يقوم حول مشاكل مثل الجزية[50]، بعدها عقد محمد بن ثانى اتفاقية جديدة لدفع الجزية من قطر إلى البحرين عن طريق المقيمة البريطانية.

دخول العثمانيين إلى قطر:

اتبعت الدولة العثمانية سياسة تقليدية تجاه وسط وشرق الجزيرة العربية، وهى تجنب أعباء الحكم المباشر والاكتفاء بالسيادة الاسمية للدولة العثمانية، والتدخل فى أضيق الحدود إذا دعت الحاجة باستخدام الزعامات القبلية لاثبات وجود سلطة من نوع ما هنا وهناك فى مناطق متفرقة من الجزيرة العربية، لذا يمكن اعتبار حملة مدحت باشا تحولا هاما فى السياسة العثمانية كما كانت لها اصداء كبيرة فى المنطقة من شمال الخليج العربى فى الكويت وجنوبا إلى مشيخات ساحل عمان وعمان مما نتج عنه قيام حكم عثمانى فى الاحساء وقطر[51].

يرجع هذا التحول إلى شخصية السلطان عبد الحميد أولا، وشخصية مدحت باشا والى العراق ثانيا، حيث ان الاخير قام بمحاولة اعادة النظر فى النظام الإدارى فى الدولة العثمانية ودعا إلى اصلاحات جذرية فى انحاء مختلفة من الدولة، كما كان من ألد اعداء السياسة البريطانية فى الخليج العربى، واعتبر الكويت والبحرين وقطر بلادا عثمانية ليست لبريطانيا اى سيادة عليها[52]، وهذا ما نجده عندما ولى مدحت باشا الامير عبدالله بن فيصل قائم مقام عثمانيا خلفا لوالد فيصل بن تركى القائم العثمانى السابق لنجد واشعر الجميع بأنه ينظر أكثر شمولا واتساعا إلى حدود الدولة العثمانية وإلى الشرق من الجزيرة العربية معتبرا ان هذه الحدود لا تضم منطقة الاحساء وحدها بل أيضا البحرين وقطر وساحل عمان وعمان فى حين رفضت الحكومة البريطانية هذا الادعاء وبعثت بمذكرة احتجاج وجهتها إلى الباب العالى[53].

اتبع مدحت باشا سياسة تهدف إلى انشاء اسطول بحرى عثمانى قوى فى الخليج العربى، كما أنشأ خطا للبواخر التجارية أيضا تربط البصرة بالسويس والاستانه لأنه كان يرى وجود القوة البحرية ضروريا لإثبات الوجود العثمانى وان يحكم قبضته على الولايات والمشيخات فى شرق الجزيرة العربية التى لم ترتبط باحلاف مع بريطانيا، ولذا فإن مدحت باشا كان قد اقتنع بوجهة نظر عبدالله بن فيصل عندما أخبره بأن سعودا متعاون مع بريطانيا وسيلقى بها بيد الأجانب،

لذلك فإنه يطلب النجدة من الدولة العثمانيـة حماية للإسلام والمسلمين، وهنا قرر مدحت باشا أن يغزو الاحـساء وبقية مشيخات شـرق الجزيرة العربية، فكتب إلى شيخ الكويت يطلب منه المساهمة فى الحملة، فوافق الشيخ على ذلك وحشد قواته بسرعـة وأمر أسطوله بالانضمام إلى الحـملة إدراكا منه بأن البريطانيـين خطر يهدد مـستـقبل الإســلام ومناطق شرق الجـزيرة العربيـة، وكان مـدحت باشا قـد وزع منشورات تبين أن أهداف الحـملة هو انقاذ نجد وتوابعهـا من الخارج على الإسلام وعلى طاعة خلـيفة المسلمـين وإعادة الحكم إلى قائمـقام نجـد الأمير عـبدالله بن فيصل[54].

بعث فى عام 1871 مدحت باشا بـحملة إلى الاحساء للاستـيلاء على هذه المناطق باسم السلطان عبدالحميد الثانى[55]. وسقطت الاحساء بيده على الرغم من صرخات الأميـر سعود يطلب النجده من المقدم «بيللى» المقيم السـياسى البريطانى والذى كان قد قـدم مساعداته لسعـود وقال فى مراسلاته للحكومـة البريطانية بأن سعود خير للسياسة البريطانية من أخيه عبدالله بن فيصل ولكن عندما انهزم سعود من الجيش العثمانى فأنه لم يحرك ساكنا وكان جوابه هو أنه يهتم بأمن مياه الخليج العربى فقط وأنه سيـقاوم التقدم العثمانى إذا ما تعرض لاحـدى المشيخات المرتبطة بمعاهدات مع بريطانيا[56].

بعد دخول العثمانيين إلى الاحساء أرسل قائدها حملة بقيادة شيخ الكويت، وقد وصلت هذه الحملة فى شـهر يوليو عام 1871 بقيادة الشيخ عـبدالله الصباح بدعوة من قاسم بن محمد والذى كان قد بعث بها إلى نافذ باشا، وكان مع حاكم الكويت أربع رايات عثمانيـة مع رسالة من نافذ باشا إلى قاسم بن محـمد يمتدح فيـها الحكم العثـمانى، وقبل قـاسم هذه الرايات ورفع احداها على بيـته وأرسل الثانية لوالده محـمد بن ثانى فى «الوكرة» والثالثة لعلى بن عـبد الله شيخ «الخور» والرابعة أرسلها إلى «العديد»، وقـد برر قاسم خضوعه للعثمـانيين بأنه يعيش فى البر والعثمانيون قوة برية عظيمـة وأن بريطانيا أخفقت فى تحقيق العدالة لرعاياه فى أكثر من حادثة من حـوادث السلب والنهب، وفى شهر يناير 1872 وصلت القوة العثمانية إلى الدوحة تحت قيادة شيخ الكويت وتحولت قطر إلى قائمقامية تتبع لواء الاحساء الـتى يحكمها متـصرف يرجع فى أموره إلى والى الولاية بالبـصرة وكان

يتبع قائمقامية قطر بعض القرى الصغيرة يحكم كلا منها مدير يرجع في أموره إلى قائمقام قطر[57].

ولكن الشيخ محمد بن ثاني والد قاسم كان قد رفض رفع العلم العثماني فوق منزله لأنه كان قد وقع اتفاقية عام 1868 مع بريطانيا واستمر يرفع علمه الخاص، وذلك لم يؤثر لأن الشيخ محمد كان طاعنا في السن بينما أخذ شأن ابنه قاسم يرتفع منذ عام 1868 وقد كان يريد تأكيد استقلال قطر عن البلدان المجاورة وبالتالي فإن خضوعه لسيادة دولة كبيرة مثل الدولة العثمانية قطع الطريق على شيوخ البحرين وأبوظبي في المطالبة بأية حقوق لهم في قطر، كما قد يكون قاسم بدوافع دينية لم يرغب في الدخول تحت الحماية البريطانية وإنما آثر التقارب مع الدولة العثمانية، إذ كانت الزعامة الروحية لدولة الخلافة هي العامل الأول في اجتذاب الشيخ قاسم إلى التعاون مع العثمانيين والدخول في سيادتهم، إضافة إلى عامل محلي هو تعدي القبائل المتحالفة مع سعود بن فيصل صديق بريطانيا على قطر مما جعل الوجود العثماني نوعا من الحماية من هذه القبائل[58].

يمكن القول إن مدحت باشا أرسل قواته إلى قطر بناء على طلب من قاسم وأعيان البلاد، لتلك الأسباب التي ذكرناها آنفا، كما أوضحوا لمدحت باشا أنه في حالة عدم ارسال القوات المسلحة العثمانية بأنهم يطلبون السماح لهم بالهجرة في موسم الحج. ولهذا أرسل مدحت باشا سرية من القوات العسكرية الموجودة في الاحساء بقيادة عمر بك، وهذا يعني ضمنا بأن السياسة العثمانية لم تستهدف في بداية الأمر وجودا عسكريا مستديما في قطر وخاصة أن الشيوخ وأعيان البلاد كانوا قد طلبوا بأنفسهم السيادة العثمانية [59] وإرسال أعلامها للتوزيع على المناطق الادارية في البلاد.

تم في عام 1873 سحب القوات النظامية العثمانية التي كانت في الدوحة وتم ابدالها بثلاثين رجلا من القوات العسكرية، واحتفظت هذه الحامية العثمانية بموقعها في الدوحة حتى عام 1914[60] ، وفي عام 1915 أجلت القوات البحرية البريطانية قوات الحامية العثمانية من مدينة الدوحه [61] ورغم خضوع قطر للحكم العثماني الا أن الوجود العسكري لم يغير أو يؤثر في قطر، وظلت العلاقات القبلية كما كانت من قبل وظل شيوخ آل ثاني في الدوحة من أقوى وأهم العناصر في الحياة الاجتماعية والسياسية.

الموقف البريطاني من الوجود العثماني في قطر:

لقد كانت السياسة العثمانية بالنسبة للخليج العربي متأثرة إلى حد كبير بالفكرة التى كان السلطان عبدالحميد الثاني يحملها عن الجامعة الإسلامية وإعادة الخلافة إلى سابق عهدها هيبتها وجعل استنبول عاصمة العالم الإسلامي(62).

جاء الاهتمام البريطاني في الوقوف ضد التوسع العثماني في شرق الجزيرة العربية في الوقت الذى قل فيه الخطر الروسى على الخليج العربى، وأصبح أمرا ثانويا بالنسبة لمركز بريطانيا في الخليج العربي وذلك لانشغال روسيا في الأوضاع السياسية في المناطق الإيرانية المحاذية لها وكذلك في الصراع الدولي في افغانستان(63).

لهذا كان للحملة العثمانية أصداء كبيرة على الصعيد المحلي والدولي وخاصة من جانب الحكومة البريطانية، والتى قابلتها بالمعارضة والرفض نظرا لمصالحها الكبيرة في منطقة الخليج العربي والتى كانت تهدد تلك المصالح وتعكر الامن البريطاني في مياه الخليج العربي نتيجة لوصول منافسين جدد وهم العثمانيون إلى الساحل الغربي من الخليج العربي وحتى منطقة العديد فيما بين قطر وأبوظبي وأصبحت قطر الحد الفاصل بين النفوذ البريطاني والعثماني، بعدما كانت بريطانيا هي المسيطرة على الساحلين الشرقي والغربي من الخليج العربي فالوجود العثماني على الساحل الغربي من الخليج العربي. يعني انتقاصا من السيادة البريطانية رغم وجود الاساطيل البريطانية في مياه الخليج العربي.

عندما طالب شيخ البحرين في عام 1873 بسيادته على قطر، أوضح له المقيم السياسي البريطاني بأن هذه المسألة صعبة ومعقدة وان القضايا الخاصة بالسيادة البحرية ينبغي تجنبها الان، وخاصة بعد دخول القوات العثمانية إلى هذه المنطقة، وكانت بريطانيا تفكر في المحافظة على وضعها في مشيخات ساحل عمان والبحرين، ولكن بعد التأكيدات من الباب العالي بأنه لا ينوى التدخل في استقلال الشيوخ الخاضعين للحماية البريطانية ابدت ارتياحا كبيرا، واعتبرتها أكثر قيمة من أى تحديد خاص ولكنها رأت إن عاجلا أو آجلا أنه سيتخذ التدخل العثماني في بلاد العرب طابع الاستمرار والثبات أو ستكف عن العداوات وبالتالي سوف تحين لها الفرصة المناسبة للتصدى للقضايا الخاصة بالحدود او السيادة، كما تم الاعتراف

بان للبحـرين حقوقا مـعينة مثل حق الرعى علـى ساحل قطر عن طريق الحق فى الاعتداء على أى ميناء فى قطر(64).

بعث نائب المقيم السـياسى البريطانـى فى الخليج العربى بتقـارير سرية إلى حكومته فى الهند موضحـا فيها بأن العثمانيين أصبـحت لهم السيادة الفعلية على ساحل قطر حتى مشارف العديد منذ اغسطس عام 1873، كما بعث السير. «هـ. اليوت» بتقرير إلى اللورد «جرانفيل» فى 22 أغسطس 1871، يقول فيها بأنه تلقى برقيـة من نائب الملك فى الهند تتـساءل عن وجود اسـاس من الحقـيقـة عن كون الجنود العـثمـانيـين سيلقى بهم فـى ساحل قطر وإن قـلاعا سـتـبنى فى القطيف «والعقـير» وقد سأل فى ذلك الافـندى العثمانى الذى صـرح له بأنه بعد مراجـعة المراسلات الوارده له لم يجـد الحكومة العثمـانية فى وضع يسمح لهـا بأن تقضى بالمعلومات حين تسأل عن اجراءاتها فيما تعتبره أقاليمها الخاصة، وذلك يشير إلى سنجقى النجد واليمن، اما فيما يتعلق بقطر، فمن المؤكد إنه فى شهر يوليو رفرف العلم العثمـانى فوق «البدع» فى ظروف لم توضح من أى مصـدر وهى ميناء على الساحل الشرقى لقطر(65).

يقول المستر «أتشيسون» فى مـلاحظة له فى هذا الصدد ضمن محضر مؤرخ فى 19 يوليو عام 1971 «إن احتلال البدع يبدو مناقضا لروح التأكيدات التى قدمها الباب العالى والباشا أنها بلا شك المحاولة الأولـى نحو تأسيس سيادة على القبائل فى الشرق ممن أدخلت مدنهم، كـما هو معروف فى الجريدة الرسميـة التركية على أنها بيوتات وحدائق نجد والاتراك أشد ذكاء من ان يشهدوا أى تأكيد عنيف مفاجئ لسيادتهم. . . هناك أولا تلميـحات الباشا بأن التأكيدات المعطاه «الضـمانات» تشير إلى القـبائل المنشقـة التى ليس منهـا قبيلـة واحدة فى نجد ثم هنـاك إدخالات فى الأوراق الرسميـة لأماكن معينة عـلى أنها توابع لنجد، ثم رفع العلم التـركى كما ذكرنا وهكذا(66)».

كما جاء فى رسالة المقيم السيـاسى البريطانى إلى سكرتير الدولة وفيه رسالة للملحق السـياسى فى الخليج العـربى فى 22 أغسطس عام 1882 بأن والد قاسم كان منذ عام 1868 داخلا فى ارتـباطاته بعلاقـات حسنة مع الحـكومة البريطـانية واستمر عليـها حتى وفاته، فى حين تخلى عن شئـون الحكم فى أواخر ايامه إلى ابنه قاسم بعـد ان بلغ فى السن وأخذته الشـيخوخة، امـا قاسم فإنه كـان ساخطا

على البريطانيين نتيجة لتصرفاتهم ضده بعد أن قام المقيم السياسى البريطانى بفرض رغبات شيخ البحرين ودفع الجزية مما دفعه إلى طلب الحماية والدخول تحت السيادة العثمانية وخلال السنوات الماضية فإنه اكتسب صفة الرجل السياسى والمتصلب العنيد لكن وجود ابيه على قيد الحياه كان عاملا مهدئا حال دون نشوء صعوبات خطيرة(67).

نجد البريطانيين سوف يقبلون بالامر الواقع بالسيطرة العثمانية على «قطر» و«الاحساء» و«نجد» وعلى هذا الاساس يعملون فى خلق مشاكل داخلية ومنها مشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود فى قطر.

مشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود فى قطر:

لقد كانت السياسة البريطانية فى الفترة من عام 1871 إلى عام 1881 وحتى بداية عام 1913، لاترغب في الاعتراف بالسيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية ومنها قطر والوقوف فى وجه التقدم العثمانى تجاه هذه المنطقة، لكى لا تنافس مصالحها ونفوذها وتشكل تهديدا لها، ولذلك نرى هذا الصراع واثبات النفوذ البريطانى واضحا فى الخليج العربى، وخاصة فى قطر وبالذات عندما حاولت ان تفرض هذا النفوذ من وراء تصعيدها لمشكلة الرعايا البريطانين من التجار الهنود، والقصد من وراء ذلك لم يكن الوقوف مع التجار الهنود ضد حاكم قطر بقدر ما كان فرض النفوذ البريطانى وطرد العثمانيين منها، وهذا ما نجده من خلال مراسلات الجهات الرسمية البريطانية حول هذه المشكلة إضافة إلى عوامل أخرى سوف نتطرق إليها.

استطاعت بريطانيا ان تحصل على مكاسب كبيرة فى الخليج العربى منذ ان عقدت اتفاقيات ومعاهدات مع حكام المنطقة وقيدتهم بأحكام فرضتها لخدمة الاقتصاد البريطانى ولرعاياها أو الداخلين فى الرعاية البريطانية التى تكفل لهم سبل العمل والتجارة فى الخليج العربى، ولذا وفدت على المنطقة وبتشجيع من بريطانيا أعداد كبيرة من الهنود البريطانيين ومعظمهم من طائفة «البانيان» وكان انتشارهم فى الخليج العربى مظهرا من مظاهر النفوذ الاقتصادى البريطانى و كانوا يتمتعون بالامتيازات القنصلية وكانوا معروفين «بالبانيان» سواء كانوا من الهندوس أو السيخ أو غيرهم وكثيرون منهم وصلوا إلى مراكز كبيرة فى مسقط وفارس

والخليج العربى، وباستثناء المسلمين منهم لم تندمج الجاليات الهندية فى المجتمعات الوطنية بل كانت تنتظر تنمية ثرواتها ثم تنتهز الفرصة للعودة إلى اوطانها(68).

أصبحت الدوحة عاصمة قطر من المراكز التجارية الهامة والمستقرة فى الخليج العربى اثناء حكم الشيخ قاسم، وجذب هذا الانتعاش التجار الهنود من طبقة البانيان إلى هذا الميناء الناشئ ولكن قدوم التجار «البانيان» فى هذه الفترة اختلف عن قدومهم فى الفترات السابقة، وكانوا يمثلون شركات الملاحية التجارية والوكالات التجارية الضخمة فى بومباى وغيرها من المدن الهندية الكبيرة، وإن قدومهم كان كرعايا بريطانيين يتمتعون بالحماية البريطانية التى اتخذت فى كثير من الاوقات ذريعة لامتداد النفوذ البريطانى والتدخل فى الشؤون الداخلية لدول المنطقة.

فقد كان افراد جالية «البانيان» من الرعايا البريطانيين يتمتعون بحرية العمل فى مدينة الدوحة مركز النشاط الاقتصادى والذى يتمثل فى تجارة اللؤلؤ والتجارة البحرية وعملية الاستيراد وإعادة التصدير إلى وسط شبه الجزيرة العربية فى قرى ومدن «نجد» وهؤلاء التجار «البانيان» بدأوا ينافسون التجار الوطنيين فى ارزاقهم وهم فى الحقيقة يمتصون الثروة الوطنية بسبب رؤوس الأموال الكبيرة التى يديرونها فى احتكار اللؤلؤ وفى عمليات اقراض التجار واصحاب السفن الخارجة إلى الغوص، فالوثائق المحلية تكشف لنا عن مدى ما وصل إليه نفوذ رأس المال الاجنبى فى قطر وذلك بقيام التجار «البانيان» بعملية الطواشه فى كل صيف بقواربهم الخاصة المجهزة بالبحارة والأغذية والأموال، وكانوا يمرون على مغاصات اللؤلؤ ويجمعون اللؤلؤ من اصحاب السفن مما يعنى منافستهم واخراجهم من قطر أو شل حركتهم الاقتصادية، وذلك هو فى الحقيقة السبب المباشر فى الصراع بين التجار «البانيان» من الرعايا البريطانيين والتجار المحليين فى قطر (69).

اضافة الى تشكيل هؤلاء التجار "البانيان" تهديدا خطيرا للنظام الاقتصادى القطرى وسيطرتهم على معظم الاعمال التجارية فى قطر فان اثرهم على الحياه الاجتماعية ايضا كان يشكل خطرا، لان معظم التجار الهنود ان لم يكن جميعهم من جماعة "السيخ" و"الهندوس" أى يعبدون البقر والأصنام وفى نظر الاسلام يعتبرون كفارا، وبذلك كانوا يشكلون خطراً على الحياة الاجتماعية الدينية وتصرفاتهم ومعاملاتهم كانت لا تخلو من الكراهية والتسلط، وخاصة أن هؤلاء

من طبقة الهنود البانيان كانوا من المقربين من البريطانيين على عكس التجار المسلمين من الهنود والذين كانوا كثيرا ما يتعرضون لمضايقات من قبل السلطة والاستعمار المسيحي البريطاني في الهند مما كان يحد من نشاطهم التجاري في داخل الهند بخاصة والخارج بعامة كمنطقة الخليج العربي ذات الديانة المسلمة مما قد يؤثر في تعاطفهم الديني تجاه مسلمي الهند، وبالتالي لا يقل أهمية العامل الديني عن العامل الاقتصادي.

هذا وقد كان الشيخ قاسم فقيها وعالما ورعا متبحرا في أصول مذهب الامام أحمد بن حنبل ومتشددا جدا في احكامه ويمنع إدخال عامل الخوف أو المهادنة أو التسامح في أمور الحياة على حساب المبدأ الديني، فيروى عن الرسولﷺ قوله: «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان»، وقد أخرج اليهود وأجلى النصارى في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكيف بالكفار، ولأن «البانيان» يعبدون الاصنام فهم وثنيون فكان عداؤهم وحربهم وإخراجهم عملا دينيا محضا(70).

إضافة إلى العامل الاقتصادي والديني عامل سياسي وهو أن قاسم كان قد قبل الحكم العثماني منذ عام 1871 وبذلك أنهى معاهدة 1868 التي عقدها والده مع بريطانيا وقد نتج عن وصول العثمانيين إلى قطر أول احتكاك مباشر بين العثمانيين وبريطانيا رغم أن الشيخ محمد بن ثاني كان على ولائه للبريطانيين لفترة معينة إلا أن تولى ابنه قاسم مقاليد السلطة في قطر وحصوله على منصب القائمقامية عام 1876 جعله يضرب مصالح التجار الهنود بين فترة وأخرى لتنفيذ سياسة العداء تجاه بريطانيا فقد كان الهنود هدفا سهلا في متناول يده طوال فترة المواجهه، وكان يتهرب في كثير من الأوقات من العقوبات البريطانية بالاستعانة واللجوء إلى العثمانيين أو قوته الذاتية، في حين كان «البانيان» يستعينون بالحكومة البريطانية وقد افتخروا فيما بعد بالخطبة التي القاها مندوب عنهم في الشارقة أمام اللورد «كيرزون» نائب الملك في الهند أثناء جولته بالخليج العربي بالخدمات التي يقدمونها للحكومة البريطانية وبإن وجودهم في الخليج العربي ارتبط مع بداية ظهور السفن البريطانية في مياهها، وما أعطى لهم القاده البريطانيون من امتيازات اقتصادية ظلوا يتمتعون بها أينما كانوا باعتبارهم من رعايا التاج البريطاني وبعدها تعهد اللورد «كيرزون» نيابة عن حكومة الهند البريطانية بمزيد من الاستقرار

للبانيان مادامت البوارج البريطانية تستطيع أن تحفظ الطريق آمنا إلى اجزاء امبراطوريتها[71] من القوى المحلية والأجنبية فى الخليج العربى.

طلب الشيخ قاسم من السلطات العثمانية عام 75 ـ 1876 أن يمارسوا سيادتهم على هؤلاء الأجانب للحد من تدخل السلطات البريطانية فى الشئون الداخلية لقطر ولم تكن الحكومة البريطانية تستطيع أن تعترض على تلك التصرفات لأن الوالى قاسم لم يكن يرتبط معها بأية علاقة خاصه أو منصوص عليها فى معاهدات، وكل ما فعلته الحكومة البريطانية هو إنها قدمت احتجاجا لدى الباب العالى على المعاملة التى لاقاها التجار من رعاياها، ولكن العثمانيون لم يتدخلوا كثيرا فى شؤون الشيخ قاسم الداخلية فى تلك الفترة فى حين استمرت التعديات من قبل القبائل وسكان قطر على الرعايا البريطانيين بل وامتدت ايضا للبحر، ففى شهر نوفمبر عام 1878 استولى قاسم بمساعدة القبائل القطرية على منطقة «الزبارة» مما شكل خطرا على البحرين، اما بريطانيا فإنها بعثت بعدة رسائل إلى الباب العالى تطالب باتخاذ الإجراءات اللازمة للحد من أعمال سكان قطر طالما إن الباب العالى يمارس سيادته على تلك المواقع ولكن شيئا لم يحدث[72].

كانت أول حادثة مضايقة تعرض لها التجار البريطانيون من الهنود «البانيان» عندما فرض الشيخ قاسم محمد بن ثانى عام 1870 ضرائب جديدة، فقد تسلمت الحكومة البريطانية التماسا من رعاياها من الهنود فى الدوحة يشكون فيه من ابتزاز الشيخ أموالهم ويعربون عن الرغبة فى مغادرة البلده، ولكن ثبت العكس وأن ما كانوا يشكون منه هؤلاء التجار لم يكن سوى الضرائب المعتاده التى كانت تجبى منهم لحمايتهم[73]. فقد جاء فى التقرير الذى قدمه احد العاملين فى المعتمدية البريطانية فى يونيه عام 1875 بأن الشيخ قد فرض الضرائب على شعبه أولا ثم على الرعايا البريطانيين من التجار الهنود مقابل تأمين لحمايتهم من البدو وغيرهم، وقد قال الكولونيل «روس» المقيم السياسى البريطانى بأن الشيخ قاسم محمد بن ثانى كان جادا فى صداقته مع بريطانيا وبالتالى فإنه من حقه ان لا يعفى التجار البريطانيين من الهنود من نفس الضرائب والمكوس المحلية والتى كان قد فرضها على شعبه.

جاءت فى شهر سبتمبر من عام 1875، تعليمات إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى من حكومة الهند بأن يبلغ التجار البريطانيين من الهنود

بأنهم أحرار فى أن يغادروا قطر أو ان يظلوا فيه وإذا ما فضلوا البقاء فيه واستمروا فى الإقامة بها فيجب عليهم ان يخضعوا للقوانين والضرائب المحلية(74).

لقى فى عام 1876 القبطان «جوثرى» قائد سفينة «مائى فرير» بعض المتاعب اثناء زيارته للدوحة من قبل المسؤولين العثمانيين عن الموقع، فقد تجمعوا وراءه اثناء خروجه من الميناء إلى سفينته يصيحون به ان الدوحة ميناء عثمانى وإنه ليس من حقه النزول إلى هذا الميناء دون اذن من السلطات المختصة وأن عليه أن يغادره قبل غروب الشمس، وقد حاول جوثرى أن يمكث فى الدوحة أربعة وعشرين ساعة أخرى رغم التهديدات العثمانية(75).

جرت عدة حوداث فى عام 1874 منها عندما قام رعايا من قطر من قبائل بنى هاجر فى صيف تلك السنة بالاعتداء على قارب لتاجر من البحرين يدعى عبدالكريم بالقرب من «خور شقيق» وتضرر منه بعض الرعايا من التجار الهنود، ولكن المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «روس» استطاع ان يحصل على تعويض لتلك الخسارة عن طريق إرسال مساعده «فريزر» للتاجرين وهما «تشيلا» و«راما»(76) ولكن الشيخ قاسم الذى كان قد أصبح مؤخرا قائمقاما عثمانيا، قد دعا التاجرين السابقين والذين حصلا على التعويضات من قبل «فريزر» ودبر نفيهم إلى عاصمة اقليم الاحساء البعيدة فى «الهفوف» وزعم ان نفيهم إلى هناك أمر ضرورى ولابد منه مما اعتبرته بريطانيا عدوانا سافرا كبيرا على اثنين من الرعايا البريطانيين الهنود من «البانيان» ومن ثم طولب وزير الخارجية بحكومة الهند بأن يحيط وزارة الخارجية البريطانية فى لندن علما بالامر من أجل مطالبة الباب العالى بتفسير الامر والتحرك من أجل تقديم التعويض المناسب للتاجرين(77).

اما العقيد «روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فقد اعتبر تصرف الشيخ قاسم بإنه تحد لبريطانيا وعمل ثأرى من جانبه فى مقابل الغرامة التى أكره على دفعها من جراء الضريبة التى كان انتزعها من نفس هذين التاجرين(78).

توالت الحوادث وخاصة فيما بين عامى 1878 - 1879 فى حين كان العثمانيون يتجاهلون أو غير راغبين فى ذلك بل ورفضوا التعاون مع بريطانيا فى سبيل ذلك، كما كانت بريطانيا عاجزة عن مواجهة هذه الأعمال على السواحل

القطرية باستثناء البحر وخاصة عندما تكون البحرين هى الهدف، وارادت حكومة الهند ان يكون هناك تحديد للمدى الذى يمكن معه ان يصل فيه النفوذ العثمانى، وكانت تصر على ان تنفذ الدولة العثمانية التزاماتها بإقامة النظام حتى ذلك الحد، وكانت موافقة فى أن تدخل قطر فى إطار منطقة النفوذ العثمانى على أن الهدف من وراء ذلك كان ان يعقبه هذا التحديد تكوين قوة بحرية لمقاومة النشاط البحرى القوى الذى كان يمارسه ابناء قطر، وكانت وزارة الخارجية ترى إنه يمكن دفع العثمانيين إلى الامتناع ولكن على بريطانيا نفسها ان تقرر الحدود وان تمارس السلطة البوليسية خارجها وألا تتدخل فى الداخل إلا فى الأحوال الخاصة وفى أضيق الحدود إذا دعت الضرورة لذلك(79).

فى حين كان رأى نائب المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بأن الاقتراح الأول غير عملى لأن العثمانيين لن يوافقوا عليه وحتى إذا وافقوا فإنهم سوف يعجزون عن ممارسة السلطة على الساحل على المستوى المطلوب، أما إذا أخذ باقتراح وزارة الخارجية فسوف يكون فى مقدور سكان قطر أن يتخذوا لأنفسهم مرافئ لممارسة أعمالهم البحرية ضد النفوذ البريطانى على السواحل التابعة للسلطات العثمانية التى ستمنع مطاردتهم ولذلك فقد قدم اقتراح آخر بأن توجه رسالة إلى الباب العالى يخطر فيها بأن بريطانيا سوف تعترف بالسيادة العثمانية شمالى منطقة العديد، ولكن بقدر ما تتم به ممارسة هذه السيادة بالفعل، وإن الأعمال البحرية التى يشنونها تدل على انعدام هذه السيادة وبذلك يصبح من المتعين مطاردتهم والقضاء عليهم بصرف النظر عن الموانئ التى يستخدمونها، وسوف يتم الاتصال مباشرة بالولاة المحليين ولن يسمح بأى تدخل عثمانى فى شئون البحرين أو القبائل البحرية فى مشيخات ساحل عمان شرقى «العديد»، كما تقدم اللورد «كرانبروك» وزير الهند بتلك الاقتراحات والتى قدمها نائب المقيم فى الخليج العربى، ولكن وزارة الخارجية رفضتها بعد استشارة مستشاريها القانونيين، وايضا بعد مراجعة التفاصيل والاتصالات التى جرت مع الباب العالى منذ ذلك التاريخ(80).

تضايقت بريطانيا من تصرفات رعايا قطر ضد الأعمال التى كانوا يقومون بها سواء ضد الرعايا البريطانيين من التجار الهنود، أو ضد جيرانهم فى البحرين ومشيخات ساحل عمان والتى كانتا من ضمن النفوذ البريطانى، وحاولت فرض

نفـوذها على قطر ولكنهـا كانت تخشى من التواجـد العـثمـانى وبذلك لم تكن تستطيع أن تفعل شيئًا سوى تقديم الاحتجاج لدى الباب العالى وتقديم الإنذار إلى شيوخ قطر.

الاعتداء على أحد التجار البانيان:

وقع اعتـداء على أحد التجـار البانيان من الهنـود فى يناير من عام 1879، ويدعى «فورسو» عندما ضرب وأسيئت معاملته[81] من قبل الحاكم العثمانى محمد أغا، وذلك لأن التـاجر الهندى قام بتهـريب التمور من الدوحـة إلى الخارج بدون علم السلطات المحليـة علما بأن التـمور كـانت تستـورد من الخارج وخـاصة من «البصـرة»، ولا تصدر إلى الخارج، إضـافة إلى ذلك فقـد يكون الهدف من وراء ذلك إرغام التجـار البريطانيين على مغادرة أراضى قطر بـعدما لوحظ تدخلهم فى جميع المجالات والشؤون الاقتصادية القطرية والخاصة بالوطنيين.

تدخلت الحكومة البـريطانية نتيجة لتلك الحـادثة وطلبت التعويض للتـاجر الهندى، ونظرا لتأثـير هذه الحوادث تأثيـرا سيئا علـى سمعة بريـطانيا فى الخليج العربـى، قام العقـيد «روس» المقـيم السيـاسى البريطانى بإرسـال نسخ من أوراق القضية إلى الوكيل السياسى فى بغـداد مع استفسار بشأن الموضوع، وأشار إلى أنه لم يوقع أى قصـاص بالنسبة لحـادث سابق من نفس القبيـل حين اسيئت مـعاملة التجار البانيان فى الدوحة عام 1875، كما أشار إلى حكومة الهند بأن حوادث من هذا النوع سوف تسىء لهيبة الحكومة البريطانية فى الخليج العربى وحوله[82]، ولذا فإنه طلب بضرورة تنفيذ إجراء ما لإجـلاء الرعايا البريطانيين من التجار الهنود من الدوحة، ولكن حكومـة الهند كانت ترى غير ذلك بأنه من الافـضل أبعاد الحاكم العثمانى محمد أغا إذا ما ثبتت ضده تهمة اساءة معاملة الهندى، وقد وجه خطاب بهذه الفـحوى إلى الوكيـل السياسى البـريطانى فى العراق لكى يمـارس نوعا من الضغط لإجبـار الحاكم العام العثمانى بسـحب محمد أغا من قطر، كمـا اعتبرت سـحب جـمـيع الرعـايا البـريطانيـين من قطر لن يؤدى إلا إلى فـقـدان النفـوذ البريطانى[83] فى حـين إنها تريد أن تعـزز هذا النفـوذ، وفى النهاية اسـتطاعت بريطانيا إبعـاد المسؤول العثمـانى فى الدوحة محمـد أغا على اعتبـار إنه المسؤول المباشر عن مشاكل الرعايا البريطانيين التى وقعت فى مارس عام 1878[84].

ازدياد حالة التوتر بين بريطانيا والوالي قاسم:

ازدادت حالة التوتر بين الجانبين إلى درجة إصدار المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي في عام 1879 انذاراً لشيوخ قطر بألا يرتبطوا بأية أعمال مع بني هاجر والذين كانوا يحدثون أضرارا كبيرة ضد المصالح البريطانية على طول الساحل الغربي من الخليج العربي، وكان الكابتن «وودروف» وكيل المقيمة في البحرين قد سلم إنذارا موجها للشيخ قاسم عن الحادثة التي ارتكبها بنو هاجر عندما استولوا على سفينتين «للمهاندة» من رعايا البحرين، كما ثار التساؤل حول ما مدى استطاعة بريطانية التدخل في شؤون قطر عام 1881 بمناسبة تهديد ناصر بن مبارك بغزو البحرين بمساعدة الشيخ قاسم في الدوحه، وبسبب مشروعات الشيخ قاسم ايضا، والذي كان ينوي القيام بعمل بحري ضد قبائل أبو ظبي وكانت حكومة الهند البريطانية ترى الاتفاقية التي عقدت عام 1868 مع والده الشيخ قاسم والتي تعهدا بمقتضاها بألا يثير الاضطراب في البحر انها هي اتفاقية ذات طابع شخصي الى حد كبير، ولذلك لا يمكن اعتبارها ملزمة للشيخ قاسم، ولذا تم رفع تلك المسألة إلى الحكومة البريطانية[85].

بالرغم من إن الشيخ قاسم كان قد أصبح قائمقاما في أوائل عام 1882 إلا أن الحكومة البريطانية «طالبت من الجهات الرسمية بتشجيع الشيخ قاسم على إقامة علاقات وثيقة ومباشرة مع المسؤولين في حكومة الهند، وبأن يرجع إليهم في الوقت الذي يرغب فيه وخاصة في الأمور التي تتعلق بالأمن في البحار، اما فيما يتعلق بما يجب ان يحدث إذا ما قام شيخ قطر بعمل عدائي في البحر دون استشارة المقيم السياسي البريطاني أو اهماله لتحذير صادر منه فإن الحكومة البريطانية طالبت بتقديم نصائح أو تعليمات دقيقة، وعلى حكومة الهند أن تقرر وفق ما تقتضيه الضرورة، كما أبلغ الباب العالي في يوليو عام 1881 بأنه ما دام العثمانيون يرفضون الموافقة على سياسة مشتركة في البحر، فإن الحكومة البريطانية مضطرة لأن تكفل وحدها بحرية مطلقة ودون إشارة لتعليمات السلطان العثماني بالفصل في كل المنازعات الاقليمية في هذه المياه، كما أعطت تعليماتها لقادة السفن لمنع اضطراب السلم في البحار وان يتجنبوا بقدر الإمكان إثارة مشاكل لاداعي لها مع السلطات العثمانية في المكان الذي قد توجد به هذه السلطات وأن يتجنبوا أيضا

بقدر الإمكان الاقتراب من حدود الأراضي التابعة للدولة العثمانية على ان تسرى هذه التعليمات ايضا على الساحل شمالى «العديد» والتابع لقطر(86).

وفى تلك الفترة كان الخطر على النفوذ البريطانى فى البحرين قد ازداد من قبل سكان قطر، كما طالب العثمانيون بالسيادة على البحرين ولكنهم لم يفرضوها عمليا ابدا. وكان العثمانيون ينوون الاستفادة من الوالى قاسم لحثه على الهجوم ضد البحرين، ولكن الحكومة البريطانية حذرت الشيخ قاسم فى 7 مايو عام 1881 واخطرته بأنه سيمنع بالقوة وان الدوحة سيتم مهاجمتها بواسطة بريطانيا، فى حين اعترضت الحكومة البريطانية فى لندن على هذا التصرف فى 26 أغسطس عام 1881، وفى شهر يوليو من نفس العام كانت قد جرت مراجعة للأوامر الصادرة للأسطول البريطانى وأزيل خطر التدخل ضد الأعمال البحرية التى تجرى فى المياه الساحلية العثمانية من قبل رعايا قطر، كما طلبت حكومة الهند فى رسالتها المؤرخة فى 30 أكتوبر عام 1881 بأن تصلها التعليمات فيما يتعلق بمستقبل العلاقات مع الولاة العثمانيين فى مدينة الدوحة، وقد تسلم وزير الهند مشروعا بالرد على اللورد «جرانفيل» وزير الخارجية فى 4 يناير 1882، اشار فيه إلى أن السيادة العثمانية لا تعدو ان تكون شكلية فى الخليج العربى وإنه نزل على طلب المقيم السياسى البريطانى وهذا النزول على رغبة الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالمسائل التى تؤثر على السلام فى البحر والتى ينبغى ان يقابل بالتشجيع، وإنه لا يتعارض من حيث المبدأ بالاعتراف على السيادة الداخلية للعثمانيين، وقد حاولت بريطانيا تجديد الاتفاقية التى كانت قد وقعتها مع والد قاسم عام 1868، ولكنها لم تنجح ثم رأت حكومة الهند إنه من غير المرغوب فيه الدخول فى علاقات رسمية مع الوالى العثمانى الشيخ قاسم لأن هذا من شأنه ان يثير الصدام مع العثمانيين ولذلك صدرت التعليمات للمقيم السياسى البريطانى بأن يحصل على مجرد تعهدات شفوية من الشيخ قاسم، فى حين كان قاسم يواصل تهديده لرعايا البريطانيين فى قطر(87).

طرد الرعايا البريطانيين من التجار الهنود «البانيان»:

على الرغم من دخول الشيخ قاسم فى معاهدة مع بريطانيا وإن لم تكن

مكتوبة أى تعهـد شفوى منه بأنه يلتزم بأحكام الاتفاقيـة القديمة[88] كما تم التزام قاسم بالســلام مع جيرانه، إلا إن ذلك لم يمنعـه من اتخاذ إجراءات مشـددة تجاه الرعايا البريطانيين من البانيان[89].

ففى أواخر عام 1881، كان الوالى العثـمانى قاسم قد ضـاق ذرعا بنشاط هؤلاء التجار الهنود من «البانيـان» والذين كانوا يتمتعون بحمـايته لهم والتى كلفته كثيرا، ولكنهم كـانوا يرفضون دفع أية التزامات والضرائب المفروضـة عليهم، كما زاحموا بإمكانياتهم المادية الضخمة تجار اللؤلؤ المواطنين فى قطر، وكثير من هؤلاء التجار الهنود كانوا يقومون بعمل البنوك الربوية، إذ يقرضون تجار اللؤلؤ المال بالربا لتمويل عمليات الغوص، ويطالبون بفـوائد عالية لتسديد تلك الديون، وهو نشاط أصبح وقفًا عليهم لرفض المسلمين هذا اللون من الكسب غير الشرعى والحرام، مما اضطر معه الوالى الشـيخ قاسم إبلاغ رغبته المـلحة فى يناير عام 1882 إلى المقيم السياسى البـريطانى فى الخليج العربى بنقل وترحيل الهنود «البـانيان» من قطر إلى البحرين[90].

دافعت بريطانيا عن طبـقة التجار الهنود «البانيـان» وتصرفاتهم وألقت اللوم على الشيخ قاسم والأعمال التى قـام بها فى أكتوبر عام 1881 وعام 1880 عندما تقدم الرعـايا البريطانيـون من الهنود فى الدوحة بشكوى ضـد اساءة معـاملتهم، وعلى إثر هذا التـصعيد من قـبل قـاسم، أرسل الكولونيل «روس» مذكـره إلى حكومة الهند فى 12 نوفمبر من عام 1881، حول هذا الموضوع، والتى جاء فيها ما يلى:

نظرا لاهمية الوثـائق البريطانية، فإننى سوف أنقـل هذه المذكرات والرسائل المتبادلة فيما بين الجهات الرسمية حـول الموضوع، كما هى دون صياغتها خوفا من أن ذلك قد يفقدها معانيها وهى لا تتجاوز سبع مذكرات أو رسائل:

«تمت معاينة الواقع بصـورة كاملة بعد تحقيق جـرى فى المكان قام به «كابتن بشام» والمقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى الذين كلفتهما بزيارة «البدع» لم تقع مخالفة من طرف «البانيان» التجار «الهندوس» من طائفـة اجتماعية معينة تمتنع عن أكل اللحم وليس هناك مـبرر لمعـاملة «قـاسم» لهم والذريعة بالمصـاريف فى حمايتهم غير مخلصة وقاسم بلاشك يرغب فى الخلاص من التجار الهنود جميعا.

إلا أننى أشك بأنه أيضا متأثر بشعور آخر غير مجرد الجشع وهو أنه لا يشعر باطمئنان إلى حقيقة وضعه الآن بالنسبة للحكومة البريطانية وهو بلا شك يرغب فى التدخل إلى استنتاجات معينة عن ملاحظته الإجراءات التى قد تطبقها السلطات البريطانية حيال تصرفاته. فإذا رأى أننا امتنعنا عن اجراء مباشر فإنه يعتبر نفسه فى مجال من الحصانه عن طريق الهيبة البريطانية وعدم التمييز ولربما تمادى أكثر ضد رعايانا وقد لا يعتبر مصالحنا ورغباتنا فى كثير من النواحى الأخرى، إنها لمشكلة محيره فيما إذا كان يجب علينا اعتبار هذا الشيخ ما يزال مستقلا أو مجرد حاكم عثمانى او فى منزلة متوسطة بين هذا وذاك علما بأن الرجل نفسة حساس تماما حيال الموضوع. ثم يتابع التقرير قوله:

يبدو أنه ضرورى ان تلاحظ سلوك قاسم بن محمد الجرىء، ففى حالة متشابهة سابقة حدثت اثناء حياة والد قاسم حيث فضل الاخير تقديم تعويض مباشر لنا، وهكذا سوى الامر، مع هذا فلو كان رفض التعويض والتجأ الى الوالى العثمانى لاستعملنا القوة ضده انى أخشى ان يرفض قاسم اعطاء ترضية كافية لاساءه تصرفه الحالى وانه يفضل مواجهة النتيجة، وقد يبدو الالتجاء الى السلطات العثمانية للتعويض وكانما هو أسهل طريق، ولكن لهذه مساوئه وهو أن تعطى حكما على أساس الخبرات السابقة لاينتج عنه نتيجة مرضية كما أن الحكومة لا ترغب، كما هى عليه الامور الان فى تقديم اعتراف حول وضع قاسم بن محمد وقضاء «البدع»، إن العودة للحكومة العثمانية دون نجاح سيزعج ويشجع قاسم فى نفس الوقت وإذا تبين ذلك المسلك فإنه من المرغوب فيه إنذار الحكومة العثمانية بأنها إن قصرت فى معاقبة قاسم بن محمد وجعله يعتذر لسلوكه العدائى فإن الحكومة البريطانية سيكون عليها أن تأخذ زمام الأمر بيدها[91].

أما الشيخ قاسم فكان موقفه غير ايجابى تجاه السياسة البريطانية بل وقف ضدها وإنه رد فى يناير عام 1882 على الإنذار الموجه من قبل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى حول الامتناع عن معاملة التجار الهنود من الرعايا البريطانيين والمقيمين فى بلاده بأن يذهبوا الى البحرين وذلك لتدخلهم فى تجارة اللؤلؤ مما كان له أثر سيئ على الوضع الاقتصادى لرعاياه ولهذا المورد الاقتصادى الوحيد لبلاده. ولكن وزير المستعمرات البريطانى طالب فى رسالته المؤرخة فى 24مارس 1882، بعد عدة شكاوى من التجار الهنود «البانيان» بضرورة الاتصال

مع الشيخ قاسم ولهذا أرسل المقيم السياسى البريطانى إلى قطر أحد موظيفه ومنشئ المقيمية «ميرزا أبو القاسم» والذى يتمتع بخبرة واسعة فى الساحل العربى وقد سبق له أن قام بعدة مهام وواجبات توكيلية، وكان على «الميرزا» أن يمكث فى قطر عدة أيام ليسمع ويحقق حول أية شكاوى يقدمها الوالى قاسم ضد «البانيان» ولإزالة الأسباب التى أدت إلى سخطه وأن يحاول إقناع قاسم بسحب اعتراضه على إقامة الهنود فى العاصمة القطرية لأغراض تجارية وان يحصل على وعد بمعاملتهم معاملة حسنة فى المستقبل، ولذا فقد بعث المقيم السياسى البريطانى إلى الوالى العثمانى الشيخ قاسم فى 26مايو عام 1882 برسالة جاء فيها مايلى[92]:

«أرسل الآن ميرزا أبو القاسم إلى مدينتكم للتحقيق فى الاتهامات الموجهة ضد الهنود وسماع جميع الأطراف، وعليك أن تعرف أننى دائما على إستعداد لسماع الشكاوى وان أحقق فيها فإذا اعترف الرعايا البريطانيون أية جرائم تستحق العقاب فإنهم سيعاقبون، فإذا كانوا يسلكون مسلكا صحيحا فإنه سيكون منافيا للعلاقات الودية المتواجدة حتى الآن بين الحكومة البريطانية ووالدكم وبينكم أنتم، فيما إذا أخرجتم هؤلاء الرعايا البريطانيين أو آذيتموهم أو سببتم لهم الإيذاء، أننى آمل من شعوركم الودى الذى عبرتم عنه مرارا إنكم ستمنحون «البانيان» معاملة عادلة ولطيفة فإذا اتخذتم لسوء الحظ منهجا آخر فإن ذلك سيتنافى مع العلاقات الودية، وإنكم بكل تأكيد ستكونون مسؤولين مباشرة وشخصيا عن جميع الخسائر التى تلحق بالرعايا البريطانيين، أننى واثق أنكم ستعيرون هذه الرسالة عنايتكم الفائقة إذ إنه محرر بموجب أوامر من الحكومة».

لم تنجح جهود ميرزا فى إقناع الشيخ قاسم بل كانت عديمة الجدوى وفشلت المفاوضات برغم إبداء الشيخ قاسم شعورا وديا تجاه المقيم السياسى والحكومة البريطانية، لأنه كان مصرا على نقل التجار «البانيان» من العاصمة القطرية لعدة أسباب منها[93]:

أولا: إنهم كانوا يتدخلون فى العمليات التجارية وخاصة تجارة اللؤلؤ التى يمارسها معظم سكان قطر ويرتزقون من ورائها، ومنافسة التجار الهنود «البانيان» فى عمليات البيع والشراء وفرض أسعار معينة من قبلهم والتعامل بالربا والفوائد، مما كانت لها آثار سيئة على الوضع الاقتصادى القطرى.

ثانيا: وكان وجود هذه الطبقة من البانيان والذين يتمتعون بطقوس دينية معينة تعتبر فى نظر الإسلام كفرا وخارجه عن الإسلام وعن المجتمع القطرى، مما يجعل وجودهم فى قطر خطراً على حياتهم مما دفع الشيخ قاسم إيجاد حرس خاص لحمايتهم مما سبب له خسائر كبيرة، فى حين كان هؤلاء البانيان يرفضون دفع أية تكاليف أو نفقات من أجل حمايتهم أو دفع الضرائب المقرره.

ثالثا: كانوا يسيئون فى تصرفاتهم وسلوكهم بصفة عامة تجاه المجتمع القطرى وتجاه الشيخ قاسم بصفة خاصة، ولكن ميرزا رفض الاتهامات الموجهة ضدهم ووصفها بأنها مجرد قذف وتشهير، وهى اعذار لتجنب ضرورة القول بأن «البانيان» لم يكن وجودهم فى قطر مرغوبا فيه لمجرد أنهم كانوا تجارا، فى حين قال الشيخ قاسم بإنه كان قد اصدر قراراً فى الأيام الأولى من يوليو بتكليف ابنه خليفة للبت فى جميع الدعاوى والشكاوى التى تحال إليه وان تطاع أوامره، وعندما قام خليفة بفرض ضرائب مالية على البانيان فإنهم رفضوا دفعها مما اضطر معه بأن يقفل متاجرهم وحوانيتهم بالقوة بموجب أوامر من والده[94] ومما شجع الشيخ قاسم فى المضى قدما فى معاملته تجاه الرعايا البريطانيين من التجار الهنود هو الحصانه التى رافقت اجراءات مماثلة فى عام 1881.

ازداد هذا الموقف سوءا عندما وصل إلى الدوحة وكيل الشيخ قاسم والمقيم فى مدينة بومباى الهندية. ومعه أخبار ثورة عرابى فى مصر ضد الامتيازات الأجنبية والنفوذ البريطانى والفرنسى، وقد ذكر له وكيله بأن اخراج الشيخ قاسم للرعايا والأجانب من قطر هو حق من حقوقه[95]، حين قال: «قبل المصريون أربعة سفراء لحكومات أجنبية منهم سفيرا فرنسا وبريطانيا وقد تجمع الآن 80.000 رجل يودون محاربة الحكومات الأجنبية وكانت الأسباب أنهم لا يريدون رعايا تلك الحكومات أن يكونوا فى بلدهم وأنت ياقاسم إذا لم تر من الضرورى أن يبقى «البانيان» فى بلدك فلا اكراه عليك»[96].

يتضح لنا مدى التطور الفكرى والثقافى فى الحياة الاجتماعية فى قطر وشرق الجزيرة العربية فى ذلك الوقت، نظرا للدور الذى لعبته مدينة بومباى فى تاريخ المنطقة الحديث، لأنها كانت تمثل صورة للواقع العربى الحديث، بكل تطوراته وأبعاده الجديدة، مما كان له أثر كبير على تجار شرق الجزيرة العربية ومنهم تجار

قطر، حيث كانوا يجتمعون هنـاك كل عام لأغراض تجارية وخاصة تجارة اللؤلؤ ثم يتبادلون أحاديثـهم حول قضايا المنطقة وقضايا العرب بصـفة عامة، ثم الدور المهم الذى كان لفتح قناة السويس ومرور السفن التـجارية بمصر وساحل الشام واشتراك تجار اللؤلؤ فى المجلات والصحف العربية سببا فى التعرف مرة أخرى ولو بصورة بطيئة عـلى ما يجرى فى أنحاء الوطن العـربى، وذلك ما نجده من قضـية أحداث التجار الهنود «البانيان» فى قطر وكيف كـان دور وكيل الشيخ قاسم فى بومباى فى نقل أخبار الثورة العرابية فى مصر ومحاولة طرد الأجانب وسحب الامتيازات[97].

عندما وصلت السفـينة البريطانية «وودلارك» فى 20 يوليو إلى الدوحة كان التجـار الهنود «البانيان» مـحاصرين فى بيـوتهم من قبل الحرس الخـاص من أفراد قبـائل بنى هاجـر من القيـام بأية اتصال مع سكان المدينـة، وبعد عدة اتـصالات ومحـادثات اجراها المبـعوث ميـرزا أبو القاسم المبـعوث من قـبل المقيم السـياسى البريطانى مع الشيخ قاسم وبعد الالحـاح الشديد وافق قاسم على فك الحصار عن الرعايا البريطانيين والسماح لهم بمغـادرة قطر، كما سمح لهم بنقل بضائعهم على ظهر السـفن الوطنية فى الوقت الذى كـانت السفـينة البريطانية راسـية بعـيدا عن الميناء، وفى 22 يوليو غادر ميرزا أبو القاسم على ظهر نفس السفينة البريطانية بعد فشل تلك المحادثات علما بأن معاملة قاسم كانت جافة وهدده باستعمال العنف مع الرعايا البريطانـيين، وقد كتب ميرزا إلى الوكيل السياسى البريطـانى فى البحرين متـهمـا قاسم بأن تصـرفاته غـير لائقـة، وانتقـد قول قـاسم بأن رحيل الرعـايا البريطانيـين بأنه عمل اختيـارى تم من طرفهم، بأنها زائفـة وخادعة والحقـيقة أن قاسم تصور أن اتصاله مع العثمانيين آمنة من العقاب من الحكومة البريطانية[98].

الضغوط البريطانية على الشيخ قاسم:

وعلى أثر هذا التـصعيـد حول مـشكلة التجار مـن الرعايا البريطانـيين من «البانيان» بين الوالى قاسم والحكومة البريطانية قامت الحكومة العثمانية بإرسال وفد من القضاة للتحـقق والنظر فى هذا الأمر نيابة عن الحكومة العثـمانية، ولكى يقوم بدور الفصل فى المشاكل والمنازعات والقيام بواجبات القضاة، وفى هذه الفترة كان المقيم السياسى البريطانى الكولونيل «روس» يقضى اجازته فى لندن وعندما وصلته تلك الاخبار، قطع اجـازته وعاد إلى بوشهر ليباشـر عمله تجاه هذه المشكلة، وفى

22 أغسطس قدم تقرير إلى حكومة الهند حول أبعاد مشكلة الرعايا البريطانيين من «البانيـان» والحلول الممكنة لهذه المشكلة من وجـهة النظر البريطانيـة، وقد المح فى تقريره عن تاريخ العـلاقات البريطانيـة مع قطر وعن شئون «البـانيان» وحتى فـترة الزيارة التى قام بها ميرزا إلى الدوحة، وقد جاء فى تقريره ما يلى[99].

«كنت على أمل كبير بأن ترتيبات مـؤقتة على الأقل سوف تنفذ لكن الموقف الذى اتخذه الشيخ قاسم قد آثار استغـرابى فلقد كنت على علم بأن اعتراضه ضد «البانيان» ناشئ عن مصالح شخصـية فهو تاجر باللؤلو ويرغب بنوع من الاحتكار المحلى وكانت عمليـات «البانيان» تتدخل فيه، ولذا كـان من المتوقع بأنه سوف لا يرضخ فورا ولكن اخـراج الهندوس المفاجئ والعنيف فى وجه الانذار المنقـول إليه كان لا يقل كثيرا عن تحد للحكومـة التى هم رعاياها، ويظهر بأنه كان إلى حد ما متأثرًا ومشجعا من قبل مستشارى السوء الذين أبلغوه أن الأوربيين قد أخرجوا من مصر وأن اتصاله مع الحكومـة العثمانية سيجنبه من النتـائج غير السارة، ومع هذا فاننى أفهم أنه أثير ضد السلطة البريطانية بسبب رفض السماح له باحتلال «العديد» وغير ذلك من أمور.

نجد أن المقيم السياسى البـريطانى فى الخليج العربى يحاول أن يجد المبررات التى من خلالهـا يمكنه توجيـه التهم إلى الوالى الشيخ قـاسم، ويغض النظر عن تصرفات الرعايا البريطانيين مع «البانيـان» وذلك باعتباره يحتكر تجارة اللؤلؤ محليا وكذلك أنه لا يرغب فى بقاء الأجانب فـى بلاده أسوة بمحاولة طرد الأوربيين من مصر، وأنـه يعتمد فى تصـرفاته على مساندة الحكومـة العثمانيـة وأنه تابع للباب العالى.

كما طالب المقيم السياسى البريطانى من الشيخ قاسم بتعويض قدره خمسون ألف روبية وذلـك نتيجـة للخسـارة التى لحقت بالتـجار الهنود من جـراء التدخل المفاجئ فى تجارتهم واخـراجهم من قطر، واعتبر أخذ هذا المبلغ ضـروريا باعتباره يمثل الادعاء البريطانى ضد قاسم ثم يقول: «فى معاملتى مع الشيخ قاسم مارست كل صـبر واستـخـدمت كل محـاولة نحو المصـالحة ولكن الاسـتمـرار على هذه المحاولات سيكون بلا نفع ومجحفا، فهو مصمم بكل قوة على ابقاء التجار الهنود خارج البدع ولم تفد اية مناقشـة أو اقتناع فى ثنيه عن ذلك، وقد ابلغ بوضوح أن مثل هذا السلوك سيعـتبر غير ودى وأنه سيعـتبر مسئولا مبـاشرة عن التعدى على

حقوق البريطـانيين ويمكنني أن أشير هنا إلى أن حق التجار فى الاقـامة فى البدع ليس حقـا يمكن التخلى عنـه، إنه شىء له أهميتـه الكبرى فـيما يتـعلق بالخليج العربى، لقد اعتبر قاسم شيخا عـربيا مستقلا ضمن منطقة النفوذ البريطانى ولست بحاجة أن أبين بالنقاش كم سيضار نفوذنا العادل إذا سمح لقاسم أن يفعل ما يريد فمن الجائز أن يتخذ غيره من الشيوخ نفس «التكتيك» مما سيضر رعايانا التجار فى الموانئ الاخرى ومرة أخرى إذا كانت البدع معـتمدة كاقليم تركى فإن لتجارنا الحق بموجب المعاهدة بالإقامة هناك»(100).

يدلنا هذا على مدى التخـوف البريطانى من تصرفات قاسم وخـاصة إذا ما أقدم عليـها الشيوخ الآخـرون فى معاملتـهم تجاه الرعايا البـريطانيين من الهنود، إضافـة إلى أن هذه التصرفـات تشكل تحديا للسلطة والنفوذ البـريطانى في الخليج العربى، ولذا وجـد المقيم السيـاسى البريطانى فى الخليج العربى وكـذلك حكومة الهند فى سياسة الشـيخ قاسم تحديا لنفوذهم فى المنطقة كما خشـوا أن تمتد سياسة اخراج التجـار الهنود من قطر إلى بقية المشيـخات الأخرى(101)، ولذا فإن المقيم السيـاسى البريطـانى طالب باستـخدام القوة ضـد الوالى قاسم دون الـرجوع إلى السلطة العثمـانية ومحاصرة الميناء بالأسطول البـريطانى وحدد شهر اكتـوبر لتنفيذ طلباته وهى التعـويض عن الخسائر والسماح بعودة التـجار الهنود إلى قطر وتقديم الاعتذار عن تلك التصرفات.

رفض الوالى قاسم للضغوط البريطانية:

رفض الوالى قاسـم الضغوط والتـهديدات البـريطانية ولم يستـجب لمطالب المقيم السياسى البريطانى الكولونيل «روس» فى حـين بدأت الجهات البريطانية مثل وزارة الخارجيـة وحكومة الهند ووزارة المستـعمرات تتدارس الوضع حـول مشكلة الرعايا البريطانيـين فى قطر، وخاصة بعدما رفض قـاسم تلك التهديدات والانذار المعطى له، ولم يبق سـوى التصديـق على مقتـرحات المقـيم السياسى البـريطانى بالعمل العسكرى، وجـاء فى التعليمات الصـادرة بأنه كان عليهم استعـمال القوة فيـجب بذل كل ما فى وسـعهم لتحـاشى التصـادم الفعلى مع القوات الـعثمـانية المتواجدة فى قطر ثم الموافقة من قبل وزير الخارجية، ونظرا للظروف التى كانت تمر بها العلاقات البريطانيـة مع الدولة العثمانية حول شئون مـصر جعلت الوقت غير مناسب لاتخاذ أيـة اجراءات ضد قطر يعـتبرها السلطان تـعديا على امتـيازاته وأن

موافقة الخارجية جاءت مترددة بسبب الضرورة، وفى 10 أكتوبر طلب من نائب الملك فى الهند بألا يتخذ أى اجراء حتى يتلقى معلومات اضافية وطلب منه أن يوضح إلى أى مدى يمكن تأجيل عمليات الاسطول البريطانى، ونظرا لظروف الدولة وخاصة العلاقات البريطانية ـ العثمانية كان الشيخ قاسم أخذ يخفف من موقفه وكتب رسالة حول ذلك إلى المقيم السياسى البريطانى ولكن موقف الأخير لم يكن إيجابيا، فقد قال حول ذلك:

«إننى اعتبر كتب الشيخ قاسم غير مخلصة وغير صحيحة فى نقاط جوهرية، أنه من الواضح أنه لو كان مدفوعا فقط بالرغبة لتفادى عواقب أى ضرر وقع على التجار الهنود من طرف العرب فأنه قد يعمل بشكل مغاير جدا، كما وأن تأكيداته فى بعض الوجوه كانت تناقض بعضها البعض، وتناقض الحقيقة بما يبرهن بوضوح عدم الاخلاص، ونلاحظ أنه بينما كان يتحجج بأنه كان يخشى أن يصاب «البانيان» بسوء فإنه يتهمهم أيضا بطريقة جافة اتهامات يدل التحقيق الدقيق بأنها لا تستند إلى أساس، وليس فى الكتب الأخيرة من قاسم أية علاقة تدل على الاستعداد لتقديم ترضية جوهرية مقابل سلوكه وأنا متأكد أن ذلك لا يمكن الحصول عليه منه إلا والقوة مهيأة، ولذلك فأننى رغبت فى أن يقوم الوكيل المحلى فى البحرين بأخبار قاسم بأننى تلقيت كتبه العديدة وأن وجهات نظر حكومة الهند بما يتعلق بالأمور المشار إليها سوف تبلغ إليه فى حينه[102]»، وفى نفس الوقت كان المقيم السياسى البريطانى قدم بيانا معدلا إلى حكومته بشأن ادعاءات التجار «البانيان» والتى خفضها من 40.759 روبية إلى 27.114 روبية ويشمل هذا على 10000 روبية تعويض عن فقدان كسب كان متوقعا و5.400 روبية عن الفائدة على رأس المال خلال فترة توقف الأعمال التجارية لمدة أربعة أشهر ونصف و6.45 روبية على مبالغ الديون المعلنة من أشخاص متخلفين.

تغير السياسة البريطانية من التهديد إلى التفاهم بالطرق السلمية:

برغم تحذير المقيم السياسى البريطانى الواضح من الرعايا البريطانيين من الهنود، إلا أن الحكومة البريطانية لم تشأ أن تتورط فى قطر أو أن تقف ضد الشيخ قاسم وإنما طالب المقيم السياسى البريطانى بأن يحل هذه المشكلة بالتفاهم وبالطرق السلمية مع الوالى قاسم، وقد جاء فى المذكرة التى بعث بها نائب الملك فى الهند إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى قوله:

«أمرت أن أضيف بأن فخامتـه راغب فى عدم توريط الحكومة البريطانية فى دعم كامل لكافة الادعاءات التى يقدمها «البانيان» أنه قبيح جدا ان يكون باستطاعة طبقة من الناس تقديم طلبات غير معتدلة وكسب امتياز بصفتهم رعايا بريطانيين، وهم بالطبع يستحقون الحماية وتعويضا معقولا عندما يمارس ضدهم ضغط او سوء معاملة، ولكن حتى فى المناطق البريطانية لا تقوم المحاكم العدلية بالزام ادعاءات مثل هؤلاء الناس بصورة كاملة أو لشيء متوقع، عندما يختارون من أجل الكسب الواسع ان يتحملوا المخاطر التى تلازم بحكم الضرورة الأعمال التجارية فى بلاد غير متمدنه فليس من المرغوب فيه ان يمنح لهم دعم الحكومة البريطانية بلا تحفظ أو بدون دراسة ادعاءاتهم دراسة مستفيضة فى خلافاتهم مع الحكام الأجانب، إن الحاكم العام فى مجلسه لا يشك فى أنكم تدركون عدل هذا الرأى وإنكم سوف تتمكنون من تجنب أى مظهر من مظاهر التمييز فى معاملة قاسم بن ثانى أو فى التدخل بحقوقه، وعلى أن أشير فى الختام إلى أن الوضع الحالى قد يتيح لكم فرصة توطيد تفاهم مع الشيخ»[103].

مما سبق يتبين إن الحكومة البريطانية وحكومة الهند لم توافق على اقتراح روس باستخدام القوة وبضرورة دفع الشيخ قاسم تعويض مالى كغرامة قيمتها 40 الف روبية وخفضها إلى 8 آلاف روبية فقط[104]، وعلى ضوء هذه التعليمات بحسن المعاملة مع الوالى العثمانى فى قطر، أرسل المقيم السياسى البريطانى «روس» كتابا إلى الشيخ قاسم جاء فيه بأنه:

«فى وضع هذه المطالب بوسعى أن أؤكد لكم أن الحكومة البريطانية إنما هى مدفوعة بنيتها فى تأكيد حقوق رعاياها العادلة وهى فى نفس الوقت راغبة بأن العلاقات الودية السائدة بين أسلافهم والحكومة سوف تستمر ولكن على أيضا أن أؤكد لكم بأن مقررات الحكومة التى هى معتدلة وعادلة إنما هى حازمة وأن أى تجنب أو رفض لهذه المطالب سيؤدى إلى عواقب مؤسفة. ولقد كانت غايتى الدائمة ومحاولتى أن أقرب صلات الصداقه بيننا بفضل ما احمله من احترام لوالدكم وكذلك للصداقة الشخصية الموطدة بيننا عندما زرت معسكركم فى «الزبارة»، تلك الصداقة التى كنت راغبا فى تحسينها إلا أنكم تتذكرون أنه منذ عدة شهور مضت كنت أخبرتكم أن سوء معاملة وطرد الرعايا البريطانيين الهنود من بلادكم يعتبر عملا منافيا للعلاقات الودية وذلك بأن التجار البريطانيين فى بلاد

الحكومات الصديقة كافة فى جميع أنحاء العالم يسمح لهم بالذهاب والإياب والمتاجرة وينالون الحماية اللازمة ولقد أرسلت وكيلا ليوضح كل هذا شخصيا لكم وقد استغربت جداً أعلم بأنكم لم تلفتوا لانذارى وعاملتم وكيلى بدون لباقة وإذا كان «البانيان» يتدخلون بمعاملاتكم التجارية فيجب أن تتوقعوا من الحكومة البريطانية أن تعتبر هذا تعذراً لطردهم أو رفض ادخالهم، إذ أن الحكومة تعتبركم شيخا وحاكما وليس تاجرا. وسوف لا تعترض على أية نفقات معقولة لحماية «البانيان» ولكن يجب أن تكون مقرونة بموافقتى وليست عرضه لزيادة بدون موافقتى»[105].

حمل الوكيل البريطانى أغا محمد عبدالرحيم، هذه الرسالة من المقيم البريطانى فى الخليج العربى إلى الشيخ قاسم وهو معروف لديه ويحمل تعليمات لتوضيح تفصيلات المطالب المالية التى خفضت لمبلغ 8490 ولا تتضمن سوى الادعاءات عن الخسائر المالية المباشرة والفعلية فقط والتى تكبدها التجار «البانيان» من الهنود، وبعد عدة محادثات بين الطرفين أسفرت عن موافقة الشيخ قاسم بتقديم اعتذار كما أبدى رغبته فى عودة التجار الهنود وإن كان ذلك بشروط غير مرغوب فيها، ولكنه رفض دفع تعويض ما لم يعد التجار الهنود ويثبتوا ادعاءهم، أما بخصوص تهديدات المقيم السياسى البريطانى فإن هناك رأيين للشيخ قاسم، فالأول يقول بأنه قال: «إذا استعمل الضغط والقوة ضدى سأضطر أركب مع عشرة آلاف رجل وأن أذهب إلى البحرين، وعلق الوكيل قائلا: لقد حلمت بأنك أصبحت عرابى باشا الثانى، فأجاب الشيخ قاسم «أننى عرابيين اثنين»[106] وفض الاجتماع.

أما الرأى الثانى فيقول أنه اثناء المناقشة قال الشيخ قاسم للوكيل البريطانى أغا محمد «أنه إذا كان هناك ضغط واستخدام قوة من جانب البريطانيين فسوف يجمع رجاله ويقاتل، قال أغا محمد عبدالرحيم: هل تحلم أنك عرابى باشا الثانى؟ قال قاسم: نعم أنا عرابى الثانى» وترك المجلس وذهب[107] وقد يكون الحديثان صحيحان وخاصة الثانى، نظرا لأنهما أُخذا من المصادر والوثائق البريطانية نقلا عن المراسلات الرسمية التى جرت بين الجهات الرسمية البريطانية.

على أية حال يمكن القول أن الشيخ قاسم رفض عودة «البانيان» الى الدوحة وتسوية حقوقهم حسب الأصول بعد تلك المناقشه والذى فشل أغا محمد

فى مهمتـه، ومن ثم توجه إلى المقيم السياسى البـريطانى فى الخليج العربى وأبلغه ما جرى فى تلـك المحادثات ثم أرسل الكولنيل «روس» المقيم السيـاسى البريطانى كتابا إلى قـاسم مصوغا بلغة استـرضائية ولكنه يصر علـى دفع التعويض المطلوب فورا وعلى ضمان معاملة ودية ولطيفة لتجار الهنود فى المستقبل.

المفاوضات البريطانية مع الوالى العثمانى الشيخ قاسم:

عندمـا يئس المقيم السـياسى البـريطانى فى الخليج العربى، قـرر أن يذهب بنفسه لإنهاء هذه المشكلة مع الشيخ قاسم وعـرض عليه أن يقدم اعتذارا للحكومة البـريطانية وأن يدفع التـعويض للتـجار الهنـود البريطانيـين ويسمح لهم بالـعودة للاستقرار فى الدوحة[108]. وعندما وصل إلى الدوحة فى أول نوفمبر 1882، مع قطع الأسطول البـريطانى، فـإذا به يفـاجأ بطلب مـن الوالى قاسم لمقـابلتـه على الشاطئ ويـقول المقيم السـياسى البـريطانى الكولونيل «روس» أن من عـادة الشيخ قاسم أنه إذا لم يعـجبه الحـديث فأنه يمتطـى ناقته ويذهب، ومع ذلك فـإنه قرر النزول إلى الشـاطئ لمقابلة الشـيخ علما بأن جـميع الشـيوخ والأمـراء فى الخليج العـربى كانوا يأتون إلى المقـيم السـياسى البـريطانى ويقـابلونه على ظهر السـفن البريطانية إلا الشيخ قاسم فإنه كان يرفض الذهاب إلى السفن البريطانية ويفضل أن يجتمع مـعهم على أرضه وفى منزله ويقـول حول هذا «لقد كان من عـادة شيوخ المدن أن يزوروا المقيـم السياسى وهو على ظهـر السفـينة ولكننى كنت متـأكداً أن طبيعة الشيخ قاسم المشحونة بالشك سوف لاتسمح بمجيئه إلى ظهر السفينة»[109].

من المعـروف أن الشيخ قاسـم قد اشتـهر بشـخصـية فذة وروح صلـبة فى الإصرار على تحقيق أهدافه والحفاظ على استقلاله أمام الصراعات الدولية والمحلية إضافة إلى تلقى علومه على أيدى رجال الدين وتفقه حتى وصل إلى مرتبة القضاء والحكم بين الناس بالعدل[110]، ولهـذا يمكننا أن نعتـبر تعليل المقـيم السيـاسى البريطانى خـاطئًا بأن الشيخ يشك فى نوايا البريـطانيين وعلى العكس من ذلك أنه كان معتزا بنفسه ويرفض الخضوع للبريطانيـين المسيحيين المستعمرين ولا يخاف من تهديداتهم، وهـذا ما نجد فى سلوكـه وفى تصرفاته تجـاه البريطانيـين، وقد يكون لوجود الحاميات العسكرية العثمانيـة فى قطر، دور كبير فى تصرفاته وثقته بهم إذا ما أرادت بريطانيا إنزال قـواتها لاحتلال البدع، كما أنه لم يكن تابـعا لبريطانيا أو من ضمن الشيوخ الموقعين على معاهـدات الحماية والاتفاقيات العسكرية، بل كان

تابعا للدولة العثمانية، إضافة إلى ذلك فإنه لا يمكنه الاطمئنان لبريطانيا أو أى استعمار فى نواياهم الخفية.

بعد نزول الكولونيل «روس» المقيم السياسى البريطانى ويرافقه كل من الكابتن «نيشام» ومستر «أ. ر. حكيم خان بهادر»، إلى الشاطئ لمقابلة الشيخ قاسم جرت محادثات بين الجانبين البريطانى والقطرى، ويصف لنا المقيم السياسى البريطانى عما دار فى المحادثات وطبيعتها بقوله:

«فتوجهنا إلى منزل قاسم فاستقبلنا بأدب وود ظاهرين ثم بدأ بعض المحادثة حول مواضيع عامة فضضنا الاجتماع إلى غرفة علوية ودخلنا فى موضوع الشكاوى ضد الشيخ، وسألنى إن كان لدى الصبر لسماع كل ما يريد قوله فأخبرته إن هذا هو رغبتى وقصدى، فقال إنه بعد سماع شرحه سينفذ ما أقرره أنا، ولم يكن فى بيانه ما من شأنه أن يلقى الضوء على سلوكه أكثر من هذا، وكرر تأكيداته بأنه لم يطرد «البانيان» طردا عاجلا ولم يكن بأية وسيلة مسئولا عن خسائرهم، وبعد سماع ما كان لديه ليقول، أخبرته أننى لا أرى سببا لتغيير رأيى بالنسبة إلى لومه وأملت بأنه سوف يسوى الأمر بطريقة ودية ويدفع التعويض المعتدل المطلوب وبعد أن وجدت بأنه عنيد جدا حول هذه النقطة قلت أننى آسف جدا ولكن حيث أنه لا يوجد شىء آخر نقوله فأننا نستأذن بالذهاب ثم طلب منى الشيخ قاسم الانتظار حتى تتم الصلاة ويسمع إلى ما سيقوله وزيره محمد بن عبدالوهاب الفيحانى وكان هذا الشخص مستشارا سيئا لقاسم وهو المسئول جزئيا عن عدم الرضا الذى حل فيما بعد، وكان قد اقترح شروطا مخفضة جدا، ذهبت أنا مع الكابتن «نيشام» إلى ظهر السفينة تاركين المساعد المحلى والمستشار مع قاسم، وفى مساء ذلك اليوم قدم محمد بن عبدالوهاب وبعد بعض المناقشة عرض دفع 2000 روبية كعربون فى صباح اليوم التالى وطلب ضمانه كافية بأننى سأقبل بهذه الترتيبات، وقد أفهمته بوضوح أنه ما لم يحضر الدراهم إلى ظهر السفينة فى الوقت المحدد فأننى سأعود إلى المطالبة بدفع كامل المبلغ نقدا» (111).

حصل المقيم السياسى البريطانى بعد ذلك على مبلغ 8 الاف روبية(112) من الشيخ قاسم حسب الموعد الذى حدده وزيره محمد بن عبدالوهاب الفيحانى وكان قد عمل مستشاراً لمحمد بن ثانى فى شئون اللؤلؤ وكاتبا لديوانه وأقام فى بلد «الغارية» وهى كانت من بين أقوى قرى قطر فى ذلك الوقت(113).

الاحتجاج العثمانى على التصرفات البريطانية فى قطر:

بمجرد أن عرفت الدولة العثمانية عن تحصيل المبالغ المالية من الوالى قاسم قائمقام قطر من جانب الأسطول البريطانى فى البدع تقدمت باحتجاج رسمى إلى السفير البريطانى فى استنابول ورفعت مذكرة أخرى إلى الحكومة البريطانية نفسها جاء فيها أن المقيم السياسى البريطانى فى اقليم فارس الايرانى قد زار قطر ومعه بارجتان وأكره الوالى العثمانى هناك على دفع ثمانية الاف روبية تحت طائلة التهديد بقصف بلده بمدافع البحر إذا هو رفض الدفع(114)، وكانت التعليمات الصادرة للسفير البريطانى فى استانبول بأن يحاول فى البداية أن يتهرب ويراوغ من مناقشة هذا الموضوع، وإذا تعذر ذلك فعليه أن يذكر بوضوح أن الحكومة البريطانية لا تعترف للباب العالى بأى سيادة على قطر(115).

كتب اللورد «جرانفيل» مذكرة فى 7 مايو 1883 إلى «موسوروس باشا» جاء فيها بأن الحكومة البريطانية لم تعترف بالحقوق العثمانية فى قطر، مما أدى ذلك إلى تقديم الاحتجاج من قبل السفير العثمانى فى لندن ورد عليه اللورد «جرانفيل» فى 22 سبتمبر 1883 بأن الحكومة البريطانية لا تستطيع الموافقة على آراء الباب العالى فى هذا الموضوع وهى مستعدة أن تتنازل عن الحقوق التى عدم خلال فترات تخللت سنوات طويلة من الاتصال المباشر مع الشيوخ العرب على الساحل القطرى كلما دعت الضرورة لصيانة السلام البحرى أو لتحصيل تعويضات عن الحوادث التى تقع ضد الرعايا البريطانيين أو على الأشخاص المشمولين بالحماية البريطانية(116)، وهذا يدل على إصرار بريطانيا على ممارسة الاعتراف بالحقوق العربية أو حقوق الدولة العثمانية فى قطر أو الاحساء.

احتج وشكا الشيخ قاسم من التصرفات البريطانية ونقل ماحدث إلى السلطات العثمانية، وخاصة متصرف الاحساء، ووالى البصرة والطريقة التى عومل بها على يد المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى وهدد بالاستقالة من منصبه كقائمقام قطر إذا لم يرجع المبلغ الذى دفعه كتعويض للتجار الهنود، كما كتب الوالى قاسم مذكرة حول هذا الموضوع إلى شيخ البحرين والذى قام بتحويل خطابه إلى المقيم السياسى البريطانى والذى طلب من شيخ البحرين بأن يخبر الشيخ قاسم بأنه مادام قد كف عن التدخل فى شئون الرعايا البريطانيين فالسلطات ترغب رغبة كاملة فى أن تكون على وفاق معه فى حين كانت حكومة الهند ترى بأن السلطات

العثمانية فى الاحساء وبغداد لاتوافقه على اجراءات الشيخ قاسم فى طرد «البانيان»[117] ولذلك فاجأت بالاحتجاج العثمانى وموقف الباب العالى من التصرفات البريطانية ضد القائمقام العثمانى فى قطر.

ظل الشيخ قاسم يصر على التمسك بالقول والفعل بأن قطر تابعة للحكومة العثمانية وأن على الحكومة البريطانية بالتالى أن تتعامل فى شئون قطر مع حكام الدولة العثمانية وليس معه، فهو لايعدو أن يكون مجرد تاجر يرى أن يظل على أحسن أحوال الصداقة مع البريطانيين فى شئونه الخاصة فقط،[118] ويقول المقيم السياسى البريطانى عن قاسم بأنه لم يتوقف أبدا عن استجلاب كراهية البريطانيين وبعض رعاياهم فى قطر وربما كان فى الواقع العامل الحقيقى وراء الكثير من أعمال التعديات على التجار «البانيان» من الهنود البريطانيين فى قطر[119]، ولم تتطور هذه المسألة إلى حد كبير نظرا لوجود المشاكل والقضايا الدولية وخاصة العلاقة بين بريطانيا والباب العالى فى تلك الفترة.

عودة الرعايا البريطانيين من التجار «البانيان» وظهور بعض المشاكل:

رجع بعد اتفاقية 1882 خمسة من التجار الهنود «البانيان» من رعايا البريطانيين الذين كانوا قد طردوا من قبل والى الدوحة ولكن عودتهم وإقامتهم ظلت غير مرغوب فيها بسبب تصرفاتهم غير اللائقة، وفى عام 1886 كان الشيخ قاسم قد انتقل من الدوحة إلى «العديد» وبعدها مباشرة هاجم رجال من قبائل بنى هاجر بعض التجار من الهنود «البانيان» وجرحوا منهم اثنين جراحا غير خطيرة مما أرسل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى مساعده خان بهادر عبدالرحمن حكيم، لبحث الحادثة، ورفع تقارير جاء فيها بأن الهدف من وراء ذلك هو إرغام التجار الهنود على مغادرة الدوحة والخلاص من تصرفاتهم، وكما ذكر المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بأن الشيخ قاسم أنكر بشدة اشتراكه فى هذه الحادثة وأبدى اعتذاره لوقوعها[120].

وقعت فى العام التالى أى عام 1887 بعض الاضطرابات فى الدوحة وفى البداية قام أقارب الشيخ قاسم بحماية التجار «البانيان» من الهنود ولكن فى أول أغسطس هاجم بعض الرجال تاجرين هنديين وأصابوهما ببعض الجراح، مما أدى إلى غضب المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى وطلب بترحيل التجار

البانيان من الرعايا البريطانيين من الدوحة على ظهر السفينة «اوريرى» التى نقلتهم إلى البحرين، واعتبر المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى الشيخ قاسم هو المسئول عن هذه الحادثة وطلب من حكومته ممارسة ضغطها على الشيخ قاسم فحمله على دفع التعويض عن الجراح والخسائر التى أصيب بها التجار الهنود وأن يضاف إلى ذلك غرامة تفرض على الشيخ قاسم(121).

ولكى يرغم قاسم على دفع التعويضات اللازمة، طلب المقيم السياسى البريطانى من شيخ البحرين مصادرة أموال قاسم واستثماراته فى البحرين وفرض الحظر عليها وخاصة على البهارات واللآلئ الخاصة بالشيخ قاسم والبالغة قيمتها الاجمالية عشرين ألف روبية ثم أرسل المقيم السياسى البريطانى مذكرة إلى حكومة الهند فى 23 أغسطس، أكد فيها بإلقاء المسئولية على عاتق الشيخ قاسم وفى صدد علاقة شيخ البحرين بأموال قاسم فإنه أشار بقوله: وإذا أقرت الحكومة (الهندية) اقتراحى بالزام الشيخ قاسم بالتعويض فإن أمواله الموضوعة تحت اليد قد تلغى الحاجة إلى اللجوء للقوات البحرية، أما لو رفضتم توصيتى فيمكن أن نرد أموال قاسم تلك إلى وكيله»(122).

نتيجة لحجز بريطانيا أموال الشيخ قاسم فى البحرين فإن الأخير اضطر لدفع مبلغ 6.390 روبية تعويضا عن الخسارة للتجار «البانيان» وكان قائد القوات العثمانية فى الاحساء قد وصل إلى الدوحة لدى سماعه تلك الأخبار ومعه فرقة من الحرس لمساعدة الوالى قاسم ثم عقد عدة مفاوضات وجلسات معه حول تلك الأحداث، فى حين كان قد تقدم الشيخ قاسم بشكوى إلى الباب العالى ضد التصرفات البريطانية تجاهه، كما تقدم إلى والى البصرة، وبغداد شاكيا لهما أنه قد جرد من أمواله جميعا فى البحرين، وهنا قام متصرف الاحساء بتقديم خطاب إلى شيخ البحرين يطلب فيها إعادة جميع الأموال إلى الشيخ قاسم والتى تم مصادرتها كما تم توجيه احتجاج للسفير البريطانى فى استانبول حول تصرفات المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى تجاه قاسم(123).

يمكن القول بأن الوالى قاسم استطاع أن يحافظ على قطر من التدخل البريطانى حيث أنها اتخذت من مشكلة التجار الهنود ذريعة لكى تتدخل فى الشئون القطرية، والوقوف فى وجه أطماعها بكل قوة رغم أن الدولة العثمانية كانت تمر فى هذه الفترة بظروف صعبة، ولم تكن فى استطاعتها مواجهة بريطانيا

فى مياه الخليج العربى، حيث كانت قطر تشكل حاجزا بين مناطق نفوذ بريطانيا فى مياه الخليج العربى وجزره بما فيها البحرين ومشيخات ساحل عمان وعمان وامتداد النفوذ العثمانى من العراق إلى الكويت ونجد والاحساء فى قطر فى شرق الجزيرة العربية.

لذا كان موقف الشيخ قاسم دقيقا وحساسا فى قطر ولكنه استطاع أن يوفر الأمن والاستقرار للمجتمع القطرى وأمكنه أن يوفر لهم مزايا عملهم المجهد فى صيد اللؤلؤ، والحفاظ عليها من التجار الهنود والأطماع البريطانية من ورائهم، ولم تستطع بريطانيا أن تجد لها موطأ قدم فى قطر اثناء فترة حكم الوالى الشيخ قاسم، كما لا ننسى الدعم العثمانى ولو لم يكن حسب ما هو المطلوب نظرا لظروف الدولة العثمانية التى كانت تمر بها فى تلك الفترة، ولكن مجرد وجود الحاميات العسكرية العثمانية فى قطر إضافة إلى الدعم المعنوى من السلطان عبدالحميد للشيخ قاسم كان له أبعد الأثر فى تضافر كل تلك العوامل معا فى جعل الحياة الاجتماعية فى قطر فى تلك الفترة أكثر استقراراً وهدوءاً.

الهوامش:

1 ـ Qatar Government Publication - Qatar P. 6

2 ـ ج.ج. لوريمر ـ دليل الخليج الجغرافى جـ 6 ص 1942.

3 ـ Qatar Government Publication P. 7

4 ـ يوسف عبدالرحمن الخليفي ـ النهضة البهية فى الآداب والعادات القطرية ص 24.

5 ـ د. فتوح الخترشى ود. عبدالعزيز المنصور ـ مصادر تاريخ قطر ص 101 مكتبة وزارة الهند وسجلات الزبارة ـ سرى ـ 1888م، B49، .

6 ـ محمد أحمد عبدالرزاق غنيم ـ التحضر فى المجتمع القطرى ص 71.

7 ـ ج.ج. لوريمر ـ المرجع السابق جـ3 ص 627.

8 ـ محمد أحمد عبدالرزاق غنيم ـ المرجع السابق ص 80.

9 ـ محمد عبدالرحيم قاعود ـ الأدب القطرى الحديث ص 19.

10 ـ محمد أحمد عبدالرزاق غنيم ـ المرجع السابق ص 80.

11 ـ Qatar Government Pubication P. 7

12 ـ ج.ج. لوريمر ـ المرجع السابق جـ 7 ص 2556.

13 ـ محمد عبدالرحيم قاعود ـ المرجع السابق ص 20.

14 ـ أحمد على المنصور وسليمان محمد ـ المجتمع القطرى ـ ص 24.

15 ـ محمد عبدالرحيم قاعود ـ المرجع السابق ص 34.

16 ـ وزارة المعارف ـ نهضة قطر ص 22.

17 ـ محمد عبدالرحيم قاعود ـ المرجع السابق ص 37.

18 ـ وزارة المعارف ـ المرجع السابق ص 22.

19 ـ المرجع السابق، نفس الصفحة.

20 ـ يوسف عبدالرحيم الخليفى ـ المرجع السابق ص 29.

21 ـ ج.ج. لوريمر ـ المرجع السابق جـ 6 ص 1987.

22 ـ ج.ج. لوريمر ـ نفس المرجع جـ 2 ص 631.

23 ـ ج.ج. لوريمر ـ نفس المرجع جـ 7 ص 2551.

24 ـ جهينة سلطان سيف العيسى ـ المجتمع القطرى ـ ص 43.

25 ـ د. جهينة سلطان سيف العيسى ـ المجتمع القطرى ـ ص 43.

26 ـ ج.ج. لوريمر ـ المرجع السابق ـ جـ 4 ص 1624.

27 ـ د. جهينة سلطان العيسى ـ المرجع السابق ص 46.

28 ـ ج.ج. لوريمر ـ المرجع السابق جـ 4 ص 1394.

29 ـ محمد عبدالرحيم قاعود ـ المرجع السابق ص 30.
30 ـ د. خالد العزى ـ الخليج العربى فى ماضيه وحاضره ص 162.
31 ـ ج.ج. لوريمر ـ المرجع السابق جـ 4 ص 1394.
32 ـ ج.ج. لوريمر ـ نفس المرجع جـ 4 ص 1345.
33 ـ ج.ج. لوريمر ـ نفس المرجع جـ 4 ص 1474.
34 ـ ج.ج. لوريمر ـ نفس المرجع جـ 5 ص 1719.
35 ـ ج.ج. لوريمر ـ نفس المرجع جـ 2 ص 786.
36 ـ ج.ج. لوريمر ـ نفس المرجع جـ 7 ص 2405.
37 ـ ج.ج. لوريمر ـ نفس المرجع جـ 1 ص 66.
38 ـ ج.ج. لوريمر ـ نفس المرجع جـ 1 ص 88.
39 ـ ج.ج. لوريمر ـ نفس المرجع جـ 3 ص 1284.
40 ـ ج.ج. لوريمر ـ نفس المرجع جـ 7 ص 2407.
41 ـ ج.ج. لوريمر ـ نفس المرجع جـ 4 ص 1408.
42 ـ د. مصطفى أبو حاكمة ـ تاريخ شرقى الجزيرة العربية ص 96.
43 ـ مذكرة بقلم أ. و. مورا 1/9/1879 ـ خطاب سرى من الهند رقم 127 بتاريخ 22 مايو 1879 د. فتوح الخترش، د. عبدالعزيز المنصور ـ المرجع السابق ص 14.
44 ـ د. مصطفى أبو حاكمة ـ المرجع السابق ص 98.
45 ـ ج.ج. لوريمر ـ دليل الخليج ـ القسم التاريخى جـ3 ص 1214.
46 ـ ج.ج. لوريمر ـ المرجع السابق جـ 3 ص 1215.
47 ـ يوسف محمد عبيدان ـ المؤسسات السياسية فى دولة قطر ص 40.
48 ـ د. فتوح الخترشى وعبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 101.
49 ـ د. صلاح العقاد ـ التيارات السياسية فى الخليج العربى ص 178.
50 ـ ج.ج. لوريمر ـ المرجع السابق جـ3 ص 1230.
51 ـ د. صلاح العقاد ـ مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ص 931.
52 ـ د. محمود على الدؤاد ـ الخليج العربى والعلاقات الدولية ص 24.
53 ـ جى بى كيلى ـ الحدود الشرقية للجزيرة العربية ص 142.
54 ـ فالح حنظل ـ المفصل فى تاريخ الإمارات الجزء الثانى ص 632.
55 ـ جى بى كيلى ـ المرجع السابق ص 138.
56 ـ فالح حنظل ـ المرجع السابق ص 632.
57 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور نشوء قطر وتطورها ص 54.

58 ـ د. صلاح العقاد ـ المرجع السابق ص 931.
59 ـ د. صلاح العقاد ـ نفس المرجع ص 932.
60 ـ د. خالد العزى ـ المرجع السابق ص 160.
61 ـ د. جمال زكريا قاسم ـ تاريخ امارات الخليج 1914 ـ 1945 ص 269.
62 ـ د. محمود على الداوءد ـ المرجع السابق ص 25.
63 ـ د. محمود على الداوءد ـ نفس المرجع ص 24.
64 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور مصادر تاريخ قطر ص 14.
65 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور نفس المرجع ص 102.
66 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور نفس المرجع ص 102.
67 ـ د. عبدالعزيز المنصور ـ التطور السياسى لقطر فى الفترة مابين 1868 ـ 1916 ص 92.
68 ـ د. عبدالعزيز المنصور ـ نفس المرجع ص 92.
69 ـ د. عبدالعزيز المنصور ـ نفس المرجع ص 93.
70 ـ د. عبدالعزيز المنصور ـ نفس المرجع ص 93.
71 ـ د. عبدالعزيز المنصور ـ نفس المرجع ص 94.
72 ـ د. فتوح الخترشى ، د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 16.
73 ـ ج.ج. لوريمر ـ المرجع السابق جـ 3 ص 1227.
74 ـ ج.ج. لوريمر ـ المرجع السابق ص 95.
75 ـ ج.ج. لوريمر ـ المرجع السابق ـ جـ3 ص 1227.
76 ـ د. محمد مرسى ـ مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ص 730.
77 ـ د. عبدالعزيز المنصور ـ المرجع السابق ص 95.
78 ـ جى . أى. سالدانا ـ الشئون القطرية ص 58.
79 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 79.
80 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 89.
81 ـ د. محمد مرسى ـ المرجع السابق ص 730.
82 د. محمد مرسى ـ نفس المرجع ص 730.
83 ـ جى أى ـ سالدانا ـ المرجع السابق ص 62.
84 ـ د. عبدالعزيز المنصور ـ المرجع السابق ص 95.
85 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 91.
86 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 91.
87 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 29.

88 ـ يوسف عبدالرحمن الخليفى ـ المرجع السابق ص29.
89 ـ د. عبدالعزيز المنصور ـ المرجع السابق ص 96.
90 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 95.
91 ـ جى. أى. سالدانا ـ المرجع السابق ص 116.
92 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 87 ـ 88.
93 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 88.
94 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 89.
95ـ د. محمد مرسى ـ المرجع السابق ص 730.
96 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 79.
97 ـ د. محمد مرسى ـ المرجع السابق ص 731.
98 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 89.
99 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 91.
100 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 91.
101 ـ د. محمد مرسى ـ المرجع السابق ص 730.
102 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 94.
103 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 95.
104 ـ د. محمد مرسى ـ المرجع السابق ص 731.
105 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 97.
106 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 98.
107 ـ د. محمد مرسى ـ المرجع السابق ص 731.
108 ـ د. عبدالعزيز المنصور ـ المرجع السابق ص 96.
109 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ـ ص 98.
110 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 91.
111 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 91.
112 ـ د. محمد مرسى ـ المرجع السابق ص 730.
113 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 94.
114 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 95.
115 ـ د. محمد مرسى ـ المرجع السابق ص 731.
116 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 97.
117 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 98.

118 ـ د. محمد مرسى ـ المرجع السابق ص 731.

119 ـ د. عبدالعزيز المنصور ـ المرجع السابق ص 96.

120 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 98.

121 ـ د. محمد جابر الأنصارى ـ تراث قطر ص9.

122 ـ د. فتوح الخترشى ـ د. عبدالعزيز المنصور المرجع السابق ص 94.

123 ـ د. محمد مرسى ـ المرجع السابق ص 731.

المراجع والمصادر:

أولاً: المراجع العربية:

1 ـ أحمد على المنصور ـ سليمان محمد الشناوى ـ أحمد على الطوخى ـ المجتمع القطرى ـ وزارة المعارف ـ الدوحة 1968.

2 ـ جى . بى . كيلى ـ الحدود الشرقية للجزيرة العربية ـ منشورات دار الحياة ـ بيروت 1971.

3 ـ ج.ج. لوريمر ـ دليل الخليج ـ القسم الجغرافى والتاريخى ـ طبعة جديدة معدلة ـ الدوحة.

4 ـ جى . أى. سالدانا ـ الشئون القطرية ـ لجنة كتابة تاريخ قطر ـ الدوحة 1976.

5 ـ جمال زكريا قاسم ـ (دكتور) ـ الخليج العربى ـ دراسة لتاريخ الامارات العربية 1914 ـ 1945 الطبعة الأولى ـ القاهرة 1973.

6 ـ جهينة سلطان سيف العيسى (دكتورة) المجتمع القطرى ـ القاهرة 1982.

7 ـ خالد العزى (دكتور) ـ الخليج العربى فى ماضيه وحاضره ـ بغداد 1972.

8 ـ لجنة تدوين تاريخ قطر ـ البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية الدوحة ـ 1976.

9 ـ محمد أحمد عبدالراق غنيم ـ التحضر فى المجتمع القطرى ـ الاسكندرية 1983.

10 ـ محمد جابر الأنصارى ـ (دكتور) ـ تراث قطر وثقافته المعاصرة ـ وزارة الاعلام القطرية ـ الدوحة 1980.

11 ـ محمد عبدالرحيم قاعود ـ الأدب القطرى الحديث ـ القاهرة ـ 1979.

12 ـ محمد على الداؤد (دكتور) الخليج العربى والعلاقات الدولية، معهد البحوث والدراسات ـ القاهرة

13 ـ فتوح الخترشى (دكتور) عبدالعزيز المنصور (دكتور) مصادر تاريخ قطر ـ الطبعة الثانية ـ ذات السلاسل ـ الكويت 1984.

14 ـ فتـوح الخترشى (دكتـور) ـ د. عبدالعـزيز المنصور (دكتـور) ـ نشوء قطر تطورها ـ ذات السلاسل ـ الكويت 1977.

15 ـ فـالح حنظل ـ المفـصل فى تاريخ الامارات ـ جـزئين ـ لجنة التـراث والتـاريخ أبوظبى 1983.

16 ـ عبدالعزيـز المنصور ـ (دكتور) ـ التطور السياسى لقطر فى الفـترة مابين 1868 ـ 1916 ـ ذات السلاسل ـ الكويت ـ 1980.

17 ـ وزارة المعارف ـ نهضة قطر ـ الدوحة ـ 1962.

18 ـ يوسف محـمد عبيـدان ـ المؤسسات السـياسية فى دولة قطر ـ وزارة الاعـلام ـ الدوحة 1979.

19 ـ يوسف عبـدالرحمن الخليـفى ـ التحفـة البهـية فى الآداب والعادات القـطرية ـ الدوحة 1980.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

1 - Qatar Government Publication - Qatar ` London 1968.

الفصل السادس



الحياة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية فى العهد العثمانى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

قدم هذا البحث ونشر ضمن أعمال ـ المؤتمر العالمى الثالث للدراسات العثمانية عن الحياة الفكرية فى الولايات العربية فى العهد العثمانى ـ مركز الدراسات والبحوث العثمانية ـ حمامات فى 15 ـ 20 مارس 1988 ـ تونس.

مقدمة

كانت الحياة الفكرية فـي شرق الجزيرة العربية من أبرز سمات عـصر النهضة الفكرية التى بدأت فى المنطقـة فى أعقاب الحرب العـالمية الأولى. وبالرغم من أن أبناء المنطقـة لم يكونوا بعـيـدين عنهـا فى التـاريخ الحديث، إلا أن فـتـرة الحكم العثمـانى بعد مجىء مدحت باشا إلى المنطقـة، إضافة إلى العوامل البيئـية المحلية والنشاط التـجارى والجذور التاريـخية للفكر والأدب العربـى لدى أبناء المنطقة كل ذلك لعب دورا مهما فى إحياء الفكر فى شرق الجزيرة العربية فى هذه الفترة.

وتبدأ الدراسة بالبـحث عن الأسس التاريخية للسـيادة العثمـانية على شرق الجزيرة العـربية، ثم عن أثر البـيئة فى الحـياة الفكرية، وتدور حـول ثلاثة عناصر رئيـسـيـة كان لـهـا دور رئـيسى فـى تطور الفكر، وهى: المسـاجـد ودور الوعظ والأربطة، والكتاتيب، والمجالس، والديوانيات ثم قيام بعض المدارس. وبعد ذلك تناولت الأعمال الفكريـة من النثر والشعر النبطى والفصـيح والتأليف، ثم تطرقت إلى بعض رواد الفكر، الذين كان لهم بصمات واضحة فى الحياة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية مع بعض أعمالهم.

السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية:

ترجع السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية، إلى النصف الثانى من القرن السادس عشر، عندما قام بعض قواد البحرية العثمانية خلال صراعهم ضد البرتغاليين بمحاولة فرض السيادة[1]، وبالرغم من سيطرة العثمانيين على مقاطعة الاحساء عام 1670، إلا أنهم انسحبوا منها عسكريا، بعدما جعلوا شيوخ قبيلة آل حميد من بنى خالد يحكمون الاحساء اسميا من قبل الباب العالى ولم تحاول الدولة العثمانية أن تجبى الضرائب، كما لم تقم بمساندة باشواتها الأربعة الذين تداولوا حكم الاحساء بأى دعم عسكرى أو مادى، فى حين كان النفوذ العثمانى ملموسا أكثر فى الشمال الشرقى من الجزيرة العربية، عندما ارتبطت الكويت بالدولة العثمانية بعلاقة من التبعية، أما البحرين ومشيخات ساحل عمان وعمان فى الجنوب الشرقى من الجزيرة العربية، فقد شكلت منطقة نفوذ بريطانية مرتبطة بالمعاهدات التى أبرمتها مع تلك المشيخات دون الرجوع إلى الدولة العثمانية، وبالرغم من ذلك قد ظهرت السيادة العثمانية واضحة فى البحرين وإن كانت مؤقتة ولفترة قصيرة فى ظروف معينة، ويبدو أن حكام البحرين أنفسهم لم يمانعوا فى إعلان تبعيتهم للدولة العثمانية لمواجهة الضغوط البريطانية[2].

أرسل مدحت باشا فى أوائل شهر مايو، حملة بحرية من ميناء البصرة باتجاه الاحساء، تضم ست سفن حربية ثم أضيفت سفينتان إلى الأسطول، وكانت معظم سفن النقل والإمداد من الكويت بقيادة شيخها، وقدر عدد السفن بثلاثمائة سفينة، واصطحبت القوات العثمانية السيد محمد سعيد «ابن نقيب» البصرة، ومنصور شيخ قبيلة «المنتفق» وغيرهم من وجهاء واعيان العرب فى جنوب العراق[3]. وضمت الحملة أربعة آلاف من الجند النظاميين وألف وخمسمائة من المقاتلين العرب[4].

وصلت تلك الحملة العثمانية بقيادة نافذ باشا متصرف البصرة إلى «رأس التنورة» فى 26 مايو عام 1871، واعادت الاحساء إلى السلطة العثمانية المباشرة[5]، كما وصلت حملة عثمانية أخرى صغيرة فى يوليو من عام 1871 بقيادة حاكم الكويت عبدالله الصباح، إلى الدوحة عاصمة قطر، بدعوة من

شيخها قاسم بن ثاني، الذى طلبها من نافذ باشا فى الاحساء، وكان حاكم الكويت يحمل معه أربع رايات عثمانية ورسالة من نافذ باشا إلى قاسم بن ثانى(6).

تطور الحياة الفكرية:

تعتبر الفترة من 1871 ـ 1913، فترة انتقالية من مرحلة الجمود إلى مرحلة عصر النهضة، الذى بدأ بعد الحرب العالمية الأولى، ولذا تعتبر هذه الفترة الانتقالية مهمة، حيث كانت البداية الأولى للحياة الفكرية، وبرز فيها بعض الرواد الأوائل.

أما عن تأخر الحياة الفكرية فى نهضتها فى هذه الفترة عن بقية الأقاليم العربية فقد يرجع لسببين:

أولا: الظروف البيئية

لعبت البيئة الصحراوية الجدبة دورا فى عزوف أبناء المنطقة عن الحياة الفكرية، لأن همهم الأول كان السعى للحصول على لقمة العيش، وإذا ما كان لديهم متسع من الوقت فإنهم يقضونه فى محاولة لإحياء الفكر.

بالرغم من سفرهم للتجارة فى الهند والمدن الساحلية فى حضرموت وشرق أفريقيا، إلا أن هذا الاتصال لم يتولد عنه احتكاك فكرى فى تلك الفترة، وإنما كانت هناك بعض البوادر للبدايات الأولى والتى ظهرت فيما بعد على الحياة الفكرية، وقد يرجع ذلك إلى اختلاف طبيعة هذه المجتمعات وظروفها عن المجتمع العربى، ونظرتهم للاقتباس من الآخرين بحذر، والسبب الثانى قد يرجع إلى عدم تقبل أبناء المنطقة لما هو ليس فى أولوياتهم الا وهو الكفاح من أجل البقاء سواء كان فى البحر أو البر، ولذلك كانت البدايات الأولى للحياة الفكرية عبارة عن مبادئ الفقه وعلوم القرآن واللغة العربية والحساب البسيط(7) ولكنها تطورت فيما بعد ونتجت عنها بناء أول مدرسة فى المنطقة فى الكويت عام 1911.

ثانيا : البعد عن مراكز الأحداث:

السبب الثانى فى تأخر النهضة الفكرية، قد يرجع لبعد المنطقة عن مراكز الأحداث فى ذلك الوقت، نتيجة لوقوعها فى الأطراف الشرقية من الوطن العربى حيث كانت التيارات الفكرية فى قلب الأمة العربية فى بلاد الشام ومصر فى أواخر القرن الماضى، وأن الحياة الفكرية فى قلب الأمة العربية كانت أقوى وأعمق من

الأطراف، كحركة جمال الدين الأفغاني الذى دعى إلى الإصلاح الدينى والسياسى، ثم حركة سامى البارودى فى الشعر[8].

تجمعت فى أوائل هذا القرن عدة عوامل ساعدت على قيام النهضة الفكرية وكانت البداية من الشمال، حيث البصرة ومنها امتدت إلى شرق الجزيرة العربية، لان الصلات البحرية كانت أهم وأسرع من البرية، ثم بدأ الاستعمار المسيحى الإرهابى البريطانى يهتم فى تلك المناطق ويحاول إبعاد النفوذ الإسلامى العثمانى عنها، إلى أن تمكن من عقد اتفاقية 1913 لتقسيم النفوذ بينهما ثم بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة الدولة العثمانية سيطر المستعمر المسيحى على المنطقة، وبعد ذلك بدأ يتجه إلى الداخل فى الفترة ما بين الحربين عندما بدأت شركات البترول المسيحية الغربية تتوغل فى المنطقة، مما أدى إلى وقوع صدام بالحضارة الاستعمارية المسيحية الغربية فبدأت حوافز النهوض التى تحمل فى داخلها عودة المشاعر الوطنية إلى أصولها الموروثة حتى تجد فيها حقيقتها التى تحميها من الفناء[9]، أى نشات حركة الاحياء الفكرى فيما بين الحربين أو فى عصر النهضة الفكرية.

أثر البيئة فى الحياة الفكرية:

كان للبيئة المحلية دور رئيسى فى الحياة الفكرية لأبناء شرق الجزيرة العربية وتركت بصمات واضحة فى حياتهم اليومية والتى بالتالى أثرت فى الحياة الفكرية وهو التفاعل المستمر بين البحر والصحراء، بين الأمواج الاتية من مياه الخليج العربى وبين رمال الصحراء المتحركة من البر الشرقى للجزيرة العربية، وان التقاء صحراء شرق الجزيرة العربية بمياه الخليج العربى، خلق التمازج والالتقاء بين الماء والرمل، بين رجال الغوص على اللؤلؤ وبين رجال البادية، بين سفن الخليج العربى التجارية وبين قوافل الصحراء التجارية، بين اللؤلؤ المستخرج من قاع البحر وبين التمر المستخرج من نخيل الصحراء، وان ذلك التمازج العجيب قد خلق بيئة متميزة ذات طابع خاص، لا هى بالبحرية التامة ولا بالصحراوية الخالصة[10] وإنما يشدها إلى الصحراء نسب وإلى البحر سبب[11] ولذا فإنها جمعت بين طراوة البحر وصلابة البر، بين عامل التغير والحركة فى طبيعة الأمواج وعامل الثبات والاستقرار فى طبيعة الهضاب الصحراوية، بين الانفتاح على الجديد الآتى مع التيارات البحرية والتمسك بالشخصية الأصلية وقيمتها الثابتة ثبات الصحراء العربية الصامدة[12].

عاش مجتمع شرق الجزيرة العربية فى كفاح عنيف فى سبيل تأمين حياته واستطاع ان يتغلب على كل الصعوبات التى واجهته، وإنه تأثر بالبحر بعد ان كان قد استوطن بالبر على مقربة من شواطئ الخليج العربى، وعمل بالتجارة حتى ازدهرت مع الهند وشرق افريقيا، وحدث توسع فى نشاط النقل البحرى وإن هذا العمل البحرى إضافة إلى الغوص يكسب المرء خشونه وقوة واحتمال والصبر إضافة إلى ما تطبع به الصحراء من ارتفاع وتقلبات فى الطقس على حياة الإنسان فى شرق الجزيرة العربية، كل هذا جعله قادرا على التحكم فى طريقة حياته وهذا المجتمع الذى تحكم فيه البحر من الامام والصحراء من الخلف، لم يخرج عن كونه مجتمعا عربيا صغيرا من ضمن المجتمع العربى الكبير الذى يحتفظ بطابعه المميز، فمن البداوة وحياة البر والصحراء فيه أصول، ومن الانفتاح على العالم الخارجى بفعل الاحتكاك التجارى فيه أصول أخرى(13).

اثرت هذه الظاهرة على مختلف اوجه الحياة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية، الذى يعتبر حصيلة التمازج بين المأثورات البحرية لحياة الغوص والبحر، والمأثورات الشفوية لدى أهل البادية من «أمثال» وحداء وعرضات (14) وهذا يعتبر مجموعة من عادات وتقاليد خاصة اضافة إلى ما ورثه مجتمع شرق الجزيرة العربية عن الآباء والأجداد من تراث إسلامى يتميز بالنخوة والمروءة والشجاعة والكرم والتقوى والتعاضد والتآلف(15).

هذا المجتمع امتداد لواقع عربى إسلامى يحمل كل السمات الروحية والفكرية التى حملها اجداداهم العرب المسلمون إلى جانب حمله لعناصر الحياة الفكرية العربية الممتدة عبر التاريخ، ونظرا لوقوع شرق الجزيرة العربية بمحاذاة ثقافات إسلامية وغير عربية، وأحيانا غير إسلامية، فقد تأثر هذا المجتمع بدرجة أو بأخرى بهذه الثقافات كالهندية وشرق افريقية التى يشارك أبناؤها العرب فى الإسلام والعلاقات الإنسانية الاقتصادية(16).

لهذا نجد السمات الفكرية فى شرق الجزيرة العربية، هى السمات العربية الإسلامية، مع بعض السمات الهندية وشرق أفريقيا، وذلك راجع إلى العلاقات التجارية وعلاقة السفر فى البحر مع موانئ الهند وشرق أفريقيا والتى كانت فى تلك الفترات مستقرا لهجرات عربية من شرق الجزيرة العربية أو العكس، وهذا التبادل المادى هو الذى انتج بعض المزيج فى الحياة الفكرية. وكانت العلاقات

مفتوحة بين التـجمعات السكانية فى شرق الجزيرة العربيـة، وهذا التفاعل بجانب النشاط الاقتصـادى المشترك فى الغوص او التجارة مع الهند وشرق أفـريقيا، عزز من الوحدة فى الحياة الفكرية لأبناء شرق الجزيرة العربية[17].

تلك التجمعات السكانية والنشاط الاقتصادى المشترك، اوجدت لديها انتاجا ثقافـيا متميـزا بموروثات الثقافـة العربية، ومجلوبات الثـقافة الهندية والأفريـقية، كذلك شيدت بعض المبانى على الطريقة الهندية الافـريقية وايضا استحداث أدوات لاستخدام الإنسان اليومية، كالأسرة وخزانات الملابس استخدم فيها مزيج من المواد الأولية المحليـة، والأفكار فى التصنيع الـتى جلبها المهـاجرون أو التـجار من تلك البلاد، والإنتاج الفكرى كـان يتواءم مع الإنتاج المادى مثل أغانى الغـوص والسفر وأغانى الاستعراضات الحربية وأغانى العـمل فى الحقول الزراعية أو تشييد المبانى، تلك كانت جزءا من الإنتاج المادى[18] والحياة الفكرية فى هذه التجمعات السكانية فى شرق الجـزيرة العربية، كـانت تدور اساسا حول الإنتـاج المادى معتـمدة على موروثات الحياة الفكرية العامة كالتعليم الدينى وقرض الشعر الفصيح أو العامى.

التعليم والأدب:

لم يكن شـرق الجزيرة العربيـة خلوا من أضواء العـلم والأدب، لأن المجد التارخى واللـغة بما تعبـران عنه من تراث روحى استـمرتا تبثـان بشعـاع وإن كان خافـتا، والمجد التـاريخى فى شرق الجزيرة العـربية اساسـه الدور الملاحى والنقل التجارى مع الهند وحضـرموت وشرق افريقيا، كما ان اصالة المنطـقة فى عروبتها وسبقها الى الاسلام وقربها من مهبطه جـعل حيويتها اللغوية كامنة فى المنطقة عبر قرون، وقد وجهت طبيعة الاعـمال الملاحة والتجارة ابناء المنطقة الى ضرورة تعلم القراءة والكتابة والحساب للوفاء باغراض العمل [19].

اضطر أبناء شرق الجزيرة العربية إلى ممارسـة التجارة والملاحة التى اصبحت السمة الغالبة لمعـظم سكانها الذين ركبوا البحر، واصبحت التـجارة مهنة يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد ومارسوها حتى فى البر مع سكان البادية والبلاد العربية المجاورة بعد مـا كانوا يتجارون مع شعـوب الهند وحضرموت وشرق افـريقيا وان اسفـارهم التجـارية الى تلك البلدان جعلتـهم يقرأون الصـحف والكتب، وتأثروا بالتجارب الحـية لاسفارهـم وتجـارتهم بالاحتكاك بتلك الشعوب وحـياتهم الفكرية

وقد اسـهمت الاسـفار بربط حيـاتهم آنذاك بحب المغامـرة والتعـرف فى كل مرة بجديد من الوان الحياة(20).

ربما ان مهنة التـجارة تحتـاج إلى ضبط الحساب وكـتابة الرسائل، فـانه كان يستدعى الالمام بالكتابة والقراءة ومعرفة شيء من العمليات الحسابية للتاجر الناجح اما التاجـر الذى لا يعرف القراءة والكتابة، فـان تجارته تتاثر ولا يستطـيع المتاجرة بنفس المستـوى الذى يكون عليه القارئ الكاتب من التجـار، وإلا فإنه يضطر بان يستعين بغيره فيسلط على نفسه من يتحكم فى أسرار معاملاته.

لهذا فـإنهم شعروا بأهميـة التعليم باعتبـاره ضرورة أساسيـة من ضرورات نهضة الأمم وخاصة بعد ما تأثر بها أبناء المنطقة عندما كانوا يزورون موانئ الأجنبية فى تجارتهم، ولهذا اهتـموا ووجهوا جل عنايتهم للتـزود بالعلوم والمعارف وكل ما هو جديد فى الحياة الفكرية(21).

نجد أن طبـيعتـهم التقليدية بالمورثـات القبلية العـربية وجهـتهم إلى تدارس المفاخر والمآثر وتواريخ الوقائع والأيام وحـفظ الأنسـاب، إضافة إلى الإسلام الذى لعب دورا اساسيا ومبكرا منذ اعتناقـهم له إلى تعلم العبادات والواجبات والأحكام وخاصة أحكام المواريث والزواج والطلاق والقـضاء وغيرها من أمور الحـياة الدينية والدنيوية(22).

بذلك اندفع أبناء المنطـقة إلى التـعلم، وكان الخـط الذى يسلكونه واضحـا فالتجارة والملاحـة تحتاج إلى معارف عديدة ولا يمكن الحـصول عليه إلا بالشروع فى التعليم أو ما يحتاجه الإنسـان من معارف ضرورية لتنير الطريق، وتلك الخطوة هى تعليم القـراءة والكتـابة عن طريق القرآن الـكريم المدرسة الأولى لأبناء شـرق الجزيرة العربية، فبوشر بتعليم تلاوة القران الكريم والتعرف على الحرف العربى من خلاله وإزاله الأمية عن طريقه، والتعرف على التغـيرات اللغوية العالية وفهمها فى مـراحل تالية، فكان القـران الكريم هو الاسـاس وهو حجـر الزاوية فى العمليـة التعليمية، ثم الخطوة التالية، وهى الإلمام بأصول الدين الإسلامى الحنيف كالصلاة والزكاة والصوم وغيرها، وهذه المعرفة تستـدعى المعرفة التامة بالقراءة والكتابة وبما ان سكان المنطقة كـثيرى الأسفـار بحكم موقعه الجـغرافى ووضعهم الاقـتصادى، وإنهم كانوا يتعـاملون مع غيرهم من الأمم التى تبعد عنهم آلاف أميـال ويتاجرون

معـهم، كل هذه الظروف مـهدت لهم السـبل للتـعليم انطلاقا من الفـائدة المادية والمعنوية التى يكتسـبها المتعلم عـند معرفتـه للعلوم المختلفة، وعمل الجـميع على طلب المزيد من المعرفة كلما أتيحت لهم الفرصة[23].

بداية النظام التربوى الفكرى:

كان لشرق الجزيرة العربية نظامها التربوى الفكرى والتعلمى البسيط والبدائى المتوارث، وهو عبارة عن المساجد والكتاتيب والديوانيات.

أولا: المساجد ومدارس الوعظ والأربطة.

لعبت المساجد دورا هاما فى تعليم أبناء شرق الجزيرة العربية إلى جانب أنها مراكز عبادة لا يمكن تجاهلها إلى يومنا الحاضر وبالرغم من اتساع العملية التعليمية التى شملت جميع المدن والقرى فى المنطقـة، ومع ذلك فإن المساجد مازالت تؤدى نشاطهـا فى تثقيف المسـلمين مع وجود المدارس، والمعـاهد والجامعـات، وكانت المساجـد ومدارس الوعظ والأربطة فى تلك الفـترة، كـخلية يقوم فـيهـا العلماء بتدريس الفقه والحـديث والأصول وعلوم اللغة العربية والبـلاغة والنحو والصرف والمنطق والأدب[24].

ففى تلك المـساجد تقـام حلقات يلقى فـيها رجـال الدين الوعظ والدروس الدينية والتفـسير وأصول الدين[25]، كما يعقد علمـاء الدين مجالس الحديث فى اروقه المساجد لإرشاد الأهالى بأمور دينهم وشرح السنة النبوية لسيدنا محمد ﷺ، وكان هؤلاء العلماء يتنـقلون فى مـساجد شرق الجـزيرة العربية فيمـا بين مدنها أو كانوا يأتون من المدن العربية العريقة، وخاصة من بغداد والحجاز واليمن، ويقدمون ما لديهم من المعـرفة فى علوم القران الكريم وتفـسـير آياته وأحكامه وشـرح الفقه والحديث ونصوصه[26]، والسيرة النبوية الشريفة.

إضافة إلى ذلك فإنهـم يتطرقون إلى الأدب وخاصة اللغة العربيـة وما يتفرع عنها من علوم تخدم الدين الإسلامى الحنيف، واحيانا كان البعض يعرض ما لديه من معرفة بـالشعر العربى أيام الرسول الكريم ﷺ، وبعض المساجـد المشهورة فى شرق الجزيرة العـربية كان فيها علمـاء يقومون بتدريس المتون وشـرحها بالأسلوب الذى كان متبعا فى الجامعات الإسلامية الكبرى «كالأزهر» والزيتونة» «ورباط مدينة تريم» بحضـرموت، ومسـاجد النجف وبغـداد وغيرها، حـيث يلازمون الطلاب

بشيوخهم يأخذون منهم العلم قـولا وفعلا، ويأتمون بهم ويجارون على ايديهم فى مرحلة ناضجة من أعمارهم[27]، وان هذه المساجد كان لها دور إيجابى فى الخلفية الثقـافية لسكان المنطقـة، تلك الخلفية التى فـتحت امامهـم آفاقا جديدة فى تغـير نظرتهم إلى الحياة الفكرية بصورة أشمل.

ثانيا: الكتاتيب

عرف سكان المنطقة أن من أسباب تقدم الشـعوب انتشار التعليم بين ابنائها، وذلك عن طريق اسفارهم للتجارة واختلاطهم بالمجتمعات المختلفة وايمانهم كنتيجة لتـجـاربهم الطويلة بأن التـعليم هو طريق التـقـدم، وأن سـبب تطور الأمم التى يتعاملون معــها هو انتشار التعليم بين ابنائها إلى جانب حاجـة تجار المنطقة لوجود كتبه ومحاسبين لضبط السجلات وتنظيم المراسلات الخارجية[28].

لذا فإنهم اقدموا على فتح الكتاتيب، وكانت تلك اولى الخطوات على طريق فتح المدارس فيما بعد، وبرغم ان الكتاتيب لم ترتفع إلى الطموح الذى ساور ابناء المنطقة ولـكنها كانت نقطة البـداية. والكتاتيب عـبارة عن مدارس صـغيـرة أهلية ينهض بالواحدة منهـا معلم واحد وهو «المطوع[29] أو الملا[30]، ومن كان مـعروفا بعلمه الوفـير عند الاهالى فانـهم كانوا يطلقون عليـه لقب الشيخ اجلالا واكـراما لعلمه.

وكانت الكتاتيب على نوعين:

(أ) كتاتيب خـاصة يفتحـها شخص واحد وهو المطوع على حـسابه ويشرف عليها ويعلم، وغالبا ما كان يتوارثها ابا عن جد.

(ب) كتاتيب يتعاون فى فتحها كبار التجار من اموالهم الخاصة لتعليم ابنائهم وابناء الفقراء[31] وكان مسـتوى التعليم فيهـا أعلى من مستوى الكتـاتيب الخاصة للمطوع، وهنا كان يتجلى تعاون التجار بعضهم مع البعض فى بناء تلك الكتاتيب. والكتاتيب عبارة عن صف صغير يتكون بمجموعة من الصغار غير متجانس الأعمار يتوسطهـم «المطوع» والذى غالبا مـا يكون الأطفال فى منزله يجلسـون فيـها على حصيرة على الأرض وامامهم مصاحفهم موضوعة على كراسى خشبية صغيرة على شكل الحرف (×) يوضع بوسطها المصحف[32]. وكان يسمى «بشتخته»[33].

زار عبـدالمسيح الانطاكى الكـويت فى عام 1907، ويصف مشـاهداته لتلك

الكتاتيب خلال زيارته بقـوله «وقد شاهدت فى تجوالى مكاتب التعليم وهى كـثيرة فى الكويت، على أنهـا كتاتـيب لتعليم القـراءة والكتابة والقـرآن الشريف وآداب اللغة»[34].

تعـتبـر الكتاتيب مـراكز للتـعليم فى تلك الفـترة ويشـمل جانبـا من منزل صاحبه، ورغم هذا النمط البدائى فإن أول طبقة أحـست بأهميتها هى طبقة التجار والذين سارعـوا إلى فتح كـتاتيب من أمـوالهم، ويقول د. إبراهيم سليـمان، بأن مستوى تلك الكتاتيب كانت احسن من مستوى الكتاتيب المألوفة فى كثير من اجزاء الوطن العربى اثناء الـعهد العثـمانى، ولكن هذه الكتاتـيب لـم تتطور إلى مدارس ولـم تعمر كثيرا لاعتمادها على التبرع والمجهود الفردى من الأسرة الواحدة[35].

يقـوم المطوع بتدريس الأولاد فـقط بينما تقـوم «المطوعة» بتـدريس الاولاد والبنات معـا فى سن صغيـرة حتى البلوغ وبعدها يفـصل كل نوع على حدة[36]. وإلى جانب المطوع فى الكتاتيب يوجد «ريس» وهو يقوم بمساعدة المطوع فى تحفيظ الأولاد إذا ما تغيب لامر ما ولحفـظ النظام وإدارة شئون الكتاتيب ويعاقب الطالب المذنب. وبذلك يمكن القـول بإن المرأة لم تحرم من التـعليم فكانت لهن كـتاتيب وتقوم «المطوعة» بتدريسهن بتحـفيظ القرآن الكريم وتلاوته ويكتفى بذلك ولـم يتعد مستواهن مستـوى الطلاب، نظرا لأن البنت لـم تكن بحاجة الى اكثر من ذلك فى تلك الفتـرة واحيانا تـتجاوز امر تعليم البنات فـيعلمن الحسـاب والعلوم الدينية، ولبعض المطوعات من كبيرات السن كتاتيب للاطفال من الجنسين[37].

العملية التعليمية

تتم العملية التعليمية فى عدة مراحل:

أولا: الخالى

هى من أولى المراحل فى العـملية التـعليمـية، وينتـسب اليها الاطـفال فى البداية، ويتـعلمون تهجـية الحروف بطريقـه منفصله وخاصـه الحركات الاعـرابية وكانت تدعى 'تشكيل القرآن[38] حيث يقوم المطوع فى هذه المرحلة بتعليم الحروف الهجـائية دون استـخدام الالواح، وهذه الطريقة الاولـى كانت منتشـرة فى معظم الكتـاتيب بشرق الجـزيرة العربـية، أن يقـوم المطوع بصوت عـال بقراءة الحـروف الهجائية ويعده الأطفال، ولكى يعـرف الطفل شكل الحرف ويرسـم فى ذهنه فيقول

مثلا لحرف «الالف» الف لا شيله، أى ان هذا الحرف ليس له أو عليه شيء، والباء نقطة من تحت، والتاء نقطتين من فوق، والثاء ثلاث نقط من فوق، والجيم نقطة من تحت، والحاء لا شيله، وهكذا إلى نهاية الحروف الأبجدية[39].

أما الطريقة الثانية فيتم استخدام الألواح فيها، وهى مختلفة عن الطريقة الأولى وفيها يجب على الأب أن يجهز ابنه باللوح، ويكتب عليه المطوع حروف الهجاء بالحبر الاسود، وعندما يحفظ الطفل هذه الحروف الهجائية عليه ان يغسل اللوح وينتقل إلى المرحلة الثانية[40].

ثانيا: الربط

فى هذه المرحلة يتعلم الطفل كيفية ربط الحروف الهجائية المنفصلة بعضها عن البعض الآخر حتى يتمكن من تكوين الكلمات القصيرة والنطق بها[41]، وذلك بعد ما يتم غسيل اللوح ويطين ثانية ليكتب عليه حروف الهجاء مشكلة، فإذا عرفها كتب له جملة «رب يسر ولا تعسر، رب تمم علينا بالخير» ثم يكتب له جملة اخرى[42]. وهكذا ثم ينتقل إلى المرحلة الثالثة.

ثالثا: القراءة

بعد مرور عدة أشهر يتمكن الطفل من معرفة واتقان الحروف الابجدية وربطها فى كلمات، وبعدها ينتقل المطوع بتعليم قراءة القرآن الكريم، ابتداء من سورة «الفاتحة» ويبدأ قراءتها بالتهجى، فإذا حفظها تهجيًا قرأها سردا، وهكذا حتى يقرأ سورة «الناس»، ثم حتى نهاية جزء «عم» وبعدها تقوى ملكة الطفل على القراءة سردا، فيترك التهجى، ومعظم الأطفال لا يستطيعون القراءة دون مساعدة المطوع، وطريقتهم فى ذلك ان يتلو المطوع الآية كلمة كلمة، ويعيدها الطفل كلمة كلمة[43].

ثم ينتقل الطفل إلى جزء آخر ويتدرج بالقراءة والحفظ إلى أن يختم القرآن الكريم، وإن سرعة حفظه وتلاوته تتفاوت من طفل لآخر، لذا يتم تقسيم الأطفال إلى مجموعات حسب مستوى الأطفال وفق الجزء الذى يقوم بتلاوته[44].

رابعا: الكتابة

بعد ختم القرآن الكريم يعيد تلاوته كما بداها من آخره إلى اوله، وبعد

التأكد من حفظة تنتهى مرحلة القراءة والحفظ وإذا أراد ولى امر الطفل إن يكمل ولده ويتعلم الكتابة لزمته الدواة والقلم، فإذا حسن خطه واستطاع ان يخط على الورق فإنه يصبح كاتبا[45].

تهتم الكتاتيب بتعليم الطلاب مبادئ الكتابة والقراءة وشيء من الحساب ولهذا فإن معلمى الكتاتيب كانوا يتفنون فى عرض برامج تعليمهم ويعطون الطالب المبتدئ كتابا واضح الخط، كبير الحروف مرسوما بدقة واناة لتعليم الصبى الخط الجميل ويضع الطلاب على الخط ورقة شفافة ثم يحاولون الكتابة عليها برسم تلك الحروف الكائنة تحت الورقة، ويستمرون على هذا التمرين حتى يتمكنوا من كتابة الحروف العربية، هذا فى بداية الأمر ثم يفهمون ما يكتبون، وبجانب الكتابة يحفظون ما فيه، وفى بعض الكتاتيب كانوا يقسمون الطلاب إلى مجموعات كل منها تدرس موضوعا معينا[46].

بعد تلك المراحل من حفظ القرآن الكريم والقراءة والكتابة والحساب وغير ذلك، فإذا ما أراد الطالب ان يتوسع فى العلم فما عليه إلا أن يدخل مدارس خاصة تتقاضى أجورا عالية مقابل تعليم مسك الدفاتر فى المحلات أو لدى التجار، واللغة الانجليزية، وانتشرت هذه المدارس الخاصة مع تزايد الحركة التجارية واحتياجات التجار لهذا الكادر المتعلم، ومعظم هذه المدارس كانت عبارة عن معلم واحد فقط وعدد محدود من الطلاب[47].

رسوم الكتاتيب

يعتمد المطوع فى رزقه على عدة رسوم يدفعها الطلاب فى مناسبات متعددة وهى كما يلى:[48]

أولا: الدخالة

وهى مبلغ من المال كرسم تسجيل يدفعها ولى امر الطالب للمطوع، وعادة تكون غير محددة يدفعها كل واحد حسب مقدرته المالية، إلا أن بعض الكتاتيب تحدد رسوم التسجيل، وغالبا ما كان الطالب يدفع نصف روبية على الأكثر ولكن الغنى كان يدفع روبية فى الشهر، وبعض اولياء الأمور لا يدفعون شيئا على الإطلاق نظرا لعدم مقدرتهم المالية.

ثانيا: الخميسية:

مبالغ تدفع صباح كل خميس للمطوع وتكون هذه المدفوعات نقدية أو عينية.

ثالثا:النافلة:

هى عبارة عن صدقة يدفعها الطالب إلى المطوع فى المناسبات الدينية كيوم المولد النبوى الشريف والإسراء والمعراج وغيرها.

رابعا:العيدية:

وتدفع للمطوع نقدا صباح العيد أو فى اسبوعه.

خامسا: الفطرة

هى صدقة عيد الفطر وقد جرت العادة على تقديمها عينا من «الحنطة» و«التمر» والارز وذلك حسب تقدير ولى أمر الطالب.

سادسا: الجزء

تعتبر الجزء مجموعة من رسوم يقدمها الطالب للمطوع خلال فترة بقائه فى الكتاتيب، وعادة يتم تقسيم القرآن الكريم إلى ثلاثة عشر جزءا غير اجزائه الثلاثين وعندما ينتهى الطالب من حفظ جزء من هذه الاجزاء، يجب عليه تقديم مبلغ إلى المطوع نقدا ولا بد ان تكون الهدية التالية خيرا من سابقتها.

سابعا: الختمة

عبارة عن مبالغ تقدم عند ختم القرآن الكريم وعادة تتراوح ما بين عشرين ومائة روبية حسب ما يتفق عليه ولى امر الطالب والمطوع، اما إذا كان والد الطالب ميسور الحال اصبح الختمة بكسوة، اما من يدخل ابنه «قطوعة» أى بأجر محدد على ختم القرآن الكريم، فإنه لا يدفع «دخاله» ولا خميسية ولا جزءاً بل يكون الدفع عند «الختمة» إلا إذا كان قد اتفق على مقدم ومؤخرا أو اقساط

عندما يختم الطالب القرآن الكريم يحتفل به فى موكب رائع يطوف احياء المدينة ويحاول المطوع ان يظهر بمستوى جيد لطلابه، فيقرأ المحتفى به سور من القرآن الكريم، برهانا على اتقان ما تعلم، يكون هذا بمثابة دعاية للمطوع وعن

طريقها يجنى بعض الأموال فى حين يردد الطلاب اثناء طوافهم فى الاحياء ابياتا فى مدح سيدنا محمد ﷺ وفى مدح العلم[49]. وخاصة الطلاب الفقراء حيث جرت العادة بأن يدفعوا رسم الختمة مما يستجدونه بقراءة التحميدة ويجمعون بها احسان ذوى الاحسان وذلك بأن[50] يستعير له أهله سيفا مذهبا وعباءة وعقالا مقصبًا يرتديهما ثم يسير معه فريق من زملائه الاطفال ووالدته أو احدى قريباته فى الاحياء، يدخلون البيوت الغنية ويقرا احدهم الختم وهو كتيب صغير معد لهذا الغرض يقرؤه جملة جملة ويرد عليه بقية الاطفال كلمة «امين» يبتدئ القراءة هكذا (الحمد لله الذى هدانا) وهنا يردد الأطفال قائلين (آمين) إلى آخره ويظلون يدخلون البيوت بيتا بيتا إلى ان يجتمع لديهم المبلغ المطلوب (للملا) وهذه اخر مرحلة من مراحل التعليم.

الذى ينوب عن المجموعة يسمى «عريف» ويقوم بدور جمع الهدايا والهبات فى كيس يحمله بجانبه، ومعظم الهدايا التى تعطى على شكل نقدى أو عينى وبعد الانتهاء من الطواف يسلمها للمطوع[51]، الذى يرسل معه من يراقب طوافه ويحاسبه على كل ما حصله. ومن حقه ايضا استخدام طلابه فى منزله للشئون الخاصة وكثيرا ما يرسل الطلاب إلى منزل فى الحى لقراءة القرآن على مريض حتى يتم الله له الشفاء واحيانا يذهب المطوع نفسه لمشاركتهم فى قراءة القرآن وما يقدم لهم من الطعام والشراب ويأخذ المال الذى يقدمه اهل المريض لنفسه وليس للطلاب[52].

هناك علاقة انسجام بين ولى الطالب وبين المطوع فيما يتعلق بالتربية حيث يقول الاب للمطوع عندما يسلمه ابنه «شوف يا ملا ترى لك اللحم ولنا العظام» أى اعمل ما تشاء وتصرف فى الطفل من اجل تعليمه وتربيته. ولذا فإن المطوع يستخدم وسائل العقاب المتنوعة إذا لم يطع الطالب أو أساء تصرفه[53]، ويكون استخدامه لها بمقدار الطالب السلبى من ذنب كضرب بالعصاة المصنوعة من الخيزران أو «الجيحيشة» وهى الضرب على قدمى الولد بعد ربطهما بحبل وكذلك «الصنقل» وهى عبارة عن سلسلة من الحديد ذات حلقات غليظة ثقيلة الوزن يثبت طرفها بخشبة ثقيلة الوزن كذلك ويربط طرفها الثانى فى ساق الصبى بقفل يحفظ مفتاحه عند المطوع[54]، أما (المطرق) فهو عبارة عن عصا وهو نوعان منها عصا

طويلة يستخدمها المطوع إذا كان جالسا فتمتد على ظهور الطلاب القريبين منه وارجل وافخاذ البعيدين عنه، اما العصا الثانية فهى قصيرة ويستخدمها للضرب المبرح والعقاب الشديد، وغالبا ما يكون المطوع قاسيا حتى يبدو فى نظر الآباء بمظهر الحازم القوى والأمين الذى لا يغفل عن اداء واجبه فى حين كان الطلاب يخافونه ويكرهونه وقد يترتب عليه بعض الآثار السلبية[55] فكم منهم جن أو اغمى عليه أو بال فى ثيابه، أو القى نفسه من السطح فراراً من غضب المطوع وبطشه... اما من ارغمه اولياء امرهم على المثابرة وتحمل آلام التعلم فقد قاسوا الكثير من موت ارادتهم وضعف نفوسهم واضطراب تفكيرهم.. واما من حرموا التعليم وقاسوا مرارة الامية كبارا، فإنهم يذكرون باللعنة ذلك المطوع وسوء معاملته، ولن ينسوا مهما بلغت بهم السن ما كان بينهم وبينه من بغض وخوف.

اشتهرت بعض الأسر بتعليم الكتاتيب وتوارثها افرادها ابا عن جد[56] ومن اشهر من كان فى الكويت: سيد هاشم عبدالوهاب الحنيان ـ الملا راشد الشرهان ـ الملا مرشد الخنينى[57].

وجدت الكتاتيب نظرا لحاجة البيئة ولهذا فإن أهم ما كان يدرس هو لخدمة الملاحة والتجارة واستخراج اللؤلؤ فالمطوع كان يعلم الحساب والقراءة وكتابة الرسائل وغيرها مما يفى باحتياجات تلك المهنة، وهذا ما يدل على ارتباط هذا النوع من التعليم بتلك المهنة، وان التنافس بين «المطوع» كان يحسمه[58].

ثالثا: المجالس والديوانيات

إلى جانب الدور الذى لعبته المساجد والكتاتيب، كانت المجالس او الديوانيات وهى عبارة عن مجلس كبير للرجال ملحق بمنازل الاسر الكبيرة، وهى بمثابة امتداد لمجلس القبيلة، وهذه المجالس معدة لاستقبال الضيوف، وعادة تكون فى غرفة كبيرة امامها بهو وفى احدى جوانبه إيوان للضيوف[59]، وفى صدر الغرفة توجد أدوات الضيافة من القهوة والشاى «وقماقم البراد» ومجامر العود ومرش ماء الورد وهذه المجالس الكبيرة لا توجد إلا فى منازل الميسورين والقادرين على انشائها وتحمل اعبائها من المصاريف، وغالبا ما تكون بعيدة عن باقى الغرف الخاصة بالأسرة، والبعض منهم يبنى مجلسه فى حوش خاص منعزل عن حوش الاسرة، ويسمى حوش المجلس[60].

نجد أن مجالس كبـار رجال العشائر كانت مفتوحة ويتنـابها الضيوف دائما، والبعض منهم يؤثث مجالس إضافية لخدمة طلبة العلم ممن يفدون إليهم من المناطق والبلاد العربية المجـاورة، فإذا وصل احد رجال العلم استقبل استقـبالا حافلا يليق بمقامـه وانزل فى ضيافة كـبير القبـيلة، ويكلف بإعطاء بعض الدروس مما لديه من علم للأبناء والطلاب الذين حفظوا القرآن الكريم وعرفوا القراءة والكتابة، فيعلمهم فى حلقة الذكـر فى المسجد بعد طلوع الشـمس بنصف ساعة وبعد صـلاة العصر ويتناول عدة مواضيع من شرح وتفسير آيات القرآن الكريم والسيرة النبوية والحديث والفقـه، أما الاخـبار والأشعـار والآداب فيـتم تداولها فى المجلس. وإذا مـا قرر العودة إلى داره وبلاده بعد اقامته مـدة من الزمن، فإن ذوى الكرم يجمعون له كل على قدر مروءته فيعود إلى أهله معززا ومكرما.

يعلق الأستـاذ عبدالعزيز حـسين على ذلك بأن عمليـة عرض الخطوط على التجـار وتحكيمهم يرمز إلى تـأكيد الصلة القائمـة بين التجارة والتـعليم. مر على الكويت وقت كان التنافس فيه بين الكتاتيـب شديدا، إذ كان كل كتاب يحاول أن يلفت نظر المجمـع إليه حتى يكتـسب اكبر سـمعة ويسـتولى على أكبـر عدد من التلاميذ وكانت وسيلة الدعاية ولفت النظر المباراة فى حسن الخط، وكانت تتم بأن يذهب المتـبارون فى الخط إلى طائفـة من التجار فى مـحلاتهم لعـرض خطوطهم عليهم والتجار هم الحكم الفصل فى ذلك.

عندما كان الغوص والتجـارة والملاحة فى عنفوانه وازدهاره، كانت الكتاتيب تعمل على مـدار العام فى حين بعـضها الآخـر تغلق فى الصيف، لان اصحـابها يذهبون للغـوص على اللؤلؤ او للتجارة البـحرية، فيقـفلون كتاتيبـهم نظرا لعدم وجود من يحل محلهم فيذهب الطلاب إلى اقرب الكتاتيب، ومن ذلك يتضح بأن مجال الكسب فى الكتـاتيب كان محدوداً فى حين كان العائد مـن عملية الغوص اكبـر برغم اخطاره. كـان رجال العلم والعلمـاء ياتون من العـراق وحضـرموت والحجاز فى حين الآخـرين من الأقطار العربية الأخرى لا ياتون إلا نادرا[61] وهذا راجع لصعـوبة المواصلات وبعـد المسافة ممـا يكلفهم الوقت والمال وعناء السـفر. وبعض اصحاب المجالس كانوا من رجال البـيوتات ممن له اطلاع ومعرفة وعلم فى أصول الدين والأدب وتقرأ فى مجالسهم الكتب وتلقى الأحاديث وتعطى الدروس

من صاحب الدار، أو من الوافد عليه من رجال الدين واللغة فتصبح هذه المجالس قبلة لطلاب العلم فترة من الزمن قد تقصر وقد تطول(62).

يلتقى هذه المجالس ابناء الحى وغالبا ما يكونون من عشيرة وقبيلة معينة فى فترات تقليدية متفق عليها ضمنيا صباحا أو مساء، ويتعارف كل مجلس على مواعيد يومية محددة، وغالبا ما يكون لقاؤهم بعد صلاة العصر، فى فترة ما بين صلاة المغرب والعشاء ثم فترة ما بعد صلاة العشاء(63).

لذلك تجد المجالس يبحثون فيها شئونهم العامة والخاصة، وتكون عامرة بالمساجلات الادبية، ويندرون بأشعار البادية وقصص الغارات والحروب وايضا بالمطالعات والندوات والأشعار الفصيحة، وفى بعض الاحيان تجد الاولاد الذين حفظوا القرآن الكريم وعرفوا القراءة والكتابة يجتمعون فى المجالس مع ابنائهم واخوانهم وبنى عمهم ويتدارسون الأدب ويعلمونهم الأشعار حتى يحفظوا المعلقات السبع عن ظهر قلب وبعدها ينتقلون إلى غيرها من القصائد العربية المشهورة، اما الأولاد فإنهم عندما يعودون إلى منازلهم يحاولون الحفظ لما قرأوه وسمعوه فى المجالس، والبعض يتبارون فى محاولة لقرض الشعر وتأليف بعض الأبيات فى حين يكون البعض الأخر قد قطع شوطا كبيرا فى هذه المحاولة مع موهبتهم الأدبية التى تصقلهم عن طريق قراءة الشعر وحفظه فى هذه المجالس الأدبية(64).

تختلف المجالس الخاصة لرجال العلم، عن مجالس كبار رجال القبائل برغم ان تلك المجالس فى كلتا الحالتين تعتبر بصفة عامة نظاما اجتماعا يرمز إلى قيمة ومكانة معينة لصاحب المجلس أو عشيرته(65)، ولكن المجالس الأولى لرجال العلم وطلابه ومريديه لعبت دورا فى الحياة الفكرية بمثابة مؤسسة اجتماعية ثقافية ذات أثر عميق فى تطور المنطقة(66)، لأن صاحبه يجعل من مجلسه مجمعا علميا وأدبيا واجتماعيا وسياسيا، وتتسع هذه المجالس للاجتماعات العامة والخاصة فى الأعياد والمناسبات، وتدور فيه المناقشات والأحاديث حول الأوضاع الاقتصادية وأمور الحياة المحلية(67).

معظم المناقشات كانت تدور حول الفقة والأدب، وتتناقل الآراء المطروحة ويتدارسون كتب الأدب، ويتبارون فى الشعر إضافة إلى النوادر والطرائف والحكم

والأمثال والمساجلات، ومع شمـول هذه المجالس لمختلف نواحى الموضوعات، إلا ان الأمر لم يخلو من تخصص بعض المجالس لفرع من فروع الأدب والفكر.

فمثـلا اختص مجلس الشيخ يوسف بن عيسـى القناعى بتدارس علوم اللغة والدين والذى يعتبر من الادباء الذين تولوا الصـدارة فى مؤازرة الحركة الفكرية فى المنطقة ولم يدخر وسعه لدفعها إلى الامام بفضل ما كان يبذله من جهد ومال، فى حين اختص مجلس عـبدالله ملا صالح بتدارس القديم، امـا مجلس خالد المسلم فكان يتدارس فـيها مـعالم الأدب العربى الحـديث، ومع ذلك فان الآداب العلوم الحـديثة لم تـكن قد وصلت الـى المنطقة وبرغـم ذلك كان هناك بعـض الشبـاب يتطلعـون بشوق إلى الكتب الأدبـية الحـديثة التى كـانت تظهر فى مـصر والشـام والعراق، ورواد هذه المجالس كـانوا يتزاورون فيما بينهم باسـتمـرار لعدة أسباب منهـا صـلات القـرابة والأخـوة والتـعارف وإذا مـا دُعى أديب أو عـالم دين إلى احدى المجـالس فيـسارعـون للقائه والسـلام عليه والتنقل مـعه من مـجلس إلى آخر(68).

يمكن اعتبـار هذه المجالس الأدبية كمراكز ثقـافية تنهض بما يمكن أن يطلق عليه من الـناحية الثـقافيـة «الجمـاعة الحرة» لأنهـا لا تقوم بالتـعليم الدينى المنظم كـحلقات الذكـر فى المسـاجد، ولا تقـوم بالتـعليم الدينى أو المدنى المؤهل مـثل الكتاتيب، وإنما تدور فـيها الأحاديث والمناقشـات الحرة فى مجالات مـختلفة من دينية وأدبية وتاريخيـة، وتثار فيها المسائل وتطرح لها الأجوبة، وغـالبا ما يتصدى لمثل هذه المناقشـات العامة نخبـة من رجال العلم والثـقافة وكـذلك الوافدون من علماء الدين أو التاريخ أو اللغة، وكان لهذه المجـالس أثر كبير فى النهضة الفكرية فى شرق الجـزيرة العربية، وبعض هذه المجـالس فيها مكـتبات تحتـوى على كتب اللغة والأدب والدين والمخطوطات والمطبوع من التراث القديم والحديث(69).

رابعا: أول مدرسة فى شرق الجزيرة العربية

أدرك المثـقفـون فى المنطقـة منذ الوهلة الأولى، بـأن تعليم الكتـاتيب يعنى استمـرار العملية التعليـمية فى فلك البدائيـة، وإن المنطقة بدأت تتجه نحـو نهضة شاملة فى مختلف شئون الحياة، ولا يمكن لهـذه النهضة ان تمتد لتشمل كافة ابناء المنطقـة، إلا بعد تطويـر التعليم المناسـب، علما بان المثـقفـين فى المنطقة، كـانوا

يضعون اعتبارهم الاول تعاليم الإسلام والعلوم الدينية التى توجه الجيل نحو التربية الصحيحة، ولهذا كان الأخذ بتعاليم القرآن الكريم وتدارس معانيه وشرحه والاهتداء لسنه سيدنا محمد ﷺ اللبنه الاساسية الأولى فى النظرة المستقبلية للتعليم، وكان المثقفون والمعنيون بالعلم يجدون فى المناسبات الدينية، خير مجال للتشاور فى هذا الامر الذى يهم مستقبل الأجيال القادمة، على ضوء مايقدمونه بخبراتهم وتجاربهم فى الحياة، وكانوا يحتفلون باستمرار بمولد الرسول الكريم، ويتلون فيها سيرته العطرة ويظهرون دعوته للعلم والتعليم(70).

أول دعوة لإنشاء أول مدرسة فى شرق الجزيرة العربية كانت فى الكويت، عندما كان الشيخ يوسف عيسى القناعى يحتفل بمنزله بذكرى المولد النبوى الكريم عام 1327هـ الموافق 1910م، والمجلس مملوء بالمثقفين وأهل العلم، إذ وقف السيد ياسين الطبطبائى، ويقارن بين تكريم سيدنا محمد ﷺ بالقول وبين تكريمه باتباع تعاليمه، ويقترح انشاء مدرسة يتلقى فيها ابناء الكويت التعليم بمختلف فروعه، وقد استجاب لهذه الفكرة الشيخ يوسف القناعى، وأصبح داعيا، وبدأ يتصل بوجهاء واعيان البلاد فخطى بذلك خطوات ناجحة اثمرت بجمع الأموال اللازمة(71).

تبرع الشيخ يوسف القناعى نفسه بمبلغ خمسين روبية، وتبرع إبراهيم بن مضف بـ 600 روبية، وتبرع كل من اولاد خالد الخضير وشملان بن على بن سيف، وهلال المطيرى بخمسة آلاف روبية وتبرع قاسم وعبدالرحمن آل إبراهيم بخمسين ألف روبية ثم أجرى اكتتاب بين الأهالى كانت حصيلته 125000 روبية، وأصبح رأس مال المدرسة 77500 الف روبية وكان هذا المبلغ كبيرا فى تلك الفترة، وقد تبرع أولاد خالد الخضير ايضا بالمكان لبناء المدرسة الجديدة، وتم شراء مجموعة من المنازل لتكون أكبر مساحة ممكنة، وأصبحت القيمة الإجمالية للمنازل التى ألحقت فى منزل خالد بـ400 روبية، وشرع فى البناء عام 1911 بإشراف الشيخ يوسف القناعى وفى سبتمبر من نفس العام انتهى بناء المدرسة وفتحت أبوابها للاستقبال الرسمى للطلاب عام 1912م، وبلغ عددهم اكثر من ثلاثمائة طالب، وكانت الرسوم التى يدفعها الطلاب عند دخولهم المدرسة، روبيتان فاكثر للطلاب ميسورى الحال، وروبية واحدة فقط للطلاب متوسطى الحال، اما الطالب الفقير فيعفى من الرسوم(72).

سميت هذه المدرسة بالمباركية، نسبة إلى الشيخ مبارك حاكم الكويت فى تلك الفترة، وهى اول مدرسة نظامية فى شرق الجزيرة العربية، وعين الشيخ يوسف القناعى أول مدير لها، وعهدت شئونها المالية إلى مجلس مالى يتكون من كبار تجار الكويت وهم:ـ حمد خالد، شملان بن على، وأحمد الحميض.

درس فى هذه المدرسة أساتذة كويتيون منهم الشيخ عبدالعزيز الرشيد والاستاذ عبدالملك الصالح، والأستاذ جاسم الحجى، كما وفد إليها أساتذة من خارج الكويت، منهم الشيخ عبدالعزيز بن حمد المبارك الذى جاء من الاحساء والشيخ نجم الدين الهندى والشيخ محمود الهيتى الذين جاءوا من العراق(73) والشيخ حافظ وهبة من مصر والشيخ يوسف ياسين وفد من سوريا، واخرين من الحجاز واليمن وبذلك اثروا الحياة الثقافية والفكرية فى شرق الجزيرة العربية(74).

اقيمت ثانى مدرسة فى شرق الجزيرة العربية فى مدينة دبى، عندما انتشرت اخبار الدعوة لإقامة مدرسة فى الكويت، فعمل أهالى دبى على الاستجابة لهذه الدعوة، وكانت دبى من أكبر المراكز التجارية المزدهرة بتجارة اللؤلؤ، وما ان وصلت اصداء دعوة العلم إليها، حتى قرر أحمد بن دلموك احد كبار تجار اللؤلؤ فى مشيخات ساحل عمان فتح مدرسة على نفقته الخاصة فى مدينة دبى، وفى عام 1912 فتحت المدرسة ابوابها للطلاب وسميت بالمدرسة الأحمدية، واحضر لها ثلاثة أساتذة من مدينة الزبير فى العراق(75) ثم تتابع المدرسون من مصر وسوريا وبقية البلاد العربية. إلى جانب هذا التطور فى التعليم، فإن كثيراً من ابناء شرق الجزيرة العربية قد رحلوا لطلب العلم إلى الأزهر الشريف والنجف وبومباى وغيرها من المدن والمعاهد الدينية الإسلامية، كما وفد بعض رواد النهضة العربية إلى المنطقة فشاركوا فى التعليم والمحاضرات وفى توسيع نطاق الحياة الفكرية وتعميق مجراها.

الأدب فى شرق الجزيرة العربية:

أولا: النثر

جعلت اتجاهات المصلحين الفكرية، لنثر شرق الجزيرة العربية، خصائص معنوية وأخرى فنية، وأما الخصائص المعنوية فتتركز فى المحافظة على جوهر الروح العربية وتعاليم العقيدة الإسلامية والدعوة إلى الاقتداء بالسنة النبوية الكريمة،

والاخذ عن نـهجه وسـيرته فى الحـياة يصـاحب بعض الدعوات إلـى الأخذ عن الغرب بالحذر، حـتى لا تضيع الأصالة العربية، وهناك كـتابات الشيخ إبراهيم بن محـمد الخليـفة، وهى من أول وأكـثر الكتـابات تمثيـلا لتلك الخصـائص المعنوية والفنيـة، وخاصة رسـائله المتبـادلة مع أديب المهجـر، أمين الريحانى ومـع علماء الاحسـاء من آل عبـدالقادر وآل مبـارك مع أديب النهضـة فى الكويت عبـدالعزيز الرشيـد، وفيما يلى رسـالة كتبهـا رجل الإصلاح الاجتمـاعى الشيخ إبراهيم بن محمد لصديق له حول مشروع تعليمى اجتماعى وفيما يلى نصه:(76)

«. . . ثم أيها الصديق إن الله تعالى ارانا آياته فى أنفسنا وفى الآفاق ويتبين لنا إنه الحق فى امره وفى احكامه. جعلنا الله واياك ممن إذا ابـصر تفكر واعتبر إنه الوهاب الهادى لأولى الألباب إلى الصواب.

أيها الصديق العزيز: إن من اعظم مصائب هذا العصر ان اعيان كل بلد هم أرباب الثروة وإن كـانوا على جانب عظيم من الجهل وجـنابك يعلم ان الجاهل لا يهتدى مرشده فكيف يكون مرشدا لغيره.

أيها الصديق: ان بلادك فى الوقت الحاضر هادئة ساكنه على مقتضى أحكام الظروف الزمانية الحاضرة، فعـسى الله ان يمد فى عمر هذا الظرف الزماني ويلهم قومنا ان يفهموا كـيف يستفيدون من مقتضيـات الأحوال الحالية إنه على كل شىء قدير.

أيها الصـديق: إن المشروع الخيرى الوطنى الذى تأسس بحـسن مسـاعيك وجميل جهادك هو الان يشكر اياديك البيضاء ويؤمل منك المدد. . وهو الآن يسير فى طريق التـقـدم على قدر نشـاته فى الوجـود وعلى قـدر معلومـات المعلمـين والمتعلمين فيه».

فى الرسالة التى بعثها عبدالعزيز الرشيد إلى أمين الريحانى يتحدث فيها عن اربعة أمور هى فى حقيقتها من الأهداف العـميقة للنهضة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية، وتوصى بـرفع شأن الأمة بين الأمم، وتنبيه الأذهان إلى مـطالب العصر، ودور المثقفـين فى المنطقة، والنظر إلى النهضة على أنهـا لأمة عربية واحدة وفـيما يلى نصه(77):

«دعانى لكتابه هذه السطور ـ والدواعى جمة ـ ما يدعو المشتاق كبت اشواقه والرفيق للتحدث مع رفاقه ومجال القـول فى الشؤون الإنسانية واسع كل يأخذ فيه بحـسب ميـوله ومقـتـضى حاله، وأهم مـا يتـحدث به الإخـوان وان تناءت بهم الأوطان، هو ما يتواصون به من رفع شأن أمتـهم بين الأمم وتنبيه أذهان خاصتهم إلى مطالب عصرهم وإذا نظرنا إلى ذلك بعين الاستـحسان من وجه عام فلا شك أننا ننظر إليه بعين الواجب من وجه خاصة. وهذه الرسالة تمثل أهم عناصر الحركة الفكرية عن روادها فى شرق الجـزيرة العربية والمتعاطفـة مع هموم رواد الفكر لدى أخوانهم العرب».

هناك نوع آخر من الرسـائل التى كانت متبـادلة بين حكام المناطق فى شرق الجزيرة العربية، وبين الدول العثمانية، ولذا فـإنها تعتبر خير دليل لأنها رسائل من الامراء وحكام المـناطق الإقليميـة ولابد ان تمثل الصورة المـثلى لنثر تلك الفـترة، وسوف نتـعرض إلى رسالة الشيخ قاسم بن ثانى، قائـمقاميـة قطر إلى السلطان العثمـانى، لأن هذه الرسالة يمثل فى طورها الأول أعلى مستـوى من حيث علمه وثقافـته وبالنسبة لقـومه فى قطر، وما يصـدر من رسائل يعتـبر تقريبا مـرآة للنثر القطرى فى زمنه، وفيما يلى رسالة الشـيخ قاسـم بن ثانى والتى بعثها إلى السلطان عبدالحميد الثانى عام 1893، وحاول كاتبهـا التنسيق فى الأسلوب وخلع الألقاب وتعظيم شأن المرسل إليه مما هو معتاد فى الرسائل الديوانية: (78)

بسم الله الرحمن الرحيم

«إلى حضور عالى حضرة أميـر المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين السلطان ابن السلطان الغازى عـبدالحميد خـان ثانى ثبت الله اركان مجـده، وجدد أوقات سعـده، وكب الله ضده، وثم المهـدى لحضرة سـعادتكم الوسيـم شريف لطائف التحية والتسليم مصحوبا بالتبـجيل والتفخيم لجنابك الكريم والمرفوع لسامى المجد والاحترام بأن وصـلا إلينا محمد مظفـر بك، وإسماعيل حافظ بـك بن باشية من أركان الحرب وكنا ممنونين ومشكورين ولأميـر المؤمنين بالخير والنصر داعين، اللهم

ريد أميـر المؤمنين على جمـيع المعادين، من خـصوص أنا يا خـادمكم وخادم من يخدمكم قد خدمت الدولة العليا اربعـا وعشرين سنة وأنا فى سن الأربعين واليوم أنا ابن خـمس وستين سنة، وكنت صـاحب ثروة ومدخـالهـا على من التجـارة وجميع ما فى يدى خدمت به الدولة العليـة إلى ان ذهب الشباب والمال فى خدمة الدولة العليـة ولا يدخل على من الدولة مـعـاش ولا بارة واحدة، ولا اخـذ من الولاية ولاروبية والآن قصرت الهمة والمال تلف ولا لى قـدرة على القائمقامية فانا طالب من الله ثم من أمير المؤمنين الاستعفاء من القائمقامية وأكون بذلك فى نهاية الممنونية والمسرورية، وأنا كذلك فى الخدمة وتحت العبودية. وقد بينت لجناب والى ولاية البصرة حمدى باشا نبـذة من النصيحة فى هذه المادة والامر امركم ولا زلت مؤيدا بعناية الرحمن والسلام.

حرر فى شهر محرم فى 16 سنة 1311هـ خادمكم قاسم بن محمد بن ثانى قائمقام قطر[79]. وفى نهاية الرسـالة تذييل يتضمن شكوى قـاسم من البريطانين وإنهم قد اخذوا منه مبلغ أربعة عشر ألفا واربعمائة روبية بالقوة وإنه يترجى الدولة العلية على استرجاعها، وأنه قد اخطر حافظ باشا بذلك.

نلاحظ فى هذه الرسالـة بعض الملامح الفنية من السجـع وبعض التأنق فى اختيار الألفاظ والجمل المناسبة لمقام السلطان العثمانى.

يبدو من تلك الكتابات أن جيل الحياة الـفكرية فى شرق الجزيرة العربية، قد قام بجهود واضحة فى سبيل انهـاض المنطقة، وتوزعت جهودهم فى عدة ميادين، منها التعليمية والاجـتماعية وثقافية عامة، مما اثرت هذه الجهـود فى التعبير النثرى بأغراض ومـضامين جـديدة وأدت فى النهاية إلى نقـائه وحيويتـه، وبالتالى تطور الأسلوب فنيا مـن السجع والتزين إلى السـلاسة والإفصـاح، وعلى الرغم من ان النثر فى تلك الفتـرة ظل يحمل بعض القيود الفنية القـديمة، إلا أنها لم تزد على التقـيم المقبول والقيـد الذى لا يشل حركة العـبارة وأسلوبها فى سيـاق متكامل، ويمكن القول بأن كتابات رواد الحياة الفكرية فى شـرق الجزيرة العربية، كما اتضح من النماذج السـابقة قد ذللت مـعظم المشكلات الأسلوبية بحـيث اهلت النثر فى أدب شرق الجزيرة العربية ليلحق بالآفاق التجديدية فى الأقاليم العربية الأخرى.

ثانيا: الشعر النبطى

الشعر الشعبى أو النبطى ويعنى به ايضا الشعر العامى، وألفاظه هى الألفاظ الدارجة فى لهجة سكان شرق الجزيرة العربية، وسمى بالنبطى نسبة إلى الانباط الذين كان قد سكنوا بين نهرى دجلة والفرات متاخمين لحدود الشام والعراق، وهم خليط من مخلفات الحروب القديمة وتختلف لغتهم عن اللغة العربية، وقد ظهر هذا اللون من الشعر فى عصور الانحطاط عندما قلت العناية باللغة العربية الفصحى، وانتشرت اللهجات العامية فى القرن العاشر الهجرى واختلط العرب بجنسيات مختلفة(80).

بما إن الشعر الشعبى كان منظوما باللهجة العامية التى تستغلق بعض المعانى فيها أحيانا على السامع، وخاصة إذا كان من خارج المنطقة التى نظم فيها هذا الشعر، ولهذا أطلق عليه «نبطى»، كناية عن عدم فصاحته ووضوحه وخروجه على اللغة العربية(81).

لهذا جاءت هذه التسمية نتيجة الأخلاط من الناس الذين سماهم العرب نبطا، ويسمى هذا النوع من الشعر «بالأدب الشعبى» لأنه الأدب المتداول بين أوساط السكان بلغتهم الدارجة بينهم، وهذا النوع من الأدب له قيمته، ويمكن فهم كثير من مشاعر الامم وخواصها، وقد خصص العلماء فى العصر الحديث دراسات وافية وازداد الاهتمام به واصبح مظهراً من مظاهر المجتمعات الحديثة ووسيلة من وسائل الدعاية والتعريف بها (82).

بما ان العرب كانوا سبقوا الأمم فى كثير من مظاهر الحضارة فإنهم لن ينسوا هذا الجانب من الشعر الشعبى الذى يمثلهم خير تمثيل، وادب العرب بطبيعته أدب شعبى، ففى عصر الفصحى كان العرب يعبرون عن مشاعرهم وخواطرهم بالشعر المعروف لدينا بالفصحى لأنها كانت لغتهم الدارجة، وعندما ضعفت اللغة الدارجة الفصحى بين العرب نتيجة اختلاطهم بغير العرب ظهرت اللهجة العامية الخليطة والمؤثرة من تلك الجنسيات، وكأثر لذلك أخذ هذا العامل يؤثر على العامية فجاء تعبيره بها، لأن كلماتها هى التى تسبق التعبير الشعبى أو النبطى، ومن هنا أيضا تظهر قيمته وتحدد ميزاته، وفى شرق الجزيرة العربية لدينا من هذا الأدب الشعبى الكثير، ونجد له شعراء معروفين ووقائع مشهورة ومداولات شائعة(83).

هذا الشعر النبطى، كان الوسيلة الوحيدة للتعبير شعريا وفكريا فى شرق الجزيرة العربية قبل إنشاء التعليم الحديث، وكان الشاعر النبطى يعتبر خطيب قومه وقبيلته وحكيمها وصحفيها فى تلك الفترة، وهو الذى كان يستثير الرجال فى الحرب، وهو الذى يشيع انتصارات عشيرته أو قبيلته ومفاخرها، كما كان يرد على خصومها وايضا فإنه يسامر قبيلته بالغزل الممتع والوصف الرائع فى ليالى الشتاء الصحراوية الباردة داخل مضارب الخيام(84).

لم يقتصر شعراء الشعر النبطى على ذلك، وانما حملوا سمات وصفات البيئة الشعبية، وارتكزوا على أرضيتها الثقافية والتاريخية، ولذا جاءت تجربتهم الشعرية تلبية لواقع حاجاتهم ومتطلباتهم، وصوروا الواقع الإقتصادى، وعالجوا القضايا الاجتماعية وخاصة الجوانب السلوكية والممارسات الأخلاقية، كما أكدوا الانتماء القومى العربى، وقد حفل الشعر الشعبى أو النبطى بالسخرية التى كانت أهم وسيلة والفعالة والنافذة والمؤثرة فى نفوس الأهالى، إضافة إلى ذلك فإن الشعر النبطى يتغلغل فى البناء النفسى الاجتماعى ويدرك لأدق تفاصيل معتقداتها، كما تصدت للمظاهر السلبية فى المجتمع، ويتضح فى الشعر الشعبى التعاطف الإنسانى، والمشاركة الوجدانية والتبنى لقضايا وهموم الفرد كإنسان فى البنية الاجتماعية وخاصة الطبقات الفقيرة(85).

فيما يلى بعض النماذج من الأبيات التى تعالج بعض تلك القضايا:

وصف قوى فى هذه الأبيات لقاسم بن ثانى عن القوة والشجاعة والعبر من التاريخ ويتأسى بمن سبقه من عظماء وملوك وفى مقدمتهم سيدنا محمدﷺ خاتم الأنبياء وسيد المرسلين.

هو الدهر يستعدى الفناء بقاؤه ... وتستصغر الخطب العظيم مصائبه
له عثرة بالمرء لا يستقيلها ... إذا ما انيخت للرحيل ركائبه
أباح حمى كسرى بن ساسان صرفه ... فلم تستطع عنه الدفاع مزاربه
وكر على أبناء جفنة كرة ... سقاهم بها كأسا زعافا مشاربه
وأعظم من هذا وذاك مصيبة ... قضى النحب فيها المصطفى وأقاربه
هم الأسوة العظمى لمن ذاق غصة ... من الدهر أو من أجرضته نوائبه

أما الشاعر أحمد يوسف الجابر من قطر فيقول فى أبياته: (86)

منال العلى صعب المراق واوعر	ويحر الأماني لاينى الدهر يزخر
ومن عجب الأيام والدهر كله	له عجب يعنى به من يفكر
وذو الجهل لايعبأ بشيء يقوله	ولا هو من أحموقه إليه مدبر
عجبت لأقوام تجنى سفيهم	ولم يلقى يوما من يرد ويزجر
على نفسى تجنى براقش أنها	مبادئ جهل وهى بالسوء تنذر

فيما يلى أبيات للشاعر عبدالله الفرج والذى يصور الواقع الأخلاقي والسلوك الاجتماعى الذى يتناسب مع الوضع الاجتماعى والمناخ الاقتصادى البسيط حيث قال: (87).

السد لاتبديه كود لواحد	يخفيه كالليل البهيم الباهدا
وأصبر على جور الزمان وميله	حيث الصبر راعية مايترك سدى
واستحمل الزلة وسامح صاحبك	وأصفح عن الجانى وعده كالصدى
لاخير باللى مايحمل الزلة	ولى دعى للخير ماسمع الندا
وارحل عن دار المذلة طالب	عز ولوحدك على الموت الحدا
وأن حدك الدهر وبغيت تعاشر	عاشر عفيف ماتدنى بالردا
أنف اللئام وعاف لا ماقربهم	فالحر ما ياله على شوف الحدا
العد ينهل والسراب بضده	بها لصالح المحكى سدا هو والصدى

يقول أيضا:

أشر الورا من يقرض العرض بالورا	سل الله عن قربه نوى مايزايل
وبالواجب الا نسان يعقل لسانه	إلى عاد مسلم عن عروض الحمايل
وبالصمت منجى عن أذى كل ذلة	وذى خصلة محمود بالخصايل
وترى ترك (مالا يعنى المرء) حجة	على حسن اسلامة من أقوى الدلايل
ومن لا يعز النفس ما عز قدره	ولا نال جاه بالضحى والأصايل
ومن كثر التردد فى كل مجلس	على الدرب، مل وحل وفوق الملايل
ومن زار غب، زاد حب ورحبت	وفاز به الناس لوماله عليهم جمايل

ومن «جاد» ساد وفاز بالحمد والثنا　　ومن «شح» جاك يعرضه اللوم صايل
وباعد عن المنزوع عن وجه الحيا　　وعن كل من لاهو يبدرى الفشايل
وترى اللبس ما يرفع على فوق منصب　　من المجد ألا بالفعل والتوايل
ولا يدرك الحاجة من الناس عاجز　　محال، ومن ناد به بين الحلايل
ولا خير بالحاجة إلى حال دونها　　شفيع ولا تقضى بغير الواسايل
وبالرأى يمكن يطعن المرء ضده　　قبل يغش الجمعين لمع السلايل

يقول أيضا[88]:

لاتلبس أثواب الردى وأنت لباس　　ثوب الثنا والحمد خير الملابيس
ولاتصحب الغوغا وتعنيك ألا رجاس　　أهل الدغايل والذياب العمالبس
من كل نمام حسود ديلاس　　يرش على الغيبة بخمس التفاليس
همه أملا بطنه وتحريك الأخراس　　كالذيخ مايسرح يدور الدنافيس

أغلب الشعراء الذين ينظمون الشعر النبطى يستهلون قصائدهم بالثناء على الله والابتهال إليه والتوسل، إلى أن يصل إلى غرضه الأصلى، ثم يختم قصيدته بالصلاة على النبى وآل بيته الطاهرين، وهم بذلك يعطون القصيدة جوا دينيا محبيًا رقيقًا ويجعلون القارئ على صلة بربه وهو يستمع إلى هذا النوع من الشعر، ويؤكدون فى قصائدهم إيمانهم وثقتهم بالله وتفويض أمر حياتهم إليه مما يدخلون إلى قلب السامع السكينة والطمأنينة.

سوف نورد بعض أبيات لقاسم بن ثانى حيث يقول فى بعض شعره[89]:

بالله يا والى على كل والى　　يامن بعلمه دبر الفلك والكون
يواحد عرشة على الناس عالى　　وأمره وحكمه بين كاف مع نون
الحمد لله والشكر أول وتالى　　ولك الثنا والمجد ياعامر الكون
نسألك وحدك لا لغيرك نسالى　　ونخلص لك الدعوى فرض وسنون

ثم يتابع القصيدة بقوله:

والقصر خلى له من الناس خالى　　نبغى السبب فيهم عساهم يمرون
خلوه ما عاجوه بروس البغالى　　يبغون السلامة جعلهم مايلنون

مـــاســـاقت الخـــادة ندور الحـــلالى	ولانرتضـى باذل فى عـــسكن الهـــون
ونفـــوســنا نرخـص لنا كـل غـــالى	ورخص بهـا فى ســاعـة النـاس يغلون

ثم يقول

فـأقـسـمت ما أعطى السلاطين الطاعـة	ولا أحكـم القـــانون فـي القـــضـــاة
وجـاهـدت فـيك الدولتـين وتبـعـهم	رجـاء فـيـك يامن لايخـيـب رجـاء
وأجـرنا بهـا الحـبين من ضـيم حـقـهم	وتوسع لـهم عـقـب المضـيق فـضـاة
واجـزنا بهـا أخـو صـافـيـة يوم ضـدته	جـمـيع النحـيـايا والرفـيق جـفـاء
وأحـمـيــد اجـرناه من مـواعـيـد زايد	ألين قلبـــه فى جـــمـــيع أخـطاه

ثالثا: الشعر العربى الفصيح:

فى هذه الفترة كان الشعر النبطى هو الأكثر انتشاراً، وقد يرجع ذلك إلى أن الشعر العربى الفـصيح يرتبط بانتشار التعليم ويحتاج إلى شـاعر ملفت للنظر كما كان البـارودى فى عصـر عندما لفت الأنظار إلـى المستوى الفـنى للشعر الـعربى الفصـيح فى أحلى عصور الازدهـار الأدبى، أما فى شرق الجـزيرة العربية، فـقد حاول القيام بذلك الشاعر عبدالجليل الطباطبائى والذى عاش فى تلك الفترة وتنقل بين «البصرة» التى نشأ فيها، وتزوج فى «الزبارة» بقطر وعاش فترة فى البحرين ثم استقر فى الكويت حتى توفى هناك. ومن أشعاره هذه الأبيات:(90).

لك الـله إنى مـن فـــراق الحـــبـــائب	لـفى لاعـج بيـن الأضـــــالع لاهـب
أكـــابد أشـــواقــا يـكاد لفـــرطهـــا	توقـــد فى جنبى نـار الحـبـــاحب

يعتبر الشاعـر «ماجد بن صالح الخليفى» 1873 ـ 1907، أول شاعر قطرى نظم بالفصحى وإن لم يكن متمكنا من اللغة العربية الفصحى، وهذا راجع لتاخره فى التعليم فى عصره مما اتسم شعره بالضعف، ومع ذلك فإن الفضل الأول يرجع إليه فى محـاولاته لنظم الشعر بالفصحى فى وسط صـحراء قاحلة فقيرة بالثـقافة والمعرفة فى عصره، وهذه بعض أبياته فى الغزل(91):

وجـه المليـحـــة ذاك أم بدر الـسـمـــا	وذوائـب أم تـلك لـيـل أظـلـمـــــا
لكـنهــا مــحــجـــوبة بكـتـــائب	لجـائب يـحـملن أسـدا غـــشـــمـا

عـجـبـا لقلبى يالهـا من حـسـرة	فى خيمـة فيهـا الأعادى جثـما
فى ليلة قـد تجـهـمت وتجلببت	بظلامـهـا وسمـاؤها قـد غـيـما
قـالت آلا ليت المحـبـة لم تكن	إذ جـئـتنى والناس حـولى نومـا
أرخصت نفسك فى الهـدى وتركتنا	غـرضـا لقـول الحاسـدين اللومـا
فـاحـبـبـتـهـا المت أهون فاعلمى	من نار شـوق فى الفـؤاد تضـرمـا
قـالت إذا قـد نلت مـا أملتـه	أنت الحـبيب فـقـر عـينا وأنـعـما

أما فى الأحساء فقد كانت هناك مطارحات شعرية وهى من أكثر الأغراض التى طرقها الشعراء فى الأحساء، وكثر الأدباء والمتعلمون وشاعت بينهم الثقافة أكثر من أى إقليم فى المنطقة، وهذا يدل على وعى بيئة الشاعر[92]، ويقال «كل أهل المبرز[93] شعراء» وأكثر ما شاع الرسائل الأخوانية من الشعر، حتى اتخذت هذه الرسائل الشعرية سمات رسالة النثر، وهناك مثل لعبداللطيف المبارك يقول حول ذلك[94]: «شاب عليها الوليد وهرم عليها الكبير».

من الملاحظ أن شعراء المنطقة لم يكن لهم خط فكرى إسلامى واضح مثل إخوانهم فى مصر والشام وخاصة تجاه الأحداث السياسية فى تلك الفترة مثل الدعوة للجامعة الإسلامية ودخول الدولة العثمانية أيام الخلافة وهذا ما نجده فى شعر شوقى وأحمد محرم على سبيل المثال، فى حين نجد شعراء المنطقة يحتفلون بالمناسبات الدينية كذكرى مولد النبوى والإسراء والمعراج وشهر رمضان والعيدين، وهذه المناسبات الدينية تثير فى نفسهم هموم رؤيتهم لأحوال المسلمين[95].

إن شعراء العربية الفصحى فى شرق الجزيرة العربية، كانوا ينظمون قصائدهم على نهج القصائد العربية القديمة، فيستهلون بذكر الأطلال والديار والغزل، ثم يذكر تعب المرحلة حتى يأتى إلى الهدف الذى من أجله أنشد القصيدة من مدح أو رثاء أو حكم أو نصيحة يوجهها إلى الأبناء أو الأصدقاء أو غير ذلك[96].

سوف نتطرق إلى نماذج هذا اللون من الشعر عندما نتحدث عن رواد الحركة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية وإنتاجهم الأدبى من الشعر.

رابعا: قصائد من التراث الشعبى

بالإضافة إلى الشعر الشعبى والفصيح، فإن شرق الجزيرة العربية غنية بقصائد من التراث الشعبى ونختار بعض الألوان منها:

(أ) قصائد التحميدة

عندما يحفظ الولد القرآن الكريم، يجتمع الأهل والطلاب في منزل المعلم أو المطوع، ويختارون أحد الطلاب الأذكياء، ويكلفونه بحفظ «أنشودة التحميدة» لاشتمالها على الحمد لله والثناء عليه وتمجيده، فإذا قرأها الولد وحفظها، جمع أبناء المدرسة ودار بهم فى الحى وهو يقوم بالانشاد والأولاد يرددون من بعده وهى[97]:

الحمد لله الذى هدانا للدين والإسلام واجتبانا

والأولاد يرددون من بعده آمين

سبحانه من خالق سبحانه ـ بفضله علمنا القرآنا

نحمده وحقه أن يحمدا ـ حمدا كثيرا ليس يحصى عددا

طوال الليالى والزمان سرمدا ـ وأشهد أن الله فردا واحدا

آمين

ياوالدى انظر فى حالى	لقد اتتكم عصبة الرجال
فبيضوا وجهى ببذل المال	ووجهنا يلمع كالهلال

كمطلع الشمس على الجبال

آمين

سيروا على اسم الله ثم سيروا	سيروا على الديباج والحرير
وهللوا الواحد الكبير	فإنه بسركم خبير
الحمد لله الحميد المبدئ	سبح له طير السما والرعد
يأتيك طير من طيور الهند	مخضب الريش حسين القد
الحمد لله الحميد المنعم	رب النبى الطاهر الكريم
ورب من طاف بحول زمزم	وطاف سبعا وسعى فى الحرم
ياشيخنا هذا بنوك فاعلم	جئنا إليك مصير مرهم
فطلب منك واجب المعلم	معلم القارئ كثير الفهم
الحمد لله الحميد الوالى	ذو المن والعزة والجلال

ب ـ قصائد «الجلوة»

تنشد هذه القصائد فى الأعراس، عندما يعمدون إلى إجلاس العروس على كرسى، ويجللونها بخمار واسع فضفاض من القماش الحريرى الملون النفيس والمطعم بخيوط الذهب أو الفضة، وتقرأ قصائد تسمى «الجلوة» وهى قصائد نبوية دينية، وفيما يلى بعض هذه القصائد:

القصيدة الأولى:

صلوا على خير الأنام ... المصطفى بدر التمام
صلوا عليه باكرام ... سلم على المولى على
نادى المنادى فى السما ... فاطم إلى حامى الحما
كل الخلائق تفهما ... مازوجها إلا على
نادى المنادى أفضلى ... هناك ربى يا على
فاطمة عروس وفائزها ... مازوجها إلا على
سمعوا لقولى وافهموا ... عن بعضة الكرمو
كل الخلائق تفهما ... مازوجها إلاعلى
ما أنزل المولى الجليل ... أوراق ما لها مثيل
قالوا له قوموا لمجيل ... لخطبة الموالى على
خلاخل مصنوع عجيب ... مرضع ابدر الرطيب
من أحمد ذاك الحبيب ... لبنت النبى المرسلى
فاقبل المولى يقول ... أنا على نحل الفحول
إنى تزوجت البتول ... بنت النبى المرسلى

القصيدة الثانية:

أمـــينة فى أمـــانيـــهـــا	مليـحـــة فى مـعـــانيـــهـــا
تجلت وانجلت حـــقـــا	ســـألت الله يهنيـــهـــا
جـبـيـــين كـــالبـــدر رياض	وريقـــا يشـــفى أمـــراض
لـهـــا رب الســـمـــا راض	وأحـــسن فى مـــعـــانيـــهـــا
لها حـاجب كـمـا الاقـلاس	وتتـمـايل كـعـود اليـاس
فـمـــا من مـثلهـــا بالناس	أبا المخـتـــار حظى فـيــهـــا
لـهـــا عـــين غـــزالة	وفـــوق الخـــد لهـــا خـــالة
خلقــهـــا جل جـــلاله	وأحـــسن فى مـــعـــانيـــهـــا
لـهـــا فم كـــمـــا المحـبس	وجـــنـب نـــاعـــم أمـــلـس
نطق لـهـــا جـــمل أخـــرس	وظل حـــاير فـــيـــهـــا
ضـــفـــاير شـــعـــرها خلت	على أكـــتـــافــهـــا دلت
وحـــات الحـــور وشـــملت	وحـــور العـــين تجليـــهـــا
فـلمـــا أتـت الجلـوة	وراحـــوا فـــيـــهـــا بالخلوة
وكـــانت ليـلة حـلوة	أبا المخـتـــار حظى فـيــهـــا
تجـلـت لـيـلـة الاثـنـين	وحـــمـلـت بـالـنـبى الزين
مـحـــمـــد جـد الحـســين	لـقـــد شـــرقـت أراضـــينا
تجلت ليلة الخـــمـــيس	وحـــمـلـت بـالـنـبى الأنـيـس
يـا أهـل العلـم والتـــدريس	لـقـــد شـــرقـت أراضـــينا
تجلت ليلة الجـــمـــعـــة	ولهـــا خـد كـمـا الـشـمـعـة
مـحـــمـــد باهى الطلعـــة	لـقـــد شـــرقـت أراضـــينا
تجلت فى قـــبـــا ورد	وفـــاح المسـك والـنـدا
وحـــملت بالنبى العـــربى	مـحـــمـــد خـيـر من فـينا
تجلت فى قـبـــا أصـــفـر	وفـــاح المسـك والـعـنـبـر
وحـــمـلـت بـالـنـبى الأزهـر	ســـألت الله يهنيـــهـــا

القصيدة الثالثة:

صلى عليك الله يا العدناني	يامصطفى ياصفوة الرحماني
قوموا لآمنة على كرسي الرضا	حتى تراها الحور والولداني
ياخسها من ليلة جليت بها	بمحمد هو سيد الأكواني
فى حلة ذهبية قد اقبلت	صفرا ومشرقة على السلطاني
فى حلة حمراء لنا انجلت	الله فضلها على النسواني
قد خمورها بالسواد وقد سبت	كل الورى يامعشر الأخواني
لما مشت من بينهم وتبخترت	قالت عطاني الله عظيم الشاني
يا أمنة قومى أسلبى سيف الرضا	قالت أريد وعدا يكون أماني
نزلت ملائكة السماء لعرسها	ونقطوها الدرر والمرجاني
لما مشت خدامها جدامها	بمباخر الفضة وعود البانى
ولبسوها التاج فوق جبينها	مرصع بالدر والمرجاني
رضوان ربى دائما على النبى	وهى معه فى جنة الرضواني

خامسا: التأليف

إذا ما تركنا جهود رواد الحركة الفكرية جانبا فى مجال التأليف الدينى فإننا نجد مؤلفاتهم التالية تصب مباشرة فى مجال التاريخ سواء العام أو الأدبى لمدن وأقاليم شرق الجزيرة العربية، وتوجد مجموعة من المؤلفات فى هذا السبيل، وبعضها لا يقف عند حدود التأريخ بمعناه الاصطلاحى بل يتعدها إلى تاريخ الحياة العامة بكل أبعادها، مما يعطى صورة لطرائق الجيل الماضى فى كتابة التاريخ، وتتضح طرائق التعبير النثرى وما أصابه من تطور بأقلام مؤلفى تلك الفترة.

من أهم المؤرخين فى تلك الفترة هو المؤرخ الكويتى عبدالعزيز الرشيد ويصفه الأديب العمانى والذى كان وكيل وزارة الإعلام فى دولة الإمارات ثم أصبح وزيرا فى عمان بقوله:(98)

«وليس فى الكويت وارجاء الخليج جميعه من لا يعرف مؤرخنا فهو الشيخ المرحوم عبدالعزيز بن بداح الرشيد مؤلف كتاب تاريخ الكويت، فأنت إذ تقرأ

كتابه تعيش فى موكب عامر بالحداء ملىء بالرفاق حافل بالجديد ما تكاد تقرأ به الآثار حتى تشهد أمام عينيك إخباراً عن اللؤلؤ وما تكاد تسأل عن الحكم حتى تعلم أن حكام الكويت قد وضعوا منذ توليهم الحكم الشورى شعارا، فلا تعجب إذا شهدنا الدستور اليوم بعد عام من الاستقلال، ثم ما تكاد تكشف سجل الحياة ونبض القلوب وحيوية المشاعر حتى يواتيك هذا المؤرخ الكبير بالأدباء من أبناء الكويت فتعلم بعد ذلك إنك إزاء رجل عظيم وتراث كبير»[99].

قسم المؤرخ عبدالعزيز الرشيد كتابة إلى قسمين[100]: الأول تحدث فيه عن تاريخ الكويت سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، والقسم الثانى عن تاريخ الكويت الأدبى، ومن هنا جاءت ميزة كتابه، فقد ضم كل ما يهم المؤرخ، أما الناحية الأدبية، فقد عدد فيها الشعراء وأقام بذلك البرهان على حيوية الكويت وازدهار الأدب فيها[101].

هناك مؤرخ آخر من الأحساء، وهو «محمد عبدالله عبدالمحسن آل عبدالقادر» الذى أرخ للأحساء فى مجلدين خص الأول بالتاريخ السياسى للأحساء والثانى تاريخ الأدب للأحساء، وإن مؤلفات «محمد عبدالله آل عبد القادر» يتعرض لتاريخ الأحساء منذ بداية خضوعها للدولة العثمانية، والكتابة فى هذه المرحلة متأثرة فى الأسلوب بضوابط الرواية والتدوين التى عرفها العالم العربى منذ القرن الثانى الهجرى، كما تشترك تلك المؤلفات فى انفرادها بالتاريخ الحديث[102].

بعض رواد الحركة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية:

لم تكن هناك حدود سياسية تفصل الإنتاج الفكرى بعضه عن بعض، فى حين كان الشعر هو الرباط المشترك من الماضى إلى الحاضر، وهو أهم روافد الثقافة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية، ولا يمكننا أن نحدد بالتحديد مكان الاستقرار لرواد الحركة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية بدقة، وذلك لأن الأغلبية منهم كانت تتجاذبها مجتمعات المنطقة ذات الفائض الاقتصادى، ولهذا يصعب تحديد انتسابهم إلى الإطار السياسى الحديث، وإنما يمكن تحديد موطنهم الأصلى الحقيقى، وهو مجتمع الجزيرة العربية، وعلى سبيل المثال، عبد الجليل الطباطبائى نجد له تأثيرا فى البصرة والكويت والبحرين وقطر، وعبدالعزيز الرشيد فى الكويت

والبحـرين، وعيسى القطامى بحـار كويتى يكتب من عـمان ويعمل فيـها قاضـيا ويتوفـى هناك، والشاعـر الكبير عـبدالله بالخـير حـضرمى حـجازى، و وغـيرهم كثيرون[103].

نجد خـلال دراستنا أن معظم رواد الحركـة الفكرية فى شرق الجزيرة العـربية كـانوا من رجـال الدين تقـريبـا، وهذا راجع إلى الجـو الدينى الذى كـان سـائدا ومحافظًا، وأن النظام التعليمى والاجتماعى كان يدور حول التراث الروحى ولعبت الأسر والبيوت التى عرفت بتاريخها العلمى والدينى دورا هاما فى الحركة الفكرية، وإن البيئة الروحيـة التى خرج عنها هؤلاء جميعا فى شرق الجـزيرة العربية، كانت تجعل الاصلاح الدينى واللغوى أساسا لكل إصلاح فكرى وفنى [104].

سوف نتطرق إلى بعض الشـخصيات من كل أقليم من أقـاليم شرق الجزيرة العربية الثلاثة، أثناء الحكـم العثمانى، فنأخذ من الكويت عبدالله مـحمد الفرج، ومن الأحساء الشيخ عبـدالله على عبدالقادر وأحمد عزة العمـرى الوالى العثمانى ومن قطر الشيخ قاسم بن ثانى.

أولا: الكويت

ـ عبدالله محمد فرج الصراف 1836 ـ 1901م

من الأدباء الذين تلقوا الثقافة العربية «والاردية» فى مدينة بومباى بالهند وهو ينتمى إلى الدواسـر وكان والده قد سكن فى مدينـة «الزبارة» القطرية، التى كانت مزدهرة وكان يمـارس التجارة بين موانئ الـهند وشرق الجزيرة العربيـة وبعد دمار مدينة «الزبارة» انتقل بعـائلته إلى مسقط ثم إلى الكويت، واتخذها مـوطنا، وفيها ولد عبدالله محـمد فرج فى عام 1836، أما والده فقد استـقر فى مدينة «بومباى» وجمع ثروة طائلة، وبعد أن نشأ وترعرع عبـدالله فى الكويت سافر إلى «بومباى» ونشأ هناك نشأة الأغنياء وتجول فى القارة الهندية، وتعلم اللغة الأردية وتعلم آدابها وفنونهـا من الموسيـقى والرسم، وبعد أن تـوفى والده ورث ثروته الطائلة، ورجع إلى الكويت وأكب على الأدب العـربى مـائلا إلى الخلوة، والابتعـاد عن الأهالى لعدم ملاءمـة المعيشة فى وسـطهم، وأصبح غريبا بين أهله ومـواطنه، يقاسى آلام العوز المرة، ومن قرأ مرثـية لأبيه يعلم مقدار الآلام التى كان يعـانيها، وتوفى عام 1901 بداء الصدر. [105]

أما انتاجه الأدبي فهو الشعر، الذى ينقسم إلى نوعين، الشعر النبطى والشعر العربى الفصيح، ولكن أشعاره النبطية نالت الحظ الوافر من تصوراته وشعوره الرقيق بلغة السليقة غير مقيدة، بخلاف أشعاره العربية التى يتقيد بالألفاظ اللغوية، وقد تأثر بالأماكن والمدن التى زارها فى صباه، والثقافة الهندية التى تضلع فيها، وأثرت فى نفسه وجعلته يغير أسلوب الشعر النبطى ويغير طريقته حتى ضرب المثل ببلاغته، وجرت أشعاره على الألسنة مجرى الأمثال[106]. وقد تطرقنا إلى أشعاره النبطية عندما تكلمنا عن الشعر النبطى، وهنا سوف نورد بعض أبيات من شعره العربى الفصيح فى الغزل وقد التزم فيه بالجناس:

لقد ذكر العقيق فهام وجدا	ولولا الوجد ماذكر العقيقا
فساقط منه خاتمه الدرارى	على العافى ونرجسه العقيقا
غزال ما الحريق بوجنتيه	بمحرقها ولو سكن الحريقا
عجبت بخده نارا وماء	وذلك منه مايطفى الحريقا
فلو لم يسحر ماء الحسن منه	بصحن الخد لم ينبت شقيقا
تود بأن تكون الشمس أختا	له والزبرقان أخا شقيقا
فقرط بالسماك والثريا	تمنطق فاغتدى غصنا وريقا
أخال الدر والشهد المصفى	ثانيا منه فى فيه وريقا
يكاد لرقة يجرى انسجاما	الست ترى له جسما رقيقا
فوذ والتاج أبصر ذا المقدى	لود بأن يكون له رقيقا
فساله يسمعنا بغيه	مقالا منه أو معنى دقيقا
ونخشى أن نرى حربا رحاها	إذا دارت تغادرنا دقيقا
أخر مفوق السهمين لما	رمى عن قوس حاجبه الرفيقا
وهل أصمت من الناس الرماى	له إلا الشفيق أو الرفيقا
يصيد قلوبا بفخاخ سحر	وليس بمفلت منها وسيقا
فكم أبصرت حبا فى هواه	إلى النيران تزجيه وسيقا
رفيع دونه الجوزاء تبدو	لقد وافى من الأملاك نيقا
يشرد وصله اعن جهول	فلوا أهوى ركبت عليه نيقا

ثانيا:الأحساء

يوجد فى الأحساء أدباء لو أتيح لهم الاحتكاك بأهل النهضة الحديثة فى الشعر والأدب، والاغتراف من انتاجهم والاطلاع على الكتب التى الفت، لكان منهم اليوم شعراء وأدباء لايقلون عن اخوانهم فى مصر وبلاد الشام والعراق.

(1) الشيخ عبدالله آل عبدالقادر

الشيخ عبدالله على آل عبدالقادر النجارى الخزرجى، ولد عام 1290هـ فى بلدة «المبرز» من الأحساء، وعمل بالقضاء، وهو عالم فقيه فى الدين وشاعر معروف توفى عام 1344هـ، وهو عالم الأحساء، بلا نزاع، وأديبه، يرجع إليه فى حل المعضلات، وامتاز على كثير من أقرانه فى الأحساء بأدبه الجم وعلمه الغزير ودماثة أخلاقه، وطيب معاشرته ومراعاته لعواطف جليسه، وورع تضرب به الأمثال، والدعوى إلى الحق بالحسنى مع البعد عن الغطرسة والرياء، وكانت له منزلة رفيعة بين كبار وصغار مواطنيه، يحفها الإجلال والاحترام، وله أشعار يهتز له السامع بأسلوبه العذب، وكثير من أدباء الأحساء يحفظون أشعاره ويتمثلون بها، وله ديوان حافل بالقصائد والمقاطع البديعة[107] وفيما يلى بعض أبيات من قصيدة تائية يتغزل فيها بالقهوة البنية التى كان مولعا بها:

وظبى أضحت الدهناء منه ... خلا والحشا مرعى وبيت
أهذا الظبى لا أرضاك شبها ... لمن أهوى؟ ولكنى كنيت
رمانى بالصبابة من بعيد ... يمينا ما سمعت ولا رأيت
تجلى لى خيالا فى منامى ... فما من خلة إلا سليت
اتعلم يارعاك الله أنى ... أسير فى يديك وماجنيت
فلا تعجل إذا أضمت قتلى ... فحظى من جمالك ماقضيت
تصفح سنة الماضين قبلى ... فمثلى فى مثالك ما رديت
فما سارت نسيم أو تغنت ... هتوف بالضحى إلا بكيت
فهذا باشر الأحباب دونى ... وهذا ظل يعنى ماعنيت
وقالوا قد سلوت فقلت كلا ... وربى ماسلوت ولا عسيت

أغشني أيها الساقى لعلى	إذا أظنتك نازلة سقيت
بكأس من جنى البن اليماني	بنفس أنت من ساق فديت
أهذا البدر فى كأس التهاني	مع الاشراق أم شفقا حسيت
سلاف سلل راح رحين	شفاء الهم حمراء كميت
مشعشة يطيب لنا شذاها	متى آنست رياها انتشيت
شراب يبعث الأرواح حتى	لو أني مقعد عمرى مشيت
إذا أم الخبائث نازعتها	لطيفا من شمائلها زبيت
تمد نباهة عقلي كما قد	يمد ذبالة النبراس زيت
إلا زعمت بأن الكأس يصبو	إلى الساقى ويجنى ماجنيت
أليست صبغة العشاق فيه	فتشهد لى بأنى ما افتريت
فغرت من الحبيب على حبيب	وهل تدرى لايهما قضيت
إذا زار الخيال وشيعته	مع الأسحار أنفاس هويت
وفاضت مهجتى دمعا وثارت	من الأحشاء أشواق طويت
على تلك الملاهى فاسقيتها	إذا ما الكأس أشهى ماشهيت
ثلاثا عد ساقيها علينا	إلى خمس ولاء فاشتفيت
معان جليت فى كل قلب	وقلب لم يجدها فهو ميت

(2) أحمد عزة العمرى الوالى العثمانى على الأحساء

كان أحمد عزة العمرى، أحد فضلاء وأدباء العراق الذين ضربوا فى الأدب العربى بسهم وافر، وله نظم بديع يدل على تمكنه من الشعر وامتلاكه لناصيته، عين واليا على الأحساء من قبل الدولة العثمانية فى عهد السلطان عبدالحميد الثانى، وكان هذا الوالى مولعا بالشعر ومجالسته لعلماء الأحساء وأدبائها، كما مدح بعض الأدباء بشعره الخالد الذى لا يزال أدباء الأحساء يتناشدون إلى يومنا هذا.

قدم قصيدة للشيخ راشد عبداللطيف المبارك، مدحه فيها وأظهر اعجابه بمواهبه، وأخرى لشيخ عبدالله آل عبدالقادر، قاضى مدينة المبرز وفيما يلى القصيدة التى نظمها أحمد عزة العمرى:

عداها وحقك عما بدا ... تذكرها الهوى مهدا
دعاها الهوى فاستجابت له ... وبالسفح الجزها موعدا
سقاها على اثلاث الأثيل ... بعذب العذيب ومطردا
وأوجدها وهى ببابل ... شميم العرار فيما أبعدا
وطاف بها طيفه سحره ... فوا عجبا منه أنى اهتدى
تهيم بنجد وأوطانه ... كأن بنجد لها مولدا
إذا هبت الريح تلقاءه ... سحيرا تعوم عليها غدا
تحن إليه حنين العشار ... لفقد الحوار إذا أبعدا
فيا ضاحك البرق من أفقه ... كوجه الكريم إذا استرفدا
ظمئت إليك إلا فاسقنى ... فقد انضج القلب حر العدى
ويا ساجعا فوق افنانه ... يهيج القلوب إذا ماشدا
إذا حسن مزهرا احشائه ... يذكر اسحاق أو معبدا
طروبا ببهجة أوطانه ... رياضا غدين بقطر الندى
نسيت هديلا فلم تبكه ... وقد أوبقته حروف الردى
أليف مضى لم ينحن عهده ... وخنت العهود فتبت يدا
أغرك هذا النعيم الذى ... وإن طال لابد أن ينفدا
أليس فتى العبد لما وفى ... بعهد الحبيب بكى شهمدا
طلولا كما خط ذو فكرة ... على التراب قد أصبحت همدا
ولم يبكها لا ولكن بكى ... عهودا تقضت وزلفا عدا
يفوه الحمام بدعوى الغرام ... وما أن أقام له أشهدا
وكل إدعاء قرين افتراء ... سوى من إذا ما ادعى أشهد

ثالثا: قطر

الشيخ قاسم محمد ثانى 1823 ـ 1912

ولد الشيخ قاسم بن محمد بن ثانى المعضادى عام 1823 وحكم قطر فى الفترة 1868 ـ 1912 وعندما جاء العثمانيون إلى الأحساء، طلب منهم الشيخ قاسم أن يشمله بحماية السلطان العثمانى، ورفع علمهم وبنى قلعة للجنود

العثمانيين المقيمين عنده، وكان يمتاز بكافة صفات الرجولة ومكارم الأخلاق.

جمع قاسم بن ثانى بين هموم القيادة والسياسية، وبين هموم الشعر ونظمه ولم يحدث تعارض بين السياسة والشعر فى شخصيته، بل حدث بينهما تفاعل وإخصاب وأصبحت الأحداث السياسية عاطفة الشعر، الذى قام بدوره فى خدمة القضية السياسية والتعبير والدفاع عنها، والسياسة تستوجب التأنى والحذر والكتمان وكتم الشعور الشخصى والأفكار الذاتية، إلى أن يأتى الوقت المناسب للكشف عنها وإعلانها. فى حين الأدب على خلاف ذلك لا يجيده الإنسان ولايبدع فيه إلا إذا أطلق لمشاعره العنان، وخلى بين إحساسه وبين الناس يذيعها بينهم بطلاقة دون تحسب، وإن دارت بقلبه وذهنه أفكار عبر عنهما، فى حين لا توقفه لومة لائم، ولكن يحدث فى حالات نادرة أن تتمكن موهبة السياسة وموهبة الأدب فى وقت واحد فى نفوس بعض القادة السياسيين فيعرفون كيف يجمعون النقيضين ويقضون بينهما، وكان قاسم بن ثانى قد أعطى لبلده وشعبه طابعا مميزا عبر السنين، وفى غمرة مصارعة الأحداث والعوامل والظروف التاريخية(108)، نشأ قاسم ثانى فى كنف أسرة بدأت تتربع على السلطة، وتلقى علومه على أيدى رجال الدين، وتفقه حتى وصل مرتبة القضاء والحكم بين الناس، وقرض الشعر وسجل أحداث حياته شعرا، ويبدو أنه جمع بين دهاء السياسة وحرارة الشعر، وكانت له طموحات سياسية كبيرة وقد حاربه الاستعمار المسيحى البريطانى بخططه، ووقف فى وجهه وتحداها فى صراع خفى وظاهر لا يهدأ ولا يلين ويتضح ذلك فى نفثاته الشعرية، وكان يترصد الظروف والقوى لتحقيق أهدافه، ونظر قاسم إلى أوضاع المنطقة بمنظار عقيدته، ورأى الفساد يعم النظم السياسية والاجتماعية ورأى الخضوع للاستعمار البريطانى يتزايد فى بعض المناطق ويستشرى، فقاوم سياسيا وعسكريا ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وعندما اشتدت أمامه الموانع والعقبات، انطلق فى ثورة شعرية عارمة إلى أبعد حدود الصراحة يدين مظاهر الانحلال لدى أعيان القوم فى ذلك الوقت، ويدين بنفس العنف الخضوع الروحى والقانونى للسلطة الاستعمارية المسيحية الأوربية، ولذلك فالشعر يمثل تنفيسًا ذاتيًا فى معاناته لتناقضات عصره فى جهاده بدافع عقيدة روحية فى وجه واقع محلى ودولى متشابك، وترك لنا سجلا سياسيا وشعرا حافلا(109).

كان قاسم لا يقول الشعر جريا وراء الخيال، وإنما تعبيراً عن واقع حياته، فهزت كيانه وجعلته يقول شعراً، ويبدو أنه كان ملما بأصول النظم الشعرى، فتراه يفتتح قصائده بالوقوف على الديار حسب تقاليد الشعر العربى التقليدى حيث يقول:

أرى الدار بعد الظاعنين خراب | وعقت عليها الحادثات أنياب
مريتها وأنا على أكوار ضمر | وجود يدوس الحديد أصلاب

يصور ألمه لحالة الانحلال الاجتماعى والسياسى فى المنطقة بقوله:

ولكن ضعف الدين ينبى بما جرى | وللحادثات المقبلات أسباب
فعلينا جنود الشرك والكفرا لبوا | بغربانها واتباعها وأطواب
فدانت لهم شيخان الأطراف واذعنت | يسومونهم بالذل سوم عذاب
فلا عالم انكر ولا حاكم فكر | يعدون شهار المشركين صواب
يوالونهم بالحب رغبا ورهبة | على شأن طرد اخوانهم القراب
كذا قد بدا الإسلام فى حال غربة | ويرجع غريب وحنا بن أعراب

يعتز بدوره وجهاده ويحدد موقفه من حركة الغزو الاستعمارى المسيحى البريطانى واستمرار مقاومته لهم وانفصاله عن الذين سالموها:

وخرجت بين السلاطين كأننى | حسر تعلق فوق رؤوس هضاب
أراهم ينحزر العين شرار عداوة | دينا أوينه وبكل أرباب
لنا الساسة العليا على كل شرك | وعلى كل من له أوثان القبيبا رباب
لك الحمد يامن هو بتقواه عزنا | وجعل لنا الدين القويم احجاب
حجاب حجبنا نحن موالاة غيره | وذا شأن من طاع الاله اثياب

يشير إلى جلد أصحابه وركوبه معهم المراكب الصعبة رغم ما يلومه عذاله من التمسك بالمسالك الوعرة من بين مطامع الدول ويذكر علاقته الوثيقة بأبناء بلده أوقات الشدة وعونه لهم قائلا:

فأنا لى على كل البوادى قد ايم | إذا نابهم سنة الغلا والحرايب
ابذل لهم نفسى ومالى وعصبتى | وحض لهم فى موجبات النوايب
رقدا مرتقى العليا من رقى بها | حرار الدم بانيابها والمخالب
فلا خير فيمن يتبع الهوى والردى | ورزقة سؤال بين معطى وطالب
يلومننى العذال فى مطلب العلى | يقولون يسلك بك دروب صعايب
ترى فيه تلف المال والجند والسلع | وحرايم سلاطين تدور السبايب

يرد قاسم على المخاطر بوقفه تذكرنا بمواقف أبى الطيب المتنبى وأبى فراس الحمدانى :

فلولا ركوب الصعب فى كل شدة وصبر على شداتها والكرايب
مالذا فى الدنيا للذيذ ومطعم ولا لذا لى فيها لذيذ المشارب
فكم لذة لذت لنا غب كوننا نهار على الباغين عجة سكايب

فى قصيدة أخرى يصور لنا المجاهرة بقوله:

صبرنا لها مازعزع الدهر عزمنا وقلنا بها العليا على كل طايل
فيا ماحمينا كل من هو لجانبا إذا حبكته جبلانها والجدايل
وياما عطينا المال فى ساعة الرخا وأصغر عطايانا السبايا الأصايل
وأكبر عطايانا إذا ما لحقوا بها حناقا على شبحة اداهام غلايل

ثم يقول:

وطينا بها الأرض الذى هاب وطيها سلاطين فى ماضى العصور الأوائل

هناك قصيدة رثاء وشعور الحزن العميق لزوجته، وفى هذه المرثية يصف قاسم عن جسم مازال يعيش بين الناس، أما قلبه فقد ذهب مع زوجته الحبيبة تحت التراب، فى وفاء لايصدر إلا عن نفس عربية انسانية :

فلا ياعنا جسم مع الناس حاضر وقلبه جعل تحت اللحد والنصايب
وجفن جفاه النوم مالذ بالكرى يراعى لنجوم الليل طالع وغايب
وعين تهل الدمع مع حجر سوقها كما جدول حامى غروبة حبايب
وكم عبرة فى زفرة ضمها الحشا تفككت منها القتول الصلايب
على جامل مذعورة ضمها الثرى وقد كان ضمها صفوف الأطايب
فلو ينفدى بالمال والملك كله فديناه به ولو تظهر سلايب
ولو تنقسم الأيام بينى وبينه مما بقى هاتت على المصايب

الخاتمة:

خلصنا من دراسة الحياة الفكرية فى شرق الجزيرة العربية فى عهد الحكم العثمانى (1871 ـ 1913) إلى أن البيئة المحلية قد لعبت دورها فى إعطاء سمات خاصة كما وجهتها نحو نمط معين يتفق مع خصوصيات المنطقة، من البيئة الصحراوية الممتزجة مع السواحل البحرية، ومترابطة من جانب آخر مع اشقائها العرب من ناحية التراث العربى والدين الإسلامى الحنيف.

وعلى هذا فهو انتماء طبيعى للفكر العربى، على امتدادها الجغرافى من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى، وإن كانت تحت الحكم العثمانى من الناحية السياسية، فإن ذلك لم يؤثر على الحياة الفكرية، بل العكس من ذلك فإنه سهل عملية التداخل سواء الأفكار أو الأشخاص دون حاجز أو حدود سياسية، وساعد على ترابطها مع بقية الأقاليم العربية الأخرى، وأن شرق الجزيرة العربية قد تأخر عن النهضة الفكرية عن غرب الجزيرة العربية، ونعنى الحجاز واليمن شمالا وجنوبا وكذلك عن مصر والشام والمغرب العربى.

لكنها على كل حال بدأت تأخذ مكانتها فى النهضة الفكرية منذ اكتشاف النفط وزيادة عائداته التى ساعدتها فى أن تلحق بركب اخوانهم العرب من الناحية الفكرية.

والله ولى التوفيق.

الهوامش:

(1) د. جمال زكريا قاسم ـ بحوث فى التاريخ الحديث ـ ص 63.

(2) د. فتوح عبدالمحسن الخترش، د. عبدالعزيز محمد المنصور ـ نشؤ قطر ص 51.

(3) ج.ج، لوريمر ـ دليل الخليج جـ 3، ص 1453.

(4) د. عبدالعزيز محمد المنصور ـ التطور السياسى لقطر ص 139.

(5) ج.ج. لوريمر ـ المرجع السابق ص 3 ص 1453.

(6) د. عبدالعزيز محمد المنصور ـ المرجع السابق ص 140.

(7) د. بدر الدين عباس الخصوصى ـ دراسات فى تاريخ الكويت ص 77.

(8) د. ماهر حسن فهمى ـ اشكالية الشعر الحديث فى الخليج ـ ص 14.

(9) د. ماهر حسن فهمى نفس المرجع ص 14.

(10) د. محمد جابر الأنصارى ـ تراث قطر وثقافتها المعاصرة ص 19.

(11) د. محمد رشيد الفيل ـ سكان الكويت ص 88.

(12) د. محمد جابر الأنصارى ـ المرجع السابق ص 19.

(13) محمد أحمد النشمى ـ الزواج قديما فى الكويت ص 11.

(14) د. محمد جابر الأنصارى ـ المرجع السابق ص 19.

(15) محمد أحمد النشمى ـ المرجع السابق ـ ص 192.

(16) د. محمد الرميحى ـ الخليج ليس نفط ـ ص 192.

(17) د. محمد الرميحى ـ نفس المرجع ص 194.

(18) د. محمد الرميحى ـ نفس المرجع ص 194.

(19) د. عبدالله المبارك ـ أدب النثر المعاصر فى شرق الجزيرة العربية ص 57.

(20) د. إبراهيم سليمان الكروى ـ الأصول التاريخية للتعليم فى الكويت ص 24.

(21) د. إبراهيم سليمان الكروى ـ نفس المرجع ص 22.

(22) د. عبدالله المبارك ـ المرجع السابق ص 57.

(23) د. إبراهيم سليمان الكروى ـ المرجع السابق ص 24.

(24) د. إبراهيم سليمان الكروى ـ المرجع السابق ص 57.

(25) د. محمد رشيد الفيل ـ المرجع السابق ص 266.

(26) د. بدر الدين عباس الخصوصى ـ المرجع السابق ص 21.

(27) د. عبدالله المبارك ـ المرجع السابق ص 57.

(28) د. محمد رشيد الفيل ـ المرجع السابق ص 266.

(29) «المطلوع» وهى كلمة عربيـة ولكنها حرفت فى الحركات وهى مشتـقة من الفعل الماضى «طاع»، بمعنى انقاد يطلق كلمة «الطموعة» على معلمة البنات.

(30) «الملا» وهى تسمية شائعة لدى أبناء المنطقة وتعنى رجل الدين.

(31) د. محمد رشيد الفيل ـ المرجع السابق ص 267.

(32) «بشتـختة» كلمـة تركية مأخـوذة من «باشا» تختـه أى الصندوق الملوكى، ويحفظ فيـها أدواته.

(33) مصدر غير معروف – الناشر.

(34) د. بدر الدين عبـاس الخصوصى ص 22 وانظر العمـران العدد (429) 8 سبـتمبـر عام 1909 ص 173.

(35) د. ابراهيم سليمان الكروى ـ المرجع السابق ص 26.

(36) د. جهينة سلطان سيف العيسى ـ المرجع السابق ص 122.

(37) د. إبراهيم سليمان الكروى ـ المرجع السابق ص 29.

(38) د. محمد رشيد الفيل ـ المرجع السابق ص 267.

(39) د. جهينة سلطان سيف العيسى ـ المرجع السابق ص 122.

(40) د. بدر الدين عباس الخصوصى ـ المرجع السابق ص 23.

(41) د. محمد رشيد الفيل ـ المرجع السابق ص 267.

(42) د. بدر الدين عباس الخصوصى ـ المرجع السابق ص 23.

(43) د. بدر الدين عباس الخصوصى نفس المرجع ص 23.

(44) د. جهينة سلطان سيف العيسى ـ المرجع السابق ص 122.

(45) د. بدر الدين عباس الخصوصى ـ المرجع السابق ص 23.

(46) د. إبراهيم سليمان الكروى ـ المرجع السابق ص 28.

(47) د. محمد رشيد الفيل ـ المرجع السابق ص 269.

(48) د. بدر الدين عباس الخصوصى ـ المرجع السابق ص 25.

(49) د. ابراهيم سليمان الكروى ـ المرجع السابق ص21.

(50) عبدالله خالد الحاتم ـ من هنا بدأت الكويت ص 78.

(51) د. جهينة سلطان سيف العيسى ـ المرجع السابق ص 122.

(52) د. بدر الدين عباس الخصوصى ـ المرجع السابق ص 25.

(53) عبدالله خالد الحاتم ـ المرجع السابق ص 76.

(54) د. جهينة سلطان سيف العيسى ـ المرجع السابق ص 123.

(55) د. بدر الدين عباس الخصوصي ـ المرجع السابق ص 25 ـ 26.

(56) د. إبراهيم سليمان الكروى ـ المرجع السابق ص 57.

(57) د. عبدالله المبارك ـ المرجع السابق ص 57.

(58) د. بدر الدين عباس الخصوصى ـ المرجع السابق ص 22.

(59) د. ابراهيم سليمان الكروى ـ المرجع السابق ص 29.

(60) صلاح العطية ـ العادات الأجتماعية فى الكويت ص 116.

(61) يوسف عبدالرحمن الخليفى ـ التحفة البهية والأدب والعادات القطرية ص 76.

(62) د. إبراهيم سليمان الكروى ـ المرجع السابق ص 33.

(63) د. إبراهيم سليمان الكروى ـ نفس المرجع ص 33.

(64) يوسف عبدالرحمن الخليفى ـ المرجع السابق ص 76.

(65) صلاح العطية ـ المرجع السابق ص 116.

(66) د. محمد رشيد الفيل ـ المرجع السابق ص 269.

(67) د. عبدالله المبارك ـ المرجع السابق ص 58.

(68) د. بدر الدين عباس الخصوصى ـ المرجع السابق ص 75 وانظر مقابلة مع خالد العدسانى عن الديوانيات الأدبية (برنامج تليفزيونى) أذيع فى 15/ 1/ 68.

(69) د. عبدالله المبارك ـ المرجع السابق ص 58.

(70) د. إبراهيم سليمان الكروى ـ المرجع السابق ص 34.

(71) عبدالله محمد الطائى ـ دراسات عن الخليج العربى ص 103.

(72) د. إبراهيم سليمان الكروى ـ المرجع السابق ص 37.

(73) عبدالله محمد الطائى ـ المرجع السابق ص 104.

(74) د. محمد الرميحى ـ المرجع السابق ص 195.

(75) عبدالله محمد الطائى ـ المرجع السابق ص 104.

(76) د. عبدالله المبارك ـ نفس المرجع ص 64.

(77) مصدر غير معروف – الناشر.

(78) محمد عبدالرحيم كافود ـ الأدب القطرى الحديث ص 99 ـ 100.

(79) د. عبدالله المبارك ـ المرجع السابق ص 69.

(80) عبدالله محمد الطائى ـ المرجع السابق 121.

(81) يوسف عبدالرحمن الخليفى ـ المرجع السابق ص 150.

(82) عبدالله محمد الطائى ـ المرجع السابق ص 121 .

(83) عبدالله محمد الطائى ـ نفس المرجع 121 .

(84) د. محمد جابر الأنصارى ـ المرجع السابق ص 8 .

(85) د. عبدالله العتيبى ـ الشعر الشعبى فى الكويت وقضاياه الاجتماعية مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد 31 ص 60 ـ 69 .

(86) د. محمد عبد الرحيم كافود ـ المرجع السابق ص 201 .

(87) د. عبدالله العتيبى ـ المرجع السابق ص 62 .

(88) مصدر غير معروف - الناشر .

(89) د. ماهر حسين فهمى ـ المرجع السابق ص 15 .

(90) د محمد عبدالرحيم كافود ـ الحركة الأدبية والفكرية فى قطر، حوليات كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية العدد الثانى سنة 1980 ص 257 .

(91) د. محمد عبد الرحيم كافود ـ نفس المرجع ص 258 .

(92) د. عبدالله الحامد ـ الشعر فى الأحساء ص 521 .

(93) «المبرز» هى إحدى المدن التى تقع فى اقليم الأحساء واشتهرت هذه المدينة بكثرة ادبائها وشعرائها ورجال العلم والدين والقضاة .

(94) د. عبدالله الحامد ـ المرجع السابق ص 521 .

(95) د. ماهر حسين فهمى ـ المرجع السابق ص 16 .

(96) يوسف عبدالرحمن الخليفى ـ نفس المرجع ص 57 .

(97) يوسف عبدالرحمن الخليفى ـ نفس المرجع ص 75 .

(98) محمد أحمد النشمى ـ المرجع السابق ص 45 .

(99) د. عبدالله المبارك ـ المرجع السابق ص 95 .

(100) عبدالله محمد الطائى ـ المرجع السابق ص 290 .

(101) عبدالله محمد الطائى نفس المرجع ص 292 .

(102) د. عبدالله المبارك ـ المرجع السابق ص 95 .

(103) د. محمد المبارك ـ المرجع السابق ص 75 .

(104) د. عبدالله المبارك ـ المرجع السابق ص 59 .

(105) خالد سعود الزيد ـ سير وتراجم خليجية فى المجلات الكويتية ص 10 .

(106) خالد سعود الزيد ـ المرجع السابق ص 13 .

(107) خالد سعود الزيد ـ نفس المرجع ص 37 .

(108) د. محمد جابر الأنصارى ـ المرجع السابق ص 8 ـ 11.

(109) د. محمد جابر الأنصارى ـ نفس المرجع ص 11.

المراجع:

أولا: الكتب

(1) إبراهيم سليمان الكروى (دكتور) الأصول التاريخية للتعليم فى الكويت ـ دار البحوث العلمية ـ الكويت ـ 1983م.

(2) بدر الدين عباس الخصوصى ـ دكتور ـ دراسات فى تاريخ الكويت الاجتماعى ـ الاقصادى فى العصر الحديث الطبعة الثانية ـ ذات السلاسل الكويت 1983.

(3) ج.ج. لوريمر ـ دليل الخليج ـ ترجمة مكتب حاكم قطر ـ الدوحة.

(4) جهينة سلطان سيف العيسى ـ (دكتورة) ـ المجتمع القطرى ـ القاهرة 1982.

(5) خالد سعود الزيد ـ سير وتراجم خليجية فى المجلات الكويتية ـ شركة الربيعان ـ الكويت 1983م.

(6) صلاح العطية (دكتور) العادات الاجتماعية فى الكويت.

(7) محد عبدالرحيم قافود ـ (دكتور) ـ الأدب القطرى الحديث ـ القاهرة 1979.

(8) محمد رشيد الفيل (دكتور) ـ سكان الكويت ـ شركة المطبوعات للتوزيع والنشر الكويت سنة 1969م.

(9) محمد الرميحى (دكتور) ـ الخليج ليس نفطا ـ الكاظمة ـ الكويت 1983.

(10) محمد جابر الأنصارى (دكتور) تراث قطر وثقافتها المعاصرة ـ وزارة الإعلام الدوحة ـ 1980م.

(11) محمد أحمد النشمى ـ الزواج قديما فى الكويت ـ ذات السلاسل ـ الكويت 1974.

(12) فتوح عبدالمحسن الخترش (دكتور) وعبدالعزيز محمد المنصور (دكتور) مصادر تاريخ قطر ـ ذات السلاسل ـ الطبعة الثانية ـ الكويت 1984.

(13) فتوح عبدالمحسن ٠ دكتورة) وعبدالعزيز محمد المنصور (دكتور) نشوء قطر وتطورها ـ ذات السلاسل ـ الكويت 1977م.

(14) عبدالعزيز محمد المنصور ـ (دكتور) ـ التطور السياسى لقطر فى الفترة مابين 1868 ـ 1916 ـ ذات السلاسل ـ الكويت 1980.

(15) عبدالله المبارك (دكتور) ـ أدب النثر المعاصر فى شرق الجزيرة العربية القاهرة 1970.

(16) عبدالله خالد الحاتم ـ من هنا بدأت الكويت ـ الطبعة الثانية الكويت 1980.

(17) عبدالله محمد الطائى ـ دراسات عن الخليج العربى.
(18) يوسف عبدالرحمن الخليفى ـ التحفة البهية فى الآداب والعادات القطرية الدوحة 1980م.

ثانيا ـ الدوريات

(1) جمال زكريا قاسم (دكتور) بحوث فى التاريخ الحديث ـ حركة الجامعة الإسلامية وتأثيرها على إمارات الخليج العربى ـ جامعة عين شمس القاهرة 1976.
(2) محمد عبدالرحيم قافود (دكتور) ـ الحركة الأدبية والفكرية فى قطر ـ حوليات كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ـ العدد الثانى 1980م.
(3) عبدالله العتيبى (دكتور) ـ الشعر الشعبى فى الكويت وقضاياه الاجتماعية ـ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية يوليو 1982 العدد 31.
(4) عبدالله الحامد (دكتور) الأدب فى الأحساء خلال الفترة 1150 هجرية 1350 هـ مجلة كلية اللغة العربية ـ العدد التاسع 1979 ـ جامعة الإمام محمد بن سعود.
(5) ماهر حسن فهمى ـ (دكتور) اشكالية الشعر الحديث فى الخليج حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ـ العدد التاسع 1986 ـ جامعة قطر.

الفصل السابع



القرار السياسى البريطانى في ظل النزاع الأنكلو ـ عثمانى فى شرق الجزيرة العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

نشر هذا البحث فى مجلة كلية الآداب ـ جامعة الزقازيق ـ العدد الثالث عشر ـ أبريل 1995 ـ مصر.

مقدمة

تتناول هذه الدراسة القرار السياسى البريطانى فى ظل النزاع الأنكلو - عثمانى فى شرق الجزيرة العربية فى الفترة من عام 1871 إلى عام 1913، أى منذ مجيء الحملة العثمانية إلى المنطقة حتى بداية الحرب العالمية الأولى، وهى محاولة لفهم كيفية اتخاذ القرار السياسى البريطانى وإشكالية ونتائجه.

نشير فى هذه الدراسة إلى الخلفية التاريخية والأوضاع التى مهدت إلى تصعيد النزاع الأنكلو عثمانى، والسياسه العثمانيه تجاه شرق الجزيرة العربية والتى مرت بثلاث مراحل فى عهد السلطان عبدالعزيز والسلطان عبدالحميد الثانى وجماعة الاتحاد والترقى، ثم نبدأ حملة مدحت باشا التى كانت السبب المباشر فى تصعيد النزاع الأنكلو - عثمانى.

ندرس اشكالية القرار السياسى البريطانى فى ظل تفسير نزاع بريطانيا مع العثمانيين، والاعتداءات والأعمال البحرية فى الخليج العربى وتهديد السيادة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية والقرار السياسى البريطانى بين حكومة الهند والخارجية البريطانية، ثم نتوصل إلى نتائج الدراسة.

الخلفية التاريخية:

سيطرت الدولة العثمانية على أجزاء واسعة من الجزيرة العربية، وإن كانت سيادتها متفاوتة إلا أنها لم تضم كلا من ساحل عمان وعمان وحضرموت.

تتابع فى حكم «الاحساء» كل من «العيونيين» و«آل الجبور» و«ال مغامس» حتى جاء الاستعمار المسيحى البرتغالى فاحتل «القطيف» بالتعاون مع قوات مملكة هرمز» فى يوليو عام 1521، واستمر الاحتلال المسيحى البرتغالى لها حتى تمكن العثمانيون من طردهم، عندما أرسل السلطان سليمان القانونى حملة بحرية إلى الخليج العربى بقيادة «محمد باشا فروخ»، الذى استطاع تحرير «القطيف» من الاستعمار المسيحى البرتغالى ودخلت قواته تلك المدينة عام 1550.

زحفت القوات العثمانية بعد ذلك إلى الهفوف» عاصمة الاحساء واستولت عليها، وعين ذلك القائد حاكما للاحساء، وتلاه فى الحكم مجموعة من الحكام العثمانيين، وكان آخرهم «عمر باشا» الذى ترك الاحساء عام 1670، ليخلفه فى الحكم «براك بن غدير»، زعيم قبيلة بنى خالد، واستطاع أبناؤه وأحفاده من بعده أن يؤسسوا دولة قوية فى هذه المنطقة.

تفاوت حكم الدولة العثمانية لشرق الجزيرة العربية حسب ظروفها الدولية أو الداخلية وبخاصة حروبها على الجبهة الأوربية، فكان يشتد ويضعف بين المد والجزر، ونتيجة لذلك ظهرت مشيخات قبلية كان بقاؤها مرهونا حسب قاعدة الصحراء القبلية «أى البقاء للأصلح أو الأقوى»، وبمعنى آخر حسب قدرتها فى الدفاع عن ذاتها ضد القوى القبلية الأخرى، سواء أكانت انتفاضة داخلية أم غارة خارجية حتى جاء الاستعمار المسيحى البريطانى وأدخل المشيخات تحت حمايته. ونظرا لهذه الطبيعة فى صحراء الجزيرة العربية، فكثيرا ما كان العثمانيون يفضلون ترك هذه المناطق لذلك النظام القبلى مادام أمراؤها من شيوخ القبائل يعترفون بالسيادة العثمانية ويدفعون الضرائب ويقدمون المال والرشوات لكبار موظفى الدولة(1).

نظرا لحالة الضعف والتفكك والاقتتال فيما بين القوى القبلية، أصبحت مهمة دخول الاستعمار المسيحى الأوربى وخاصة البريطانى سهلة إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية وهى البحرين وساحل عمان وعمان والتى اخضعتها تحت حمايتها فيما بين عامى 1820 ـ 1839.

تأخرت بريطانيا فى اخضاع بقية الأجزاء الشرقية من الجزيرة العربية إلى عام 1889، حيث اخضعت الكويت ثم عربستان، واحتلت العراق فى الحرب العالمية الأولى، وعقدت اتفاقية «دراين» مع ابن سعود عام 1915، والتى بموجبها أصبح تحت الحماية البريطانية مثله مثل بقية حكام القبائل فى كيانات شرق الجزيرة العربية، ثم قطر عام 1916.

استمر حكم «بنى خالد» على شرق الجزيرة العربية حتى عام 1793، عندما تمكن «النجديون» من الاستيلاء على الاحساء، وبات خطرهم يهدد الدولة العثمانية فى أقاليمها المجاورة مثل العراق والشام والحجاز.

فسيرت عليهم حملة من قبل واليها على مصر محمد على الذى استطاع اخمادهم وأعاد الأمن والاستقرار إلى «نجد» عام 1818، ثم توجه إلى الاحساء لأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية لقواته فى «نجد» ولكنه لقى معارضة من الدولة العثمانية وواليها فى العراق الذى خاف من التوجه المصرى نحو البصرة، ولهذا طلب الباب العالى من محمد على الانسحاب من الاحساء فانسحبت قواته عام 1819.

عادت القوات المصرية من جديد إلى الاحساء عام 1838، ولكن فى هذه المرة عارضتها بريطانيا بعدما رحبت بها فى المرة الأولى، وهذا راجع لأنها كانت تريد من المصريين مساعدتها لاحتلال ساحل عمان.

رفض محمد على التعاون مع الاستعمار المسيحى البريطانى ضد عرب ساحل عمان، فقامت بريطانيا باحتلالها وعقدت معها اتفاقية عام 1820، ولهذا فإنها لم تكن بحاجة إلى مجىء القوات المصرية عام 1838، وعلى العكس من ذلك كان وجودها فى «الاحساء» يشكل خطراً على النفوذ المسيحى البريطانى، وخاصة عندما بعث خورشيد باشا أحد قواده إلى «البريمى» وأبو ظبى والشارقة

لتحريرها من النفوذ المسيحى البريطانى مما دفع بريطانيا إلى معارضة الوجود المصرى ليس في الاحساء واليمن وإنما فى الجزيرة العربية ككل، وهذا أدى إلى انسحاب القوات المصرية عام 1840 حتى لا تواجه التحالف الدولى المكون من بريطانيا والنمسا والدولة العثمانية.

عملت السلطات العثمانية فى العراق على أن ترث الحكم المصرى بعد انسحاب قواته عندما برزت أهمية الجزيرة العربية، وخاصة شرقها لدى العثمانيين بعد التوسع المصرى، وأخذوا يفكرون فى العودة إليها من جديد.

هذا ما دفع الباب العالى إلى إصدار فرمان أسند بموجبه ولاية «جدة» وتوابعها من «نجد» و«الاحساء» إلى والى العراق «على رضا» الذى قام بتعيين نائب عنه ليقوم بمهام ولاية «جدة» وطلب من بريطانيا أن تحمل نائبه إلى مركز عمله الجديد فى ولاية «جدة» على إحدى السفن الحربية التابعة للأسطول البريطانى خوفًا من تعرضه للخطر من جانب القوات المصرية. وكان من الطبيعى أن يلقى هذا العرض كل ترحيب من قبل بريطانيا التى أسرعت بنقل نائب الوالى العثمانى إلى مقر عمله[2] على إحدى سفنها الحربية إلى مدينة «جدة».

عادت الدولة العثمانية بذلك إلى الجزيرة العربية بمساعدة بريطانيا والتى لولاها لما انسحب محمد على من المنطقة. ولم يحاول «على رضا» الوالى العثمانى فى العراق، تغيير الأوضاع المحلية فى داخل الجزيرة العربية، فترك «خالد بن سعود» على «نجد» و«أحمد بن مبارك» يدير شئون «الاحساء».

أطاح «عبدالله بن ثنيان» بالأمير «خالد بن سعود» عام 1841، وأعلن نفسه حاكما على «نجد»، وفى عام 1843 أطاح «فيصل بن تركى» بالأمير «عبدالله بن ثنيان» وأعلن نفسه قائمقاما عثمانيا على «نجد»، وأصدر الباب العالى فرمانًا بتعيينه وطلب منه دفع الضرائب إلى شريف «الحجاز» الذى يتولى دفعها إلى الحكومة العثمانية.

الأوضاع التى مهدت لتصعيد النزاع الأنكلو ـ عثمانى 1865 ـ 1871:

يمكن القول بأن النزاع الأنكلو ـ عثمانى يعود إلى فترة حكم «فيصل بن تركى» قائمقام نجد العثمانى، والذى بدأ يتدخل فى شئون ساحل عمان وعمان

اللتين كانتا تحت حماية بريطانيا التى طلبت من «فيصل بن تركى» عدم التدخل فى شئونها الداخلية إضافة إلى تدخلاته فى شئون البحرين.

على أثر ذلك قامت القوات البريطانية برفقة الأسطول الحربى بطرد عامل «فيصل بن تركى» ويدعى «محمد بن عبدالله» من الدمام بالقوة، وقصفت سفن الأسطول البريطانى موانئ ساحل الاحساء بنيران مدافعها فى نوفمبر عام 1866.

أثارت تلك الأعمال الحكومة العثمانية باعتبارها سابقة خطيرة وانتهاكا لسيادتها فى شرق الجزيرة العربية لا يمكن السكوت عنها، ولكنها لم تكن فى موقف يسمح لها بتصعيد التوتر مع بريطانيا، فاكتفت بتقديم احتجاج شديد اللهجة باعتبار تلك المناطق تابعة «لفصيل بن تركى» القائمقام العثمانى فى نجد والذى يعتبر تابعًا من أتباع الدولة العثمانية وأرضه جزء من أملاك الباب العالى وجزء من سيادته التى لا تتجزأ.

تولى «عبدالله بن فيصل» الحكم فى قائمقامية نجد العثمانى بعد وفاة والده فى ديسمبر عام 1965، واستمر فى سياسة أبيه، وكان من أعداء الاستعمار المسيحى البريطانى فى شرق الجزيرة العربية، وكان نائبه «أحمد السديرى» فى البريمى يتدخل ضد النفوذ البريطانى فى ساحل عمان وعمان، وقام بمساعدة بعض القبائل على الإغارة على بلدة «صحم» التى تبعد بضعة أميال عن مدينة «صحار» العمانية، وأرغموا الهنود المقيمين فيها «الهندوس» الذين كانوا يسيطرون على التجارة والحياة الاقتصادية على ترك المدينة لأهلها وإيقاف استغلالهم لها اقتصاديا.

أثناء ذلك مات أحد هؤلاء الهنود غريقًا عندما حاول ركوب سفينة فسقط فى البحر، واتخذت بريطانيا من تلك الحادثة ذريعة لتدخلها فى شئون «عبدالله بن فيصل» القائمقام العثمانى فى نجد عندما بعث «بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى أثناء وجوده فى مدينة «صحار» و«صحم» برسالة فى السادس من يناير عام 1866، أنحى فيها باللائمة على قائمقام نجد العثمانى على الهجوم الذى شنه نائبه فى عمان وعلى رفضه الوساطة البريطانية، كما وجه إليه اللوم أيضا على الاعتداءات التى وقعت على الهنود فى كل من «صحم» و«صحار» ودعاه إلى تقديم اعتذار رسمى عن تلك الأعمال ودفع 27000 ريال كتعويض عن الخسائر

والأضـرار التى لحقت بـالرعايا الهنـود وطالبه بأن يتـعـهد بعـدم تكرار مـثل هذه الانتهاكات بأراضى عمان فى المسـتقبل، وطلب من الكابتن «بيزلى» تسليم الرسالة إلى قائمقام نجد العثمانى ثم الانتظار سبعة عشر يومًا لتلبية تلك المطالب، علما بأن المقيم السـياسى البـريطانى كان يعلم أنه من الصـعب الاستجـابة لتلك المطالب فى تلك المدة القصـيرة إضافة إلى القـسوة والإزلال والغطرسة الاسـتـعمارية المسيـحية الإرهابية البريطانية واستخدام أسلوب التهديد، وقد جاء فى رسالته[3].

«بأنه إذا لم تتم الموافـقة على الشروط التى أوردها بعـد انتهـاء المهلة المحددة فإن السفن البريطانية سوف تقوم بقصف المعاقل الساحلية التابعة له والاستيلاء على السفن الموجودة فى الموانئ».

كما بعث «بيلى» برسالـة أخرى إلى نائبه «فرير» بعد مضى بضعـة أيام وفيها تفاصيل الخطة التى وضعها سلفا لقصف ساحل «الاحساء» وقال فيها:

«أعتزم توجـيه الضربة فى هدوء وبهذا الأسلوب سـوف أبدو فى حالة فشل الخطة وكأننى لم أوجه أى ضربة إلى هؤلاء الذين لا يمكن أن يرتدعوا إذا لم توجه إليهم ضربة قاصمة، إنهم يعتقدون بأن البريطانيين وحتى ضباطهم يخافون منهم».

اتخذ «بـيلى» قراره بقـصف مدينة «الدمـام» بعد التـشاور مع «بيزلـى» قائد الأسطول البـريطانـى فى الخليج العـربى الذى وصل إلى «الـقطيف» فى 30 يناير 1866، وطلب منه حـاكم «القطيف» الانتظار اثنى عـشـر يوما حـتى يصله رد من «عبدالله بن فيـصل» قائمقام نجد العثمانى، غـير أن «بيزلى» لم يوافق، وفى الثانى من فبراير أطلقت مدافـع السفن الإرهابية البريطانية نيرانهـا نحو الميناء، وتم تدمير إحدى السفن الشـراعية وحصن صغـير، وفى اليوم التالى قـصفت سفن الأسطول البريطانى حـصن الدمام، وتم إنزال الجنود البـريطانيين للاسـتيلاء عليـه بعد ذلك القصف.

غيـر أن العـملية فـشلت نتيـجة الاسـتمـاتة والمقاومة العـنيفة التى أظـهرها المدافعون عـنه من القـبائل العربية، وعلى الرغم من الأضـرار التى لحقت بالقلعة فإن المدافعين عنهـا لم يتخلوا عنها، وخسر البريطانيـون فى ذلك الهجوم عددا من القتلى والجـرحى من الجنود والضبـاط البريطانيـين، وكان عدد القـتلى ثلاثة جنود

وجرح ضابطان، وأمام هذه المقاومة الباسلة انسحبت القوات الإرهابية البريطانية مع أسطولها.

ثم عادت القوات الإرهابية البريطانية بقوة أكبر فى يوم 14 فبراير 1866 وقامت بقصف القلعة، غير أنها فشلت للمرة الثانية، وتلقى «بيلى» نبأ فشل الحملة بخيبة أمل، وقرر القيام بعملية إرهاب كبيرة لاستعراض القوة البريطانية لتعويض الفشل الذى منيت به قواته، وكانت الضحية الجديدة قبيلة «الجنبة» العمانية المسالمة فى مدينة «صور».

لكى يختلق «بيلى» مبرراً لهجومه الإرهابى اتهم العمانيين بأنهم موالون «لعبدالله بن فيصل» وأنهم اشتركوا فى بعض الإغارات، وطلب منهم بصورة عاجلة دفع المبلغ الذى كان قد طلبه من قائمقام نجد العثمانى، وهو 27 ألف ريال، وكان من الطبيعى أنهم لن يستطيعوا دفع هذا المبلغ الكبير فى هذا الوقت القصير وبهذه السرعة، ومع ذلك فإن رجال قبيلة «الجنبة» أبدوا رغبتهم بدفع المبلغ خوفا من الخسائر التى تلحق بممتلكاتهم نتيجة القصف، وطلبوا مهلة حتى شهر مارس التالى، وهو الوقت الذى تعود خلاله سفنهم التجارية من البحر الأحمر.

رفض «بيلى» المقيم السياسى البريطانى طلبهم هذا، وأمر سفنه الإرهابية الحربية بقصف المدينة فدكتها وسوت منازلها بالأرض، وقامت بتدمير بقية السفن الشراعية الموجودة فى خليج «صور» وبذلك عادت إلى الأذهان ذكرى وحشية وإرهاب المسيحيين البرتغال فى مدينة «قلهات» و «قريات» القريبة من «صور» فى 22 أغسطس 1507.

علم «بيلى» بعد عودته من «صور» نبأ مقتل «ثوينى» سلطان عمان بطعنة خنجر من نجله سالم، بينما كان يغط فى نومه فى حصن «صحار»، واتهم «بيلى» فى هذه الحادثة «عبدالله بن فيصل» قائمقام نجد العثمانى مدعيا اشتراكه فى هذه المؤامرة وانه أمر واضح لايحتاج إلى تفسير، والغرض منه هو أن يتولى الحكم فى مسقط شخص أكثر خضوعا «للرياض» ومن المحتمل أيضًا أن يكون حاكم نجد الجديد «عبدالله بن فيصل» مشتركا فى هذه المؤامرة، وربما يكون هو الرأس المدبر لها، وجاء ذلك فى التقرير الذى بعث به «بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بتاريخ 9/ 7/ 1866 إلى حكومته فى الهند.

يتضح من ذلك أن السلطات البريطانية فى حكومة الهند وموظفيها فى الخليج العربى لم يكونوا راضين عن «عبدالله بن فيصل» لأنه شكل خطرا على نفوذهم فى المنطقة، ولهذا قاموا بمساعدة أخيه «سعود بن فيصل» الذى فشل فى الإطاحة بعبدالله ففر هاربًا إلى ساحل عمان وعمان والبحرين وتلقى مساعدات من حكامها إضافة إلى مساعدة بريطانيا، التى كانت تريد التخلص بأى شكل من «عبدالله بن فيصل» ونجحت فى ذلك عندما حقق سعود نصراً على قوات أخيه عبدالله بمساعدة بريطانيا فى معركة الاحساء عام 1870، ثم توجه إلى الرياض واستولى عليها فى أبريل 1871، وفر أخوه عبدالله بن فيصل إلى بادية قحطان.

بدأ «عبدالله بن فيصل» يطلب مساعدة الباب العالى التدخل لإعادته إلى الحكم فى قائمقامية «نجد» بعدما أطاح به أخوه «سعود بن فيصل» بمساعدة بريطانيا التى بدأت تتدخل فى شئون شرق ووسط الجزيرة العربية.

بعث «عبدالله بن فيصل» برسالة إلى الخديو إسماعيل يتوسل فيها إليه أن يتوسط له لدى الباب العالى لكى يساعده فى إعادته للحكم، واتهم السلطات البريطانية فى الخليج العربى بأنها تطمح إلى الاستيلاء على أحد المراكز الهامة على ساحل الاحساء مثل «الدمام» أو القطيف، وأن «بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى قد عرض عليه ذلك، وعندما رفض أخذ المقيم السياسى البريطانى يقدم المساعدة لأخيه سعود حتى تمكن الأخير من طرده من حكم بلاده(4).

جاء فى نص رسالة عبدالله بن فيصل إلى إسماعيل باشا خديوى مصر «. . . وصل إلى طرفنا بنجد «بيلى Pelly» قنصل الإنجليز بالخليج ومعه هدية، وقد فهمنا أن مراده نعطيه مركزا فى ساحل البحر، إما البحرين أو الدمام أو بعض القطع وغيرها (فاعتذرنا) وأرجعنا هديته، حيث إن هذه الأماكن التى فى يدنا فى الممالك المحروسة الراجعة إلى خليفة رسول الله السلطان . . ورجع عنا يائسا . . وكان سعود قد استجلبه القنصولوص إليه، واغراه بما (يقضى) له من الأخيرة والمهيات. . والنفوذ بواسطة البحرين، ولما رأينا الأمر بهذه الصورة انتصرنا بالله، ثم بدولتنا وعرضنا الحال على والى بغداد».

من هنا جاءت الحملة العثمانية لإعادة «عبدالله بن فيصل» كقائمقام عثمانى على نجد، وكان مدحت باشا الوالى العثمانى فى العراق يعتقد اعتقادا جازمًا بأن بريطانيا قدمت مساعدات «لسعود بن فيصل»، لتركيز أقدامها فى «الأحساء» و«نجد» ولإخضاع الخليج العربى لنفوذها الكامل بعد أن عقدت مع قطر معاهدة 1868.

لقد أصبح معها ساحل شرق الجزيرة العربية من عمان وساحل عمان وقطر والبحرين، أصبحت جميعها مرتبطة بمعاهدات الحماية البريطانية ماعدا «الأحساء» و «الكويت» وبإمكان البريطانيين أن ينطلقوا من «الأحساء» إذا ما أخضعوها لسيطرتهم عن طريق معاهدات الحماية مع «سعود بن فيصل»، لتوسيع نفوذهم إلى الشمال فى اتجاه «الكويت» و «البصرة»، ولهذا أعلن مدحت باشا صراحة فى أبريل عام 1871، أن السيادة العثمانية أصبحت ممتدة لتشمل «نجد» وأن الحملة ستزحف لتثبيت «عبدالله بن فيصل» كقائمقام عثمانى على «نجد»، وأن الهدف من الحملة ليس الاستيلاء عليها بل لتوثيق الروابط القائمة بينها وبين الدولة العثمانية وكبح جماح «سعود بن فيصل» وانهاء أعماله العدوانية[5].

عندما سأل «هربرت» القنصل البريطانى فى بغداد مدحت باشا عن الحملة رد عليه بأن مهمته هى تنفيذ ما كان يتلقاه من أوامر حكومته فى «الأستانة» وأوضح للقنصل البريطانى بأن الأمير «عبدالله بن فيصل» قد عين قائمقاما للباب العالى فى «نجد»، وأن خلع أخيه له حدث لا يمكن السكوت عليه وبالتالى كان الباب العالى لا يستطيع أن يرفض طلبه للمساعدة[6].

لكننا لا نعتقد بأن تلك الأسباب التى ذكرها مدحت باشا لإعادة القائمقام العثمانى إلى حكمه فى نجد كانت وراء الحملة، كما لا نعتقد أيضًا بأن العداء البريطانى لعبد الله بن فيصل يعود لمحاولته التدخل فى شئون ساحل عمان وعمان الواقعة تحت الحماية البريطانية. ولكن هناك عوامل أخرى أدت إلى تصعيد النزاع الأنكلو ـ عثمانى فى شرق الجزيرة العربية، وإكمال حلقتها بالسيطرة الكاملة على الخليج العربى وجعله بحيرة بريطانية برغم عملها الدؤوب منذ إحكام قبضتها على الهند وساحل عمان وعمان، إلا أنها نجحت بعد الحرب العالمية الأولى فى ذلك.

نظراً لأهمية المرحلة التى سبقت ذلك، سوف ندرس سياسة كل من الدولة العثمانية وبريطانيا تجاه شرق الجزيرة العربية والتى أدت إلى تصعيد النزاع بينهما، وكيف لعبت الإدارة البريطانية دورها فى اتخاذ القرار السياسى بشأنها.

السياسة العثمانية تجاه شرق الجزيرة العربية 1871ـ1913:

مرت السياسة العثمانية تجاه شرق الجزيرة العربية بمرحلتين إن لم نقل بثلاث مراحل لأن المرحلة الثالثة قد تخرجنا من الدولة العثمانية إلى الدولة القومية التركية ومحاولة احتواء الاقليات الأخرى ومن بينها القومية العربية «وتتريكها» وفيما يلى هذه المراحل:

المرحلة الأولى: السياسة العثمانية فى عهد السلطان عبدالعزيز 1861ـ1876:

اتجهت السياسة العثمانية فى عهد السلطان عبدالعزيز نحو الجزيرة العربية بشكل عام وشرق الجزيرة العربية واليمن بصفة خاصة. مما أدى إلى مجاراة النفوذ المسيحى البريطانى وبالتالى إلى تصعيد النزاع الأنكلو ـ عثمانى فى المنطقة وأصبحت بريطانيا تنظر إليها بعين القلق والتوتر.

لكن لماذا اتجهت السياسة العثمانية فى هذه الفترة إلى شرق الجزيرة العربية بالذات؟ وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن ننظر إلى العوامل الداخلية والخارجية للدولة العثمانية والتى ساعدتها فى هذا التوجه الذى ترتب عليه تصعيد النزاع مع بريطانيا فى شرق الجزيرة العربية نظراً لتدعيم الحكم العثمانى وتركيز نفوذها والذى كان منذ فترة طويلة حكرا على بريطانيا وحدها، وفيما يلى بعض هذه الأسباب التى ساعدت الدولة العثمانية:

1 ـ قيام الإصلاحات الإدارية والسياسية والتنظيمات العسكرية فى أعقاب حرب القرم (1853 ـ 1856).

2 ـ رغبة الباب العالى فى دعم الدولة وإعادة الهيبة والسيادة إليها بعدما أصبحت تتقلص حدودها فى أوربا نتيجة للخسائر التى لحقت بأقاليمها فى البحر الأسود والبلقان ووضع حد لتلك الخسائر.

3 ـ الاتجاه نحو تشديد القبضة على الأقاليم الأسيوية كتعويض عما فقدته

الدولة العثمانية فى أوربا وخاصة فى الجزيرة العربية التى يدين أهلها بالإسلام وبالمذهب السنى مذهب الدولة العثمانية، باعتبار هذا العامل الدينى من العوامل المهمة التى تجمعهم أكثر من المسيحية فى أوربا الشرقية. ويمكن اعتباره أفضل ضمان ورهان لبقاء الدولة العثمانية أطول فترة ممكنة فى هذا الوقت الذى اشتدت فيها ضربات الاستعمار المسيحى الأوربى ليس فى الدولة العثمانية، وإنما لبقية الشعوب الإسلامية فى آسيا وأفريقيا.

4 ـ نتيجة للهدوء النسبى الذى ساد الدولة العثمانية على أثر الحروب التى خاضتها فى الداخل والخارج، أخذت تولى عناية خاصة للشئون العامة فى ولايتها الشرقية، وجاء ذلك فى المنشور الذى وزعه مدحت باشا على سكان إقليم «الاحساء» عام 1871 بأن الدولة العثمانية لم يكن لديها وقت تلتفت فيه إلى الحوادث الجارية فى وسط وشرق الجزيرة العربية، وذلك لكثرة الحروب التى كانت تخوضها على جميع الجبهات القتالية.

5 ـ افتتاح قناة السويس عام 1869 كان من العوامل الهامة والحيوية التى ساعدت فى التوجه العثمانى نحو المنطقة، لنقل القوات والحملات العسكرية البحرية وسهولة الوصول إلى مختلف أجزاء الجزيرة العربية سواء الغربية أو الشرقية، مما يسهل عملية الاختراق إلى العمق الداخلى للجزيرة العربية.

نقلت القوات العثمانية حملة مدحت باشا على السفن الحربية، والتى جاءت عن طريق «السويس» إلى «البصرة» ومنها إلى الاحساء عام 1871 ومنها توجهت الحملة إلى العمق الداخلى. وكان من الأسباب التى أدت إلى فشل الحملات العثمانية فى صراعها مع المسيحيين البرتغاليين أنهم كانوا يرسلون السفن الحربية مباشرة من «لشبونة»، فى حين كان العثمانيون ينقلون مختلف أجزاء السفن إلى «السويس» ويتم تجميعها هناك، مما يكلف الوقت والجهد ولم يحقق الهدف، لأنه من الصعب صناعة السفن الكبيرة كاملة التجهيز مثلما يتم فى ترسانة السفن نفسها.

لذا كان إبحار ونقل السفن يلعب دوراً مهماً فى الحروب الكبيرة، والتى تسمى بعمليات «اللوجستية» فى الحرب. وهذا ما دفع الولايات المتحدة إلى فصل

إقليم «بنما» وإعطاء الاستقلال «البنما» ثم حفرت فيها «القناة» وسيطرت عليها لنقل سفنها الحربية فيما بين الشرق والغرب من سواحلها على المحيط الأطلسى والهادى.

المرحلة الثانية: السياسة العثمانية فى عهد السلطان عبدالحميد الثانى 1876-1909:

وعد السلطان عبدالحميد الثانى، عندما تولى بإصدار الدستور للبلاد، وفعلا صدر عام 1876، وبذلك نجحت جماعة الإصلاح وتغلبت على القوى المعادية لها، وأخذت الدولة العثمانية مسارها الصحيح بين الدول الدستورية، ولكن الدول الاستعمارية المسيحية الأوربية لم تكن تريد للدولة العثمانية أية إصلاحات من شأنها إعادتها إلى مستوى الدول الكبرى فى ذلك الوقت.

لم يكد مدحت باشا يتخذ الخطوات الأولى نحو الدستور حتى أعلنت روسيا الحرب ضد الدولة العثمانية وهزمتها، ولم تتدخل بريطانيا لوقف الحرب، وعقد مؤتمر دولى بشأنها فى برلين 1878، وعملت بريطانيا على تمزيق الدولة العثمانية بتهيئة الأذهان للقبول بفكرة التقسيم بالتعاون مع التحالف الدولى المكون من فرنسا وروسيا وإيطاليا، وكذلك ألمانيا التى كانت ترى أن يتم التقسيم على مائدة المفاوضات بدلا من الحروب فى القارة الأوربية التى قد تؤدى إلى نتائج لا يحمد عقباها. ثم سيطرت بريطانيا على قناة السويس عندما اشترت أسهم الخديوى وأصبحت تخطط لاحتلال مصر فى حين بدأت الدولة العثمانية تفقد أقاليمها الواحد تلو الآخر.

أدت تلك النكسات إلى ردود فعل معاكسة فى تفكير عبدالحميد الثانى، فبدلا من أن يتجه نحو الشعب ليستمد منه قوته لمحاربة الأعداء فى الخارج عن طريق المشاركة الشعبية، ودعم إصلاحات مدحت باشا والعودة إلى الدستور، انقلب ضد الشعب نفسه فى الداخل وألغى الدستور وأخذ يحكم البلاد بمفرده معتقدا أن بإمكانه وحده تقوية الدولة كما كانت فى بداية عهدها أيام حكامها العظام أمثال السلطان سليم وسليمان القانونى، ونسى بأن تلك الفترة انتهت بلا رجعة، وهذا العصر هو عصر الديمقراطية والحرية والمشاركة الشعبية.

لم يستطع عبدالحميد الثانى عمل شىء بدون مشاركة الشعب بكافة قومياته

وخاصة بعدما قامت الدول الدستورية والديمقراطية على حدوده المقابلة فى أوربا، وبدلا من التفكير بأسلوب هذا العصر بدأ يفكر بأسلوب قديم، كما حاول إحياء فكرة الجامعة الإسلامية، اعتمادا على مكانة الدولة من الناحية الدينية فى حربه ضد الاستعمار المسيحى، فى الوقت الذى كان الأخير قد سيطر سيطرة كاملة على الشعوب الإسلامية التى كانت تناضل من أجل الاستقلال.

لم يعد أحد من أقربائه أو مستشاريه يستطيع أن ينصحه ويرشده، فقد انشغلت السياسة العثمانية فى عهد السلطان عبدالحميد الثانى فى السنوات الخمس الأولى بالحرب مع روسيا ومجابهة الأطماع البريطانية فى قبرص ومصر، وفى السنوات الخمس التالية بقمع الحركة الإصلاحية التى تزعمها مدحت باشا، ومنذ قيام الأسطول البريطانى بضرب الإسكندرية عام 1882 أصبح عبدالحميد الثانى يكره بريطانيا التى اتبعت سياسة مسيحية صليبية استعمارية لاحتلال أكبر قدر ممكن من أقاليم الدولة العثمانية الإسلامية فى منافستها مع روسيا وبقية الدول المسيحية الاستعمارية الأوربية مثل فرنسا وإيطاليا والنمسا.

لهذا اتجهت السياسة العثمانية فى عهد عبدالحميد الثانى نحو الجزيرة العربية عامة وشرقها خاصة، وتأثرت بتلك العوامل التى ذكرناها سابقا فى تعاملها مع بريطانيا سواء حكومة الهند البريطانية فى الخليج العربى أو الخارجية البريطانية نفسها فى لندن والتى كانت تعى ذلك جيدا، مما جعلها تتبع سياسة أكثر مرونة فى تعاملها مع النزاع الأنكلو ـ عثمانى فى شرق الجزيرة العربية.

فى حين اتخذت حكومة الهند البريطانية سياسة أكثر تشددا وتدخلا فى الأقاليم العثمانية فى شرق الجزيرة العربية، مما جعل الدولة العثمانية تنظر إلى بريطانيا نظرة عدائية لسياستها بانتقاص واقتطاع أجزاء من أقاليمها الشرقية فى الجزيرة العربية.

فعلا هذا ما كانت تعمل من أجله حكومة الهند البريطانية مع العثمانيين التى تراهم منافسين لنفوذها فى المنطقة التى كانت حكرا عليها منذ فترة طويلة، وخاصة بعدما أنهت صراعها مع القوى الاستعمارية المسيحية الأخرى، مثل هولندا وفرنسا لصالحها، وأبعدتهم عن الخليج العربى عبر تلك السنوات الطويلة لتجد

أمامها الدولة العثمانية الآتية بقوة من خلال حملة مدحت باشا لتنافس مكانتها بعد تلك الجهود المضنية وخوفا من تغلغلها فى بقية الأجزاء الجنوبية مثل ساحل عمان، وعمان، فعمدت حكومة الهند البريطانية إلى تصعيد النزاع تحت شعار الهجوم خير وسيلة للدفاع.

هذا ما جعل السياسة العثمانية تتخذ موقف الكراهية وتدخل فى صراع عنيف مع بريطانيا بمحاولة إدخال جميع المسلمين تحت لوائها ومعهم رعايا بريطانيا من المسلمين فى الهند، وبرغم أنها جاءت متأخرة إلا أنها لقيت تجاوبا وتعاطفا من المسلمين ضد الاستعمار المسيحى البريطانى وأحييت فكرة الجهاد، ومن هنا بدأت بريطانيا فى تصعيد النزاع من أجل السيطرة الكاملة على شرق الجزيرة العربية كخطوة أولى نحو الانطلاق إلى الخطوة الثانية، وهى احتلال العراق العثمانى قبل أن تحتله قوى أخرى.

بذلك يمكن القول بأن السياسة العثمانية فى عهد السلطان عبدالحميد الثانى تأثرت بعاملين الأول قد يرجع إلى السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية ومحاولة تمزيقها سواء من الداخل أو الخارج باقتطاعها لأكبر قدر ممكن من أجزائها بالاشتراك مع القوى الاستعمارية المسيحية الأوربية الأخرى.

يرجع العامل الثانى أيضا للعامل الأول والذى تمخضت عنه فكرة الجامعة الإسلامية لتخليص وتحرير الشعوب الإسلامية من الاستعمار المسيحى الأوربى، وخاصة البريطانى، ولهذا أخذت الدولة العثمانية تقف أمام التطلعات الاستعمارية المسيحية البريطانية فى جميع الأقاليم العثمانية بوجه عام، مما انعكس على شرق الجزيرة العربية وشكل عاملا مهما فى تصعيد النزاع الأنكلو ـ عثمانى فى المنطقة بوجه خاص.

المرحلة الثالثة: السياسة العثمانية فى عهد جماعة الاتحاد والترقى 1909-1913:

تغيرت السياسة العثمانية فى عهد جماعة الاتحاد والترقى بعد تولى السلطة تجاه القوى المجاورة بعامة، وبريطانيا بخاصة، وكانت سياسة تركية أكثر منها سياسة عثمانية بمعنى الكلمة والمفهوم، أى أنها اهتمت بالقومية التركية ومناطقها الجغرافية ومصالحها أكثر من اهتمامها بمصالح القوميات الأخرى التى كانت تعيش

داخل الدولة العثمانية، وكذلك اطارها الجغرافى، أى أنها لم تكن تهتم بالأقاليم العثمانية الأخرى، وكثيرا ما كانت تقدم تنازلات للقوى الاستعمارية المسيحية الأوربية وجيرانها مقابل عدم التدخل فى شئونها الداخلية بشرط الا تؤثر على القومية التركية أو حدودها الجغرافية حتى تتمكن من تقوية قبضتها وتدعم سلطتها فى الداخل.

نتيجة لهذه السياسة ضاعت كثير من الأقاليم العثمانية كما تنازلت الدولة لجيرانها بموجب بروتوكول «الأستانة» و«طهران» مع إيران فى عام 1913 فى إقليم العراق العثمانى والتى كانت ومازالت سببا فى النزاع الإيرانى - العراقى إلى يومنا هذا، وغيرها من التنازلات.

فى هذه الفترة أيضا توصلت الحكومة التركية إن جاز لنا التعبير، ليس الحكومة العثمانية مع بريطانيا حول تقسيم النفوذ ليس فى شرق الجزيرة العربية وإنما فى الجزيرة العربية ككل، وفيها تنازلت عن كثير من الأراضى ابتداء من «العقير» إلى الجنوب منه وقطر والكويت وغيرها بموجب الخط الازرق[7]، الذى يمتد بالقرب من جزيرة «الزخنونية» حتى اليمن الجنوبية، واعترفت بجميع الأجزاء الجنوبية من هذا الخط مثل ساحل عمان وعمان وحضرموت ومحميات عدن للنفوذ البريطانى المسيحى، والاحساء ونجد واليمن والحجاز، لتركيا، وسميت هذه الاتفاقية بالأنكلو - عثمانية لعام 1913[8].

بذلك انتهى النزاع الأنكلو - عثمانى ليس فى شرق الجزيرة العربية وإنما فى الجزيرة العربية ككل، بينما استمر هذا النزاع فى تصاعد أثناء حكم السلطان عبدالعزيز وعبدالحميد الثانى اللذين رفضا التنازل عن أى شبر من أراضى الدولة العثمانية مادامت قادرة على الدفاع ضد الأعداء والاستعمار المسيحى الأوربى وخاصة البريطانى.

حملة مدحت باشا والتصعيد فى النزاع الأنكلو-عثمانى:

اتجهت السياسة البريطانية فى الخليج العربى منذ تثبيت أقدامها إلى المحافظة على مكاسبها التى تحققت فى بعض أجزائه مثل السيطرة على جنوب الخليج العربى والتطلع شمالا وخاصة نحو العراق، لأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية

ولأجل ذلك كانت تراقب الأوضاع فى المنطقة عن كثب، كما راقبت السياسة الداخلية والخارجية، والتى كانت تحاول الاقتراب أو النيل من المكاسب أو النفوذ البريطانى، وبالتالى المحافظة على سلامة طرق مواصلاتها تجاه مستعمرتها فى الهند.

جاء حرص بريطانيا على تلك المصالح أكثر من مصالح حكام ساحل عمان وعمان والبحرين التى فرضت عليهم اتفاقيات الحماية، ليس لمصالحهم بقدر ما هى لمصالحها الخاصة، بعد تخوفها من اقتراب المصريين فى شرق الجزيرة العربية ولذا عارضت وجودهم حتى تم الانسحاب عام 1840، ولم تكد تنتهى منهم حتى بدت فى الأفق تطلعات الدولة العثمانية نحو شرق الجزيرة العربية بعد غياب طويل عن المنطقة.

تجمعت لدى الإدارة البريطانية معلومات عن طريق موظفيها فى المنطقة بخطط العثمانيين الهادفة إلى فرض سيطرتهم المباشرة على شرق الجزيرة العربية، بعد أن تثبتت تلك الخطط لدى «أرجيل ـ Argil» وزير خارجية بريطانيا عن طريق سفيرها فى الآستانة، كما تأكد ذلك عن طريق كل من «هربرت ـ Herbert» القنصل البريطانى فى بغداد، وكذلك قنصلها فى مصر.

أرسلت الإدارة البريطانية تحذيرات إلى مدحت باشا الوالى العثمانى فى العراق لمنعه من التقدم تجاه شرق الجزيرة العربية، لأن ذلك سوف يصعد النزاع معها، ويتضح من ذلك أنها لم تكن فى وضع يسمح لها بمنع الحملة عن طريق القوة العسكرية، ولذا فإنها لجأت إلى الطرق السلمية والدبلوماسية، واخذت تساعد حليفها «سعود بن فيصل» الحاكم الجديد الذى أطاح بشقيقه «عبدالله بن فيصل» قائمقام نجد العثمانى مما شجع مدحت باشا فى المضى بخططه، وأخذ يقنع شيخ البحرين بأن يسمح للعثمانيين بإقامة قاعدة عسكرية فى البحرين لينطلقوا منها فى أعمالهم الحربية ضد «سعود بن فيصل»، إلا أن حاكم البحرين رفض التعاون مع العثمانيين بعدما استشار البريطانيين[9] الذين طلبوا منه رفض التعاون أو تقديم أية تسهيلات للعثمانيين.

حققت الحملة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية أهدافها، لأن الظروف

كانت مواتية ومشجعة لفرض سيادتها بشكل أقوى نتيجة للخلاف الذى نشب بين أبناء «فيصل بن تركى» قائمقام نجد بعد وفاته، عندما أطيح «بعبدالله بن فيصل» قائمقام نجد العثمانى الجديد عن طريق شقيقه «سعود بن فيصل» بمساعدة بريطانيا وبعض حكام شرق الجزيرة العربية، مما دعا الأول إلى طلب المساعدة من والى العراق مدحت باشا الذى استغل تلك الفرصة وأخذ يستعد للحملة لإعادة الحكم العثمانى لنجد «والأحساء».

وبذلك تكون الدولة العثمانية بعد إعادتها لسيادتها على وسط وشرق الجزيرة العربية قد حمت جنوب العراق بإقامة خط الدفاع الأول، خوفًا من امتداد النفوذ البريطانى الذى بدأ يتطلع نحو العراق فى تلك الفترة، وخاصة بعدما عقدت اتفاقية مع شيخ «قطر» عام 1868، ومساعدتها «السعود بن فيصل» الذى استولى على حكم «نجد»، وبالتالى قد تكون الخطوة القادمة نحو الشمال أى جنوب العراق.

بما أن الدولة العثمانية أسرعت بإخضاع شرق الجزيرة العربية تحت سيادتها فإنها أصبحت فى مركز أقوى استراتيجيا فى الخليج العربى، تستطيع معه الدخول فى وضع التكافؤ مع بريطانيا إلى حد ما حول سياسة الأخيرة فى المنطقة بعدما احتكرتها لفترة طويلة، وبذلك أصبح الباب العالى المنافس القوى والجديد لها فى الخليج العربى واستمر كذلك حتى الحرب العالمية الأولى.

نفذت الدولة العثمانية خططها الرامية لإعادة سيادتها على شرق الجزيرة العربية بمنتهى السرعة متعللة بأسباب منها(10).

1 ـ التخوف الشديد من التدخل البريطانى فى المنطقة بعد قيام بريطانيا بمساعدة «سعود بن فيصل» عن طريق حكام البحرين وساحل عمان وعمان والذين هم تحت حمياتها، مما جعل الباب العالى يرى أن نجاح بريطانيا فى مثل هذه المهمة يعنى تحكمها مستقبلا فى مصير العراق العثمانى.

2 ـ اعتداء «سعود بن فيصل» على القوافل التجارية لرعايا العثمانيين.

3 ـ وضع حد للفوضى السياسية فى وسط وشرق الجزيرة العربية.

بذلك أعادت الدولة العثمانية سيادتها على الأحساء عام 1871، وأطلقت عليها لقبا إداريا جديدا وهو «سنجقية الأحساء» وضمتها لولاية «البصرة» وبذلك فصلتها عن قائمقامية نجد العثمانية.

بدأت العلاقات الأنكلو ـ عثمانية تمر بتوتر منذ أن كانت بريطانيا قد علمت باستعدادت العثمانيين، فسارعت عن طريق قنصلها فى بغداد «هربرت» تستفسر من مدحت باشا الذى أجاب بأنه يتصرف بناء على أوامر تلقاها مؤخرا من الباب العالى وأن «عبدالله بن فيصل» كان القائمقام العثمانى فى نجد وأن عزله من قبل «سعود بن فيصل» لا يمكن أن يتم ولا تستطيع حكومته أن ترفض مساعدته.

أكد الصدر الأعظم للسفير البريطانى فى الآستانة أن «عبدالله بن فيصل» كان قائمقامًا «لنجد» ولن يتخلى الباب العالى عن أناس يحكمون باسمه وبناء عليه أرسل السفير البريطانى برقية إلى قنصله فى بغداد الذى أوضح فيه أن الصدر الأعظم أمر بنقل المعدات العسكرية والجنود بحرا على السفن الحربية العثمانية إلى موانئ الأحساء مما أدى إلى استياء حكومة الهند البريطانية، وعدم تقبلها للتأكيدات العثمانية من سفيرها فى الآستانة، ويتضح ذلك من الرسالة التى بعث بها «مايو Moyo» حاكم الهند إلى «أرجيل Argyll» وزير خارجية بريطانية فى 31/ 3/ 1871 يقول فيها (11):

«إنه سيكون سعيدا إذا تمكنت حكومة صاحبة الجلالة من منع الحملة، لأن أى عملية حربية فى أى جزء من الخليج العربى ستعمل على تقويض السلام والأمن فى البحار، إلى جانب أنها ستلحق أضرارا بالغة بالتجارة البريطانية وغيرها، كما أنها من المحتمل أن تزيد من التعقيدات . . ثم أضاف يقول: «كان يجب على «اليوت» السفير البريطانى فى الآستانة أن يستغل وقته فى محاولة وقف الحملة من الإبحار بدلا من أخذ التأكيدات من الباب العالى حول هدفها».

نجد من خلال هذه الرسالة اختلاف وجهات النظر بين حكومة الهند البريطانية والخارجية، ففى الوقت الذى اتخذت الخارجية عن طريق سفيرها فى الآستانة وقنصلها فى بغداد والبصرة نوعا من التساهل والمرونة بطريقة دبلوماسية

حون حبر الحملة قبلها، وحتى بعد تأكيدها فى «الأستانة» وتحميله المسؤولية عن عدم عرقلته للحملة، إضافة إلى سكوته على الإبحار وعدم منعه، يختلف «اتشيسون» وزير خارجية الهند فى وجهة نظره عن حاكم الهند ويقول بأن هذه الحملة تختلف عن الحملات البحرية الأخرى التى حدثت سابقا فى الخليج العربى، من حيث إنها لم تكن تريد الاصطدام بدولة أخرى فى المنطقة وإنما ترمى إلى إخماد تمرد فى أحد أقاليمها «نجد» ولذا يرى فى خطابه إلى «مايو Moyo» حاكم الهند العام أن الحكومة البريطانية ليس لها سند قانونى لا فى معارضة ولا فى منع ساحل عمان والبحرين من مهاجمة العثمانيين بحرا، كما أشار إلى أن ثمة اعتبارات عملية تتفق كثيرا مع الموقف الحرج الناشئ حينئذ فى الخليج العربى، مما يجب أن يؤخذ فى الحسبان وعلى أنها أكثر من مجرد مناقشات قانونية، وأضاف «اتشيسون» يقول:

«إننا لا نستطيع أن نجعل سياستنا البحرية تعتمد على السياسات العربية التى تجرى على الشاطئ، لأننا عندما نفعل ذلك فإننا سنتورط فى علاقاتنا مع القبائل العربية التى نعرفها ولا نستطيع فهمها»(12).

حسمت حكومة الهند البريطانية موقفها من الحملة التى توجهت بحرا، فى حين لو توجهت برا لما عارضتها برغم استيائها الشديد من تدخل الباب العالى فى شئون الخليج العربى، وقد تكون أقل إزعاجا لأن استخدام الاسطول البحرى العثمانى يثير مخاوف حكومة الهند البريطانية، لا لأنها تهدد السيادة البحرية البريطانية فى الخليج العربى أو تعرض السلام البحرى البريطانى حسب مفهومها للخطر أو قد تكون سابقة جديدة لكيانات المنطقة، وإنما جعلت العثمانيين فى موقف يحتم عليهم توسيع نطاق عملياتهم(13).

فى الوقت الذى نجد «بيلى» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى يكثر من تعيين الوكلاء الوطنيين فى مناطق متفرقة من الأقاليم العثمانية ليحصل على معلومات عن سياستهم وتحركاتهم فى المنطقة نجده على اتصال مباشر مع حكومته فى الهند يطلب منها تأكيد علاقاتها مع البحرين.

عندما وصلت القوات العثمانية إلى الدوحة ودخلت قطر تحت سيادتها تغيرت نظرة «اتشيسون» وزير خارجية الهند تجاه الدولة العثمانية، لأنه لم يكن يتوقع أنها سوف تصل إلى قطر وإنما سوف تكتفى بارجاع «نجد» لسيادتها فقط، ولهذا يقول عن السياسة العثمانية تجاه المنطقة ضمن محضر مؤرخ فى 19 يوليو 1871[14].

«إن احتلال البدع يبدو مناقضا لروح التأكيدات التى قدمها الباب العالى والباشا. إنها بلاشك المحاولة الأولى نحو تأسيس سيادة على القبائل فى الشرق ممن أدخلت مدنهم كما هو معروف فى الجريدة الرسمية العثمانية على أنها بيوتات وحدائق ونجد، والعثمانيون أشد ذكاء من أن يشهروا أى تأكيد عنيف أو مفاجئ لسيادتهم.

يبدو أن حكومة الهند البريطانية لم تكن راضية عن أسلوب وزارة الخارجية البريطانية تجاه الحكومة العثمانية التى أصبحت تسيطر وتتجه نحو مناطق تعتبرها حكومة الهند البريطانية خاضعة لنفوذها، هذا ما جعل «مايو» حاكم الهند العام يكتب رسالة إلى «أرجيل» وزير خارجية بريطانيا يقول فيها[15].

«إن نصيحتك بالترتيب ستزيد من التعقيدات التى تتجسد بوجود القوة البحرية العثمانية، والتى باتت تهدد مركزنا فى الخليج العربى الذى جاءت الحكومة البريطانية على أحسن الفروض لاحتلاله، فنحن نفهم أن وجودنا فى الخليج العربى لم يكن فى أى وقت ذا أهمية مادية، تفوق المصلحة البريطانية الحالية فى تشجيع التجارة، وحفظ السلام فى البحار الهندية، وسوف يعنى الأمر بالنسبة لنا الأسف الشديد على أن يكون حليف مخلص كالدولة العثمانية التى حافظت بريطانيا على قوتها بكثير من التضحيات هو البادئ فى اتخاذ الخطوات نحو تغيير طبيعة الأشياء».

بعث «اليوت» السفير البريطانى فى الآستانة برسالة فى 22 أغسطس 1871 إلى «جرانفيل» وزير خارجية بريطانيا يقول فيها إنه تلقى برقية من نائب الملك فى الهند تتساءل عن وجود أساس من الحقيقة عن أن الجنود العثمانيين سيرسلون إلى قطر وأن قلاع تبنى فى «القطيف» و«العقير» فقد سأل فى ذلك «فيرافندى» الذى

قال له بأنه بعد مراجعة المراسلات الواردة له لم يجد أن الحكومة العثمانية ليس لها ما يسوغ أن تفضى بالمعلومات حين تسأل عن إجراءاتها فيما تعتبره أقاليمها الخاصة، وذلك يشير إلى «نجد» و «اليمن»[16].

فوصول الحملة العثمانية إلى قطر بعد نجاحها فى «الإحساء» و «نجد» قد سبب إحراجا لمركز حكومة الهند فى الخليج العربى، ولعل تخوفها كان راجعا إلى امتداد التوسع العثمانى إلى ساحل عمان وعمان وإنه ليس من السهل منع العثمانيين من فرض سيادتهم على شئون الجزيرة العربية بعد دخولهم إلى قطر على الرغم من أن الأخيرة كانت قد وقعت اتفاقية مع بريطانيا، مما زاد القلق لدى حكومة الهند البريطانية القائمة التى وردت فى الطبعة الأخيرة من الجريدة الرسمية «الزوراء» التى تصدر فى بغداد، وهى قائمة تضم أسماء المدن الرئيسية لاقليم «نجد العثمانى» ومن جملة الأسماء التى احتوتها هذه القائمة: البحرين وثمانى مدن من بينها مشيخات ساحل عمان مثل الشارقة ودبى وأبوظبى وغيرها، الأمر الذى دفع بريطانيا إلى الاحتجاج على ذلك الإعلان، وطلب حاكم الهند العام من «هربرت» القنصل البريطانى فى بغداد إبلاغ مدحت باشا بأن معالجة مثل هذه القضايا يجب أن تتم بين الباب العالى والحكومة البريطانية، ولكن مدحت باشا لم يعر الاحتجاجات البريطانية أى اهتمام، وإنما استمر فى بسط نفوذه إلى أبعد من قطر نفسها، وبهذا نجد الحملة قد تجاوزت الخطة الرسمية التى أعلنها مدحت باشا نفسه، وهى إعادة القائمقام عبدالله بن فيصل إلى منصبه فى نجد[17].

يمكن القول بأن السياسة التى اتخذتها الدولة العثمانية تجاه الجزيرة العربية فى عهد السلطان عبدالعزيز، والتى نفذها مدحت باشا والى العراق عن طريق حملتها إلى الإحساء، كانت من أهم عوامل التصعيد فى النزاع الأنكلو ـ عثمانى فى شرق الجزيرة العربية، علما بأن الدولة العثمانية نفذت سياستها فى الأجزاء الغربية من الجزيرة العربية قبل الشرقية عندما أرسلت حملة إلى الأقاليم الشمالية من اليمن، وهى «العسير».

إشكالية القرار السياسى البريطانى فى ظل النزاع مع العثمانيين:

فى الوقت الذى كان القرار السياسى العثمانى واضحا إلى حد ما نظراً لعدم وجود جهات مختلفة فى اتخاذ القرار السياسى سواء أكانت إدارية أم سياسية، إذ كان يرجع بدرجة أكبر إلى السلطان العثمانى والباب العالى، حسب قوة كل منهما، وذكرنا كيف مرت السياسة العثمانية بمراحلها الثلاث فى عهد السلطان عبدالعزيز ثم عبدالحميد ثم جماعة الاتحاد والترقى ـ فقد كانت القرارات السياسية البريطانية تمر بعدة مراحل قبل أن تخرج إلى حيز التنفيذ وتصبح سارية المفعول.

واجه القرار السياسى البريطانى عدة إشكاليات، من أهمها وجود إدارتين متباينتين لا متعارضتين، إحداهما فى المستعمرات الشرقية، وهى حكومة الهند البريطانية، والثانية وزارة الخارجية البريطانية فى لندن.

تتضح هذه الإشكالية من خلال المراسلات ووجهات النظر لكل من الإدارتين فى المواضيع الهامة والمتعلقة بالنزاع الأنكلو ـ عثمانى فى شرق الجزيرة العربية، وسوف نورد بعض هذه النقاط فيما يلى:

أولا: الاعتداءات والأعمال البحرية فى الخليج العربى:

شجع مجيء القوات العثمانية فى شرق الجزيرة العربية بعض أفراد القبائل العربية على مقاومة النفوذ البريطانى، وذلك عن طريق الاعتداءات على مصالح بريطانيا أو مصالح رعايا الكيانات الواقعة تحت حمايتها، وقد يرجع سببها إلى تساهل الحكومة العثمانية، أو عدم منعها أو اتخاذ أية إجراءات فعالة لمنعها، أو قد تكون السلطات العثمانية تغض نظرها إن لم تكن تشجعها لتضايق الوجود البريطانى فى المنطقة بطريقة غير مباشرة، وحتى لا تدخل فى صراع أو صدام مباشر مع بريطانيا التى كانت تطلق عليهم لفظ القراصنة أو القرصنة، وهى لم تكن كذلك وإنما اعتداءات فردية ومتفرقة وقليلة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة.

استغلت بريطانيا تلك الاعتداءات لصالحها لمقاومة السيادة العثمانية واعتبرتها غير قادرة على منعها، ولذا فإنها تريد اتخاذها ذريعة لتتدخل فى السيادة العثمانية وتعمل على تقويضها، وهذا ما نلاحظه من خلال دراستنا.

هاجم بعض أفراد من قبيلة «بنى هاجر» سفينة من رأس الخيمة فى صيف عام 1878 ثم هاجموا سفينة فارسية فى جزيرة «الشيخ شعيب» علما بأن أفراد هذه القبائل من بنى هاجر لم يكونوا يعملون فى البحر أو لديهم خبرة قتالية فى البحر قبل مجيء العثمانيين، مما يعنى أن مجيئهم إلى شرق الجزيرة العربية قد دفعهم للعمل فى هذا الاتجاه فى الوقت الذى اعتبرتهم بريطانيا من أسباب تعكير الأمن فى مياه الخليج العربى ودورها فى حمايتها كشرطى المنطقة تحت شعار زائف لكى تحفظ نفوذها ومصالحها.

أبحر طراد بريطانى فى شهر سبتمبر 1878 من قاعدته فى بوشهر بعد سماع قائده تلك الأخبار لإجراء التحقيق، وقال القائد البريطانى بأن أعمال الاعتداءات البحرية فى تزايد انطلاقا من «الظهران» بقرب «القطيف»، وأوضح ذلك لحكومته فى الهند، وحمل الدولة العثمانية المسئولية، وقال: لا توجد أسباب تدعو إلى اتهام الولاة أو السلطات المحلية بالتواطؤ مع المعتدين، إلا أنهم لم يتخذوا الإجراءات المناسبة لمنعها وسمحوا لهم بالاعتداء، وكان «روس» المقيم السياسى البريطانى لا يتوقع أن يقوم العثمانيون بأية إجراءات لوقف تلك الأعمال، إلا أنه يرى وجوب إبلاغ الحكومة العثمانية عنها، وتم ذلك عن طريق القنصل البريطانى فى بغداد، وكان «روس» متأكدا من أن العثمانيين لن يردوا على أى خطاب بهذا الشأن فقرر أن يتصرف قبل وصول التعليمات من حكومته فى «سملا»، ووصلت رسائل من حكومة الهند إلى «روس» يكلفه بتقديم الأدلة والبيانات على اشتراك أفراد القبائل فى الاعتداءات البحرية إلى والى «البصرة» ويطلب فرض العقوبات على المعتدين، أما إذا رفض الوالى طلبه فيتعين عليه أن يفكر فى إجراء يتخذه ويعرضه على حكومة الهند لأخذ رأيها وموقفها[18].

غادر «روس» إلى البصرة فى 22/10/1989 واجتمع مع الوالى العثمانى مرتين إلا أن الاجتماعين لم يسفر عن أية نتائج إيجابية، وقال الوالى إنه لابد أولا من التأكد من صحة المعلومات التى أدلى بها قائد الطراد قبل اتخاذ قرار فى الموضوع، وقال بأنه لم تكن ثمة حاجة إلى تدخل الأسطول البريطانى إلى المياه الإقليمية فى الإحساء أو أية منطقة أخرى من المناطق التابعة للعثمانيين، وقد علق على ذلك أحد المسئولين البريطانيين بقوله[19].

«وكان من الواضح أن عبدالله باشا آل سعود قائمقام العثمانى فى نجد وهو من المتطرفين الدينيين يكن كراهية شديدة للبريطانيين وكان يتشكك فى نوايا البريطانيين من الإجراءات التى يتخذونها فى مجال مكافحة الاعتداءات والأعمال البحرية داخل مياه الإحساء، وعلى أية حال فقد كان لعبد الله باشا آل سعود تصوراته الخاصة بالنسبة للمشكلة، فى حين كتب «روس» بعد مغادرته البصرة يقول: فعلى حين تبذل الحكومة البريطانية مساعيها لمكافحة الاعتداءات والأعمال البحرية ومعاقبة أصحابها فإن الوالى العثمانى على ما يبدو يحاول استغلال إجراءات الحكومة البريطانية لفرض الحكم العثمانى على «زبارة» وغيرها من المناطق الساحلية فى قطر».

يتضح من ذلك كيف يبرر المسؤولون البريطانيون انتهاكاتهم فى المياه الإقليمية العثمانية بمكافحة الاعتداءات، وهذا من اختصاص الدولة العثمانية، وليس بريطانيا، وهى حرة فى اتخاذ ما تشاء من الإجراءات، وعندما حاول الوالى العثمانى منعهم من الانتهاك لحرمة المياه الإقليمية، اعتبروه متطرفا دينيا ومعاديا لبريطانيا، أى أن كل من لا يطيعهم ويعمل لصالح بلاده يعتبر متطرفا دينيا، وبذلك يبررون تدخلهم فى الشئون الداخلية للغير تحت شعارات مختلفة.

نجد اختلافا بوجهات النظر بين الإدارتين لحكومة الهند البريطانية والخارجية البريطانية حول قضية الاعتداءات والأعمال البحرية، وكيفية اتخاذ القرار السياسى، فعندما اقترح «روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى القيام بمسح شامل للمناطق التى يعتقد أن بعض أفرادها يقومون بالاعتداءات البحرية منها أو يأوون إليها من الإحساء وقطر، وطلب تخصيص سفينة «نيكسون» القنصل البريطانى فى البصرة، وقال إن مقترحات «روس» فى الإحساء وقطر مبالغ فيها، لأنها تعد تدخلا فى السيادة العثمانية، وبعث برسالة إلى «لايارد» السفير البريطانى فى «الأستانة» فى مارس 1879 ومما جاء فيها أن «روس» عندما اقترح على المسئولين فى حكومة الهند الموافقة على أن يتولى الأسطول البريطانى مطاردة الأفراد الذين يقومون بالاعتداءات البحرية فى مياه الإحساء، لم يكن يضع مسألة السيادة العثمانية فى

اعتباره، ثم قال بأننى قد سبق أن أدليت بوجهة نظرى فى هذا الشأن، ولكن استنتج من اجراءات المسئولين البريطانيين فى «بوشهر»، أن هذه الحقيقة قد غابت عن تفكيرهم، وهذا ما جعل «ليتون» نائب الحاكم فى الهند يستاء كثيرا من رسالة «نيكسون» القنصل البريطانى فى البصرة إلى سفيره «لايارد» فى «الآستانة» فكتب بشدة ينتقده بقوله[20].

«أعتقد أن «نيكسون» لا يعرف شيئا عن شؤون المنطقة التى يتحدث عنها، وأن الآراء التى عبر عنها فى رسالته إلى سفير صاحبة الجلالة فى «الآستانة» مشكوك فى صحتها، وأن المشكلة التى تعترضنا فيما يختص بالاعتداءات والأعمال البحرية وغيرها من الاعتداءات أنها تقع داخل المياه الإقليمية للعثمانيين أو قريبة منها».

نلاحظ مدى الاختلاف فى وجهات النظر بين الإدارتين، حكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية، فقد انتقد «ليتون» نائب الملك فى الهند ملاحظات «نيكسون» القنصل البريطانى فى «البصرة» لمحاولته منع تدخل الأسطول البريطانى فى المياه الإقليمية الخاضعة للسيادة العثمانية فى الإحساء وقطر.

يعتبر هذا خير اعتراف من الخارجية البريطانية والمتمثلة فى موظفيها مثل القنصل البريطانى فى «البصرة» و «بغداد» أو سفيرها فى «الآستانة»، فى الوقت الذى ينكر «ليتون» نائب الملك فى الهند وإدارته السيادة العثمانية على تلك المناطق، مما خلق معه إشكالية فى اتخاذ القرار السياسى البريطانى، حيث إن الجهة التنفيذية فى اتخاذ القرار هى الخارجية البريطانية، ولكن حكومة الهند البريطانية تلعب دورا أساسيا برغم أنه استشارى، ولكنه أكثر ارتباطا واختصاصا لمنطقة الخليج العربى، إضافة إلى أنه فى مجال اختصاصها، ومن هنا تأتى هذه الإشكالية، فلابد من اقتناع حكومة الهند بقرارات الخارجية البريطانية، والتى تنتمى إليها من الناحية الإدارية.

مما زاد فى هذه الإشكالية طلب «نيكسون» من السفير البريطانى فى الآستانة إصدار التعليمات إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بإحالة أى خلاف مع السلطات العثمانية فى الإحساء بشأن الاعتداءات البحرية فى مياه سواحل شرق

الجزيرة العربية إليه، واعتبار العثمانيين مسئولين مسئولية كاملة عما يقع من اضطرابات أو إخلال بالأمن في الجزيرة العربية، وأن يتحاشى المقيم السياسى البريطانى اتخاذ إجراء منفرد.

بذلك يعارض «نيكسون» مبدأ التدخل فى شئون القبائل فى الجزيرة العربية مهما كان نوع التدخل أو أسبابه، ما لم يتم بالتعاون مع السلطات العثمانية هناك، والذين هم مستعدون للتعاون مع بريطانيا إذا طلب منهم ذلك.

ووافق السفير البريطانى فى «الأستانة» على آراء «نيكسون» واقترح على «سالسبورى» وزير خارجيته الجديد والذى اعتبر بدوره بأن السلطات العثمانية مسئولة عن الاعتداءات البحرية التى يقترفها بعض أفراد القبائل ضد رعايا الحكومة البريطانية انطلاقا من الأراضى الخاضعة للسيادة العثمانية، ويبعث وزير خارجية بريطانيا مقترحات سفيره إلى مكتب شئون الهند فى لندن، والذى أرسله إلى حكومة الهند البريطانية وبالتالى إلى «أى. س. لايال» الذى حل محل «اتشيسون» فى وزارة الهند الخارجية والذى أهملها[21].

ثانيا: تحديد السيادة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية:

تحديد السيادة العثمانية كان من أهم إشكاليات القرار السياسى البريطانى لحل النزاع الأنكلو ـ عثمانى، وإذا ما تم التوصل نحو تحديد السيادة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية واعتراضها من قبل البريطانيين والتوصل نحو الاتفاقية بين الجانبين البريطانى والعثمانى، أمكن إنهاء النزاع بين البلدين وينتهى العديد من الإشكاليات التى ظهرت لدى البريطانيين نتيجة لعدم اعترافهم بالسيادة العثمانية أو تحديدها، ومنها على سبيل المثال:

(أ) القلق البريطانى من الوجود العثمانى على مصالح بريطانيا فى المنطقة.

(ب) التخوف من الاجتياح العثمانى تجاه ساحل عمان وعمان والبحرين، ولذا نجد إشكالية فى القرار السياسى البريطانى حول تحديد السيادة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية، والراجع إلى أن بريطانيا كانت تسعى إلى تحجيم السيادة العثمانية وتحييد قطر عنها لتكون فاصلا بينهما وأن لا تتعدى الحدود العثمانية جنوب «العقير»، وهذا ما سوف ندرسه.

(جـ) نظراً للاعتداءات والأعمال البحرية انطلاقا من المياه الإقليمية العثمانية كان يجب تحديد هذه السيادة وإلزام الدولة العثمانية بحفظ النظام فى مياهها الإقليمية، وإذا لم تستطع ذلك فيطلب من الدولة العثمانية تفويض بريطانيا بهذه المسئولية، وهذا ما كانت تسعى إليه حكومة الهند البريطانية بجعل الدولة العثمانية فى الخليج العربى مثلها مثل ساحل عمان وعمان والبحرين الواقعة تحت حمايتها.

بذلك تتدخل حكومة الهند فى الشئون الداخلية عن طريق سيادة المياه الإقليمية العثمانية فى شرق الجزيرة العربية، وهذا ما دفع الباب العالى إلى رفضها أو تجاهلها أحيانًا، بل عمل على تحريض بعض أفراد القبائل على الاعتداءات والأعمال البحرية أحيانًا، لكى يكون الوضع عائما وغير مستقر حتى مجىء جماعة الاتحاد والترقى الذين تنازلوا وعقدوا اتفاقية 1913 لتحديد السيادة والاعتراف فيما بينهما.

من هنا جاءت الإشكالية فى وجهات النظر بين المسئولين البريطانيين فى اتخاذ القرار السياسى حول السيادة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية بين الإدارتين؛ حكومة الهند البريطانية، ووزارة الخارجية البريطانية، برغم أن العثمانيين كانوا قد حددوا السياسة وسيادتهم فى شرق الجزيرة العربية من جانب واحد، إلا أن حكومة الهند البريطانية كانت ترفض تلك الحدود والسيادة، محاولة تحجيم العثمانيين بقدر الإمكان.

صرح مدحت باشا فى أبريل عام 1871 أى قبل الحملة بأن السيادة العثمانية أصبحت ممتدة على «نجد» وفى الوقت نفسه اعتبر البحرين تابعة «لنجد»، وبالتالى للسلطة العثمانية، وهنا شعرت بريطانيا بقلق شديد لأن أقصى ما كانت تخشاه هو امتداد الحملة العثمانية إلى البحرين. واتضح لها أيضا أنه فى حالة اجتياح الحملة فإنها ستسير لضم كل من قطر وساحل عمان وعمان.

لم تعترض حكومة الهند البريطانية على الحملة العثمانية، وإنما استاءت من تصرفات وزارة الخارجية البريطانية لعدم منعها لأنها هى جهة الاختصاص من الناحية التنفيذية، وليس حكومة الهند، ولهذا وافقت على مضض ولكنها حددت

السيادة العثمانية من جانبها واعتبرتها تمتد من شط العرب إلى نقطة قريبة من الدمام، ولكنها عترضت بقوة على ما صرح به مدحت باشا وتفسيره للسيادة العثمانية إلى قطر والبحرين وساحل عمان وعمان[22].

رفع العلم العثمانى على قصر الحاكم فى الدوحة، واعتبرت حكومة الهند هذا العمل نذيرا بتصعيد النزاع الأنكلو ـ عثمانى ليس فقط فى البر، وإنما فى مياه الخليج العربى، لأن بريطانيا تيقنت من إصرار مدحت باشا على ترسيخ السيادة العثمانية فى المنطقة.

أكد الباب العالى بأن عمان والبحرين وساحل عمان من رأس الخيمة إلى أبوظبى تعد ضمن السيادة العثمانية لأن رعاياها كانوا يدفعون ضرائب سنوية لقائمقام نجد العثمانى الأمير فيصل بن تركى «والذى كان بدوره يدفع «الشريف الحجاز» الذى كان تابعا رسميا للدولة العثمانية وبعد وفاته اعتبر ابنه «عبدالله بن فيصل» ووريثه فى الحكم تابعا للدولة العثمانية بالوراثة كقائمقام «نجد» الذى كان يتبع مباشراً إلى والى بغداد فى العراق[23].

هذا يعنى أن حكام ساحل عمان وعمان والبحرين وقطر كانوا يعترفون بالسيادة العثمانية، وتجسيدا لفرض السيادة العثمانية على تلك المناطق التى ذكرها الباب العالى، عززت القوات العثمانية أسطولها الحربى هناك، وأكد ذلك «عارف بك» قائد الأسطول العثمانى فى الخليج العربى بمجىء عشر سفن أخرى للمنطقة، مما أثار قلق «مايو» حاكم الهند العام، الذى أعلن أن مثل ذلك الوجود للأسطول العثمانى يشكل خطرا بل تحديا للنفوذ البريطانى فى مياه الخليج العربى[24].

شغلت مسألة السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية اهتمام حكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية من عام 1871 حتى عام 1913، وأصبحت من أهم الإشكاليات التى حالت دون اتخاذ قرار سياسى بريطانى محدد، خاصة أن الخارجية البريطانية وموظفيها مثل «لايارد» السفير البريطانى فى الآستانة وقنصله فى كل من بغداد والبصرة، كانوا يعترفون ضمنيا من خلال رسائلهم بالسيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية دون تحديدها أو امتدادها، فى الوقت الذى كان موظفو حكومة الهند البريطانية ينكرون ذلك ويعتبرون السيادة العثمانية تمتد إلى

«العقير» تقريبا.

حول اختلاف وجهات النظر وكيفية معالجة هذه الإشكالية فى اتخاذ القرار السياسى البريطانى سوف نعرض بعض الآراء والمقترحات للمسئولين البريطانيين فيما يلى(25).

أولا: «بريدو» القائم بأعمال المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى:

يلخص الكابتن «بريدو Prideaux» الذى كان يقوم بمهمة المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى عام 1876 أثناء غياب «روس» مقترحاته بما يلى:

«وحيث إن مصالحنا متأثرة بشكل كبير بما يجرى فى المنطقة آخذين بعين الاعتبار نوعية الأحوال الراهنة ومدى ارتباطها بالحكومة العثمانية والبريطانية سيكون من غير الحكمة أن نطلب من الباب العالى تحديد المناطق التى يرغب فى مد النفوذ إليها وأقترح أن تطبق السياسة الناجحة نفسها التى تبعناها فى اليمن، بمعنى أن الحكومة البريطانية تعرف بمطالب العثمانيين المتعلقة بالسيادة على بعض الأقاليم الواقعة على الساحل العربى .. ولحسن الحظ فإن المناطق التى يطالب بها العثمانيون ليست واسعة، وهذا يجعل من السهل علينا تعيينها بحدود جغرافية، الأمر الذى لم يكن ممكنا فى اليمن ..

لذا أقترح محاولة اقناع الحكومة العثمانية بالتنازل وديا عن المنطقة الواقعة إلى الجنوب من «العقير»، وخليج البحرين، وعندئذ ستجرى الأمور بشكل موات لمصالحنا وامتيازاتنا». وبرغم أن هذا الاقتراح لم يتخذ فيه قرار سياسى، أقرته الإدارة البريطانية بعد مرور ثلاثين عاما تقريبا بطريقة أخرى، وذلك فيما جاء بالاتفاقية الأنكلو ـ عثمانية لعام 1913 والخط الأزرق.

ثانيا: اللورد ليتون Lytton نائب الملك فى الهند:

اقترح اللورد ليتون الذى خلف نور ثبروك Northbrook فى منصبه كنائب الملك فى الهند اتباع سياسة أكثر إيجابية مع العثمانيين، فكان يرى أن النزاع فى الجزيرة العربية عام 1876 لم يصل إلى الدرجة التى تقتضى قيام مفاوضات طويلة ومعقدة لبحث إشكالية تحديد السيادة العثمانية.

ثالثا: «نيكسون Nixon» القنصل البريطاني في البصرة:

يعتبر «نيكسون» القنصل البريطاني في البصرة من أكثر المعارضين للتدخل البريطاني في الشئون الداخلية العثمانية في شرق الجزيرة العربية أو حتى انتهاك حرمة المياه الإقليمية العثمانية، ولهذا فإنه قال: يجب أن تكون مطالبنا بالطرق السلمية والودية عن طريق الباب العالي الذي قال عنه بأنه يستطيع أن يتصرف بطريقة سليمة وأنه يستجيب لمطالبنا عندما نطلب منه ذلك.

علق «ليتون Lytton» نائب الملك في الهند على اقتراح «نيكسون» بقوله:

«إما أن نقبل بمسئولية الحكومة العثمانية عن الفوضى على طول الساحل العربي بكامله، وأن نوجه في الوقت نفسه إلى السلطات البريطانية المحلية تعليمات تمتنع بموجبها عن التدخل، وفي هذه الحالة نناقض سياستنا في المنطقة، وهذا مما لاريب فيه سيضعف النفوذ البريطاني والمصالح البريطانية في الخليج العربي .. وأضاف يقول:

«إن الاقتراح الفعلي الذي يتعين علينا أن نأخذ به قد عبر عنه «هنري لايارد Henry Layard» السفير البريطاني في الآستانة عندما قال: «إنه يتعين علينا قدر المستطاع أن نتجنب التدخل المباشر في نزاعات القبائل العربية على البر، محملين في الوقت ذاته الحكومة العثمانية كامل المسئولية تجاه أي تصرفات ترتكب ضد أرواح الرعايا البريطانيين وممتلكاتهم ضمن الأراضي التي تقع تحت سلطات الباب العالي».

هذا يعني موافقة السفير البريطاني في الآستانة على مقترحات «نيكسون» قنصله في البصرة، وقد طلب من «سالسبري» وزير خارجية بريطانيا تبني تلك المقترحات.

رابعا: «إن. سي. لايال Lyall» وزير خارجية الهند:

لم يوافق «أن. سي . لايال» وزير خارجية الهند على تلك المقترحات لأنه كان يعتبر أن حدود السيادة التي تمتد لشرق الجزيرة العربية قابل للتغير، وحدد الساحل العربي وساحل الإحساء من جانب واحد، أي الجانب البريطاني، فقال بأن الساحل العربي وإقليم الإحساء تعتبران مختلفين جغرافيا، فالأول يمتد من فم

شط العرب إلى «رأس الحد»، أما الثانى فيمتد من «الكويت» إلى «العقير».

وصفت حكومة الهند البريطانية تلك الاقتراحات بأنها غير كافية، فقد كان «نيكسون» يرى بعض الفائدة فى تحميل السلطات العثمانية مسئولية الاعتداءات والأعمال البحرية وعدم التدخل فى المياه الإقليمية العثمانية، ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما نصح بعدم التدخل البريطانى فى شئون ساحل عمان وعمان.

أى أن «نيكسون» نسف جهود حكومة الهند البريطانية وسياستها الاستعمارية فى شرق الجزيرة العربية بفرض نفوذها فى المنطقة عندما كرر للمرة الثانية ما قال فى شهر مارس عام 1876 بأنه يجب على حكام ساحل عمان أن يدفعوا ضريبة إلى الحكومة البريطانية مقابل حمايتها لهم، فى حين اختلف رد «روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى، الذى طلب من العثمانيين تحديد سيادتهم، ويمكنهم معها منع الاعتداءات والأعمال البحرية على أن تقوم بريطانيا بتحديد مصالحها وامتدادها والتى يجب على العثمانيين المحافظة عليها.

خامسا: مقترحات «ليتون» نائب الملك فى الهند:

طالب «ليتون» نائب الملك فى الهند بقيام تفاهم مع العثمانيين موضحا مدى فائدته فى رده على وزير الدولة لشئون الهند، وأن تعترف بريطانيا بهذه السيادة العثمانية، أما خارج الدوحة فلا يقر لهم بالسيادة، ويؤيد ما قاله «روس» بأن تدخل السيادة العثمانية وامتداد نفوذها داخل ساحل عمان وعمان سيكون نقيضا لحماية حقوق البريطانيين والتزاماتهم مما يفسد نظاما أثبت جدواه ومنفعته لكل مصالح الشعوب فى الخليج العربى، وأيد «ليتون» ما قاله «نيكسون» بأن يدفع حكام ساحل عمان ضريبة مقابل حمايتهم.

فنستغرب ما جاء فى أقوال «ليتون» نائب الملك فى الهند، فمنذ متى كان للاستعمار المسيحى البريطانى حقوق فى الأراضى العربية؟ وماذا يعنى بقوله: «نظاما أثبت جدواه ومنفعته لكل مصالح الشعوب فى الخليج العربى»؟!

فلا يوجد أحد يقبل الاستعمار أو الحماية والاحتلال مهما كان نوعها أو تعددت أساليبها، فالشعوب دائما تحب الحرية وهى أغلى ما فى الوجود، فليس

هناك أية مصلحة لشعوب المنطقة فى بقاء الاستعمار.

ثم ما منطق الاستعمار المسيحى الجديد كما يقول «نيكسون» القنصل البريطانى فى البصرة والذى يطلب من حكام ساحل عمان دفع ضريبة للاستعمار المسيحى البريطانى مقابل الحماية، أى حتى الاستعمار والاستعباد لحرية الشعوب يكون بثمن، وفعلا تعد هذه إشكالية جديدة فى مفهوم الاستعمار أو الاستعمار الجديد أو فى فهمنا للاستعمار.

سادسا: الكولونيل «بيرن» السكرتير الأول فى الدائرة السياسية فى حكومة الهند:

طرح «سالسبرى» وزير خارجية بريطانيا برأى آخر بعد دراسته لمقترحات «ليتون» نائب الملك فى الهند، وقال إنه برغم اقتناعه بموافقة العثمانيين على تحديد سيادتهم على الساحل العربى، إلا أن ذلك يجب الا يمتد بأى حال من الأحوال أكثر من المنطقة المجاورة «للبدع» وأضاف قائلا[26]:

«يجب على الباب العالى أن يمتنع عن المطالبة بحق السيطرة على البحرين وساحل عمان وعمان، وكان «سالسبرى» يرى بأن العثمانيين سوف يسمحون لسفن الأسطول البريطانى بملاحقة أفراد القبائل الذين يقومون بالاعتداءات والأعمال البحرية فى المياه الإقليمية والأراضى العثمانية التى تقع على مرمى من مدفعية سفن الأسطول البريطانى، وذلك إلى أن يكونوا قادرين على حماية الرعايا والمصالح البريطانية فى المناطق الخاضعة لسيادتهم.

سابعا: «مور» من الدائرة السياسية فى الحكومة الهندية:

اعترض «مور» الذى كان يعمل مساعدا لسكرتير الدائرة السياسية فى حكومة الهند البريطانية على الأسلوب الذى أوصى به «ليتون»، وقال إنه اعتمد على التوصل إلى تفاهم رسمى مع العثمانيين، ولكن التجارب الماضية أثبتت أنه من الصعب تحقيق ذلك، ولذا فإن «مور» اقترح إبلاغ العثمانيين أن بريطانيا تريد الحفاظ على الأمن فى مياه الخليج العربى سواء تعاونت معها الدولة العثمانية أم لا، وأن سيادتهم على الساحل الواقع إلى الشمال والغرب من «خور العديد» ليست موضع شك طالما كانت فعالة.

محاولة تحديد السيادة العثمانية من الجانب البريطاني:

ذكر «أى . سى . لايال» وزير خارجية الهند أن الساحل الغربى للخليج العربى وساحل الإحساء من الموضوعات التى رسم حدودها، فالأول يمتد بمعناه الواسع من «البصرة» إلى «رأس الحد». والثانى من الكويت إلى «الدمام»، ثم تساءل عن المناطق التى تدعى الحكومة العثمانية السيادة عليها؟

لهذا الغرض بعث «لايال» رسالة إلى كل من «نيكسون» و «روس» يطلب آراءهما حول حدود السيادة العثمانية على الساحل الغربى للخليج العربى، والإجراءات التى ينبغى اتخاذها لمنع الاعتداءات البحرية على المياه الإقليمية العثمانية، وما مدى تأثير المصالح البريطانية فى الخليج العربى فى حالة الاعتراف للعثمانيين بحقوقهم والتزاماتهم على الساحل العربى، وماذا لو نتج عن ذلك الاعتراف تزايد قوة الأسطول العثمانى فى المنطقة؟

رد عليه «نيكسون» باقتراحه السابق، باخضاع كل من ساحل عمان وعمان لتبعية بريطانيا حتى تضمن الأسس القانونية لمقاومة التوسع العثمانى تجاه ساحل عمان وعمان، وكان «روس» يعتقد بأن «نيكسون» ضم «قطر» إلى إقليم «الإحساء»، وقال: لا يمكن اعتبار قطر ضمن إقليم «الإحساء» لا من الناحية الجغرافية ولا السياسية، ولا يمكن الاعتراف بالسيادة العثمانية عليها، وقال: لابد من رسم خط فاصل بين الإحساء وقطر، وانحصار الوجود العثمانى على الدوحة فقط والمناطق القريبة منها، على الرغم من أن العثمانيين يحاولون تمويه هذه الحقيقة، ثم استطرد «روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بقوله:

«قد تتصور الحكومة العثمانية، وربما كان لتصويرها هذا بعض الأسباب، أن وجودها الفعلى على الجزء الساحلى من قطر يعطيها الحق فى فرض سلطتها على امتداد المنطقة الواقعة بين قطر والدوحة، غير أن مثل هذه الادعاءات قد تمس من ناحية أخرى الحقوق والالتزامات البريطانية على الساحل المذكور، غير أن الحكومة البريطانية لا تزعم بوجود اتفاقيات تسمح لها بالاعتراض على ممارسة الباب العالى سلطاتها الإقليمية على المنطقة ولا توجد أمام بريطانيا أسس أخرى تبنى عليها اعتراضها. لقد كنا نحن الذين مهدنا الطريق لإقامة النفوذ العثمانى بعد أن أخذنا

نتخلى تدريجيا عن ممارسة الإشراف والسلطة المباشرة على ذلك الجزء من ساحل شبه الجزيرة العربية، وكان هذا سببا فى الظروف التى تمر بها المنطقة الآن كما لم تظهر إلى الوجود سيطرة لدولة أخرى فى المنطقة تحل محل البريطانيين، ومن الواضح أن هذه الأوضاع غير مستساغة ولا يمكن السماح لها بأن تستمر دون أن تتسبب فى عواقب وخيمة، وأصبح وجود نوع من المسئولية من الأمور الواجبة والضرورية. ثم يتابع «روس» قوله:

«بأن ثمة حدودا للحقوق والمسئوليات البريطانية لا يجوز للحكومة البريطانية ان تتعداها فيما يتعلق بالتوسع العثمانى أو السلطة العثمانية فى المنطقة، وهذه الحدود كما يبدو لى تمتد من «البدع» التى هى أقصى نقطة على الساحل يمكن أن تصل إليها الإجراءات البريطانية، كما اعتقد أن «الوكرة» وهى منطقة متاخمة للبدعة (البدع) تعتبر منطقة داخلة فى البدعة (البدع) وبالتالى يشملها النفوذ العثمانى المعترف به، أما الحدود الجنوبية لهذه المنطقة فإنها تقع على درجة 25 شمالا من خط الطول ثم إلى الجنوب من تلك المنطقة تشكل «العديد» أو لمنطقة آهلة بالسكان».

تأكد للإدارة البريطانية بالتحقيق أن «العديد» تدخل ضمن سيادة أبوظبى وبالتالى فهى ليست جزءا من «قطر» كما أن العثمانيين لم يحاولوا من جانبهم تأكيد سيادتهم عليها. وقد لخص «روس» المقيم السياسى البريطانى حدود السيادة العثمانية الفعلية على شرق الجزيرة العربية كما يلى:

«تشكل المنطقة الممتدة من «البصرة» إلى «العديد» المنطقة الساحلية المعترف بالسلطة السياسية والإدارية للدولة العثمانية عليها، وفى «القطيف» و «العقير» توجد للعثمانيين حاميات وجهاز إدارى، أما فى «البدع» على الساحل الشرقى من «قطر»، فإن السلطة العثمانية سلطة قوية وإن لم تكن منتظمة، أما المنطقة الواقعة فيما بين «العقير» و «البدع» فلم يحاول العثمانيون فرض سيادتهم أو ممارستها عليها».

إذا افترضنا أن ذلك الوضع لم يكن مستمرا فإن الخطوة السليمة أمام

الحكومة البريطانية هى فتح حوار مع الباب العالى يهدف إلى رسم حدود السيادة ومناطق النفوذ لكل دولة وتحديد مسئولياتها فى شرق الجزيرة العربية، وإن المطالب العثمانية الغامضة فيما يتعلق بسيادتها فى الجزيرة العربية قد يمنعها من الموافقة على حدود واضحة ورغم ذلك يرى «روس» أنه لابد من المحاولة واقترح على حكومته توجيه الدعوة إلى الحكومة العثمانية لكى تحدد بدقة المنطقة الساحلية التى هى على استعداد للاضطلاع بمسئولية السيادة عليها، وبالمقابل تقوم بريطانيا بدورها بتحديد طبيعة وحجم المصالح فى الساحل الغربى والمناطق الأخرى التى تتولى مسئولياتها منها ساحل عمان بما فى ذلك «خور العديد» و «البحرين»[27].

يتضح من خلال الإجابة التى طلبها وزير خارجية الهند لكل من «نيكسون» القنصل البريطانى فى «البصرة» و «روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى حول السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية، اختلاف فى وجهات نظرهما برغم أنهما يمثلان بريطانيا، إلا أن اختلاف إدارتهما وعملهما أدى إلى تفسير مختلف، فالأول يرى من وجهة النظر القانونية وخاصة الدولية والعلاقات الخارجية عدم التدخل فى الشئون الداخلية وخاصة المياه الإقليمية لاعتبارها تحت السيادة العثمانية، فى حين ينظر الثانى والتابع لإدارة المستعمرات البريطانية فى الهند نظرة مستعمرة أكثر من نظرة علاقة بين بريطانيا والدولة العثمانية، كما أنه ينظر من جانب المصالح المرتبطة بالمستعمرات فى الهند أكثر، وتمسك بالنفوذ البريطانى، وإبعاد أو على الأقل تحجيم السيادة والنفوذ العثمانى وإنكار حق العثمانيين فى ممارسة تلك السيادة أو التردد فى الاعتراف بحدودها وتقليصها. وفيما يلى بعض الملاحظات على الرسالتين:

أولا: نجد فى رد «نيكسون» مدى قانونية بريطانيا فى الدفاع عن ساحل عمان وعمان إذا ما أرادت الدولة العثمانية التوسع أو الاجتياح، فى الوقت الذى لم تكن تربط بريطانيا معها اتفاقيات الحماية وإنما اتفاقيات السلام العامة لعام 1820، واتفاقيات الهدنة البحرية لعام 1853 والاتفاقيات الإضافية لعام 1856 ولعام 1864.

لهذا أسرعت الإدارة البريطانية فى حكومة الهند فيما بعد وفرضت اتفاقيات

الحماية أو اتفاقيات «المانعة» على ساحل عمان والبحرين 1892 ثم الكويت عام 1899 وابن سعود عام 1915 وقطر عام 1916، وبذلك حصلت على الصك الشرعى أو المستند القانونى بتفويض من حكام ساحل عمان والبحرين بالحماية البريطانية، ومن خلالها تستطيع مواجهة أى توسع عثمانى تجاهها بموجب اتفاقيات الحماية، وبذلك يمكنها مواجهة الدولة العثمانية بطريقة قانونية فى الدفاع عن ساحل عمان والبحرين.

ثانيا: كيف يحاول البريطانيون ومنهم «روس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى تفسير الوجود العثمانى فى «قطر»، عندما قال «انحصر الوجود العثمانى فى الدوحة فقط»، وبالتالى لا يعترف بالسيادة العثمانية على قطر وإنما فقط فى «الدوحة». علما بأن الدوحة هى عاصمة «قطر»، ومن الطبيعى أن تتواجد القوات العثمانية فى العاصمة ومنها ينتشرون حسب خطورة وأهمية الوضع فى بقية أنحاء قطر.

نستغرب لماذا يتجاهل البريطانيون وجود حاميات عثمانية أو مراكز عسكرية لهم فى مناطق متفرقة من قطر مثل «الوكرة» و «الزبارة»، وبذلك يفسرون الوجود العثمانى حسب وجهة نظرهم، ويفصلون قطر عن إقليم الإحساء من الناحية الجغرافية والسياسية، فى الوقت الذى تعتبر فيه قطر امتدادا طبيعيا لشبه الجزيرة العربية ليس فقط جغرافيا وسياسيا، وإنما اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا.

ثالثا: لا نعرف ماذا يقصد «روس» بعبارة «المنطقة الواقعة بين قطر والدوحة» علما بأن الدوحة هى عاصمة قطر، أما قوله «تمس من ناحية أخرى الحقوق والالتزامات البريطانية «فهو يعنى اتفاقية 1868 التى فرضتها بريطانيا على الشيخ «محمد بن ثانى» الذى لم يكن حاكما بعد على قطر وإنما مسئولا عن أخذ الزكاة من سكانها ودفعها لحاكم البحرين الذى وضعته ممثلا عنها فى «الدوحة».

لهذا استدرك فقال «غير أن الحكومة البريطانية لا تزعم بوجود اتفاقيات تسمح لها بالاعتراض على ممارسة العثمانيين سلطاتهم الإقليمية على المنطقة». «وخاصة أن الوجود العثمانى فى قطر» جاء بطلب من «محمد بن ثانى» نفسه الذى

وقع تلك الاتفاقية مع بريطانيا. ولهذا كان طلبه الدخول تحت الحكم العثمانى يلغى أية اتفاقيات سابقة، وبذلك يضفى الشرعية على السيادة العثمانية على قطر.

رابعا: عندما يقول «روس» لقد كنا نحن الذين مهدنا الطريق لإقامة النفوذ العثمانى لاندرى ماذا يقصد، هل يقصد انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية عام 1840، وحماية الدولة العثمانية من السقوط فى عهد محمد على؟ أم يقصد عدم اعتراض أو منع بريطانيا للحملة العثمانية إلى شرق الجزيرة العربية؟ فلا نعتقد أنها كانت فى وضع يسمح لها بالتدخل فى شئون الدولة العثمانية فى تلك الفترة فى شرق الجزيرة العربية خاصة بوجود رجل قوى معادى للنفوذ البريطانى مثل مدحت باشا، لتمنع الحملة العثمانية إلى شرق الجزيرة العربية.

يدل هذا ليس فقط على قصور فى السياسة البريطانية برغم اعترافها بأخطائها بقدر ما يدل على تجاهلها لعدم وجود مصالح جديرة بالمحافظة لكى تخضع قطر وتجعلها تحت نفوذها، لأن وجودها قد يكلفها أكثر من مصالحها، وخاصة الحماية من الدخل أكثر من الخارج، نظرا لارتباط القبائل القطرية بعمق الجزيرة العربية، وهذا ما كانت تخشاه بريطانيا من تورطها فى الداخل.

لهذا امتنعت بريطانيا عن تقديم أية وعود أو التزامات للقطريين أو لزعيمهم محمد بن ثانى، وبعد مجىء العثمانيين يقول «روس» إنهم هم الذين كانوا سببا فى ذلك، ولهذا لا نعتبر ذلك تقصيرا من جانب بريطانيا وإنما خطأ فى سياستها تجاه قطر، وليس دائما تحقق السياسة المسيحية الاستعمارية أهدافها.

خامسا: ونجد اقتراح «روس» محاولة التفاهم مع العثمانيين هو من أهم الخطوات فى إنهاء النزاع الأنكلو ـ عثمانى التى تم اقتراحها من قبل المسئولين البريطانيين، والتى ساعدت فيما بعد على التوصل إلى اتفاقية 1913، ولذلك قسمت ليس شرق الجزيرة العربية، وإنما الجزيرة العربية كلها ككل بين النفوذ المسيحى البريطانى والعثمانى.

القرار السياسى بين حكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية:

بدأت حكومة الهند البريطانية ووزارة الخارجية البريطانية مشاوراتهما لاتخاذ

قرار سياسى بشأن إشكالية السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية والتفاهم مع الباب العالى حول ذلك، ولكن تصرفات «جرانبروك» النائب الجديد للملك فى الهند، الذى حل محل «ليوتون» لم تكن إيجابية فى هذا الاتجاه، إلا أنه أقر توصيات «مور» المتشددة دون مراعاة السيادة العثمانية على ساحل شرق الجزيرة العربية، ومداهمة موانئها لملاحقة المعتدين على مصالحها باعتبارها خارجة عن السيادة العثمانية الفعلية حسب وجهة نظره.

ثم أصبح يهدد قائلا: بأنه فى حالة اعتراض الباب العالى على هذه الإجراءات ستعترض حكومة الهند على السيادة العثمانية فى أى جزء من ساحل شرق الجزيرة العربية الممتد من الكويت باتجاه الجنوب، ولم يكتف بذلك بل وضع الأسطول البريطانى فى الخليج العربى تحت تصرف المقيم السياسى البريطانى فى المنطقة مباشرة، وبهذه الطريقة اعتقد نائب الملك فى الهند بأنه سوف ينهى إشكالية السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية. وأصبح المقيم السياسى البريطانى هو الموجه للأسطول لأول مرة فى تاريخ المنطقة، علما بأن الأسطول البريطانى فى الخليج العربى كان يتبع قيادة القوات البحرية، فى أعالى البحار، وكان يتلقى الأوامر من الحكومة الأم فى لندن، وأحيانا من حكومة الهند، وهذا ما كان يؤثر فى اتخاذ القرار السياسى من قبل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى إلا عند الضرورة القصوى عندما تكون المصالح البريطانية فى خطر، كان يتخذ المقيم السياسى قراره بشأن الأسطول نظراً لوجود بعض قطع الأسطول خارج مياه الخليج العربى[28]. كما نجده يساوم السيادة العثمانية بالسماح للأسطول البريطانى بالتدخل فى المياه الإقليمية، وهذه من ضمن الأساليب الاستعمارية المسيحية لممارسة النفوذ فى المنطقة.

ووضع الأسطول البريطانى تحت قيادة المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى يعتبر تصعيدا خطيرا فى النزاع الأنكلو ـ عثمانى، وقد اعتقد «جرانبروك» نائب الملك فى الهند باتخاذه لهذا القرار بأنه سوف ينهى إشكالية السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية، وعلى الاعتداءات والأعمال البحرية من جانب واحد.

بذلك اتخذت حكومة الهند البريطانية الموقف المتشدد، فى الوقت الذى

كانت وزارة الخارجية البريطانية أكثر تساهلا ومرونة لأسباب سياسية ودبلوماسية خشية التصعيد فى النزاع مع الباب العالى، ولو كان ذلك على حساب حكومة الهند البريطانية، وهذا ما نلاحظه من خلال مواقف وزارة الخارجية البريطانية فى إصدار القرار السياسى.

وجد «سالسبرى» وزير خارجية بريطانيا بأن اتخاذ قرار سياسى بشأن إشكالية النزاع حول السيادة العثمانية من خلال مقترحات حكومة الهند، من شأنه أن يؤدى إلى عرقلة حل هذا النزاع بالطرق السلمية فى تلك الفترة التى كان الباب العالى يعتبر بريطانيا تحاول تحجيم سيادته واحتلال إقليم الدولة العثمانية مما جعلهم يضايقون البريطانيين بمختلف الوسائل.

لهذا لم يوافق «سالسبرى» على مقترحات حكومة الهند بشكل قاطع، وأرجأ الموافقة على اتخاذ القرار السياسى للسماح للأسطول البريطانى بملاحقة المعتدين فى المياه الإقليمية العثمانية وتحطيم معاقلهم فى البر إلى أن يبت رجال القانون فى هذا القرار، والذين فعلا قد رفضوا تلك المقترحات بشكل قاطع لأنه انتهاك للقانون الدولى ولحرمة المياه الإقليمية العثمانية، وقد قوبل ذلك القرار بمرارة وعدم الرضى من قبل حكومة الهند البريطانية لدرجة أن «بيرن» أحد موظفى حكومة الهند نعت رجال القانون البريطانى بالسطحية، وعلى الرغم من ذلك فقد اتخذ «سالسبرى» وزير خارجية بريطانيا القرار المذكور بثبات، وأمر حكومة الهند بضرورة التنسيق بين مواقف حكومة الهند ولندن[29].

يمكن القول بأن الخارجية البريطانية فى هذه الفترة كانت ترى بأن هناك مصالح أخرى أوسع بكثير من إشكالية السيادة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية قد تتعرض للانهيار، ويجب عمل الحساب اللازم لها، لأن أى تدخل عسكرى بريطانى مباشر فى هذه الفترة يعنى انهيار العلاقات بين البلدين، وأن بريطانيا تريد فعلا إضعاف الدولة العثمانية وتقليص نفوذها كما تقول الحكومة العثمانية، فى حين كانت نظرة حكومة الهند إقليمية واستعمارية لا تتعدى منطقة الخليج العربى واليمن دون النظر فى المصالح البريطانية العليا فى الدولة العثمانية ككل.

نتائج الدراسة

يتضح من دراستنا السابقة كيف كان القرار السياسى البريطانى فى ظل النزاع الأنكلو ـ عثمانى يمر من عدة قنوات، وخاصة عن طريق إدارة حكومة الهند المتمثلة فى موظفيها فى الخليج العربى، فقد وجدنا المقيم السياسى البريطانى فى «بوشهر» الذى كان يراقب النشاط العثمانى عن كثب، يكتب رسائله ويرفع تقاريره، وخاصة فيما يتعلق بالنزاع الأنكلو ـ عثمانى إلى حكومته فى الهند، وكذلك إلى القنصل البريطانى فى «البصرة» و«بغداد»، وهذان الأخيران يرفعان التقارير عن طريق المراسلات الرسمية إلى السفير البريطانى فى «الآستانة» الذى كان يرفعها إلى وزارة الخارجية التى تستفسر عن تلك المواضيع من جديد حكومة الهند ثم تتخذ بعدها القرار السياسى المناسب.

أى أن عملية اتخاذ القرار السياسى البريطانى كانت تمر بعدة مراحل، ليتهيأ له أن يكون مدروسا بعناية من كافة الجوانب، ولهذا فإن بريطانيا استمرت منذ عام 1871 تراقب الأوضاع فى المنطقة، وخاصة التحركات العثمانية، ثم دخلت فى مفاوضات معها لعدة سنوات حتى أسفرت عن توقيع اتفاقية عام 1913، بين بريطانيا والدولة العثمانية والتى عرفت بالاتفاقية «الأنكلو ـ عثمانية» والتى تم بموجبها تقسيم النفوذ بينهما، بحيث يتركز النفوذ العثمانى فى كل من «الأحساء» و«نجد» و«الحجاز» و «اليمن الشمالية»، فى حين أصبح من نصيب بريطانيا المناطق الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية، وهى «ساحل عمان» و«عمان» و«اليمن الجنوبية» و«البحرين».

بناء على ذلك يمكن أن نتوصل إلى بعض النتائج خلال هذه الدراسة وهى تتلخص بعدة نقاط فيما يلى:

أولا: التردد والتعارض فى القرار السياسى البريطانى:

ظهرت بعض الإشكالية فى اتخاذ القرار السياسى فيما بين الإدارتين البريطانية، وهما حكومة الهند البريطانية ووزارة الخارجية البريطانية فى لندن حول مدى تعارض واختلاف وتباين وجهات النظر فيما يتعلق بالنزاع الأنكلو ـ عثمانى فى شرق الجزيرة العربية وتأثيره على المصالح البريطانية، وتفسير كل من الإدارتين

حسب وجهة نظرها لهذا النزاع، واختلاف وجهات النظر قد يرجع إلى عدة عوامل منها:

1 ـ بعد المسافة بين كل منهما عن منطقة الأحداث، فإدارة الهند أقرب إليها من وزارة الخارجية بحكم الموقع الجغرافى إلى منطقة العمليات، أو منطقة التماس فى شرق الجزيرة العربية، بينما وزارة الخارجية المتمثلة فى قناصلها فى «البصرة» و«بغداد» وسفيرها فى «الآستانة» قريبة من مركز القرار السياسى ولكنها بعيدة عن المنطقة التى ينفذ فيها القرار، منطقة النزاع الأنكلو ـ عثمانى.

2 ـ الممارسة والخبرة التى يتمتع بها موظفو حكومة الهند أقرب إلى الواقع فى وجهة نظرهم من وزارة الخارجية التى تعتمد فى قرارها المبدئى من خلال تقارير موظفى حكومة الهند فى الخليج العربى بحكم معاملتهم لحكام المنطقة مباشرة وبحكم وجود هذه الإدارة التى خلفت شركة الهند الشرقية وبالتالى معرفتها للمصالح البريطانية أكثر من الخارجية.

3 ـ نظرة وزارة الخارجية البريطانية أكثر شمولية وليست سطحية أو إقليمية مثل حكومة الهند فى مجال تخصصها السياسى أى الهند والمناطق المجاورة لها مثل الخليج العربى، والتى قد تهدد مصالحها هناك فقط، فى حين تنظر وزارة الخارجية بنطاق أوسع بحكم إمبراطوريتها الاستعمارية الواسعة فى الشرق والغرب وحسب مصالحها وأهميتها الآنية والمستقبلية ليس فقط فى مناطق النزاع الإقليمية مثل شرق الجزيرة العربية، وإنما فى أقاليم أخرى مثل البحر الأسود والبحر المتوسط وبلاد الشام والعراق ومصر أى مختلف أقاليم الدولة العثمانية، وليس فقط فى الجزء الشرقى والجنوبى من الجزيرة العربية.

4 ـ نلاحظ أحيانا اختلافا فى وجهات النظر بين المسئولين فى الإدارة الواحدة فعلى سبيل المثال كانت هناك آراء مختلفة لدى موظفى حكومة الهند بشأن السيادة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية وغيرها من المواضيع الأخرى، ومهما اختلفت الآراء فإن نائب الملك يتخذ قراره السياسى فى النهاية بناء على تلك المقترحات المشار إليها حسب اقتناعه أو عدم

اقتناعه، ولكن المهم المصلحة العليا لحكومة الهند.

يعتبر نائب الملك هو المرجع فى اتخاذ القرار السياسى لحكومة الهند، ومن ثم موافقة الحكومة البريطانية فى «لندن» وغالبا يتم اتخاذ القرار عن طريق وزارة الخارجية البريطانية التى قد توافق أو تعارض حسب وجهة نظرها، ويمكن القول بأن القرار السياسي يتم اتخاذه فى «لندن» وهو الحاسم والأخير، فى حين تكون قرارات حكومة الهند استشارية، ولكن فى الظروف الاستثنائية لها الحق أيضا فى اتخاذ القرار السياسى إذ كانت مصالح بريطانيا مهددة تستدعى اتخاذ قرار بشكل مستقل وعاجل قبل أن ينتظر رد الحكومة البريطانية.

نجد أيضا اختلافات فى وجهات النظر بين الموظفين فى الخارجية البريطانية، وكما وجدنا لدراستنا بين القناصل فى «بغداد» و«البصرة» والسفير فى «الآستانة» الذى كان يتخذ بعض القرارات دون الرجوع إلى وزير خارجيته.

ثانيا: تخوف حكومة الهند من التوسع العثمانى تجاه ساحل عمان وعمان:

تخوفت حكومة الهند من الاجتياح العثمانى تجاه ساحل عمان وعمان، بعدما أعلن مدحت باشا والباب العالى بأن ساحل عمان وعمان من توابع نجد التى تعتبر قائمقامية عثمانية، ولذا يجب إعادة السيطرة على كافة الأجزاء العثمانية.

خفت هذه التطلعات العثمانية فيما بعد لفترة حتى عام 1888 عندما حاول قاسم بن ثانى حث الدولة العثمانية على ضم ساحل عمان وعمان، ولكن لم ينجح للظروف التى كانت تمر بها الحكومة العثمانية فى حين نجد بريطانيا متخوفة منذ وصول الحملة العثمانية إلى الأحساء وقطر من اجتياحها لساحل عمان وعمان، التى تعتبرها منطقة نفوذها، ومن خلال دراستنا للمراسلات وجدنا كيف حاولت ابعادهم عن المنطقة تحت ستار قضية السيادة والاعتراف وعدم تجاوز حدودهم إلى جنوب «العقير» حتى يكون العثمانيون بعيدين عن «خور العديد» أول نقطة لإدارة أبو ظبى الواقعة تحت النفوذ البريطانى.

ثالثا: كيفية اتخاذ القرار السياسى:

لاحظنا كيف أن جميع الأفراد الذين يعملون فى حكومة الهند ووزارة

الخارجية البريطانية وإن اختلفوا فى وجهات النظر، كانوا يعملون كفريق واحد متكامل كخلية النحل، وتنصب جهودهم فى النهاية بمجرى المصلحة العليا.

من هنا كان يخرج القرار السياسى البريطانى فى النهاية بعد المناقشات والدراسات لينفذ فى كافة أدواته الرسمية دون مراعاة مصالح الآخرين أو أى اعتبار لوجودهم وخاصة السكان العرب فى شرق الجزيرة العربية والذين لم يكن لديهم أى اعتبار للقرار السياسى البريطانى برغم أنه كان يتعلق بمصيرهم. وكيف كان هناك تجاهل لهم فى تخطيط الحدود، وخاصة الخط الأزرق الذى قسم المنطقة إلى نفوذين بريطانى وعثمانى، برغم وجود القبائل العربية التى تعيش فى القسمين مما يؤدى إلى تقسيم القبيلة أو الأسرة الواحدة بين عدة جهات بعدما ظهرت الحدود الدولية، فعلى سبيل المثال تعيش قبيلة فى الاحساء وقسم منها فى الكويت وآخر فى البحرين وآخر فى قطر أى توزعت بين دول عديدة وتحمل جنسيات مختلفة مما خلق معه اشكالية اجتماعية.

رابعا: عبدالحميد الثانى وصعوبة المواجهة مع بريطانيا:

أصبح السلطان عبدالحميد الثانى يخشى المؤامرات التى تحيكها بريطانيا من الداخل ومحاولة فصل بعض الأقاليم من الجزيرة العربية واعتبرها المسئولة عن القلاقل فى المقاطعات العربية، وبذلك كان من الصعب عليه مواجهة المخططات الاستعمارية المسيحية البريطانية واليهودية والصهيونية من الداخل والخارج، وبرغم ذلك فإنه استطاع أن يحافظ على الدولة العثمانية طوال فترة حكمه على أكبر سياده ممكنة قبل أن يتمكن الاتحاديون العلمانيون القوميون من اسقاطه وبالتالى التنازل عن أجزاء كثيرة فى شرق الجزيرة العربية لبريطانيا بموجب الخط الأزرق أو الاتفاقية الأنكلو ـ عثمانية، كما تنازلوا أيضا لإيران عن أجزاء أخرى من الأقاليم العربية مقابل تعزيز قبضتهم فى الداخل وبالتالى تقليص السيادة العثمانية.

بلغت الدولة العثمانية أشد مراحل الضعف وتعرضت لضربات القوى الاستعمارية المسيحية لانتزاع أجزائها الأوروبية والعربية ومخططات لقيام الكيان اليهودى الصهيونى فى فلسطين وحاول عبدالحميد الثانى تجميع المسلمين تحت شعار يا مسلمى العالم اتحدوا، واستطاع أن يصمد فترة طويلة قبل أن يسقط أمام

الهجمات الخارجية والداخلية بقيادة جماعة الاتحاد والترقى التى بدأت تعمل منذ عام 1879 حتى استولت على السلطة عام 1908 ويسقط عبدالحميد الثانى فى العام التالى.

خامسا: قلة اهتمام الدولة العثمانية فى الفترة المتأخرة بشرق الجزيرة العربية:

نظرا للظروف التى كانت تمر بها الدولة العثمانية فى الفترة المتأخرة كما ذكرنا سابقا فى عهد عبدالحميد الثانى فإنه حدد مصروفات قواته فى شرق الجزيرة العربية واستبدل القوات النظامية بقوات من القبائل فى جنوب العراق والأحساء.

تم تعيين زعماء من عرب المنطقة بدلا من الحكام العثمانيين، فعين من أسرة السعدون والنقيب وبنى خالد بزيع بن عريعر ثم ابنه مزيد لارتباطهم بسكان المنطقة.

سادسا: الضغط البريطانى على العثمانيين:

مارست بريطانيا الضغط الدبلوماسى والسياسى عن طريق إدارتها فى الخليج العربى، والتى تتبع حكومة الهند مثل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى والوكيل المعتمد البريطانى فى البحرين وفى ساحل عمان، وكذلك وزارة الخارجية البريطانية عن طريق سفيرها فى «الآستانة» وقناصلها فى بغداد والبصرة والقاهرة. ضد الباب العالى وسلطاته فى شرق الجزيرة العربية.

زاد هذا الضغط مع بدايات الحرب العالمية الأولى واخذت تضغط على حكام العرب فى المنطقة، وكذلك شيوخ القبائل العربية لاخراج العثمانيين من شرق الجزيرة العربية والعراق بتحريض سكان المنطقة ضد العثمانيين.

سابعا: هل حقق القرار السياسى البريطانى هدفه؟

نعم حقق القرار السياسى البريطانى هدفه أكثر مما كان متوقعًا، وهذا النجاح لا يرجع إلى الجهود البريطانية بقدر ما يرجع إلى الظروف المحلية والدولية التى خدمت القرار السياسى البريطانى وخاصة الظروف الداخلية والخارجية التى مرت بها الدولة العثمانية فى الفترة المتأخرة إضافة إلى نتائج الحرب العالمية الأولى غير المتوقعة والتى كانت لصالح بريطانيا على حساب انهيار الدولة العثمانية وهزيمتها،

وفيما يلى بعض هذه النتائج.

1 ـ وقف الاعتداءات على الرعايا والمصالح البريطانية فى المنطقة بشكل كبير.

2 ـ انتهاء القلق البريطانى من الاجتياح العثمانى تجاه ساحل عمان، بعد سحب معظم القوات النظامية العثمانية، وإحلال قوات من القبائل العربية غير النظامية فى شرق الجزيرة العربية.

3 ـ فرضت بريطانيا الاتفاقية «المانعة» أى الحماية المباشرة لعام 1892 على حكام البحرين وساحل عمان، وبذلك احكمت سيطرتها على تلك الكيانات فى شرق الجزيرة العربية بشكل غير قابل للتنازل أو التفريط، خوفا من دخول حكام تلك الكيانات تحت السيادة العثمانية طوعا كما حدث لحكام قطر، أو مثلما طلب قائمقام نجد العثمانى الأمير «عبدالله بن فيصل» مساعدة القوات العثمانية لإرجاعه للحكم، أو محاولة العثمانيين توسيع مناطق سيادتهم.

لهذا فإن الاتفاقية المانعة أو اتفاقية الحماية المباشرة، تمنع الكيانات العربية فى المنطقة من إقامة علاقات أو اتصال مع أية دولة بدون موافقة بريطانيا، كما تحرم تكوين جيوش خاصة بها، وبذلك تجعل الكيانات تحت رحمتها.

4 ـ نجحت بريطانيا بالأسلوب الهادئ تارة والضغط الدبلوماسى والسياسى تارة أخرى واستغلال الظروف الداخلية التى مرت بها الدولة العثمانية بعد تولى جماعة الاتحاد والترقى فى إيجاد مخرج لوقف وإبعاد النفوذ العثمانى فى المنطقة، عندما توصلت إلى عقد اتفاقية 1913.

5 ـ أصبحت الأمور فى الخليج العربى عامة والجزيرة العربية خاصة تتحول من حكومة الهند إلى وزارة الخارجية البريطانية وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد الثانية حسمت لصالحها بعد استقلال الهند وباكستان.

6 ـ بعد هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى أصبحت بريطانيا سيدة الموقف ليس فى الخليج العربى الذى حولته إلى بحيرة بريطانية وإنما فى العراق والجزيرة العربية بعد اتفاقية 1899 مع حاكم الكويت واتفاقية دارين مع ابن سعود 1915 واتفاقية 1916 مع حاكم قطر حتى مجىء شركات البترول فى السعودية أصبح النفوذ الأمريكى فى تزايد حتى أصبح الطرف الجديد والمنافس القوى لبريطانيا بعد خروج الدولة العثمانية، واستمر النفوذ الأمريكى كذلك حتى الانسحاب البريطانى وأصبح سيد الخليج والجزيرة العربية بلا منافس وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وإلى حين عودة روسيا القوية أو ألمانيا مع الوحدة الأوربية من جديد إلى المنطقة مما جعل دول مجلس التعاون الخليجى فى تحد مع نفسها ومع جيرانها لأجل البقاء فى عالم الأقوياء.

الهوامش:

1 ـ محمد عدنان مراد ـ بريطانيا والعرب، ص 278.

2 ـ د. محمد عرابى نخلة ـ تاريخ الأحساء السياسى، ص 99.

3 ـ جون . ب. كيلى ـ بريطانيا والخليج، ص 465.

4 ـ د. محمد عرابى نخلة، المرجع السابق، ص 154 ـ نقلا عن عبدالعزيز نوار ـ تاريخ العراق الحديث، ص 413.

5 ـ د. محمد عرابى نخلة. نفس المرجع، ص 157.

6 ـ جون ، ب، كيلى ـ المرجع السابق، ص 586 ـ وانظر مكاتبات حكومة الوطن (سرى) مجلد 67 من «اليوت» إلى جرانفيل» ـ 22/ 2/ 1871 رقم (98) وقد أحيل إلى مكتب شئون الهند بتاريخ 9/ 3/ 1871 ـ راجع أيضا المرفقات والخطابات السرية من الهند مجلد (8) مرفقة للخطاب الخارجى (سرى) رقم 26 المؤرخ 23/ 5/ 1871 من «هربرت» إلى خارجية حكومة الهند 24/ 2/ 1871 ـ رقم (9).

7 ـ جون . س . ولكنسون ـ حدود الجزيرة العربية ـ قصة الدور البريطانى فى رسم الحدود عبر الصحراء، ص90.

8 ـ جون . س. وليكسون ـ نفس المرجع، ص 93.

9 ـ د. عبدالفتاح حسن أبو علية ـ دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، ص 115.

10 ـ د. عبدالفتاح حسن أبو علية، نفس المرجع، ص 113.

11 ـ د. زهدى عبدالحميد سمور ـ تاريخ ساحل عمان السياسى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ص 76. انظر

F.O78/2174. Telegram from Elliot to Lord Granville, April,1874. ـ

12 ـ د. زهدى عبدالحميد سمور ـ نفس المرجع، ص 78.

13 ـ د. زهدى عبدالمجيد سمور، نفس المرجع، ص 79.

14 د. فتوح عبدالمحسن الخترش ـ د. عبدالعزيز محمد المنصور ـ مصادر تاريخ قطر. ح 102 ـ أنظر ـ مكتبة وزارة الهند وسجلات الوزارة ـ سرى ـ 1888 (7) B49 ـ الخليج ـ الحامية التركية فى البدع على الساحل العربى.

15 ـ د. زهدى عبدالحميد سمور، المرجع السابق، ص 88 ـ وانظر ـ

I.OL/p & s/18 B 150, Limits of Turkish Jurisdiction on the Arabian Coast, p.7.

16 ـ د. فتوح عبدالمحسن الخترش. د. عبدالعزيز محمد المنصور ـ المرجع السابق، ص 101.

17 ـ د. زهدى عبدالمجيد سمور ـ المرجع السابق، ص 84 ـ وانظر ـ

I.O.L/p &s/5108 vo. 19, Neged Expedition Precies. p. 12.

18 ـ جون . كيلي ـ المرجع السابق، ص 698.

19 ـ جون. كيلي ـ نفس المرجع ، ص 699.

20 ـ جون. كيلي ـ نفس المرجع، ص 715 ـ وانظر ـ الخطابات والمرفقات السياسية والسرية مجلد 22 من الحاكم العام إلى وزير الدولة 22/ 5/ 1879 ـ رقم 127 ـ الإدارة السرية الخارجية).

21 ـ جون . ب، كيلي ـ نفس المرجع ، ص 717.

22 ـ زهدى عبدالحميد سمور، المرجع السابق، ص 77 ـ وانظر

- I.O.L /p&s/18, Nejad Expeditaion precis, Vol. 91, p.60.

- F.O. 78. 5108, Turkish Jurisdiction along the Arabian Coast of the persian Gulf, part, I, pp. 3 - 5.

23 ـ د. محمد عرابى نخلة ـ المرجع السابق، ص 153 ـ انظر ـ

- F.O. 195/803 A. Letter No. 25 of 2866. from Herbert to Lord Lyo-nenm, Dated April 18 th 1866.

-L.O.R.L/p&s/18 vols. 91 - 160. Paragraph (10) p.7 &8.

24 ـ د. زهدى عبدالحميد سمور ـ المرجع السابق، ص 86 ـ وأنظر ـ

- I.O. Secret Letters and enclosure from India Vol. 9 Government Gen. In, Coucil to Secretsry of State, 26 Sept, 1871.

25 ـ د. زهدى عبدالحميد سمور ـ نفس المرجع، ص 86 ـ 100 ـ وأنظر ـ

- I.O.Political and Secret. Home Corresp, Vol, 28 Nition to Layand, 12 - Aug. 1878.

26 ـ جون . ب. كيلي ـ المرجع السابق، ص 708 ـ أنظر ـ الخطابات والمرفقات السياسية والسرية مجلد 22 مرفق للخطاب الخارجي 127 المؤرخ 22/ 5/ 1879 من «الايال» إلى «روس» وإلى «نيكسون» 17/ 12/ 1878 ـ رقم 255 و256.

27 ـ جون . ب. كيلي ـ نفس المرجع، ص 711.

28 ـ د. زهدى عبدالحميد سمور ـ المرجع السابق، ص 102 ـ أنظر ـ

- I.O.Political and Secret, Home Corresp. Vol, 34 to Under Secretary, 17 Sept. 1879.

29 ـ د. زهدى عبدالحميد سمور ـ نفس المرجع، ص 105 ـ وانظر ـ

-I.O.Political and Secret Home Corresp. Vol. 36 Under Secretary, 22 Dec, 2879.

عرض هذا البحث في سيمنار قسم التاريخ بجامعة الكويت على المختصين وبعد العرض تمت مناقشته ولاطلاع القارئ ولمعرفة ما دار من مناقشات حوله للاستفادة نورد المناقشة كما هي لمقتضيات البحث العلمي وفيما يلي هذه المناقشة:

*** أ.د. محمد عبدالغني:**

شكراً للدكتور محمد العيدروس على إلقاء محاضرته رغم أنه أسهب كثيراً في ذكر التفاصيل. ولكن ربما طبيعة الموضوع تستلزم هذا. والآن نفتح الباب للنقاش، وأرجو أن يكون مختصراً هذه المرة.

*** السؤال الأول:**

بداية، أستفسر بعض الاستفسارات الصغيرة على بعض الجزئيات. وقد استوقفني ذلك التناقض بين وزارة الخارجية البريطانية وبين حكومة الهند البريطانية. هل كان هذا التناقض والاختلاف فعلا حقيقيًا، أم أنه مجرد توزيع أدوار لإظهار طرف متشدد أو جزء متشدد من الإدارة البريطانية وجزء آخر متساهل أو معتدل؟ هل هو تكتيكي؟ أم هو اختلاف استراتيجي؟ لا أعتقد أنه اختلاف استراتيجي، بل اعتقد أنه اختلاف تكتيكي بهدف الوصول إلى أفضل قرار ممكن لصالح بريطانيا وإظهار بريطانيا بمظهر المعتدل. لا يمكن أن تكون بريطانيا بهذا الغباء. فهذا التخبط الواضح والصريح في الوثائق لا أعتقد أنه اختلاف حقيقي، اعتقد أنه اختلاف تكتيكي كما تفعل حكومة إسرائيل، وهم في النهاية يرتبون ويجهزون للقرار مسبقا ليصبون في وعاء واحد.

*** السؤال الثاني:**

السلطان عبدالعزيز مما دفعه إلى شرق الجزيرة بالذات افتتاح قناة السويس سنة 1969. وهنا جزيئة لم افهمها وهي أن السفن البرتغالية كانت تأتي من لشبونة مباشرة في حين أن السفن العثمانية تتجمع في السويس. هل هذا كان قبل افتتاح قناة السويس أم بعدها؟ . وشكرا،

*** د محمد العيدروس:**

بالنسبة للقضية الأولى، هي ليست قضية تكتيكية وتختلف تماما بالنسبة لاسرائيل وقراراتها. بل هو اختلاف حقيقي موجود، ولكن هناك اختلاف في

وجهات النظر باعتبار أن حكومة الهند معنية بالموضوع أكثر وتهتم بالمصلحة البريطانية أكثر فى المنطقة، ولكن وزارة الخارجية تنظر بمنظار أكبر وأشمل ومصالحها أكبر كما ذكرت، بمعنى أن حكومة الهند تابعة للوزارة، وهى جهة استشارية، ولكن إذا كانت المصلحة البريطانية فى خطر فإن هذا الاستشارى يتحول إلى تنفيذى بدون موافقة الخارجية البريطانية.

المصلحة الخارجية لها أهمية ولكن الحكومة الهندية كانت معنية وتستوعب أكثر من الخارجية لذلك إذا فهم الشخص هذا المعنى وهو مهتم بهذه المنطقة سوف يفهم هذا جيدا وأحيانا قد تكون نظرة حكومة الهند البريطانية فى موضع قصير فتنسى المصلحة البريطانية العليا فى منطقة أخرى. أحيانا أمريكا تضحى بشىء مقابل شىء وروسيا تضحى بشىء مقابل شىء، وأحيانا الإدارة العليا تستوعب وتقدر الأمور أكثر من الإدارة الأخرى.

ـ بالنسبة لقضية البرتغاليين، فإن وجودهم كان فى القرن السادس عشر وهذا ما ضربته كمثل بأن العثمانيين سبب فشلهم فى مواجهة البرتغاليين، لأن سفنهم الكبيرة كانت موجودة فى اسطنبول، وبالتالى كان من الصعب عليهم أن يأتوا بها إلى البحر الأحمر. والسفن الموجودة فى المحيط الهندى هى سفن كبيرة تختلف عن تلك السفن الصغيرة التى كانت تتجمع من قبل العثمانيين فى البحر الأحمر، وفتح قناة السويس سهل عملية جلبهم فهذا كان عاملاً مساعداً.

*** أ.د. عادل زيتون:**

سؤالى أين الصوت الوطنى؟ فمن المعروف أنه فى تلك الفترة فى القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين كانت الحركة الوطنية فى أوجها فى الخليج على امتداد الجزيرة، فكانت هذه الحركة امتداد لما هو فى مصر والشام. فأين الصوت الوطنى لهذه الحركة الوطنية فى صد مطامع السياسة البريطانية؟

*** د. محمد العيدروس:**

سوف أجيب عليك بأمرين، فى البداية إذا ما تذكرنا الخليج العربى فى القرن السابع والثامن عشر كان هناك فعلا مقاومة قوية جدا، قاوموا البرتغاليين وقاوموا الهولنديين وآخر مقاومة سقطت فى ساحل عمان عام 1819 وبعدها

انفردت بريطانيا فى حكم المنطقة، فالمقاومة القوية كما اعتقد انتهت فى عام 1819م. وبعد ذلك اتبعت بريطانيا أسلوبًا آخر، أسلوبًا هادئًا ودبلوماسيًا للضغط على حكام المنطقة عن طريق الاتفاقيات السياسية وبعد ذلك اتخذت أسلوب حمايات الكيانات. وحدث بعد ذلك مجىء المصريين وحرض البريطانيون القبائل العربية ضدهم، هذا أولا.

ثانيا:

نظرة العرب للدولة العثمانية كانت تختلف عن نظرة العرب لتركيا القومية. فقبل ذلك لم يكن لدى العرب أى اختلاف تجاه حكم العثمانيين ومن ثم لم يقوموا بأى انتفاضة أو ثورات بالنسبة للعثمانيين فى منطقة الجزيرة العربية، باعتبار أن العثمانيين كانوا أعرف بطبيعتهم فجعلوا القبائل تحكم ولم يتدخلوا فى شؤون القبائل الداخلية والبدوى عزيز النفس ولا يرضى أن يتدخل أحد فى شؤونه الداخلية، فلو أن بريطانيا أو الدولة العثمانية تدخلت فى شؤونهم أو حتى حدوا من حريتهم لقاوموهم. وبالفعل اتبع البريطانيون نفس اسلوب العثمانيين عند مجيئهم للخليج والجزيرة العربية واعطوا الحرية لشيوخ القبائل للحكم وهم يديرون المنطقة عن طريقهم. لكن لو أن بريطانيا اقامت حكمًا مباشراً عسكريًا كما فعلت فى مصر والعراق وجلبت أناسًا عسكرين أو جيشًا ووضعته داخل المنطقة لكانت هناك مقاومة. لذلك حكمت بريطانيا المنطقة عن طريق شيوخ القبائل وكذلك الدولة العثمانية. ولو حكمت الدولة العثمانية حكمًا مباشراً وتدخلت فى الشؤون الداخلية للمنطقة لحدثت مقاومة من أبنائها.

وقد حدثت مقاومة فى البحرين بعد الحرب العالمية الأولى والثانية عندما بدأت بريطانيا فى فرض نظام مباشر عن طريق ضباط الشرطة، فبدأت الحركة الوطنية فى البحرين ضد بريطانيا ضد تدخلهم بالشؤون الداخلية.

*** د. جمال الزنكى:**

يبدو لى أن الموضوع الذى تكلم عنه الدكتور فى صلب الدبلوماسية الانجليزية وعلاقة بريطانيا بالأتراك فى منطقة شرق الجزيرة. ويبدو أن النتائج تحتاج إلى نوع من التركيز.

* د. محمد العيدروس:

بالنسبة للملاحظة الأولى: هى ليست قضية دبلوماسية وليست علاقات دولية بل هى عبارة عن دراسة لكيفية اتخاذ القرار السياسى البريطانى والدبلوماسية تختلف. وعند دراسة كيفية اتخاذ القرار السياسى لابد أن ندرس السياسة العثمانية. فالقضية قضية نزاع. ويمكن أن نطلق على هذه الدراسة دراسة المنازعات الدولية وليست دبلوماسية أو سياسية. وتعتبر من ضمن النزاع الدولى. وعند دراسة أى نزاع دولى لابد من دراسة الخلفية التاريخية ثم سبب النزاع ثم الرد وبماذا تجاوب الطرف الأول وقرار الطرف الآخر، كدراستنا لموقف السياسة العثمانية وسبب اتخاذ البريطانيين هذا القرار. ففى ظروف هذا النزاع لابد أن نأتى بالأسباب. فأى مشكلة لابد لها من أسباب ولابد من دراسة أسبابها، وكيفية ظهور هذه الأسباب. فهى دراسة لنزاع دولى. وهناك نزاعات دولية وأخرى نزاعات قانونية ودراسات لمنظمات دولية وعلاقات دولية ودبلوماسية. فأردت التحديد الدقيق باعتبار هذه الدراسة دراسة من ضمن المنازعات الدولية أكثر من سياسية أو دبلوماسية ولكن تدخل فى ضمنها بالنسبة للنتائج، حاولت بقدر الإمكان التركيز عليها لأنها تعتبر مهمة إلى يومنا هذا، خاصة وأن اتفاقية 1913 كانت لاتزال سبب الكثير من المشاكل فى الجزيرة العربية فتعمدت التركيز عليها أكثر.

* د. نايف الشمروخ:

أنا لست متخصصا فى التاريخ الحديث وهذا استفسار وليس رأى لم يتطرق الحاضر إلى رده فعل سكان المنطقة فكأن لم يكن لهم رأى فى عملية الصراع بين الدولة العثمانية وبين بريطانيا وكل ما سمعناه من المحاضر هو إجراءات قامت بها الدولة العثمانية تجاه بريطانيا أو العكس، بينما لم يتطرق بشكل أو بآخر إلى سكان المنطقة.

وذكر الدكتور أن الهند كانت تشكل مركز قوة بريطانيا فى الهند، والكويت باعتبارهم مرتبطين بالهند اقتصاديا فقد تكون من مصلحتهم القبول بالواقع.

*** د. محمد العيدروس:**

كـما ذكـرنا آنفـا، أن الهولنديين عـندما بدأوا يتـدخلون فى منع المصـالح التجاريـة أو الاقتصادية لأبناء المنطقـة قاوموهم. لكن بريطانيا اعطتـهم الحرية فلم ينتفضوا، وبالنسبة للعثمانيين لا ننسى أنهم كانوا يمنحون أو يقدمون أموالا لشيوخ القبائل، ولابد من فهم التركيبة الاجتماعية فى منطقة شرق الجزيرة العربية، فإذا ما فهـمناها فإنه لن تكون هناك أى مـشكلة. وعلى سبيل المثـال حينما بدأ الهـواجر يشنون هجمـاتهم على السفن البريطانـية وتعرضوا للمـصالح البريطانيـة، غضت الدولة العثمانية الطرف عنهم، بل أحيانا كانت تحميهم، ومن هنا لم تكن هناك أى مقاومة للعثمانيين ولكن عندما بدأ وصول الاتحاد والترقى للحكم، وعملية التتريك للشعب العربى هنا بدأت المقاومة للحفـاظ على كياننا القومى العربى ففى الإسلام نحن واحد وليست هناك أى مشـكلة، ولكن إذا قالوا بقومية تركية فنقـول بقومية عربية، وكمـا تحافظ على قوميتك أحافظ على قـوميتى. ولكن إذا ما أردت إزالة قوميـتى فأقول لا، فالإسلام يجـمعنا ولكن تفضيل قومـية على قومية فـلا، كما يحدث للأكراد فى تركيا.

*** د. رضوان الباردوى:**

طالما أننا لا نستـطيع أن نتتبع الأحـداث المتشابكة والمتـداخلة والمنطقة مليـئة بالصراعات، وبالتالى بالنسبة لنا نحن غـير المتخصصين فى هذا الفرع كنا نريد أن نعرف فكرة مـبسطة عن تاريخ الخليج العـربى أو الجزيرة العربيـة. وهذه ملحوظة جانبية.

هناك بعض الاستفسارات طفيفة وبسيطة:

العنوان يقـول صنع القـرار السيـاسى البـريطانى فى ظل الصـراع الأنجلو ـ عثمانى. ما معنى كلمة الانجلو فى ضـوء الانجليزى والبريطانى؟ لماذا اخترت كلمة الأنجلو ـ عثمانى؟.

النقطة الثانيـة: ذكرت أن حاكم نجد عـبدالله بن فيـصل بعث إلى الخديوى اسماعيل يرجوه ويتوسل إليه لكى يتدخل، ولكن لم تذكر لنا نتيجة هذه الرسالة، هل فعلا تدخل الخديوى اسماعيل لدى الباب العالى؟

*** د. محمد العيدروس:**

بالنسبة لرسالة عبدالله بن فيصل واستعانته بالخديوى اسماعيل فكانت النتيجة المباشرة ارسال حملة مدحت باشا، وذكر العثمانيون أن ارسال هذه الحملة جاء بناء على طلب عبدالله بن فيصل.

وأما قضية التفاصيل فهناك كتب كثيرة تكلمت عن هذه الحملة وهنا اقتصرت فقط على عملية القرار السياسى وليس دراسة تاريخية ولهذا اقتصرت على اشكالية القرار السياسى.

بالنسبة لمصطلح «انجلو» فى هذه الفترة فهو مصطلح استخدم فى الاتفاقيات مثل «انجلو ـ عثمانى، الهولندى البريطانى، الانجلو ـ فرنسى» فقد استخدموا هذا الأسلوب أو المصطلح. وهناك أيضا اتفاقية اسمها الاتفاقية «الانجلو ـ عثمانية» فى لغة الوثائق والمخاطبات وإذا ما قلت «البريطانى ـ العثمانى» فسوف يكون هناك نوع من الغشاوة على الحدث.

*** أ.د. محمود إبراهيم حسين:**

شكرا للأستاذ المحاضر، ولدى بعض الاستفسارات.

اعتقد أن الموضوع ضخم بالنسبة للسمنار، والاستفسار هنا هل كان من الممكن تقسيم الموضوع إلى عدة موضوعات بحيث يسهل على الإنسان استيعاب محاوره، واستيعاب القضية كلها. ذلك أن المحاضر يتكلم عن مشكلة صناعة القرار بالنسبة للسياسة «الانجليزية» وبالنسبة للسياسة العثمانية، فهل كان من الممكن تقسيم الموضوع إلى جزئين رئيسيين؟ وهل ممكن الاستعانة بالجغرافية لتثبيت هذا التقسيم؟. وسؤال آخر: ذكرتم مراحل ثلاثة للقرار العثمانى ـ وكيفية صناعته، هل هذه المراحل انعكاس لقوة الدولة العثمانية؟ هل التدرج أو التغير فى السياسة الخارجية العثمانية ازاء المنطقة كان انعكاسًا لقوة الدولة العثمانية نفسها، وأن هذه السياسة بدأت من مرحلة الدولة الامبراطورية وانتهت إلى مرحلة الدولة الجغرافية، التى تنتهج سياسة واقعية تعبر عن قوتها الحقيقية؟

السؤال الثالث:

حول السياسة الداخلية العثمانية تجاه شرق الجزيرة العربية، والتى تشير إلى

أنها تركت للحكام المحليين مساحة كبيرة جدا من الحرية، هل هذه سياسة عثمانية خاصة بهذه الأقاليم؟ أم أنها سياسة عامة للدولة العثمانية فى كل ولاياتها؟. فمعرفتى المتواضعة تشير إلى أن نفس السياسة قد طبقت فى الشام والعراق ومصر.

رابعا:

هل كانت علاقات الشعوب فى منطقة شرق الجزيرة العربية والدولة العثمانية، تظهر شكلا عاطفيا؟ بمعنى أن وجود الدولة العثمانية كدولة إسلامية يمثل أمراً مقبولاً، أكثر من الدول الأوروبية الأخرى فى المنطقة وبالتالى لم تحدث مقاومة من قبل شعوب المنطقة للدولة العثمانية؟.

*** د. محمد العيدروس:**

سأجيب بإجابات مختصرة، ولو أن الأسئلة غير محددة وغير واضحة.

- بالنسبة للسؤال المتعلق بالواقعية السياسية لا اعتبرها واقعية سياسية، وكما ذكرت كانت السياسة البريطانية تلتهم الأقاليم واحدة تلو الأخرى من الدولة العثماينة. فالقضية قضية تنافس وصراع. فبالتالى رغم ضعف عبدالحميد وبرغم ضعف الحكام العثمانيين إلا أنهم لم يتنازلوا ولم يفرطوا بالأجزاء العربية كما فرطت فيها جماعة الاتحاد والترقى. وفعلا فى الفترة الأخيرة تكالب الاستعمار المسيحى الإرهابى والقوى الغربية مع الروس والنمسا ودول البلقان. وكل هذا أثر عليها وبالتالى لما فقدوا هذه الأجزاء قالوا أنه من غير المعقول أن نفقد الجزيرة، فلابد أن نتمسك بهذه الأجزاء. وكان هذا قبل مجىء جماعة الاتحاد والترقى فى فترة السلطان عبدالحميد. فهى ليست واقعية سياسية بل هذا تهاون فى حقوق القوميات الأخرى وتنازل عن حقوق القوميات الأخرى وخاصة العرب فى ليبيا. فهى دولة ولابد من الحفاظ على جميع القوميات، والعربية كباقى القوميات الأخرى. ولماذا لا تهتم بالقومية العربية؟ مع أن نفس الاختلال كان موجوداً أيام السلطان عبدالحميد وعبدالمجيد ولم يتنازلوا. وعندما تدرس جماعة الاتحاد والترقى والحركات الطورانية والتركية، الفتاة، أين نشأت؟ نشأت فى أوروبا وفى أحضان اليهودية الصهونية، وغير ذلك، ومن الطبيعى أنهم لايواجهون اسيادهم الذين جلبوهم إلى الحكم، فدائما الجهة التى تجلبك تتحكم فى تصرفاتك. فالجماعات التركية التى ظهرت

والقوميات التركية ظهرت فى أوروبا المسيحية الاستعمارية، بل فى احضان أوروبا. وبالتالى لا يمكن لهؤلاء أن يعارضوا أسيادهم الأوروبيين. فهذا سبب. وفى نفس الوقت، يتمسكون بالحكم، وعلى سبيل المثال روسيا القيصرية والبلشفية لما قامت تنازلت عن أجزاء كثيرة مقابل الاستمرار وتدعيم الحكم. وهم كذلك لو واجهوا البريطانيين ولم يتنازلوا لهم عن الأقاليم العربية لواجهوا معارضة للحكم والشرعية وبالتالى يكون سقوطهم، ولهذا تغاضوا عن الاحتلال المسيحى البريطانى للأقاليم العربية مقابل تشديد قبضتهم على الحكم. والبريطانيون حرضوا العرب كما حدث فيما بعد فى ثورة شريف حسين فى الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك.

وبالمقارنة بين جماعة الاتحاد والترقى وبين السلطان عبدالحميد وعبدالعزيز، فرغم ضعفهما إلا أنهما واجها المواقف ولم يتنازلا للبريطانيين. ورغم ضعف شخصيته وتسميته بالرجل المريض إلا أن عبدالحميد وحافظ على وحدة أقاليم الدولة العثمانية إلى أن حاصروه وكان يدافع إلى آخر لحظة من حياته عن جميع الأجزاء حتى مصر التى فقدها وكذلك قبرص، وهذا معناه أن الخلل فى جماعة الاتحاد والترقى الذين تنازلوا عن الأقاليم العربية بموجب معاهدة الانجلو ـ عثمانية 1913، وذكرت الدولة العثمانية وقصدت فيها دولة إسلامية، وقيام الدولة العثمانية وحكام السلاطين العثمانيين كان قيامًا إسلاميًا وتوجهًا إسلاميًا وإن لم يطبقوا الشريعة الإسلامية مثلها مثل بقية الحكام المسلمين فى تاريخنا، فالتوجه كان إسلاميًا.

بالنسبة للاستفسار عن رد فعل سكان العرب وعدم مقاومة السكان المحليين للدولة العثمانية وارتباطهم عاطفيا بالدولة العثمانية، هذا الأمر ليس له علاقة بالموضوع كما وأننى أجبت على هذا السؤال سابقا.

*** د. عبدالرحمن عبدالغنى:**

اشكر الزميل الدكتور العيدروس على بحثه الشيق وعلى أسلوبه المسهب فى طرح موضوع المحاضرة. ولدى بعض الملاحظات:

لاحظت أن لمدحت باشا دورًا بارزًا فى أول النقاش إلى أن وصلنا إلى نقطة وجدنا فيها هذا الرجل قد شنق أو قتل، ولكن أجد أن هذا الرجل بعد سياق

الأحداث يظهـر له دور أيضا وذلك بعد عدة صـفحات وبعـد أن وصلنا إلى نهاية هذا الرجل بمقتله نجد له دورا فى المشاركة. وهذا مجرد استفسار أو ملاحظة.

* د. محمد العيدروس:

مدحت باشا كان واليًا فى بغداد ثم أصبح الصدر الاعظم وقد قتل فيما بعد وهذا هو دوره.

* د. عبدالرحمن عبدالغنى:

لى تساؤل، انجلترا كانت تسيطر على قناة السـويس ودخلت فى مرحلة من مراحل الأحـداث فى منافسـة على الخليج العربـى بينها وبين الدولة العـثمـانية، ووجدنا الأسطول العثمانى فى مياه الخليـج العربى وأقام له مركزا فى جزيرة بوبيان الكويتية، وأراد أن يقيم حامية. لماذا؟

* د. محمد العيدروس:

كانت أساطيل الدولة العثمانية تمر فى قناة السويس قبل وبعد سيطرة بريطانيا على قناة السويس. وكذلك رغم الاحتـلال البريطانى لقناة السويس ولمصر لم يكن لبريطانيا القدرة على منع مـرور السفن العثمانية فى قناة السويس، لأن العـثمانيين سوف يمنعـون الأساطيل البريطانية من المرور فى البـحر الأسود فالمصالـح تقتضى هذا إلا أثناء الحرب العالمـية الأولى فقط. وأنظمة المرور الدولية لـم تكن تمنعها إلا فى حالة الحروب.

ولفهم قضية التلبس هذه، محمد على باشا حين أراد التوجه إلى عدن أسرع الانجليز باحـتلال عدن فـبالتالى خافـوا من محمـد على فأثاروا حربا ضـده حتى انسحب من الجزيرة العربية ورغم ذلك فإن سـفن محمد على كانت تصل للخليج العربى.

وقد سمـحت بريطانيا للأسطول العثمانى ان يمـر بقناة السويس حتى يصل إلى الخليج العـربى، لأنه لو لم تسمـح له بريطانيا لما اسـتطاع أن يصل إلى مـياه الخليج العربى، ويهدد النفوذ البـريطانى فى الخليج العربى. لما جاء الأسطول، لم تكن قناة السويس تابعة أو تحت الحماية البريطانية، ولكن بعد ذلك اشترت بريطانيا الاسهم وسـيطروا عليهـا، أيضا حـتى على الرغـم من أنهم احتلوا قنـاة السويس

فكانت السفن العثمانية تتجه لغاية اليمن وبريطانيا لم تستطع أن تمنع السفن العثمانية ولو منعوها لكان العثمانيون دخلوا عدن من اليمن وهددوا النفوذ البريطانى هناك وقواتهم الموجودة فى العراق وفى أى لحظة كانوا يصلون لعمان. فهى معروفة بأنها من الناحية البرية دولة قوية. ورغم ضعف الدولة العثمانية، إلا أنها كانت ذات قوة برية أقوى بالنسبة لبريطانيا، والدليل على ذلك أنه خلال الحرب العالمية الأولى عندما دخل الجيش البريطانى للبصرة وبكاملة حاصروهم وقادوا الأسرى مشيا إلى اسطنبول، فبرغم ضعفهم كانوا أقوياء ولذلك لم يمنع الانجليز العثمانيين من دخول قناة السويس لأنهم لو منعوهم لانقضوا على قواتهم فى عدن.

*** د. عبدالرحمن عبدالغنى:**

هل خضعت الكويت للحكم العثمانى القائم فى البصرة؟

*** د. محمد العيدروس:**

لم تكن الكويت تابعة للبصرة رسميا، بل نجد أن كلتاهما كانتا خاضعتين للحكم العثمانى. وفى الوقت الذى لم تخضع فيه الكويت للحكم العثمانى المباشر فإننا نجد أن قطر والاحساء أخضعهم مدحت باشا تحت الحكم المباشر. وأقام لهم إدارات مباشرة، ولم يتدخل ولم يضم الكويت للبصرة وإنما حول الاحساء إلى سنجق ولى كتاب بعنوان «الحياة الإدارية فى شرق الجزيرة العربية» من الناحية فقط. كيف أن العثمانيين قسموا هذه المناطق الإدارية فى قطر والاحساء ولكن الكويت لم يقوموا بتقسيمها أو يتدخلوا فى شؤونها الداخلية وإنما بقيت تحت حكم آل صباح الذين كانوا تابعين للدولة العثمانية.

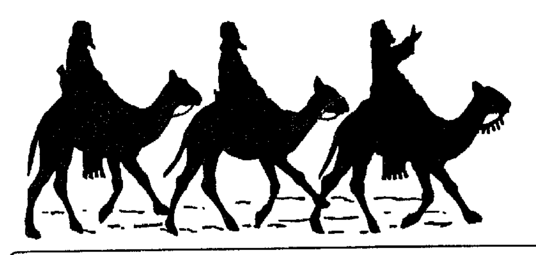
*** د. عبدالرحمن عبدالغنى:**

سؤال أخير: أين يقع الخط الأزرق؟

*** د. محمد العيدروس:**

الخط الأزرق يبدأ من منطقة جنوب العقير بالقرب من «جزيرة الزخنونية» بمنطقة الاحساء ويسير حتى محميات عدن بحيث إن الربع الخالى وعمان وساحل عمان واليمن الجنوبية كلها خاضعة للنفود البريطانى. والاحساء ونجد والحجار واليمن الشمالية والكويت للعثمانيين.

الفصل الثامن



جوانب من الصراع السياسي في جنوب ساحل عمان (أبوظبي) من خلال الوثائق البريطانية بين عامي 1926 ـ 1928

نشر في مجلة كلية الآداب ـ جامعة المنصورة ـ العدد العشرون يناير 1977 ـ مصر.

مقدمة

تعتبر هذه الدراسة من الدراسات القليلة عن تاريخ ساحل عمان الجنوبى خاصة «أبوظبى»، وبالذات هذه الفترة 1926 ـ 1928، التى كانت لغزا غامضا وحلقة مفقودة من بعض حلقات تاريخ ساحل عمان، وقد تم معرفته بعد دراسة الوثائق البريطانية التى كشفت عن حقائق جديدة لم تكن معروفة من قبل.

تتناول الدراسة بداية الصراع السياسى فى ساحل عمان الجنوبى بعد وفاة الشيخ زايد بن خليفة، وحكم أبنائه ثم مقتل ابنه الشيخ سلطان بن زايد، وهروب ابنه الشيخ شخبوط والشيخ هزاع، وملاحقتهما من عمهما الشيخ صقر بن زايد الذى استولى على حكم أبوظبى، ثم السياسة التى اتبعتها بريطانيا تجاه الأحداث والصراع السياسى الذى حدث فى ساحل عمان الجنوبى فى أبو ظبى، ثم مقتل الشيخ صقر بن زايد وعودة الشيخ شخبوط والشيخ هزاع من الشارقة، واختيار شنحبوط بن سلطان حاكما على أبوظبى، وبعدها نتناول شخصية شخبوط وبعض النتائج التى جاءت فى الدراسة.

موجز عن التاريخ السياسى لأبوظبى:

جاء اختيار الشيخ زايد بن خليفة خلفا لابن عمه الشيخ سعيد بن طحنون، وقدر لزايد أن يحكم الامارة مدة طويلة ابتداء من عام 1855 حتى عام 1909، وكان عمره عندما استلم الحكم عشرين عاما، وشهد عهده استقرار الحياة وازدهارها فى أبوظبى لحكمته وقوة شخصيته، وحالفه التوفيق فى سياسته الداخلية والخارجية[1]، وأنجب مجموعة من الأبناء لعبوا دورا بارزا فى تاريخ ساحل عمان منهم الشيخ خليفة بن زايد وطحنون وحمدان وسلطان وصقر ثم أحفاده الشيخ شخبوط والشيخ زايد بن سلطان الذى لعب دورا هاما فى تاريخ المنطقة وكان حاكم أبوظبى ورئيس دولة الإمارات العربية المتحدة.

اجتمع اعيان أبوظبى بعد وفاة الشيخ زايد بن خليفة لاختيار الحاكم الجديد، وأتفق الجميع على أن يخلفه ابنه الأكبر الشيخ خليفة بن زايد، الذى كان يمتاز برجاحة عقله وشخصيته القوية مثل أبيه، ولكن الشيخ خليفة لم يقبل أن يخلف والده ولم يكن راغبا فى الحكم بل كان يفضل أن يعيش هادئا فى مزارعه فى مدينة العين[2].

قرر المجتمعون أن تؤول المشيخة إلى الابن الثانى الشيخ طحنون الذى تقبلها رغم أنه كان مصابا بالخدر فى رجليه جراء سقطة من جواد جمح به[3]، لم يستمر حكم الشيخ طحنون بن زايد سوى ثلاثة أعوام من عام 1909 إلى 1912[4].

سعدت إمارة أبوظبى فى عهده[5] برخاء اقتصادى لا مثيل له، إذ قام سكان أبوظبى بمشاركة كبيرة فى أعمال الغوص فى مياه الخليج العربى بحثا عن اللؤلؤ.

بلغ عدد السفن العاملة فى هذا النشاط الحيوى أكثر من أربعمائة سفينة، ويقدر عدد العاملين عليها من سكان ابوظبى بحوالى 20٪ من عدد الغواصين فى الخليج العربى، كما أصبحت جزيرة «دلما» التابعة لإمارة ابوظبى مأهولة بالسكان بصورة مكثفة، وخاصة أثناء موسم جمع اللؤلؤ، وكان يؤمها تجار من قطر والبحرين ولنجة وسواحل جنوب إيران والمدن الأخرى من ساحل الخليج العربى الذين يتاجرون باللؤلؤ والسلع المختلفة[6].

توفى الشيخ طحنون عام 1912، وعرض حكم مشيخة أبوظبى فى جنوب ساحل عمان على الشيخ خليفة بن زايد للمرة الثانية، ولكنه رفض للمرة الثانية مثلما رفضها فى المرة الأولى، فتولى السلطة أخوه الشيخ حمدان بن زايد.

استطاعت أبوظبى أن تعيش خلال حكمه فى السنوات العشر التى قضاها، فترة كاملة من الهدوء والاستقرار والتقدم بفضل تجارة اللؤلؤ المزدهرة، واشتهر الشيخ حمدان بن زايد بالسماحة والحلم والكرم، وقد أحبته لذلك قبائل أبوظبى كثيرا، ونجح خلال الفترة التى قضاها فى الحكم فى تحقيق الأمن الداخلى لإمارته والاحتفاظ بالتطور والتقدم الذى ازدهرت واشتهرت به الإمارة منذ حكم والده عام 1855[7].

تعرضت إمارة أبوظبى لهزة عنيفة بعد مقتل الشيخ حمدان بن زايد على يد أحد إخوته الشيخ سلطان بن زايد عام 1922[8]، الذى أظهر شجاعته وحكمته أثناء نزاع نشب بين بعض سكان عمان من ناحية وبعض أتباعه من إمارة أبوظبى، وانتهى الأمر بفضله ومقدرته إلى استتباب النظام وعودة الهدوء إلى المنطقة، كما استمر فى خلال حكمه فى علاقات طيبة مع جيرانه[9].

مقتل الشيخ سلطان بن زايد وبداية الصراع السياسى:

حكم الشيخ سلطان بن زايد خمسة أعوام من عام 1922 إلى عام 1926، قبل أن يقتل من جراء أخ له[10]، وذلك عندما هجم الشيخ صقر بن زايد على أخيه الشيخ سلطان بن زايد وقتله وسيطر على الحكم[11]. وتلى ذلك سلسلة من الاغتيالات والاضطرابات، أفقدت أسرة البوفلاح هيبتها كما انصرفت بعض القبائل التى تسكن إمارة أبو ظبى مثل قبيلة «المناصير» عن الولاء لها واتجهت إلى قطر والأحساء[12].

وصف الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة فى تقريره إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى بوشهر فى شهر اغسطس عام 1926 حادثه المقتل على النحو التالى نقلا عن المؤرخ البريطانى «جى . ب. كيلى»:

بعث الشيخ سلطان بن زايد فى أول محرم الموافق 12 يوليو 1926 بأسرته وولديه شخبوط وهزاع إلى «البريمى» فى مدينة «العين»، حيث يوجد مقره

الصيفى، كما سافر إليها إخوته أيضًا الشيخ خليفة ومحمد ولدى الشيخ زايد بن خليفة ومعهما عائلتاهما، ولم يبق فى أبوظبى إلا الشيخ سلطان بن زايد وولده خالد، والشيخ صقر بن زايد وأولاده دياب وراشد وزايد، ودعا الشيخ سلطان بن زايد أخاه صقر إلى العشاء ليلة الرابع والعشرين من محرم الموافق 4 أغسطس 1926، وعندما وصل هذا الأخير إلى منزل أخيه سلطان بن زايد، أطلق عليه النار فتوفى فى الحال، وعندما رأى خالد ابن الشيخ القتيل ذلك فر مسرعًا، ولكنهم أصابوه بخنجر فى ثلاثة مواضع من جسده، ولكنه برغم تلك الطعنات القاتلة تمكن من الوصول إلى أخواله من شيوخ أسرة «القبيسات»، وأراد الشيخ صقر بن زايد بعد دفن أخيه الشيخ سلطان أخذ خالد بن سلطان من أخواله قائلا إنه يريد معالجة جراحه، ولكن أخوال خالد من «القبيسات» رفضوا وقالوا أنه سيموت على أية حال[13]. ولكن هذا الصبى الصغير الذى شاهد مقتل والده، تعافى وكبر حتى عاصر حكم أخيه شخبوط وكذلك زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات، وتوفى الشيخ خالد بن سلطان فى نهاية السبعينيات.

يتابع الوكيل السياسى البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة قوله:

بعث الشيخ صقر بن زايد بعد ذلك بولده دياب مصحوبًا بثلاثين مقاتلا من رجاله إلى «البريمى« فى مدينة «العين» يحمل رسالة مزورة ادعى أنها من الشيخ سلطان بن زايد إلى ولديه شخبوط وهزاع، يطلب إليهما فيها العودة إلى أبو ظبى، لإنجاز بعض الأعمال الملحة المستعجلة، وكان قد أصدر أوامره إلى رجاله بقتل الولدين الصغيرين بعد ابتعاد القافلة من مدينة «العين» وهى فى طريق العودة إلى أبوظبى، فى حين ذكرت الأنباء التى وردت من البريمى فى مدينة «العين»، أن الشيخين شخبوط وهزاع كانا قد تلقيا أنباء مصرع أبيهما وكانا قد وجدا الملجأ عند الشيخ أحمد بن هلال شيخ الظواهر وان رعايا أبوظبى فى منطقة العين كانوا قد اعترفوا بحكم الشيخ صقر بن زايد عن طريق ولده[14].

يذكر د. جمال زكريا قاسم حادثة مقتل الشيخ سلطان بن زايد فى كتابه «الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية 1914 ـ 1945» كما يلى:

«وصفت طريقة مصرع سلطان فى تقرير بعث به الوكيل الوطنى فى الشارقة

إلى المقيم السياسى فى الخليج العربى فى 12 أغسطس 1926، أورد فيه أن الأنباء الآتية من أبو ظبى كانت تؤكد أنه تولى الشيخ سلطان بن زايد الحكم وهو لم يدفع المخصصات المالية لإخوته، وفى يوليو 1926 أرسل الشيخ سلطان أسرته ونجليه شخبوط وهزاع إلى مصيفه الخاص فى البوريمى، بينما بقى فى أبو ظبى مع ولده خالد، وفى 4 أغسطس 1926 دعا سلطان أخاه صقر إلى مأدبة عشاء وعند وصول صقر أطلق الرصاص على أخيه وعندما رأى خالد أن أباه يسقط صريعا فر إلى أعمامه زعماء قبيلة القبيسات بعد أن جرح جرحًا بالغا فى أثناء عملية المطاردة، وقد أخذ الشيخ صقر خالدًا من أعمامه دياب ومعه رسالة مزورة باسم الشيخ المقتول سلطان بن زايد موجهة إلى أبنائه شخبوط وهزاع يطلب منهما العودة إلى أبو ظبى، ولكن فيما يبدو أن شخبوط وهزاع علما بمقتل أبيهما فالتجأ إلى الشيخ أحمد بن هلال الظواهرى لفترة من الوقت ثم دخلا بعد ذلك فى حماية عبدالله بن جلوى، أما سكان أبوظبى المقيمين فى البوريمى فقد بادروا بالاعتراف بالشيخ صقر شيخًا على أبوظبى[15].

نجد من خلال مقارنة ما ذكره المؤرخ البريطانى «جى . ب. كيلى» نقلا عن الوكيل البريطانى فى الشارقة، وما ذكره د. جمال قاسم نقلا عن الوكيل البريطانى فى الشارقة أيضًا، فإن ماذكره الأول أقرب إلى الصحة وذلك استنادًا إلى ما جاء فى التقرير الموجز للوكيل البريطانى الذى كان من رعايا بريطانيا وخاصة من الهند وباكستان ولكنه لم يكن من أبناء ساحل عمان ولهذا فإن تسميته بالوطنى خطأ وإنما الوكيل البريطانى أقرب إلى الصواب لأنه من رعاياها، وسوف نورد هذا التقرير بعد أن نشير إلى ثلاثة ملاحظات حول ما ذكره د. جمال زكريا قاسم وهى كما يلى:

(أ) حول ما جاء فى الفقرة «بأن خالدًا فر إلى أعمامه زعماء قبيلة القبيسات» والصحيح أن القبيسات ليس بالأعمام وإنما أخوال، فأعمامه هو القاتل نفسه وكذلك الشيخ خليفة بن زايد والشيخ محمد بن زايد والشيخ حمدان وطحنون أبناء زايد بن خليفة. وقد يكون د. جمال زكريا نقله خطأ أو ترجمه خطأ.

(ب) حول ماجاء فى الفقرة «أخذ الشيخ صقر خالدا من أعمامه» والصواب

أن الشيخ صقر لم يأخذ خالداً، لأن شيخ القبيسات رفض إعطاء خالد الذى يعتبر ابن أخته الشيخه «سلامة» زوجة الشيخ سلطان بن زايد وأم الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة الراحل وشقيق خالد، وقال شيخ القبيسات لشيخ صقر بأن خالداً ينزف وجرحه بليغ وأنه سيموت على أية حال فلماذا تأخذه ونحن نحاول علاجه.

(جـ) حول ما جاء، بأن شخبوط وهزاع دخلا فى حماية عبدالله بن جلوى حاكم المنطقة الشرقية فى السعودية، والصواب أنه رفض استقبالهم نظراً لموقف والدهم الشيخ سلطان بن زايد الذى كان من أشد المعارضين للتوسع السعودى فى أراضى أبوظبى، كما أن ابن جلوى أراد أن يكسب الحاكم الجديد الشيخ صقر بغية الحصول على مكاسب توسعية، وهذا ما حصل فقد رفض استقبالهم بل طردهم ومنعهم من الدخول فى أراضيه ولذا عاد شخبوط وهزاع إلى قطر ثم إلى جزر أبوظبى قبل أن يستقر فى الشارقة وهذا ما سوف نورده أيضًا فيما بعد.

جاء فى موجز التقرير الذى قدمه الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة إلى دار المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بمدينة «بوشهر»، فى شهر سبتمبر 1926، عن ساحل عمان الجنوبى حول حادثة مقتل الشيخ سلطان بن زايد حاكم أبوظبى:

«إنه فى ليلة 4 أغسطس دعا الشيخ سلطان بن زايد حاكم أبو ظبى أخاه الشيخ صقر بن زايد لتناول طعام العشاء، فقبل الشيخ صقر هذه الدعوة، ولدى وصوله إلى مقر إقامة أخيه أطلق الشيخ صقر فى الحال النار على الشيخ سلطان فأرداه قتيلا[16]، يتابع الوكيل البريطانى فى ساحل عمان تقريره بقوله:

«قيل إن سبب هذا الاغتيال، هو أنه منذ الفترة التى أصبح فيها الشيخ سلطان بن زايد حاكما لأبوظبى لم يدفع لأخوته الشيخ خليفة والشيخ صقر والشيخ محمد، وشقيقاته مصاريف بدل معيشة، ونظراً لأنهم كانوا يمرون بظروف مالية صعبة فأجمعوا أمرهم ليقفوا ضد الشيخ سلطان بن زايد، ثم حاول الشيخ صقر بن زايد اغتيال أبناء الشيخ سلطان بن زايد الذى اغتيل، ولكن هذه المحاولة لم تنجح وفشل فى قتلهم، وهم شخبوط وهزاع وخالد، فقد ركزا الشيخ صقر

بن زايد نفسه كحاكم بأبوظبى الآن، ويبدو أن شيوخ ساحل عمان الآخرين قد قبلوا به بالإضافة إلى قبائل أبوظبى»[17].

إشارة إلى ما ذكره الوكيل البريطانى فى ساحل عمان التقرير الذى قدمه إلى رئيسه المقيم السياسى البريطانى، وعلل فيه بما ادعاه الشيخ صقر بن زايد، لتبرير جريمته بقتل أخيه من عدم حصوله هو وإخوته من «مصاريف بدل معيشة»، فهذا التبرير لا يستند إلى دليل نظراً لأن مجريات الأمور تدل على عكس ذلك، عندما نجد أن أخويه الشيخ خليفه والشيخ محمد ذهبا إلى العين برفقة أبناء أخيهما المقتول سلطان بن زايد، وحافظ عليهما بعد مقتل أبيهم، ولو كانا متفقين بسبب عدم إعطائهم «مصاريف بدل المعيشة» لما أقدما بالحفاظ على حياة أبناء أخيهم، وكانا قد حملهما إلى الشيخ صقر بن زايد حاكم أبوظبى الجديد الذى كان يلاحق أبناء سلطان لقتلهم.

نجد أيضًا فيما بعد أن الشيخ خليفة بن زايد، يلعب دوراً كبيراً فى قتل الشيخ صقر بن زايد، وتوليه ابن أخيه المقتول الشيخ شخبوط كحاكم لأبوظبى، مما يعنى عدم صحة ما قاله الشيخ صقر بن زايد أو ما ادعاه الوكيل البريطانى بالشارقة فى ساحل عمان، وإنما كان مجرد إيجاد زريعة أو تبرير لعمله اللا أخلاقى، والهدف هو تولى الشيخ صقر بن زايد الموالى لبريطانيا الحكم فى أبوظبى، بدلا من أخيه الشيخ سلطان بن زايد الذى كان مستاء من التدخل البريطانى فى شئون حكمه الداخلى، ومن ثم السكوت البريطانى عن محاولات الشيخ صقر بن زايد العديدة فى التخلص من أبنائه شخبوط وهزاع وخالد، إضافة إلى ذلك فإن انفراد صقر بالحكم دون مشاركة أخوته خليفة ومحمد فى الحكم كما كان يحدث سابقا يدل على عدم صحة تبريراته.

هروب شخبوط وهزاع من أبوظبى والبريمى:

كتب الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة، فى شهر نوفمبر 1926 إلى دار المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بقوله:

«غادر شخبوط وهزاع ابنى شيخ أبوظبى المقتول مؤخراً قصر شيخ قبيلة النعيمى حاكم منطقة البريمى العمانية، وتوجها إلى إمارة دبى حيث لم يتمكنا من

مقابلة حاكم دبى بسبب غيابه المؤقت خارج المشيخة، ثم توجها إلى مشيخة الشارقة[18].

وبذلك تمكنا من الهروب من أبوظبى عن طريق الصحراء الواقعة بين البريمى ودبى دون أن يعتقلهما الشيخ صقر بن زايد، كتب الوكيل البريطانى فى ساحل عمان فى شهر ديسمبر 1926 تقريره إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى جاء فيه:

«بأن ابنى الشيخ المرحوم سلطان بن زايد قد غادرا دبى متوجهين إلى البحرين، ولدى سماع الشيخ صقر بن زايد حاكم أبو ظبى عن مغادرتهما قام باعتقال خالهما الشيخ حمد بن بطى (حامد بن بطى) زعيم قبيلة القبيسات وسجنه متهما اياه إنه كان السبب فى تحريض ابنى المرحوم الشيخ سلطان بن زايد على الهرب إلى دبى والشارقة ثم التوجه إلى البحرين لإثارة المتاعب ضد حكم صقر فى أبوظبى»[19].

يتضح من تلك التقارير عدم اهتمام البريطانيين، وخاصة الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بتحركات ابنى الشيخ المقتول، وكيف كان الأخير يراقب سيرتهم بكل دقة وتفصيل، ويكتب التقارير أولاً بأول، وقد يستعجل فى إصدار بعض الأحكام مما قد تتناقض فى بعض التقارير ثم يعيد كتابته فى التقرير التالى أو يلحقه بالتقرير السابق، مما يعنى أنه كان يتوقع أهمية شخبوط فى الصراع السياسى والذى لعب دوراً فيما بعد عند استلامه الحكم فى أبوظبى.

ملاحقة حاكم أبو ظبى لشخبوط وهزاع:

بعث عيسى بن محمد نائب الحاكم فى جزيرة «دلما»، رسالة إلى شيخه صقر بن زايد حاكم أبو ظبى فى 4 شعبان 1345، الموافق 7 فبراير 1927 يقول فيها:

أود إعلامك بصدد أحوال ابنى الشيخ سلطان بن زايد، إنهما أعدا بعض السفن ووضعا رجالهما فيها، وكان قد أشيع سابقًا أنهما سيذهبان إلى جزيرة «غشة»، وقد وصلا فعلا جزيرة «غشة» ومعهما أكثر من أربعين رجلا مسلحًا، وكان هدفهما الاستيلاء على جزيرة «دلما» بأى ثمن، ولكنهما لم يتمكنا لوجود الدفاعات القوية، وإن تلك الأعمال تسىء إلى سمعتك وتهدد مركزك بعدم اهتمامك بهم وعدم ملاحقتك لهم والتخلص منهم[20].

يتـابع نائب الحاكم فى جـزيرة «دلما» رسـالته إلى شـيخ أبو ظبى طالبًا منه إرسال المزيد من القوات والإمدادات بقوله:

«نرجو منـك إرسال سفن مـحملة بالقـوات والإمدادات العسكـرية اللازمة بأسرع ما يمكن لحماية الجزيرة من هجـمات شخبوط وهزاع»، ثم يعلن وقوفه إلى جانبه بكل قـوة حتى يكسب ثقة حاكم أبو ظبى بقوله : «كنا قـد أقسمنا بالله إننا مستـعدون أن نساعـدك ولم نحد عن وعدنا بمساعـدتك»، ثم يشيد بأحد أتباعه بقوله: «أبو هليبة» هو الذى يتصرف بأمـانة، الرجاء إرسال سفينة ذات «صار»(21) أى سفينة ذات شراع كبير حتى يتم مطاردة شخبوط بسرعة فيما بين جزر أبو ظبى الكثيرة والمتناثرة فى المياه الجنوبية من الخليج العربى.

تمكن شخبـوط وهزاع بمساعدة قواته وبعض الأهالى أن يسـتولى على بعض أجزاء من جزيرة «دلما» وهنا أسرع نائب الحاكم فى جزيرة «دلما» بإبلاغ الشيخ صقر بن زايد عن تطور الأوضـاع الأخـيرة وعلى أثر ذلك قـام الشـيخ صقـر بن زايد بإرسال القوات اللازمـة والمجهزة بالأسلحة والسفن السـريعة كى يتم القبض على شخبوط وأتباعه فى جزيرة «دلما»(22).

وصلت تلك السفن المحـملة بالقوات العسكرية مـن أبوظبى إلى جزيرة بنى ياس» التابعـة لأبوظبى بالقرب من جزيرة «دلما»، نصح سكان جـزيرة «دلما» الشيخ شـخـبـوط وهزاع بمغـادرة المكان بسـرعـة، نظراً لقـرب وصـول قـوات أبوظبى لاعتقالهـما، فصعد الاثنان سفنهما وعـادا من حيث أتيا فى «الوكرة» فى الجنوب الشرقى من قطر(23)، ونلاحظ هنا مدى تعاطف سكان جزيرة دلما مع شخبوط.

وجه الشـيخ صقر بن زايد حـاكم أبوظبى رسالة إلى الوكـيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة فى 26 شعبان 1345 الموافق 1/ 3/ 1927 جاء فيها:

توجه ابنى دياب اليوم إلى الجزر الشرقية، وخاصة جزيرة «دلما» وما يجاورها من الجزر، لقضـاء بعض الأعمال ولتفقـد أحوال الرعية والحفاظ على الاسـتقرار والأمن، وخاصـة بعد حدوث بـعض القلاقل نتيـجة لمجىء أبناء الشـيخ المرحوم سلطان بن زايد إلى تلك الجـزر ومعـهما بعـض رفاق السوء، وكنت أخـشى من ارتكابهم لأعمال مخلة بالأمن والاستقرار، ومهاجمة أتباعى فى المنطقة المذكورة مما

قد يحدث فوضى واضطراب الأوضاع، ولذا قمت بإرسال ابنى دياب للمحافظة على أمن واستقرار الجزر الشرقية، ولإخراج ابنى الشيخ سلطان[24].

الموقف القطرى من الصراع السياسى فى أبوظبى:

بعث الشيخ عبدالله بن قاسم آل ثانى حاكم قطر برسالة جوابية إلى الشيخ صقر بن زايد حاكم أبو ظبى فى3 رمضان 1345 الموافق 7/ 3/ 1927 جاء فيها بعد التحية:

«تسلمت رسالتك فسعدت بقراءتها، وعلمت ماجاء فيها وبالنسبة لأسرة «القبيسات» الشريرة التى كانت تقف بجانب ابنى الشيخ سلطان بن زايد، فلا تعرف مكان إقامتها، إلا أنه بعد أن سمحنا لهما بالذهاب فى رحلة عادا وهما فى حالة بؤس، ثم بعد فترة وكأنهما قد اتجها نحو «دبى»، ولكنهما فى حقيقة الأمر ذهبا إلى «الوكرة»، وعندما قمنا باستفسار عنهما، فوجدناها قد عبرا فى سفينة تعود ملكيتها إلى «ابن مالغى» ولا نعلم بعد ذلك أين ذهبا»[25]، يتابع بعد ذلك حاكم قطر رسالته وعن دهشته لهذا الاهتمام من قبل حاكم أبوظبى، ويحاول تخفيف المطاردة والملاحقة لشخبوط وبأنها غير مجدية حيث يقول:

«لم نعر ذلك كل اهمامنا فنحن نشك بهما، فعملهما هذا غير مجد، فما الفائدة التى سيحصلان عليها من أهالى جزيرة «غشة» وبقية الجزر الأخرى. لاشك أن الخطر سيحدق بهما منك ومن أسرة «القبيسات»، وسيصدر شقيقى الشيخ عبدالرحمن إن شاء الله تعليمات هامة حولهما وسيعيدهما إليك، وبمشئة الله لن يحدث من جانبنا أى عدوان فنحن من قبيلة واحدة[26].

بعث الشيخ عبدالرحمن بن قاسم آل ثانى، نائب حاكم قطر وشقيقه فى منطقة «الوكرة»، برسالة جوابية إلى الشيخ صقر بن زايد حاكم أبوظبى فى ٤ رمضان 1345، الموافق مارس 1927 بقوله بعد التحية:

«تسلمت رسالتك فى ساعة مباركة، وكان فيها اطمئنان عن صحتك الجيدة، أما بالنسبة لقبيلة «القبيسات» التى كانت تقف بجانب ابنى سلطان (وهو تعبير يستخدم للسخرية لاسم سلطان بن زايد) فنحن لا نعلم عن مكان إقامتهما ماعدا أن الرجل الذى قام بمساعدتهما فى العبور فى سفينة يدعى «ابن مالغى» فقد كانا

يريدان عبور الشاطئ والذهاب إلى ناحية دبى، فلم نبد اهتمامنا بذلك، فكل شيء حولهما يثير الشك، ولكن يا صديقى إن عملهما هذا عديم الفائدة، فالخطر ينتظرهما، ولن يحصلوا على شيء نافع من سكان جزيرة «غشة».

سوف نعيدهما وجميع المرافقين لهم، إليك قريبًا، وستكون راضيًا إن شاء الله، فنحن من نفس القبيلة والجماعة، طالما أنت تعرف كيف تحافظ على الود الذى بيننا»(27).

يلاحظ من الرسالتين، مدى تعاطف شيوخ قطر مع حاكم أبو ظبى فى سبيل ملاحقة ومطاردة ابنى الشيخ سلطان بن زايد، والقبض عليهما وتسليمهما إلى صقر بن زايد، كما نجد أنهما ينصحان بعدم الاهتمام أو الملاحقة وإنه غير مجد وعديم الفائدة.

يفيد شيوخ قطر فى ردهما، بعدم علمهما بمكان وجودهما بطريقة دبلوماسية، مما يعنى محاولة التستر على وجود شخبوط وهزاع فى «الوكرة»، ومن ثم نصحهما بأن يغادرا ويبحثا عن مكان آخر أكثر أمانًا، وذلك خوفا من تعكير العلاقات القطرية ـ الظبيانية بسبب تواجدهما.

اتسمت العلاقات القطرية ـ الظبيانية فى هذه الفترة بالود وحسن الجوار، وذلك بعد ما كانت العلاقات بينهما عدائية فى عهد أبيهما، الشيخ خليفة بن زايد، والشيخ قاسم بن محمد بن ثانى، وقد يرجع أيضا إلى نهاية الحكم العثمانى فى قطر، حيث كان البريطانيون والعثمانيون يحرضون حكام أبوظبى وقطر، مما أدى إلى حالة من العداء بينهما، وأما الآن فإنهما تحت الحماية البريطانية، والظروف المحركة تغيرت، فلابد أن تكون العلاقات الثنائية ودية تمشيا مع الوضع الإقليمى السياسى للمنطقة.

تدل تلك الرسائل من ناحية ثانية على سياسة وحكمة شيوخ قطر بعدم التدخل فى الشئون الداخلية بأبوظبى، وعدم تقديم أية مساعدات عسكرية أو مالية لشخبوط وهزاع بغية إعادتهما إلى الحكم، وهذا ما يحدث عادة فى مثل هذه الظروف، حيث يستخدم بعض الحكام اللاجئين أو المعارضين السياسيين كورقة ضغط لتحقيق مكاسب خاصة.

الموقف السعودى من الصراع السياسى فى أبوظبى:

يبدو أن مهـمة شخبوط فى الأحسـاء، عند «ابن جلوى» فشلت لأن الموقف السعودى كان متعاطفًا مع الحاكم الجديد لأبوظبى الشيخ صقر بن زايد، حيث كان شقيقه الحـاكم ووالد شخبوط معارضًا للتـوسع السعودى فى إمارة أبوظبى، وذلك عندما منع الشيـخ سلطان زايد قبائل «المناصير» و«المزاريع» و«الـعوامر» و«المناهيل» فى منطقة «الظـفرة» من التعـامل مع السعوديين وعـدم السماح لهـم بالتدخل فى أراضى أبوظبى.

أرسل «ابن جلوى» حـاكم الأحساء فى السـعودية قـوة من قبـائل «ال مرة» «الغزو» المناصيـر» و«بنى ياس» فى منطقة «ليو»، كمـا وصل سعيد آل عـرفه لجمع الزكاة من قـبائل أبوظبى ولكن الشيخ سلطان بن زايد رفض الاعـتراف به وبذلك فشل الوفد السعـودى فى الحصول على الزكاة من بعض قبائل منطقـة العين التابعة لأبوظبى، فى الوقت الذى اعتمد حاكم أبو ظبى الشيخ سلطان بن زايد على دعم حليفه حاكم دبى، فى حين أسرع «ابن جلوى» بالكتابة إلى الشيخ سعيد بن مكتوم حاكم دبـى فى نوفمبر 1925 يشيـر فيـها إلى سلطان بن زايد بأنـه وراء تحريض القبائل فى البريمى ضد السعودية وقد جاء فى رسالته[28]:

«لقد بلغنا أن أخـانا سلطان بن زايد قد بعث برسول يحذركم من سـعيد ال عرفة ويقـول إن المذكور قد أغار علـى منطقتكم بأربعمائة رجل من الهـجانة وأنه يقوم بحفر الآبار وإننا سنلحقه، ولكنكم رفضتم تصديقه ولـم يأخذكم الشك فينا، وأن هذا ليثـبت أنكم لا تصدقون الأكاذيب التى تروج ضـد ابن سعود وتعـاقبون الكاذب، وإن أخانـا سلطان مجنون وهو لا يدرى أننا أقـوى منه عدة وعـتادًا وأن الأكاذيب التى يبلغها إليه رجال البدو تستفزه، غير أن الاستفزاز لايؤدى إلى نتيجة .. وعلى أى حال فإننا سننتصر عليه وعلى غيره طال الزمن أم قصر».

تؤكد هذه الرسالة العلاقات العدائيـة بين أبوظبى والسعودية فى عهد الشيخ سلطان بن زايد والد شخبـوط، ولكن هذه العلاقات تغيرت فى عهـد الشيخ صقر بن زايد الذى كان حريصًا على إقامة علاقات قوية مع «ابن جلوى» و«ابن سعود»، لأنه كان يعتقد أنه بدون تأييدهما لن يستطيع البقاء فى الحكم ومن الممكن أن يطاح

به من قبل ابنى الشيخ سلطان، ولذلك حاول الشيخ صقر بن زايد اقناع «ابن جلوى» بعدم تأييده لشخبوط أو السماح باستخدام أراضيه ضده، وأرفق بطلبه هذا هدايا قيمة كما وافق على السماح لعمال ابن جلوى بجباية الزكاة من منطقة العين والمناطق المجاورة لها، وقد وصل بالفعل عمال من السعودية إلى العين فى عام 1927، وبذلك كان الشيخ صقر حريصًا على علاقته الودية مع السعودية تأمينًا لحكمه دون الاهتمام بوطنه[29].

طلب ابن سعود من هذا المنطلق ببعض المكاسب من الشيخ صقر بن زايد مقابل طرد شخبوط وهزاع من أراضيه، عندما لجأ إلى «ابن جلوى» فى الأحساء، وبذلك لم يستمر شخبوط وهزاع في الاحساء، بعد ما رفض ابن جلوى مطالبهما أو استقبالهما ولهذا عادا إلى «الوكرة» فى قطر، وطلب الشيخ صقر بن زايد أيضًا من حكام قطر بعدم تأييدهما أو استقبالهما، اضطر شخبوط وهزاع أخيرًا التوجه إلى جزيرة «غشة» ولكن نظرًا لمطاردة الشيخ صقر بن زايد وللاحقته لهما، فإنهما اضطرا أن يلجآ إلى الشارقة بالقرب من مقر الوكيل البريطانى حيث يكونان تحت رقابته من جهة وكذلك تحت حمايته من جهة ثانية بحيث لا يستطيع صقر ملاحقتهما أو اعتقالهما، وهذه الأحداث كان لها أثر فى نفس شخبوط عندما تولى الحكم فى أبو ظبى، مما كان سببًا فى اتخاذ سياسة معادية لابن جلوى وابن سعود وكذلك سياسته المتحفظة تجاه قطر ودبى والمعادية لبريطانيا التى وقفت ضده.

الموقف البريطانى من الصراع السياسى فى أبوظبى:

بعث الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة، برسالة إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «ببوشهر» فى سبتمبر 1927 جاء فيها:

«أود إبلاغك أن الرسول الذى أرسل إلى الشيخ صقر بن زايد حاكم أبو ظبى، لتسليمه رسائلك والتى تطلب فيها أن يعيد الوالد الموجود لدى محمد بن راشد، قد أعلمنى لدى عودته إنه شاهد بأم عينيه 12 سفينة عادية وسفينتين حربيتين أعدها الشيخ صقر بن زايد لتكون جاهزة للعمل، وكان على ظهر هذه السفن 400 رجل مسلح، أما السفينتان الحربيتان فعليهما أربعة مدافع وقذائف من النوع القديم.

توجهت تلك السفن إلى جزيرة «صير بنى ياس» وجزيرتى «دلما» و«غشه»، وكانت تلك الجزر تحت حكم دياب ابن الشيخ صقر بن زايد، وقيل إن شخبوط وهزاع ابنى الشيخ المرحوم سلطان بن زايد قد توجها من قطر إلى «دلما»، كما قال خالهما وهو من أسرة «القبيسات»، والإقامة فى «دلما»، ولهذا توجه دياب إلى هناك ومعه قوات لمقاتلة شخبوط وهزاع، وبعد عودة الرسول المذكور آنفًا من أبوظبى، تسلمت رسالة من الشيخ صقر بن زايد، حيث أرفقت لك مقتطفاتها للاطلاع عليها»[30].

يتابع الوكيل البريطانى فى ساحل عمان رسالته إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى قوله:

«ذكر الشيخ صقر فى رسالته أنه أرسل ابنه دياب إلى الجزر ويؤيد هذا ما صرح به رسولى، ثم وصلتنى بعد ذلك أخبار من مدينة أبوظبى، مفادها أن ابنى سلطان بن زايد غادرا جزيرة «دلما» إلى قطر، وقبل وصولهما بيوم واحد، وفى جزيرة «صير بنى ياس»، قام دياب بن صقر بمطاردتهما بواسطة سفينتين محملتين بأسلحة وعتاد وأكثر من مائة وخمسين رجلا، ولم يعرف حتى الآن ما حدث.

ولما علم شيوخ القبائل فى ساحل عمان، خاصة شيوخ أسرة «القواسم»، بأن الشيخ صقر بن زايد قد أرسل ابنه دياب مع قوات عسكرية عبر البحر للقتال، فقد اعتقد هؤلاء شيوخ القبائل، أن السلطة البريطانية العليا قد رفعت الحظر بحراً (يقصد هنا اتفاقية الهدنة البحرية الدائمة الموقعة بين بريطانيا وشيوخ القبائل فى ساحل عمان)، وإن شيخ أبوظبى قام بإرسال قواته بحرًا للقتال لإخضاع هؤلاء الرعايا المتمردين، أو لاستعادة أية جزيرة كانت قد احتلت بالقوة، وإن شيوخ أسرة القواسم الذين يمتلكون جزراً وخلجان على البحر، قد تحدثوا عن هذا الموضوع، واعتقد أنه إذا ترك أو سمح لشيخ أبو ظبى الذى ارتكب خرق القانون وشأنه، فإنه يحتمل أن يحدث خرق للسلام فى البحر وفى هذه الموانئ، إن هذا الأمر متروك لك لتقرر بشأنه ما تراه»[31].

بعث الوكيل البريطانى فى ساحل عمان برسالة جوابية إلى المقيم السياسى البريطانى فى 18 إبريل 1927 جاء فيها:

«إشارة إلى رسالتك رقم 66 والمؤرخة في 27 مارس 1927 والتى تطلب فيها منى القيام بمزيد من الاستفسارات حول سبب مغادرة شخبوط وهزاع ابنى الشيخ المرحوم سلطان بن زايد إلى جزيرة «دلما» وفيما إذا كانا مسلحين أم لا.

أود أن أعلمك أننى قمت باستفسارات وعلمت أن شخبوط وهزاع ذهبا إلى الشيخ عبدالله بن جلوى أمير الأحساء وطلبا منه أن يكتب لعمهما الشيخ صقر بن زايد للسماح لهما بالإقامة في جزيرة «دلما» (ولكنهما لم ينجحا فى ذلك كما ذكرنا سابقًا)، ثم ذهب شخبوط وهزاع من الأحساء إلى «الدوحة» ثم «الوكرة» (ولكنهما أيضًا فشلا فى ذلك) حيث أعدا سفينة وصعدا على متنها ومعهما بعض أفراد «القبيسات» المقيمين فى «الوكرة» وكان جميعهم مسلحين»[32].

أرسل الشيخ صقر بن زايد حاكم أبوظبى رسالة جوابية إلى المقدم «ك. ب. هو. هاروث». المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى فى 16 صفر 1346 الموافق 14 أغسطس 1927 جاء فيها:

«تسلمت رسالتك فى ساعة مباركة وسررت أنك بخير ونشكرك على نصيحتك لنا بالنسبة لموضوع إرسالى لقوة عبر البحر تجاه أبناء أخى دون علمك، اود أن أعلمك أنهما لم يكونا على درجة من النضوج، وكان بصحبتهما بعض الأشرار الذين لا يعرفون الصالح من الطالح، وبما أننى كنت خائفًا إذا قمت بإعلامك أن تتأخر برسالة ردك، وقد يحدث بعض الاضطرابات وإراقة الدماء بين ابن أخى وبين رجالى، لذا أرسلت رجالى لإحلال السلام ومنع حدوث الاضطرابات فى البحر وليس لمطاردتهما. أتمنى أن أقوم بالمهمة المكلف بها بطريقة مرضية فى جميع الأحوال»[33].

نجد هنا فى الرسائل السابقة المتبادلة بين الوكيل البريطانى فى ساحل عمان، والمقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى وشيخ أبوظبى، أن موقف بريطانيا كان سلبيا من عملية الاغتيال وهى التى تدعى بأنها تحافظ على أمن المنطقة وأمن الحكام، كما أنها وقعت اتفاقيات معهم بأن يكون الحكم وراثيًا، ولم يكتف بالموقف السلبى من الأحداث المتعلقة بالأمن، والصراع السياسى فى أبوظبى، بل اعترفت بالحكم الجديد وغضت الطرف عن عملية الملاحقة والمطاردة التى قام بها

الشيخ صقر بن زايد ضد ابنى القتيل شخبوط وهزاع فى ساحل عمان وقطر وفى المياه الإقليمية وجزر أبوظبى.

اكتفى المسئولون البريطانيون بقولهم: يجب أن تعلمونا عن عمليات الملاحقة والمطاردة والتى ليست بريطانيا ضدها، وهى لا تحرك ساكنا أو تمنعه من الإخلال بالأمن والاستقرار ويخرق إتفاقية الهدنة البحرية الدائمة، مما يعنى أنها تريد الإعتراف بالحكم الجديد لتبعيته لبريطانيا بطريقة أو بأخرى، وكل ما يهم البريطانيين عن عملية المطاردة لشخبوط وهزاع أن لا يتم فيها خرق لاتفاقية «الهدنة البحرية الدائمة»، وللسلام والاستقرار فى مياه الخليج العربى، ومع ذلك حدثت عدة خروقات ولم تحرك بريطانيا ساكنًا، مما يعنى أن تفسير تلك الاتفاقية راجع حسب المفهوم البريطانى، أى عدم التعرض للسفن التى ترفع العلم البريطانى ولرعاياها فى مياه الخليج العربى أثناء عمليات المطاردة والملاحقة، وما عدا ذلك لا يهم حتى لو كان هناك أضرار فى المنطقة ولأبنائها، أى أن مصلحة بريطانيا المسيحية الاستعمارية فوق الجميع وأهم من عملية الاستقرار والأمن فى ساحل عمان وخاصة أبو ظبى وأن عمليات القتل والاضطرابات فيها لا يعتبر من عملية السلام وان تفسير اتفاقية الهدنة حسب المفهوم البريطانى.

ولهذا لا ينبغى أن نغفل تأثير السياسة البريطانية ودورها فى الأوضاع الداخلية والأحداث المضطربة فى ساحل عمان، وإن ظهرت فى صورة المنقذ لها من تلك الأوضاع التى هى السبب الرئيسى فيها، لأن السلطات البريطانية كانت تستغل حدوثها أو تكون هى المحرضة عليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة حتى تحقق أكبر قدر من السيطرة والنفوذ، إذ كانت الاضطرابات تتيح لها الفرصة لكى تفرض رقابتها الفعلية وأن تجعل من نفسها حكمًا فى المنازعات القائمة وتتدخل لأتفه الأسباب بحجة المحافظة على الأمن والاستقرار(34).

مقتل الشيخ صقر بن زايد وعودة شخبوط وهزاع إلى أبوظبى:

بعث الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة بتقرير فى 9 يناير 1928 إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى وبمجىء شخبوط إلى الشارقة ومقتل الشيخ صقر بن زايد فى أبو ظبى فقد جاء:

«بالإشارة لرسالتى رقم 437 والمؤرخة فى 8 سبتمبر 1927، والمتعلقة بحاكم أبوظبى وابنى أخيه شخبوط وهزاع اللذين يقيمان فى البريمى، وبتحريض من الشيخ خليفه بن زايد (شقيق الحاكم صقر بن زايد) فقد وصل إلى الشارقة ابنى أخ الشيخ مرافقين لأسرتهما وذلك فى 2 ديسمبر 1927، وقاما بإرسال عبد من الشارقة إلى الشيخ خليفه بن زايد واثنين من البدو»[35]. (من الحرس الخاص). يتابع الوكيل البريطانى من الشارقة قوله:

«أرسل الشيخ خليفه بن زايد، رسالة من أبوظبى بعد ذلك إلى شخبوط وهزاع يطلب منهما المجىء إلى أبو ظبى، وقاما بالتوجه بها إلى هناك يرافقهما أتباعهم ممن كانوا يقيمون معهما فى الشارقة، فى حين غادر أبناء الشيخ المقتول صقر بن زايد وأسرهم إلى دبى حيث استقروا هناك[36]».

يبدو مما جاء ذكره فى تقرير الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة أنه كان متسرعًا أو كتب التقرير بمجرد سماع الأخبار دون التحرى أو التريث لمعرفة كيفية وقوع الحادث، مما أحدث تناقضًا فى حادث القتل، وقد يرجع ذلك إلى أهميتها وإلى سرعة إبلاغ السلطات البريطانية فى دار المقيمة السياسية البريطانية فى الخليج العربى فى مدينة «بوشهر»، ولذا فإن الوكيل البريطانى، مستعجل فى نقل أخبار مقتل الشيخ صقر بن زايد، ثم تدارك ذلك وبعث برسالة أكثر تفصيلاً عن مجريات الأمور والصراع الدائر على السلطة فى جنوب ساحل عمان بأبوظبى وهذا ما قد يفسر بعض التناقض فى الرسالتين عندما كتب الوكيل التقرير التالى بتاريخ 25 يناير 1928 جاء فيه:

«بالإشارة إلى برقيتى رقم 3 المؤرخة فى 5 يناير عام 1928، والمتعلقة بمقتل الشيخ صقر بن زايد حاكم أبوظبى، أود أن أعلمكم أن نتيجة استفساراتى وتحرياتى تبين أنه فى شهر ديسمبر عام 1927 كان الشيخ صقر بن زايد مستاء من أخيه الشيخ خليفة بن زايد (شقيقه الأكبر) وابنه محمد، وحاول فى مناسبات كثيرة قتلهما والتخلص منهما، إلا أنه لم تسنح له الفرصة المناسبة للقيام بذلك، وعندما علم الشيخ خليفة بن زايد بهذه المؤامرة لاغتياله، أرسل رسالة إلى القبائل الموالية له من «المناصير» (الذين كانوا قد توجهوا إلى الأحساء وقطر بعد مقتل سلطان بن

زايد كما يقطنون فى المناطق الداخلية فى صحراء «ليوا» التابعة لأبو ظبى) وطلب منهم المجىء، وجاء هؤلاء كضيوف، وبمجرد أن سنحت الفرصة للخدم وبدو «المناصير» (الموالين للشيخ خليفة بن زايد) أطلقوا النار على الشيخ صقر بن زايد فأردوه قتيلا ثم قام الشيخ خليفة بن زايد ومعه قبيلة المناصير بالاستيلاء على مقر الحكومة، ثم أمر الشيخ خليفة بن زايد أبناء صقر بالخروج من أبو ظبى (ومغادرتها نهائيًا خوفًا على حياتهم من الانتقام من أتباع شخبوط، كما أنهم لم يحاولوا أن يقتلوهم كما فعل والدهم الشيخ صقر بن زايد لأبناء الشيخ سلطان بن زايد) فقد قام أبناء صقر بن زايد باستئجار قاربين لنقلهم وأمتعتهم وغادرا متوجهين إلى دبى بعد ما سمح لهم الشيخ سعيد بن مكتوم بالاستقرار والإقامة فى مشيخته»[37].

يتابع الوكيل البريطانى تقرير بقوله:

«كتب الشيخ خليفه بن زايد إلى شخبوط وهزاع ابنى سلطان بن زايد اللذين كانا فى الشارقة، وطلب منهما المجىء إلى أبو ظبى، متوجها إلى هناك برا ولدى وصولهما سلمهما الشيخ خليفه بن زايد مقر الحاكم وأصبح شخبوط الذى قمت بإرفاق رسالته إليك، أصبح حاكمًا فى أبوظبى، علمت أن أبناء الشيخ صقر بن زايد المقيمين فى دبى يقومون بترتيب بعض المكائد ضد شخبوط الحاكم، وحسب المعلومات التى وصلت من أبوظبى فإن البلدة فى حالة اضطراب، سأقوم بإبلاغك بمزيد من التطورات فى الوقت المناسب»[38]. توجد هناك رواية أخرى عن حادثة القتل، ذكرها د. جمال زكريا من مصدر آخر هو شركة البترول الأمريكية «أرامكو»، وهى لا تختلف كثيراً عما ذكره المصدر البريطانى، إلا فى الدور المتزايد لقبيلة «المناصير» ذات العلاقة القوية وخاصة المصاهرة مع الشيخ خليفه بن زايد من جهة وعلاقة قبيلة المناصير مع السعودية من جهة ثانية، واستخدام شركة البترول الأمريكية «أرامكو» هذه الحادثة فى مشكلة الحدود السياسية المعروفة «بقضية البريمى» من جهة ثالثة، حيث جاء ذكرها على النحو التالى:

«إن الصعوبة التى واجهها صقر، والتى أدت فى النهاية إلى اغتياله، أتت أساسًا فى عدم مقدرته إيجاد علاقات طيبة مع المناصير إذ قلل من أعطياتهم السنوية التى كانوا قد تعودوا الحصول عليها من شيوخ أبو ظبى من فرع بوفلاح،

وزادت شكوك صقر بن زايد من المناصير إلى تآمره على اغتيال ابنه محمد وأخيه الأكبر خليفه (الشيخ خليفه بن زايد شقيقه الكبير وابنه الشيخ محمد بن خليفه) الذى كان مصاهراً لهم، ولكن لسوء حظ صقر انكشفت مؤامرته ووضع المناصير من ناحيتهم خططًا مناهضة، وفى نهاية عام 1927 استميل عبد فى قصر صقر لاغتياله، ولكن العبد أساء التصويب، وعندما هرب صقر تتبعه أحد رجال المناصير وأرداه قتيلا. وبدلا من اقرار الانشقاق بين المناصير وال بوفلاح فإن مقتل صقر أدى إلى زيادة حدة الشقاق، إذ حاول المناصير تعزيز موقفهم فى أبوظبى بتنصيب محمد بن خليفه حاكمًا على المشيخة، ومن ناحية أخرى نجد أن أعضاء آل بوفلاح نظروا باستياء إلى تدخل المناصير فى اغتيال صقر، ومحاولتهم التحكم فى اختيار خليفة له، ولكن الأمور لم تلبث أن استقرت حينما قرر محمد بن خليفة الانسحاب من توليه المشيخه فوقع الاختيار على شخبوط، وهو أكبر أبناء سلطان بن زايد، وكان إذ ذاك شابًا فى العقد الثالث من عمره»[39].

نلاحظ من خلال الأحداث السابقة، مدى قوة المصاهرة فى العلاقات الخاصة، وبالذات فى النزاع الأسرى بين الإخوان والأعمام على السلطة السياسية المتمثلة فى الحكم، فقد كان معظم حكام الجزيرة العربية، يتزوجون من مختلف بنات القبائل القوية، وذلك لتعزيز الحكم واستمراريته عن طريق المصاهرة، حيث يستمدون الدعم المادى والمعنوى من تلك القبائل القوية، ذات التأثير الفعال فى المجتمع، وممن اتبع هذه السياسة على سبيل المثال، الشيخ زايد بن خليفه وابن سعود وجده الأمير فيصل بن تركى، وبرغم أن هذه المصاهرة لها إيجابيات فإن لها بعض السلبيات وقد تكون خطيرة، وهى تزايد تدخل هذه القبائل فى الشئون والنزاعات الأسرية، وخاصة على السلطة السياسية حيث تأخذ بالشدة والعنف، وقد تؤدى إلى زوال الأسرة من الحكم كما حدث عندما قدمت قبيلة العجمان وهى من أقوى قبائل شرق الجزيرة العربية على الإطلاق، الدعم والمساندة باشتراكهم مع الأمير سعود بن فيصل الذى كان أخواله العجمان الذين نجحوا فى إسقاط حكم أخيه عبدالله بن فيصل وتوليه سعود بن فيصل الحكم فى نجد عام 1870، وما أعقبه من حملة مدحت باشا واستيلاء الشمر على الرياض.

نجد كذلك فى الصراع السياسى بأبوظبى نفس الدور لعبته المصاهرة

والقبائل، فقد كان الشيخ سلطان بن زايد تصاهر مع أسرة «القبيسات» أخوال الشيخ شخبوط والشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات الراحل، فقد قدمت هذه القبيلة الدعم والمساندة الكاملة لابنى الشيخ سلطان بن زايد فى هذا النزاع الأسرى والصراع على السلطة، وكذلك الحال بالنسبة لقبيلة «المناصير»، الذين قدموا الدعم والمساندة لـلشيخ خليفه بن زايد الذى كان مصاهراً لهم، واستجابوا لدعوته، وكان معروفًا عن الشيخ خليفة بن زايد زهده وبعده عن الحكم، ولهذا كان قد رفض الحكم عدة مرات فى السابق، وكذلك الآن أو حتى ابنه محمد بن خليفه الذى كان أخواله من «المناصير» يساندونه بقوة، ولكن الشيخ خليفة رفض ذلك وفضل ترشيح شخبوط ابن أخيه.

الشيخ شخبوط حاكما لأبوظبى

لاحظنا كيف استطاع الشيخ خليفة بن زايد التخلص من أخيه الشيخ صقر بن زايد، عن طريق قبائل «المناصير» الموالية له، وترحيل أبنائه إلى دبى، ومن ثم استدعاء ابن أخيه شخبوط الذى عانى كثيراً من محاولات لقتله من عمه حاكم أبوظبى السابق، وكان طريداً وملاحقا، وبعد مجىء شخبوط إلى أبوظبى، سلمه عمه الشيخ خليفة بن زايد قصر الحكم المسمى بقصر «الحصن»، الذى كان أفراد من قبيلة «المناصير» قد استولوا عليه وطردوا أبناء صقر بن زايد منه.

تداركت أسرة البوفلاح مغبة هذه الخصومات، فتعهد أفرادها عند اختيار شخبوط عام 1928، زعيما عليهم، بأن يلتزموا جميعًا بطاعته والولاء له، ومما هيأ له فرصة البقاء طويلا، عدم تورطه فى الخلافات والصراع السياسى السابق إذ كان متغيبًا فى خارج أبوظبى فى الشارقة، أثناء وقوع الاغتيالات[40].

سبق حكم الشيخ شخبوط، عديد من الحكام الذين اغتيلوا فى أبوظبى بعد فترة قصيرة من وصولهم للحكم، ولكن حكم الشيخ شخبوط بن سلطان الطويل لا يعود إلى شىء أكثر من حكمة والدته الشيخة «سلامة» من «القبيسات» التى طلبت عند وصول ابنها إلى الحكم من جميع أبنائها أن يقسموا بألا يحاول أحد منهم خلع الشيخ شخبوط بالقوة من الحكم، وفيما يبدو أنه كان يتمتع بحظوة خاصة لديها[41]، أو لقوة احتماله ولصبره على المشاكل التى واجهها.

يرجع ذلك التخوف إلى الفترة التى سبقته، حيث اغتيل الأخوة فيما بينهم، فخافت الشيخ «سلامــة» أن يحدث ذلك على ابنه، مما يعرض ليس ابنه أو أبناءها لعمليــة الاغتيالات فــقط، وإنما ما قد يســبب ذلك من مشاكل ومـآس اجتماعـية واقتصادية وعدم الاستقرار والأمن، ليس للعائلة وإنما لأبوظبى وسكانها جميعًا.

ليس من شك فى أن حكم شخبوط الطويــل بعد الاضطرابات السابقة التى شهدها ســاحل عمان الجنوبى فى أبوظبى، أدى إلى إضافــة عامل هام من عوامل الاستقــرار لم تعرفه المشــيخة منذ وفاة الشــيخ خليفه بن زايد، فقــد حكم الشيخ شخــبوط بن سلطان أبوظبــى من عام 1928 إلى عام 1966، وهذا الحكم الطويل الذى بلغ ثمانية وثلاثين عامًا كان شيئًا غير مألوف فى المشيخة[42].

بعث الوكيل البــريطانى فى ساحل عمــان بالشارقة، بتـقرير عن الوضع فى ساحل عــمان بعامة وفى أبوظبى بخـاصة بعد اختـيار الشيخ شخـبوط بن سلطان حاكمًا، إلى المقيم السيــاسى البريطانى فى الخيج العربى بتاريخ 1 مايو 1928 جاء فيه:

«بعد التحيــة، أود إعلامكم عن وصول سفينة «كركـوس» إلى ميناء الشارقة فى الأول من إبريل 1928، ذهبت على الفور إلى متن الســفينة واستفــسر الكابتن عن أخبـار موانئ ومدن ســاحل عمان، أعلمتــه أن كل شىء هادئ، وليس هناك مشاكل أو مــتاعب فى أنحاء ساحل عــمان، وجاء الشيخ سلطان بن صــقر حاكم الشارقة، إلى الســفينة، وزار الكابتن الذى قام برد الزيارة له، كــما زار الوكالة ثم عاد إلى السفــينة، وبعدها غادر الكابتن فى 23 إبريل متوجهًا إلى «دبى» ووصلت أبوظبى فى 24 من إبريل[43].

جاء الشيخ شخبوط ووجهــاء إمارة أبوظبى إلى متن السفينة وسألهم الكابتن عن الأحوال فى إمــارة أبوظبى، فأفادوا أن هــناك استقــراراً وهدوءاً، ثم قمت مع الكابتن برد زيارة الشــيخ شخــبوط. وقد لاحظت عنــدما كنت هناك، أن جـميع سكان أبوظبى يحــبون الشــيخ شخــبوط ويمــدحونه. ولقــد حصلت من الشــيخ شخبوط على رسالة تؤكد التزامــه، بجميع المعاهدات والمواثيق الموقعة مع الحكومة البريطانية وتــطبيقها تطبــيقًا تامًا، تلك الاتفاقـيات التى وافق عليها أســلافه، وقد أرفقت ذلك مع هذه الرسالة[44].

شخصية شخبوط:

قيل كثيراً عن الشيخ شخبوط ومعظم ما قيل كان غير صحيح، وقد يرجع ذلك إلى ما كانت تشنه بريطانيا وأجهزتها من حملة ضده لأسباب ذكرناها سابقًا، وكذلك بعض الأقلام العربية والتي لم تكن تعرف عنه الكثير، وإنما مجرد تخمين أو نقلا عن البريطانيين والأجانب عن هذه الشخصية التي لعبت دوراً مهما في تاريخ ساحل عمان الجنوبي «أبوظبي».

سوف نورد بعض ما قاله اثنان من الكتاب البريطانيين أنفسهم عن شخبوط، الأول وهو من أهم الرحالة في المنطقة أنه كان الأول والأخير الذي قطع رمال «الربع الخالي» مرتين برفقة رجال من قبائل «الرواشد» القوية من «حضرموت» و«ظفار» و«أبوظبي» والعودة. وهو الرحالة والضابط البريطاني و«يلفرد تثيسجر» المعروف في المنطقة باسم «مبارك بن لندن» حيث يقول عنه:

«دعانا شخبوط للجلوس، كان لطيفًا ووديا لكنه كان متحفظًا يتكلم بنعومة ويتحرك ببطء وتأن، وكان يبدو أنه يسيطر تماما على مزاجه الانفعالي وقد ساورتني شكوك بأنه لايثق بكل الرجال (الأجانب). ثم سألنا شخبوط عن رحلتنا ثم ناقش الحرب في فلسطين وانتهى بنقد عنيف لليهود[45]».

ويتابع «ويلفرد» قوله:

«إنه كان من الواضح أن «ابن كبنية» (وهو أحد مرافقي «وليفرد» من البدو الرواشد «الحضارمة» في صحراء الربع الخالي) في حيرة فقد همس لي متسائلا من «اليهود»، وهل هم عرب؟ وعند حلول الظلام حضر الخدم حاملين صينية كبيرة (صحن كبير) ملأى بالأرز ولحم الغنم، وبعد أن تناولنا الطعام جلسوا معنا بلا رسميات وتحدثوا، إذ يعتبر الخدم في بيوت العرب جزءاً من العائلة ولا يوجد أي تمييز اجتماعي بينهم وبين أسيادهم[46]».

يتضح مما سبق كيف أن بعض أبناء المنطقة إن لم يكن معظمهم في تلك الفترة لا يعرفون أو يجهلون مجريات الأمور أو الأحداث القومية في بلاد المشرق والمغرب العربي، وخاصة القضية الفلسطينية، وهذا راجع إلى الطوق الاستعماري الذي فرضته بريطانيا بعدم اختلاط أبناء المنطقة بإخوانهم العرب في المشرق، أو

الاهتمام بالقضايا القومية العربية، وبرغم ذلك ترى ما مدى اهتمام الشيخ شخبوط بقضايا العـرب القومية وتعاطفـه مع إخوانه عرب فلسطين وانتقـاده لليهود والدور البريطاني.

يقول «إدوارد هندرسون» الذي كان أحد الضباط السياسيين في ساحل عمان قبل أن يصـبح أحد المسئـولين في شركة نفـط أبوظبي، والذي كان أكثـر قربًا من شخبـوط نظرًا لاتصاله وعلاقاته بحكم عـمله كسياسي ثم اقـتصادي فيـما بعد، وجاءت كتاباته كتعبير صادق عما رآه حيث يقول:

«بأن شخبوط كـان يمتاز بدماثة خلقه، وسحـر شخصيته وحسن ضـيافته، وقد يحدثك شخبوط في جمـيع الموضوعات أو في أي موضوع يروق له، كما أن أسئلته المتنوعة كانت تمتاز بالفطنة، سواء أكانت عن الصحون الطائرة أو عن سكان «برستـول»، وعن «سكوتلاند»، أو عن السـياسة في الشـرق الأوسط، وفي تلك الأيام كـانت أبوظبي على عكس دبي، فـمنذ وفـاة زايد بن خليـفـه في السنوات الأولى من هذا القـرن، تدنى مستـوى التجـارة في أبوظبي، فضـلا عن ذلك فإن انهـيار تجـارة اللؤلؤ قد ضـرب سوق أبوظبي بـشكل مطرد، وقد يكون التـدهور الاقتصادي والظروف المعـيشية الصعبة بسبب اللـؤلؤ الصناعي الياباني، إضافة إلى الوضع الاقتصادي الـعالمي بعد الحرب العالمية الأولى، وهي الكسـاد الاقتصادي، الذي أثر على اقتـصاديات الخليج العربي في سواحل شـرق الجزيرة العربية بـصفة عامـة، وأبوظبي بصفة خـاصة، لأسبـاب أمنية وعدم الاسـتقرار السـياسي برغم المحاولات الجادة لشيوخ البوفلاح لتحسين الأوضاع الاقتصادية لأبوظبي حتى توليه شخبوط الحكم في أبوظبي»[47].

يتابع «هندرسون» قوله:

«إن أبوظبي كانت في القـرن الماضي، وحتى مطلع هذا القـرن، واحدة من أهم المراكز الرئيسية في تجار اللؤلؤ، ولكن منذ مجيئي إلى هنا، كانت أعداد قليلة من المراكب تتوجـه إلى موسم الصيـد وليس لفترات قصـيرة، كما كـان الحال في الأيام الماضيـة، وكان يقوم بزيارة شخـبوط في مخيـمه عدد من البدو يشـاركونه الأمسيات حول النيـران، ويعرضون أمامه مصالحهم ويطلبون مـساعدته في مسائل

مختلفة، هكذا كان مجلس الصحراء الذى يلتـقى فيه الحاكم بشبعه، ويجلس أحد هؤلاء الرعايا إما بالقرب من الشيخ أو أمامه، يخاطبه باسمه الأول فقط، ونادراً ما يستعملون الألـقاب، ويكون حديثه مزيجًا من المعلومـات والأقوال المأثورة، وغالبًا ما ينتهى هذا الحديث بطلب المساعدة فى أمر مـا، فشعبية الشيخ وسلطته يجب أن تعتـمد على سرعة بديهـته وحكمته فى التـعامل مع رعيتـه، فإذا لم يكن لديه إلا القليل من المال فإنه بحـاجة إلى الكثيـر من الفطنة وحسن القيـادة والمنطق، لجمع استـعمال الموارد الضئـيلة التى بحوزته، هذا ما كـان عليه شخبـوط والذى إذا ما حصل على النفط، كما حدث فى شرق الجزيرة العربيـة، فإن مشاكله تتغير فجأة، ولكن هذا لا يعنى أنها تصـبح أسهل حلا، بل العكس، فـقد يصبح بحـاجة إلى مزيد من الدقـة فى التعامل مع رعـيته، ولكن يبـقى نظام المجلس على الأقل فى المراحل الأولى من التطور وانطلاق المجـتمع الحـديث نحو النظام الأســاسى الذى يعتمد عليه الشيخ»[48].

نتائج الدراسة:

وصلنا إلى نهاية هذه الدراسة، التى كانت لمرحلة هـامة من التاريخ المعاصر للمنطقة، وهى نهاية فترة الصراع السياسى فى ساحل عمان، وكذلك نهاية لمرحلة الاغتيالات الدموية والصراعات الأسـرية، وأيضا نهاية لمرحلة اقتصادية أو لظروف صعبـة، خاصة بعد الكساد العـالمى وركود اللؤلؤ الطبيعى التى مرت بها المنطقة، والتى كانت السبب فى قلة الموارد المـالية وبالتالى عدم الاستقـرار السياسى والنزاع الأسرى والاغـتيالات، مما تسبب فى مـآس اجتماعـية وأمنية لساحل عـمان، فى الوقت الذى وقفت بريطانيا موقف المتـفرج إن لم تكن الشريك الأساسى فى تلك المشاكل والمحرضة لها.

عندما كـانت بريطانيا تريد الاسـتقرار، أو حل لمشـاكل المنطقة فإنهـا كانت تعـمل فى الوقت الذى تريده، والعكس صـحـيح، فقـد لعبت بطريقة مـا، أو بالسكوت عن ملاحقة الشيخ صقر بـن زايد لابن أخيه الشيخ شخبوط، فى ازدياد الصراع السياسى، وقد يكون لموقف بريطانيـا السلبى تجاه شخبوط إن لم يكن أنها قد وقفت ضده، بعد اعترافها لقاتل أبيه الشيخ صقر بن زايد، والمعاناة أثناء الهرب

واللجوء من منطقة إلى أخرى فى البر والبحر، خوفًا على حياته وحياة إخوانه وأسرته، وحتى استطاع العودة والحكم بمساعدة عمه الشيخ خليفه بن زايد.

خلقت بريطانيا توترًا فى العلاقات بين شخبوط وحاكم دبى قبل وبعد تولى شخبوط الحكم، حتى تستطيع كسب الأخير إلى جانبها، لكى يطلب التوسط، وإذا لم يتمكن شخبوط من السيطرة على الأمور فإنه كان لابد أن يسقط، وهذا ما كانت تريده بريطانيا، ولكن مساعدة قبائل «العوامر» و«المناصير» و«المناهيل» القوية، منعت بريطانيا من تنفيذ مآربها ومخططاتها لهذا الحاكم، الذى عرف كيف يلعب معها نفس الدور بحذر قبل أن يسقط بعد فترة طويلة من الحكم فيما بعد. كل ذلك دفع شخبوط أن يكره بريطانيا، واتخاذ مواقف معادية لها، ولكنه لا يستطيع الخروج من التبعية البريطانية، التى كانت تعلم ذلك، ولكنها لم تكن تستطيع إقالته أو منعه من الحكم فى تلك الفترة بالذات، لأن الأسرة الحاكمة وقبائل أبوظبى هى التى كانت اختارته، اضافة إلى والدته التى منعت أبناءها من التعرض لأخيهم، فسكتت بريطانيا على مضض حتى تسنح لها الفرصة المناسبة لخلعه، فى الوقت الذى نلاحظ تصرفات شخبوط المتحفظة ضد بريطانيا طوال حكمه كانت تدل على ذلك.

استمر الوضع فى ساحل عمان الجنوبى بين أبوظبى ودبى غير مستقر منذ تولى شخبوط الحكم، والذى أثر سلبًا على دبى وازداد التوتر وأعمال العنف بينهما برغم المحاولات العديدة للصلح، وقد يرجع أيضًا هذا الاضطراب فى العلاقات، إلى طرد أبناء صقر بن زايد، ولجوئهم إلى دبى، كما يرجع إلى عدم استقبال شيخ دبى لشخبوط عندما تمكن من الهرب من أبوظبى، وحاول اللجوء إلى دبى، ولكنه لم يتمكن من مقابلة شيخها الذى تعلل واعتذر، فتوجه إلى الشارقة ، ومنها إلى قطر.

زاد فى تعكير العلاقات فى ساحل عمان الجنوبى، قيام حاكمى دبى وأبوظبى بتحريض حلفائهم من القبائل ضد الآخر. ففى الوقت الذى قام شيخ دبى بتحريض قبائل بنى قتب ضد شخبوط، فإن الأخير قام بتحريض حلفائه من قبائل «العوامر» و«المناهيل» و«المناصير» ضد دبى وبعد تدخل بريطانيا التى كانت

السبب فيها، حدث تفاهم ولقاء بين الجانبين فى الشارقة، وأسفر فى إعادة العلاقات الودية بينهما.

شهدت الأعوام الأخيرة من حكم الشيخ شخبوط، بداية اكتشاف النفط وتصديره منذ عام 1962، مما أعطى مزيداً من الأهمية والاستقرار للمشيخة، وفى نهاية ذلك العام أنشئت فى أبوظبى وكالة سياسية بريطانية خاصة بها، بينما كانت قبل ذلك تخضع للوكالة السياسية البريطانية القائمة فى دبى، وكذلك تم الاتفاق بين شخبوط وبين السلطات البريطانية فى ذلك العام على أن تكون السيادة القضائية على الأجانب فى المشيخة فى أيدى المحاكم المحلية، وأشرف أحد القضاة البريطانيين على وضع مجموعة من القوانين الخاصة بأبوظبى.

أخذت هذه المشيخة تتمتع بالثروة النفطية، وبدا معه شخبوط فى التغير الاجتماعى بخطوط ثابتة وبطء، حتى لايصبح سكان أبوظبى أقلية فى بلادهم كما حدث بالنسبة لبعض مشيخات المنطقة، وكان يعتقد أن نتائج التحديث السريع لن تكون فى صالح مشيخته قبل خلق كوادر محلية قادرة على استيعاب التطور الجديد، ومستعدة لهذا التغير[49].

اتسمت من هنا تصرفات شخبوط بالتردد والحذر، وقد يكون له وجهة نظره الخاصة إزاء ذلك، على أننا ينبغى أن نقرر هنا أن تصرفه تجاه الأموال التى كان يتحصل عليها من عائدات النفط لم تكن بمثل تلك السخرية التى أشيعت عنه، وخاصة مطالبة بريطانيا له بزيادة ضخ النفط لكى يحصل على عوائد أكبر، وإن شخبوط، كان يريد الاحتفاظ بالكميات الكبيرة المتدفقة من النفط فى باطن الأرض، والأخذ بما تحتاجه مشيخته وشعبه، وعدم الإهدار، والاحتفاظ للأجيال القادمة، والتى تستطيع التحكم فيها حسب مصلحتها فى المستقبل، بعد تعلمه وأخذه بالأساليب الحديثة. وينتقد شخبوط جيرانه الذين عرضوا بلادهم لهزات اجتماعية شديدة، وكذلك رفض مقترحات بريطانيا لإقامة مشاريعه الضخمة والتى تنفذها شركاتها الرأسمالية، لمجتمع قبلى صغير على أساس أنها قدمت إليه مشاريع أكبر من احتياجات أبوظبى، وخاصة لما تستلزمه من آلاف العمالة الأجنبية[50].

الهوامش:

(1) ـ جى . ب. كيلى ـ الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية . منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت 1971 ص 141.

(2) فالح حنظل ـ المفصل فى تاريخ الإمارات العربية المتحدة . جديدة جـ 2 ـ لجنة التراث والتاريخ ـ أبوظبى 1983 ـ ص 252

(3) ـ فالح حنظل ـ نفس المرجع ص 252.

(4) ـ صلاح سالم زرنوقة ـ أنماط الاستيلاء على السلطة فى الدول العربية ـ مكتبة مدبولى ـ القاهرة ـ 1993 ص 201.

(5) ـ حمدى تمام ـ زايد بن سلطان ـ القائد والمسيرة طباعة شركة داى نيبون ليمتد طوكيو ـ الناشر حمدى تمام محمد ـ أبوظبى 1981 ص 41.

(6) ـ حمدى تمام ـ نفس المرجع ص 41.

(7) ـ حمدى تمام ـ نفس المرجع ص 43.

(8) ـ د. صلاح العقاد ـ التيارات السياسية فى الخليج العربى ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة 1974 ص 287.

(9) ـ حمدى تمام ـ المرجع السابق ص 44.

(10) ـ جى . ب . كيلى ـ المرجع السابق ص 208.

(11) ـ حميد بن سلطان بن حميد الشامس ـ نقل الأخبار فى وفيات المشايخ وحوادث هذه اليار ـ ديار الفكر الجديد ـ أبوظبى 1986 ص 75.

(12) ـ د. صلاح العقاد ـ المرجع السابق ص 287.

(13) ـ جى . ب. كيلى ـ المرجع السابق ص 209 ـ وانظر ـ مذكرة المملكة المتحدة الجزء الثانى ـ الملحق ـ ب ـ رقم 23 من وكيل المقيم إلى المعتمد السياسى فى 13/ 8/ 1926

(14) ـ جى . ب. كيلى ـ نفس المرجع ص 209.

(15) د. جمال زكريا قاسم ـ الخليج العربى ـ دراسة لتاريخ الإمارات العربية 1914 ـ 1945 دار الفكر العربى ـ القاهرة 1973 ص 302.

(16) دار المقيمة السياسية البريطانية فى الخليج العربى. I. O. R- L/P 5/10/1177 بوشهر ـ موجز أخبار ساحل عمان لشهر سبتمبر 1926 ـ الفقرة (53) ـ مقتل الشيخ سلطان بن زايد ـ حاكم أبوظبى ـ صفحة (27 ـ 58).

(17) نفس المصدر .I.O.R. - L/P. & 5/10/177

(18) دار المقيمة السياسية البريطانية فى الخليج العربى ـ موجز أخبار ساحل عمان لشهر نوفمبر 1926 الفقرة (71) ـ صفحة (48).

I.O.R. L/P/& 5/10/1177. (19)

دار المقيمة السياسية البريطانية فى الخليج العربى ـ موجز أخبار ساحل عمان لشهر ديسمبر 1926وفقرة رقم (80) والفقرة رقم (71) ـ صفحة (53).

I.O.R. L/P/15/1/265 (20)

رسالة من عيسى بن محمد نائب الحاكم فى جزيرة دلما ـ إلى الشيخ صقر بن زايد ـ حاكم أبوظبى ـ 4 شعبان 1345 ـ الموافق 7/ 2/ 1927 ـ صفحة (74) لعام 1927.

(21) نفس المصدر .I.O.R. L/P/15/1/265

(22) نفس المصدر .I.O.R. L/P/15/1/265

رسالة من الوكيل البريطانى فى ساحل عمان ـ بالشارقة ـ إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى عن أحداث أبوظبى لعام 1927.

(23) نفس المصدر .I.O.R. L/P/15/1/265

(24) نفس المصدر .I.O.R. L/P/15/1/265

رسالة الشيخ صقر بن زايد حاكم أبوظبى المواجهة إلى وكيل السياسى البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة ـ المؤرخة فى 26 شعبان 1345 ـ الموافق 1/ 3/ 1927 صفحة (66) لعام 1927.

I.O.R. L/P/15/1/265. (25)

رسالة من الشيخ عبدالرحمن بن قاسم بن ثانى نائب حاكم قطر فى إقليم «الوكرة» ـ إلى الشيخ صقر بن زايد حاكم زبوظبى ـ بتاريخ 4 رمضان 1345 ـ الموافق 7/ 3/ 1927 ـ صفحة (76) لعام 1927.

(28) ـ د. جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص 30.

(29) د. جمال زكريا قاسم ـ نفس المرجع ص 303.

I.O.R. L/P/15/1/265. (30)

مذكرة من وكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى ـ بوشهر ـ بتاريخ 9/ 3/ 1927 ـ صفحة (65 ـ 66 لعام 1927.

(31) نفس المصدر .I.O.R. L/P/15/1/265

I.O.R. L/P/15/1/265. (32)

من الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى ـ بوشهر ـ رقم 91330 بتاريخ 18/ 4/ 1927 ـ صفحة (67) لعام 1927.

I.O.R. L/P/15/1/265. (33)

ـ رسالة من الشيخ صقر بن زايد ـ حاكم أبوظبى إلى المقيم ك. ب. ـ هو ـ هاورث ـ

المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى - بوشهر - بتاريه 26 صفر 1346 - الموافق 12/ 8/ 1927 - صفحة (84) - لعام 1927.

(34) - د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص 286.

(35) I.0.R. L/P/15/1/265.

مذكرة من الوكيل البريطانى فى ساحل عمان - بالشارقة - المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى - بوشهر - 9/ 1/ 1928 - صفحة (92) لعام 1928.

(36) نفس المصدر .I.0.R. L/P/15/1/265

(37) I.0.R. L/P/15/1/265.

مذكرة من الوكيل البريطانى فى ساحل عمان - بالشارقة - إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى - بوشهر - 25/ 1/ 1928 - صفحة (96) لعام 1928.

(38) نفس المصدر .I.0.R. L/P/15/1/265

(39) - د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص 304.

(40) - د. صلاح العقاد - المرجع السابق ص 287.

(41) د. صلاح العقاد. نفس المرجع ص 204.

(42) Clarenc Men Great Britain Central office of infrmation - the Arab States of the Persian Gulf and East Arabia - London - P.00.

(43) I.0.R. L/P/15/1/265.

(44) I.0.R. L/P/15/1/265.

مذكرة من الوكيل البريطانى فى ساحل عمان بالشارقة - إلى المقدم - هاروث - المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى - بوشهر - بتاريخ 1/ 5/ 1928 صفحة (99) لعام 1928.

(45) - ويلفرد ثيسجر - الرمال العربية - موتيف ايت للنشر - أبوظبى 1991 ص 267.

(46) ويلفردثيسيجر - نفس المرجع ص 267.

(47) - ادورد هندرسون - ذكريات عن الأيام الأولى فى دولة الإمارات العربية وعمان - روتيف ايت للنشر - دبى - 1991 - ص 31.

(48) - ادورد هندرسون - نفس المرجع ص 77.

(49) - د. جمال زكريا قاسم - الخليج العربى - دراسة لتاريخ الإمارات العربية 1945 - 1971 - دار البحوث العلمية - الكويت - 1978 ص 25.

(50) - د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص 25.

الفصل التاسع



ظفار بين الماضي والحاضر

قدم هذا البحث إلى ـ الندوة العلمية عن ظفار بين الماضي والحاضر ـ وزارة التراث القومي والثقافة ـ المنتدى الأدبي ـ صلالة في 19 ـ 21 أكتوبر 1997 ـ عمان .

ظفار بين الماضى والحاضر

تستأثر ظفار باهتمام الباحثين الغربيين لما ورد عنها فى الكتب المسيحية وخاصة «الإنجيل»، كما أنها تشكل الحدود الشرقية لأسرة القحطانيين ومن كونها أحد مصادر اللبان فى العالم. ففى الفصل العاشر من «سفر التكوين» نقف على تقسيمات الجنس العربى من خلال اسماء أولاد سام فقد استولى أحد أحفاد هؤلاء الأبناء وهو قحطان على الجزء الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة العربية ومن بين هؤلاء الأحفاد الثلاثة عشر اللذين انحدروا من ذلك الجد المؤسس وهو موطن هذه الأسر كما جاء فى الفقرة الثلاثين هو «ميثا» وهو المكان الذى يقع فى اتجاه «سفار» أى «ظفار» وهو جبل يقع فى الشرق، وبالتالى فإن اسم وأوصاف ظفار وهى التى تقع إلى الشرق من حضرموت تتطابق مع أوصاف «سفار» أى «ظفار» كما ورد ذكرها فى الإنجيل وقد جاءت الأوصاف متطابقة ودقيقة، أما المخطوط السكندرى فى المتحف البريطانى فإنه يحدد بدقة أكثر الاسم وهو «سوفار» أى «ظفار»، وقبل الفترة التى تناولها الإنجيل بوقت طويل ورد فى السجلات المصرية القديمة مما يعنى أن ظفار كانت ميناء مزدهرا وسوقا رائجة فى فترة مبكرة من التاريخ وأنها كما يذكر «برنجر» كان انتاجها من اللبان الذى كان واحداً من أثمن وأغلى المنتجات وكان اللبان فى تلك الفترة من المواد العطرية التى تستخدم فى المعابد وكان الطلب عليه كبيراً وكان يتم نقله بالبحر إلى جميع أنحاء العالم شرقا وغربا وشمالا، ولهذا أقدمت مملكة «حمير» على ضم ظفار وبالتالى تمكنت من احتكار تجارة اللبان الرابحة، وقد حاول بعض الجغرافيين العرب أن يخلطوا بين هذا الظفار وأخرى وإنه ثمة مدينتين بنفس الاسم تعرف إحداهما بظفار آل زيد قرب صنعاء والأخرى بظفار حضرموت الساحل فقد سقطت الأولى بنهاية الأسرة الحميرية فى القرن السادس ولم يكن عمرها يتعدى أكثر من ستة قرون بينما ظفار حضرموت الساحل استمرت فى التوسع والازدهار وبقيت لآلاف السنين ميناء مزدهرا كثيف السكان(1).

وصل عكرمة إلى ظفار حضرموت قادما من عمان بعد أن تمكن من إخماد نار الفتنة بعد حروب الردة فى منطقة «دبا» والذى كان الخليفة أبو بكر أرسله بعد

وفاة الرسول ﷺ بعـامين لإعادة تثبيت الدعوة الإسلامية، وكـان عكرمة قد ترك حـذيفة فى عـمـان لاخضـاع القـبائـل وعبـر الصـحراء التى تفـصل إلى ظفـار حضرموت، وسـرعان ما نجح فى إعادة تثبيت العـقيدة الإسلامية فيـما بين المهرة وقبـائل الازد فى عمـان ثم زحف منها إلـى حضرمـوت الداخل لفرض الـطاعة والانضباط وبعد أن تحقق له ذلك عين سعيد بن لبيد حاكما على الإقليم، وخلال القرنين التاليـين ترسخت جذور الدين الإسلامى، وقد خلف عبـاس بن سعيد بن العاص كوال على اليمن، جليه بن على عمـير الذى فصله الخليفة عام 655 وعين بدلا منه عبدالـله بن عباس وبانتهاء حكـم الأمويين عام 749 عين محمد بن زيد واليـا على الإقـليم ويحـتـمل أن تكـون سلطة ذلك الوالى قـد شـملت ظفـار وحضرموت، وعين محـمد بن زياد أميرا على اليمن عام 719 وبعد استيلائه على تهامه، بنى مدينة «زبيد» وجعل منها عاصمة حكمه واستطاع هذا بسياسته الشديدة أن يوسع من آفاق سلطتـه لتشمل حـضرموت وظفـار وغيرهمـا من المناطق وعين عليها ولاة من اختياره، ولـم تستطع أسرة بنى زياد أن تدوم طويلا فقد ثارت عليها ظفار عام 900، وقد ورد فى صفـات جزيرة العرب لأحمد بـن يوسف الهمدانى المتوفى عام 945 بعض الملاحظات عن قبـائل ظفار كما نقلها د. «سـبرنجر» والتى يمكن أن نذكر بعضها:(2).

«إن الأقوام الذيـن يقطنون المنطقة السـفلى من جبـال «القمـر» هم من بنى «خنزريت» وكان هؤلاء قـد طردوا سكان «ريسوت» منهـا ثم انسحبـوا إلى منطقة «الغيث» التابعة «للمهرة» واحتلوا بلدة «حاسك» و«مرباط» لفترة من الوقت إلا أن قبيلة «ثفارة» شجعتهم فـيما بعد على استرداد «ريسوت» وطرد سكانها «الخنزريت» منها، أما زعيمهم محمد بن خـالد فقد توجه مع قبيلته «الخنزريت» إلى « الرضا» التابعة «لبنى ريام» وهى فرع من قبيلة «القـمر» استقرت هناك، أما السكان الأوائل «لريسوت» فهم «البـياسرة» والتى كانت قبيـلة حديد «الازدية» تسكن بجوارهم إلا أن قبـيلة «حديد» قـد اقصيـت من جانب إحدى القـبائل العـربية التى كـانت قد تزاوجت مع «المهرة»، وأن الرجل الذى حكم المنطقة فيما بعد هو موسى بن ربيعة بن عبدالدار».

تاريخ مرباط:

عرفت «مرباط» منذ القديم كميناء تجارى مهم وكانت عاصمة ظفار، وكانت تقع على الطرف الشرقى للسهل الذى تقع عليه الآن قرية «طاقة» حيث لاتزال توجد آثار مدينة كبيرة كثيرة السكان أما مرباط نفسها والتى تمثل ميناء تجاريًا والذى ذكره الجغرافيون العرب الأوائل فإنها تقع على بعد عشرين ميلا تقريبا إلى الشمال من مدينة مرباط الحالية والتى كانت كميناء تحمى السفن من عواصف الرياح الموسمية، ومدينة مرباط القديمة تتوافر فيها مصادر وفيرة للمياه العذبة القادمة من الجبال وكان فيها ثلاثة خلجان كلها مرافئ للسفن التجارية وأشار إليها كل من «هينز» و«كارتر» و«ترويت» وكان أكبر تلك الموانئ يسمى «روى» ويمتد إلى مسافة ميلين تقريبا، إلا أن مدينة مرباط القديمة والتى تميزت لقرون كثيرة بوصفها الميناء والسوق الرئيسية لتجارة اللبان فقد انتهت فجأة فى منتصف أو نهاية القرن الهجرى الرابع عندما استولت أسرة «المنجوى» على مرباط ثم قاموا بتدميرها ونقل العاصمة إلى ضفة أحد الخلجان الواقع على بعد عشرين ميلا تقريبا إلى الغرب وأنشأوا فى موقع احدى المدن القديمة مدينة أخرى فى نفس الموقع الذى يضم الآن الآثار ويسمى «البلاد» أو «البليد» وهى نفس المنطقة التى ذكرها «كارتر»، ويقول ابن «الأثير» فى كتاب الكامل بأنه توفى حاكم ظفار راشد بن أحمد بن عبده عام 1096 وبأن قبيلة «القمر» قد اتصلت فى عام 1116 بعبد الله بن راشد تطلب مساعدة من قبائل ظفار وقد قدمت لهم تلك المساعدة، ويذكر الإدرسى بأن حاكم ظفار فى عام 1145 كان أحمد المنجوى(3) .

الإمام صاحب مرباط

ولد الإمام محمد بن على بن علوى حفيد الإمام أحمد المهاجر بن عيسى بن على العريضى بن جعفر الصادق حفيد الإمام الحسين بن على أبى طالب عليهما السلام فى مدينة «تريم» وتلقى العلم عن اكابر العلماء فى حضرموت واليمن والحرمين وحفظ القرآن وهو الجد الجامع الذى يرجع إليه جميع العلويين من نسل الإمام أحمد المهاجر فى الجزيرة العربية وعرف بصاحب مرباط لسكناه بها وكونه توفى وقبر بها، ولا يعرف تاريخ مولده وقد يكون عام 1120 تقريبا.

استطاع الإمام صاحب مرباط أن يخرج كثيرا من النوابغ كابنه الإمام علوى وكذلك شيخ الإسلام سالم بأفضل والقاضى أحمد باعيسى والشيخ سعد الدين الظفارى، والشيخ على بن عبدالله الظفارى وأولاده الأربعة وغيرهم[4].

انتفع بصاحب مرباط كثيرون فى العلوم والمعارف من جميع الفرق والمذاهب الموافق معه والمخالف، وكانت له زعامته الاجتماعية ومكانته الشعبية وقوة الشخصية وله هيبة بين العشائر والسلاطين وكانت القوافل تسير فى خفارته حين تمر عليه «ببيت جبير» حتى تصل إلى ظفار وكان يقوم بدوره فى تحسين العلاقات بين الدولتين الراشدية فى حضرموت و«المنجوية» فى ظفار مما كان له أثر فى تحسين الأحوال فى البلدين، كما كان لإمام صاحب مرباط الفضل في إدخال مذهب الإمام الشافعى والعقيدة السنية، فقد قام بمثل الدور الذى قام به جده الإمام أحمد عيسى المهاجر فى إدخال ونشر المذهب السنى الشافعى بحضرموت، وكما هاجر الأول من البصرة إلى حضرموت هاجر الإمام صاحب مرباط من «تريم» إلى ظفار[5].

ترجع هجرة صاحب مرباط من حضرموت بسبب حوادث الخوارج واتصالهم بعثمان بن على الزنجلى فى اليمن والمعروف بقسوته وقتله العلماء والفقهاء وذكر هذا أبو مخرمة فى تاريخه «ثغر عدن» وابن «سمرة» و«الجندى» والامام علوى بن طاهر الحداد فى «عقود الالماس»[6]، وكان مجيء الإمام صاحب مرباط إلى ظفار فى عصر المنجويين وكانت داره فى مرباط مقصدا للزائرين من مختلف الطوائف والعلماء وكانت وفاته عام 1156 و1160[7] وفى ظفار توجد أسر من العلويين منهم من ذرية الإمام أحمد بن علوى المتوفى بظفار وكذلك الإمام محمد بن أبى بكر بن أحمد العيدروس المتوفى بظفار أيضا[8] ويرجع تتابع هجرة العلويين نحو مرباط وما حولها لكونها موطن جدهم ولكونها فى طريقهم عند اتجاههم نحو الشرق إلى الهند وجنوب شرق آسيا ومن ذريته فى ظفار حاليا أسرة «الكاف» والعيدروس و«باعمر» وبن «حفيظ» و«الذهب» و«العلوى» و«الغزالى» وغيرهم[9].

أسرة المنجوى

حكمت أسرة المنجوى سلطنة ظفار فقد نقل أن فيهم علماء وقال المؤرخ أبو مخرمة فـي ترجمة عبدالمؤمن الأصبـحى الظفارى: «أنه نفقه بسعد المنـجوى» كما ذكره المؤرخ «شنبل» الذى اسمه «حارثة»، فقد قال «شنبل» فى حوادث عام 605هـ الموافق 1208 بقوله : «وفى ذى العقدة قـتل والى ظفار الذى يدعى إنه ابن حارثة بن منجوه» ومنهم السلطان الأكـحل المنجوى وهو الذى تولى على مرباط واسـمه محمد بن أحمد الأكحل ذكره المؤرخ الطيـب أبو مخرمة فقال: سلطان مرباط قال الجندى: من قوم يقال لهم المجويون من بيت يقال لهم «ال بُلُخ» بضم الباء واللام وآخره خـاء معجمـة ونسبهم فى قـبيلة «مذحج» وكـان واحد زمانه كرمـا وحلما وتواضعـا، وقيل عن مكارمه إن وفـداً من أعيان حضـرموت قصـدوه وحملوا له هدايا تناسب أحوالهم ولكن فقيرا صحبـهم وعندما سمعهم يذكرون هذا السـلطان بالجود والـكرم كما سـمعـهم يذكرون مـا لديهم مما أعدوه هدايا للسلطان اجـتنى اضغاثا من الأرك عدده سبعة اعواد وجعله حـزمة فعندما وصلوا مدينة مرباط مقر السلطان الأكحل ودخلوا عليه وقدموا اليه الهـدايا دخل معهم هذا الفقير فسلم ثم وضع حزمة «الارك» بين يدى السلطان الأكحل وانشد:

جعلت هـديتى لكم سواكا　　ولم اقـصد به أحدا سواكا

فـقد أهديت عـودا من اراك　　لعلى أن أعود وأن أراكـا

فما كان من السلطان الأكحل المنجوى إلا أن أعطاه مثلما اعطى سائر ضيوفه الذين قدمـوا له الهدايا، وجعل له جاريتـين ووصيفا يخـدمونه مدة إقامـته وعند عودته إلى وطنه اعطاه مـن كل ما فى خزائنه سـبعة أجزاء فـما كان يوزن بالبـهار كالحـديد اعطى سبعة ابهـرة وما هو بالمثقـال كالزعفـران أو بالمكيال يعطى من كل سبـعة سبعـة، مما يدل على تأصل الكرم العربى فى هذه الأسرة العـربية، ولما لم يكن للسلطان الأكحل عقب ولم يكن فى أهله من هو كفء حينئذ للقيام للسلطنة وكان إذ ذاك رجل يعمل بالتجـارة للسلطان وهو محمد بن أحمد «الحـبوظى» فقد قام الأخير بالسلطنة بعد وفاة الأكحل[10].

أسرة الحبوظى:

تولى محمد بن أحمد الحبوظى بتأييد سكان ظفار الولاية بعد وفاة الأكحل واضطلع بأعباء السلطنة ولم تطل مدته وإنه توفى قبل عام 1223 وقد كان محمد هذا هو مؤسس الدولة الحبوظية بظفار، وتولى بعده الحكم ابنه أحمد بن محمد الحبوظى وكان جوادا شجاعًا شهما حسن السيرة وهو الذى انشأ مدينة ظفار الجديدة عام 1223 وطلب من سكان مرباط أن ينقلوا إليها فسميت باسمه واشتهرت بظفار الحبوظى، واستغرق بناؤها ثلاثة أعوام وكان الدافع الواضح من عمله هو أن العاصمة القديمة تبعد كثيرا عن الساحل وبالتالى فإن موقعها بعيدا عن مرافئ السفن حيث يجعلها غير مفيدة وهذا يرجع لكون أسرة الحبوظى عملت بالتجارة ويريد انعاش ظفار تجاريا ولهذا نقل العاصمة لدوافع تجارية اقتصادية.

ثار سكان ظفار على أحمد بن محمد الحبوظى وخلعوه واعقلوه ونصبوا ابن أخيه مكانه فلما لم يجدوا ابن أخيه المذكور على ما توسموا فيه وسار فيهم سيرة غير مرضية وبلغ خبر ذلك إلى عمه أحمد بن محمد وهو فى المعتقل كتب من معتقله إلى الوزير وأعيان دولته أودعه هذه الأبيات:

حاشا كم أن تنطعوا صلة الذى ... أو تصرفوا علم المعارف أحمدا

هو مبتدأ نجباء ابنا جنسه ... والله يأبى رفع غير المبتدا

اغريتم الزمن المعاند باسمه ... وحذفتموه كأنه ياء الندا

يلاحظ فى هذه الأبيات دلالتها على اطلاع هذا السلطان الحبوظى على النحو والبلاغة إذ كلها تورية نحوية لا يدركها إلا من يعرف البلاغة، وعندما قرأوا رسالته وشعره اطلقوه وعزلوا ابن أخيه وأعادوه واليا عليهم، وبالرغم من ذلك لم يفكر السلطان أحمد الحبوظى فى الانتقام من الذين كانوا قد ثاروا عليه واعتقلوه فلم يحدث إليهم ولا إلى ابن أخيه المعزول شيئا يكرهونه بل عفا وصفح عنهم، ولم يذكر الطيب أبو مخرمة تاريخ وفاته ولكن المؤرخ شنبل ذكر ذلك فقال وفى عام 628هـ الموافق 1230 توفى ابن الحبوظى فى رجب، وكانت الولاية لابنه ادريس بن أحمد الحبوظى وقد طالت مدة ولايته على ظفار إلى نحو اثنتين وأربعين عاما اذ توفى عام 670هـ فى شهر رمضان الموافق 1271 وعند ذلك تولى

ابنه النابغة الشهير سالم بن ادريس الحبوظى، واصل الحبوظيين يرجع من حضرموت ولكنهم انتقلوا منها إلى ظفار ولعلهم ينسبون إلى «حبوظة» بلدة أو قرية كانت بحضرموت ولم تتفق المصادر التاريخية على كيفية استيلاء سالم الحبوظى على حضرموت ويقول المصدر الحضرمى بأنه اشترى مدينة شبام من سكانها وهم «بنو سعد» وخرج إلى حضرموت ثم إنه دخل مدينة «تريم» مع أفراد قبيلة «نهد» وحاصر فيها حاكمها ابن مسعود واستمر الحصار ثلاثة اشهر ثم استولى على مدينة «دمون» «فالعجز» و«الغيل الأعلى» و«سيؤون» وذلك فى عام 673هـ الموافق 1274 ولما عجز ابن مسعود حاكم تريم عن مقاومة الحبوظى بعث بابنه إلى ملك اليمن يستنجده فلم ينجح ولكن ابن شماخ حليف ملك اليمن وزعيم قبيلة «خيثمة» من «نهد» اقبل بعسكر امدادا لابن مسعود لمقاومة الحبوظى مما جعل الحبوظى يتحول من تريم إلى دمون ثم إلى شبام وهناك اجتمع بأخيه موسى بن ادريس الحبوظى ولعله رأى الوضع غير مناسب فقرر العودة والرحيل إلى ظفار بعدما قام بتولية ال كثير على مدن وقرى حضرموت وبفتنة ابن الحبوظى التى اشتدت فيها مقاومة ابن مسعود، خلت مدينة تريم من سكانها فلم تقم بها جمعة مدة اقامة الحبوظى بحضرموت وهى تسعة شهور[11].

ترك الحبوظى برغم قصر حكمه فى حضرموت آثارا عديدة وأموالا كثيرة اطيانا ونخيلا وغيرها وأقام صدقات وأوقافًا على المعوزين بكثير من المدن والقرى الحضرمية، وقد انتفع بها سكان حضرموت[12] ولازالت بعض تلك الأوقاف باقية إلى يوما هذا.

حملة الملك المظفر الغسانى

أرسل الملك المظفر يوسف بن عمر الرسولى - وينتمون إلى جبلة بن الأيهم الغسانى[13] - حملة إلى ظفار، وقد ترجع أسباب الحملة إلى أن الملك مظفر كان قد بعث بهدية إلى ملوك «الهرمز» مع بعض التجار فرست بهم الرميح إلى ساحل ظفار فاستولى ابن الحبوظى على تلك الأموال والهدايا، فكتب إليه المظفر يقول: «إنه لم تجر بذلك عادة من أهلك ونحن سنحاسبك على قطع السبل وأنت تعلم ما بيننا وبين والدك من الصحبة والمكافأة بيننا غير اننا نتأدب بآداب القرآن فإن الله

تعالى يقول: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا. وقيل إن ابن الحبوظى ازداد غلظة ورد له بجواب قال فيه: «هذا الرسول فأين العذاب» وقد تكون هذه التصرفات راجعة إلى العداوة والتنافس على حضرموت بينهما وكان ابن الحبوظى قد هاجم «الشحر» وهى تحت سيطرة الملك المظفر وبها «الغز أى المماليك أو العبيد» قد دحروها منها بالرغم من استعداده لهم بقوات بحرية وبرية وانتهى به المطاف إلى الرجوع إلى ظفار[14].

يرجع ذلك أيضًا إلى العداوة بين ابن الحبوظى والملك المهدى حاكم «هرمز» الذى هاجم ظفار عام 658هـ الموافق 1259 ونال من سكانها بالقتل والأسر ثم انسحب، اضافة إلى ذلك فإن حاكم «الشحر» «راشد بن شجعنه» قال بأن ابن الحبوظى قد اتصل به واستماله إليه ثم اغراه وشجعه على الانفصال غن طاعة ملك اليمن والتخلص من دفع الخراج السنوى الذى اعتاد تقديمه إليه، فعند ذلك جهز المظفر على الحبوظى جيشا بقيادة الأمير غازى بن المعمار الذى فشل فى الاستيلاء على ظفار مما شجع ابن الحبوظى فأرسل حملة عسكرية إلى عدن فلم تنجح وكان المظفر فى الجند فاستشاط غضبا ونزل إلى عدن وجهز بنفسه الحملة على ظفار وقسم الحملة إلى ثلاث فرق الأولى عن طريق البحر والثانية عن طريق ساحل حضرموت والثالثة عن طريق داخل حضرموت، أما الفرقة التى فى البحر فكان على رأسها القائد سيف الدين سنقر «الزنجلى» نقيب المماليك البحرية وأما الفرقة الثانية عن طريق ساحل حضرموت فكانوا أربعمائة فارس من المماليك وحلفاء السلطان المظفر فجعل على المماليك القائد حسام الدين لولو النوريزى وعلى الحلفاء القائد فيرزو وعلى الجميع الأمير «ازدمر» أما الفرقة الثالثة عن طريق حضرموت الداخل أو «نجد» حضرموت فكانوا ثلاثمائة فارس بقيادة الشيخ بدر الدين عبدالله بن عمر بن الجنيد وهم من العرب فاخترقوا حضرموت عنوة ولم تزل كل فرقة تسير على حسب الظروف وطبيعة الميدان بسهولة الطريق ووعورتها على مقدار ما يعترضها من العراقيل وأما أكثرها محفوفة بالمخاطر الفرقة العربية التى كانت طريقها من داخل حضرموت فما فارقوا الحرب ليلة واحدة لأنها كانت مشحونة بقلاع ابن الحبوظى ولم يكن بها من احلاف المظفر حتى إن ابن شماخ وابن مسعود كانا يميلان إلى ابن الحبوظى ولم تصل هذه الفرقة إلى ظفار إلا بعد

خمسة أشــهر من خروجها من صنعاء ولم يبلغ إلى ظفار الحـبوظى إلا مائة فارس وثلاثة عشر رجلا، أما فـرقة ساحل حضرموت فأنها كانـت صعبة لوعورة الطريق والجبال ولكنـها لم تكن خطرة لعدم وجود مـقاومة لابن الحبوظى فكـانوا يسيرون بمحاذاة السفـن الحربية التى فيهـا زادهم وعتادهم فإذا التـوت الطريق وأبطأ عليهم المؤونة تعبوا وكانت السفن مشـحونة بأنواع الأسلحة وأدوات وآلات الخيل وغيرها وكانت الأسواق فيها قائمة كأعظم ماتكون الأسواق فى المدن وفيه من جميع أنواع الطباخـين والخبازيـن وأرباب الصناعات ولم يزالوا حتى اجـتمـعوا معـا فى ميناء «ريسوت»(15).

أقبلت الـسفن فى ميناء «ريسـوت» والأعلام منشـورة وفى الخزنة أكـثر من أربعمائة ألف دينار ملوكية وأما القماش من البندقى والسوسى والموصلى والزبيدى وقال الخزرجى: «فلله دره من ملك ملأت البحر والبر كتائبه ووسع العرب مواهبه ورغائبه».

ولما اجـتمـعت القـوات العـسكرية فى مـيناء «ريسـوت» فكانت تتكون من خمسمائة فارس، سبعـة آلاف راجل ولم يكن فى ظن قائد القوات اليمنية «ازدمر» أن يبرز لهم سالم الحبوظى، فمـا راى القوم إلا أن أقبل أهل ظفار يقدمهم ملكهم ابن الحبوظى مـستقبلا جيش المظفـر الكبير دون خوفا ثم اصطدم الجيـشان وجرى قتال كبيـر وصمد الجيش الظفارى برغم قلة عدده وعتاده أمام كـثافة الجيش اليمنى وعتاده المتطور الذى كان يستخدمه الأيوبيـون وقواده وكان خسائر الجانبين أكثر من خمـسمائه رجل وكانت هزيمة أهل ظفـار بعد ما قتل منهم ثلاثمائة رجل فى حين قتل من اليمن مئـتان وقتل حاكم ظفار ابن الحبوظى والذى لم يعـرف الا بمصحفه الذى كان يصحبه معه دائما أينمـا كان وفى جميع الأوقات، عرفه به أخوه موسى وأخذ الرأس ودفنه(16).

دخلت أعلام المظفر ظفـار وكانت الواقعة يوم السـابع والعشرين من رجب 678هـ الموافق 1279، وقبض الأمير «ازدمر» قصـر ظفار، وبعد هذا استولى على مدينة شـبام بحضرمـوت فى يوم الثامن من شهـر رمضان نفس العام وقـد قبض جيش مظفـر على كافة بنى الحبـوظى فحملوهم إلى «زبيـد»، ثم أن الملك المظفر

اقطع ظفار لابنه الواثق واسمه ابراهيم الذى اتجه إليـها بطريق البحر من عدن وكان حسن السـيرة وتوفى بظفـار عام 711 هـ الموافق 1311 واستـمر حكم الرسـوليين حوالى قرن ونصف تقريبا.

وصل الرحالة «ماركو بولو» إلى مرباط عام 1285 ووصفها بقوله:

«وظفار بلد عـريق وجمـيل، ويقع على منطقة تبـعد مسـافة 500 ميل إلى الشمـال الشرقى من مدينة «الشحـر»، وسكانها عرب ويحـترمون زعيـمهم الذى يخضع لسلطان عدن لأن هذه البلدة لاتزال تابعة لعدن وهى تطل على البحر ولها ميناء جميل يتيح لحركة نشطة بين السفن ويقوم التجار بنقل اعداد كبيرة من الخيول العربية إلى الأسواق ويربحون من ورائها أرباحـا طائلة وللبلدة قرى ومناطق كثيرة تابعة لسلطتـها وهى تنتج كمـيات هائلة من اللبان وسـوف أقص عليكم كُيف يتم انتاج هذه المادة فأشجـار اللبان تشبه أشجار التنوب الصغـيرة ويتم شق شقوق فى مواضع عديدة فيها بالسكين ومن تلك الشقوق ينبثق اللبان وأحيانا يسيل اللبان من شجرته من تلقاء نفسه عند اشتداد حرارة الشمس».

يتضح مـن ذلك بأن ظفار كانت مـركزا تجـاريا مزدهرا كثـيف السكان وأن محصولها من اللبان كان المحصـول الرئيسى الذى يصدر معظمه إلى الخارج اضافة إلى تصديرها الخيول العربية نظراً لوجود العـشب الأخضر، واجتاح ظفار فى عام 1286 اعصار مدمر أحدث دمارا كبيراً فيها وأصاب مزارعها بالتلف ومات كثير من سكانها وأصـيبوا بخسـائر فادحة، كـما اجتاح إعـصار آخر ظفار وأحـدث دمارا شاملا، كـما زار ابن بطوطة ظفار فى نفس العام وقد يكون زيارته قـبل الاعصار وكان زار ظفار للمرة الثانية فى عام 1347، ونجحت قبائل آل كثير الذين ينحدرون من الشنافـرة فى طرد الرسـوليـين من ظفار عنـدما شن قـائدهم الشـيخ بدر بن الشـهاب الجيـرلى هجوما كاسحـا وطرد حاكم الرسولين وأسرته بعـدما جرده من السلطة واستولى على ظفار، فـقد كان الأمير محمـد بن أحمد القرا تولى منصب والى «الشحـر» فى منتصف رجب 796هـ الموافق 1393 خلفا لسـعيد بن شمـاسه وفى شهر ذى الحجة من نفس العام اغتيل شهاب الدين أحمد بن عمر الجيرلى فى ظفار وفى العام التالى توفـى الأمير ناصر الدين محمد بن عـمر الترياقى فى ظفار

وفى عام 798هـ الموافق 1395 دمرت منطقة «السواقى» و«المحاليف» كما اغتيل الشيخ الحبشى وابنه وتم الاستيلاء على الحصن المعروف باسم «الاحساء» ومن ناحية أخرى خرج بدر الشهاب الجيرلى بجيش من حضرموت إلى ظفار واستولى عليها بعد معركة مع الترياقى كما شن بدر الجيرلى هجوما آخر فى عام 799هـ الموافق 1396 على الترياقى فى ظفار وحاصر البلاد ليوم واحد ثم توجه إلى «رويات» متعقبا فلول قوات الرسولى فى انسحابها من المنطقة وبعد تسعة شهور من نفس العام جدد الترياقى بالاشتراك مع ابن جدوان ضربهم فى محاولة لاسترداد المنطقة من بدر الجيرلى الذى كان يسيطر عليها، وهزم فيها الترياقى متكبدا خسائر فادحة بينما انسحب ابن جدوان مع رجاله[17] وبذلك نجح بدر الجيرلى فى طرد الرسوليين وبدأ حكم «ال كثير» لظفار.

أرسل نائب الملك البرتغالى فى «غوا» عام 933 هـ الموافق 1526 اسطولا حربيا ليقوم بأعمال النهب والسلب ضد عرب حضرموت واليمن وفى طريقه رسا الأسطول البرتغالى على ساحل مرباط ثم هاجمها وحاول احتلالها لنهبها واحراقها كما عمل قبل ذلك فى مسقط وقلهات وخورفكان، غير أن الهجوم منى بالفشل الزريع ورد المهاجمون على اعقابهم نتيجة للمقاومة العنيفة التى أبداها الحكام من «ال الكثير» وسكانها من ظفار، ونظرا لهذا الفشل أمر قائد الأسطول البرتغالى بنهب وسلب عدد من قرى ظفار وغادرها عائدا إلى قاعدة فى الهند دون أن يكمل مهمته. وقام البرتغاليون فى عام 1553 بمحاولة أخرى ويائسة لاحتلال ظفار لتحقيق حلمهم غير أن المحاولة هذه اسفرت عن كارثة محققه لأسطولهم نتيجة لدفاع حاكمها من «آل الكثير» فقد أظهر السلطان بدر أبو الطويرق مقاومة عنيفة وهزم البرتغاليين فى عدة معارك ومواقع وأهمها فى «الشحر». وكان نائب الملك البرتغالى فى «غوا» قد أرسل نجله «فرناندس» على رأس أسطول حربى لتدمير التجارة العربية فى سواحل حضرموت واليمن وكان هذا الشاب قائد الأسطول البرتغالى قد عقد العزم على اختبار قوته فى ظفار لكن سكانها وأبناءها بقيادة آل كثير دافعوا عن مدينتهم ببسالة فائقة مما أرغم سفن الأسطول البرتغالى المهاجم على الانسحاب تاركين عددا كبيرا من القتلى والاسرى فى ساحة المعركة، وأثناء عودة القائد «فرناندس» جرت معركة مع الأسطول العثمانى الذى كان يقوده على

بك بالقرب من مسقط واستولى البرتغاليون على ست سفن من الخمس عشرة سفينة التى كان يتكون منها الأسطول، وفى عام 1292 زار «أو فينجتون» ظفار ووصفها بأنها بلد مزدهر بالتجارة ويقع على الساحل وأنه وجد الناس فيها لا يميلون إلى الأوربيين أو يقدمون لهم الضيافة وأن ظفار تنتج اللبان وجوز الهند والزبدة، كما زار ظفار الكابتن «هملتون» فأيد رأى «أوفينجتون» عن سكان ظفار تجاه الأوربيين بأنه موقف يتسم بالريبة والحذر ويذكر أنه فى عام 1705 رست سفينة بريطانية على ساحل ظفار للتزود بالماء وأن أهلها توافدوا على السفينة يعرضون منتجاتهم للبيع ويقدم الكابتن سيمون نفس الرأى عبر الزيارة لميناء ظفار فيما يختص بما تنتجه من محاصيل وفقا لما ذكره «أوفينجتون» ففى تلك الفترة كان القراصنة قد تعرضوا بالأذى لأهل ظفار[18] وقد يرجع ذلك إلى قوة وشجاعة أهل ظفار وسمعتهم فى المنطقة.

جاء فى كتاب «عقد الألماس»: تولى حكم ظفار بعد زمن طويل أسرة من السقاف العلوى ثم من الامام أحمد بن علوى بن أحمد بن ابى بكر السكران بن عبدالرحمن السقاف العلوى عام 1205هـ الموافق 1790 وما بعده، وكان الأخير والشهير منهم الإمام محمد بن عقيل وكان جده الامام على بن عقيل توفى بالبصرة عام 1138هـ الموافق 1725 فى حين كان والد الأخير الامام عبدالله بن ابى بكر العلوى المتوفى 1663 أول من نزل من أسرة الامام محمد بن عقيل العلوى فى ظفار، وكان ذا ثروة عظيمة وهمة وشجاعة فائقة وكانت له مراكب تسير إلى سواحل افريقيا الشرقية والهند وأندونيسيا وقد أسر مرة مركبًا هولنديا من ميناء بتافيا «جاكرتا» فى أندونيسيا وهو الذى ذكره علامة عصره الإمام عبدالله بن عمر بن يحيى العلوى بعد رجوع الإمام محمد بن عقيل العلوى من أداء مناسك الحج عام 1238 هـ الموافق 1822 وحروره بمدينة الشحر[19].

عملا الإمام محمد بن عقيل العلوى بالتجارة وكان يتاجر أيضا بالاشتراك مع أخيه عبدالرحمن كما كان الاثنان يمارسان العمل التجارى فى السفن والأملاك الذى كان يملكها والدهما كما كان لهما أخ آخر يقوم فى مكة المكرمة بحملة ضد الاحتلال الفرنسى لمصر ثم جمع أعدادًا كبيرة من الاشراف وتوجه بهم من الحجاز إلى مصر واشترك مع المماليك فى عمليات عسكرية ضد الجنود الفرنسيين فى مصر

العليا، وكـان الإمام محـمد بن عقـيل العلوى يستـمد قوته ونفـوذه من كونه من العلويين ومن سلالة الرسول ﷺ من أحفاد الإمام الحسين رضى الله عنه وكان قد توجه إلى جزر «موريشوس» وعاد منها فى شهر أغسطس عام 1805 ومعه سفينتان جمـيلتان هما «بنجويـن» و«بيجوه» وكانت الأخـيرة سفينـة غنمها الفرنسـيون من البريطانيين واستولوا عليها وقد حمَّلهـا بكميات كبيرة من الذخيرة والأسلحة وأثناء وجود الإمـام محـمد بن عـقيل العلوى فى جـزيرة كمـران استـولى على سفينة «اسكس» الأمريكية التى كان يقودها الكابتن «إورم»[20] وكان نشاط الإمام محمد بن عقيل العلوى موجـهًا ضد السفن الأوربية المسيحـية التى كانت تنافس وتضايق التجارة العـربية والاسلاميـة فى المحيط الهندى اضافة إلى تخوفـة من تزايد النفوذ المسيحى الاسـتعمارى البريطانى والفرنـسى فى المنطقة العربية والإسلاميـة وخاصة بعد احـتلال الفرنسـيين لمصـر، ومن هنا فإنه لم يكن يثق بالأوربيـين المسيحـيين المستعمرين أو يرتاح منهم ولهذا كانت أعماله موجه ضدهم باعتبار الهجوم والجهاد فى سـبيل الله خيـر وسيلة للدفـاع ولهـذا اتهمـه الغـربيون وخـاصة المؤرخـون البريطانيون بالقـرصنة وهى تهمة بريطانية موجـهه لكل من يعمل ضد المستـعمرين المسيحـيين البريطانيين ومـصالحهم فى المنطقة، كـما تعمل اسرائيل وأمـريكا حاليا بتوجيه تهـمة الارهاب ضد كل من يتعرض لمصالح اسرائيل وأمريكا بـصفة خاصة والغرب بصفة عامة.

اهتم الإمام محمد بن عقيل العلوى بالزراعـة والتجارة لتحسين أحوال ظفار الاقتصـادية وبنى قلعة كبيرة فى مـرباط وزاد من أفراد الجيش واهتم بتسليحـه كما نجح فى التغـلب على قبائل «القـرا» الذين كانوا يناصـبونه العـداء وقد ظل هؤلاء يتربصون له حتى تمكنوا من نصب كمين له أثناء عودته من مرباط إلى ظفار وهكذا انتهت حياته المليئـة بالجهاد والكفاح وتطوير ظفار، ويقول «هينز» إن الإمـام محمد ابن عقيل العلوى كان تقـيا وورعا وكان يحظى باحترام الجمـيع لرقته ونزاهته وان تجارة ظفار وسكانها قـد تطورت وزادت خلال عهده ولايزال للإمام محـمد عقيل العلوى معجبوه ومريدوه. وعندما وصل خبر مصرع الإمام محمد بن عقيل العلوى إلى سعيد سلطان عمان، ارسل قـوة عسكرية للاستيلاء على ظفار عن طريق نجله محمد الرابع وهو عـبدالرحمن غير أن هذا لم يقبل السلطة وعـاد إلى مسقط، أما سعيد فإنه سرعان ما أمر بسحب القوات من ظفار[21].

قدم الإمـام فضل باشا بن علوى مـولى الدويلة العلوى[22] موفـدا من قبل الدولة العثـمانية[23] عام 1290 هـ الموافق 1873، وقال عنه الإمـام عبـدالرحمن المشهـور العلوى فيه: ومنهم الآن الإمـام فضل بن الإمام علـوى بن سهل العلوى وهو شريف فاضل وكـان والده من كبار العلماء والفـقهاء المتصوفـين توفى بمليبار (يعنى والده عام 1263 هـ الموافق 1846 وجده الإمام محمـد بن سهل المتوفى عام 1069 هـ الموافق 1658) تولى الإمام فضل باشا بن علوى العلوى إمارة ظفار بعدما أتى إليه وجهاء ظفار وأعيانها ورؤساء قبائلها وعشائرها فبايعوه أميرا عليهم مستقلا يتبع الدولة العثـمانية، وبقى هناك مع أنجاله سـهل باشا ومحمد باشـا وأحمد بك إلى أن ترك حكم إمارة ظفـار مغادرا لها مع أنجـاله إلى مصر ومنها إلى الآسـتانة وذلك عام 1296 الموافق 1878 وما كاد نبـأ قدومه يصل إلى السلطان عبدالحـميد الثانى الخليفة العثمانى فى تلك الفترة حتى بعث من وزرائه وحجابه لاستقباله إلى الباخرة التى اقلته ولابلاغه أنه ضيف الخليفة الخاص ثم استقبله السلطان عبدالحميد الثانى وجعله من خاصته وكان موضع ثقته وحفاوته طوال حياته وقد وجه إليه رتبة الوزارة، وتوفى عام 1318 هـ الموافق 1900 ودفن فى مدفن ال عـثمان فى مقـبرة السلطان محمود وقد بلغ من العمر ثمانين عاما[24].

اتجه سكان ظفار بعـد مغادرة الإمام فضل باشا العلوى، إلى البـوسعيد فى مسقط ليحكمـهم ومن ثم استقر الحكم فى ظفار، وكان السلـطان تركى بن سعيد هو الذى طلب إليه سكان ظفـار حكمهم وكان سلمـيان بن سويلم قـائداً عسكريا وله شهرة واسعة بيـن قبائل عمان إذ اشتهر بالشجـاعة والإقدام وشدة المراس وهو خير كفء لحكم بلاد مضطربة كظفار ولذلـك عين السلطان تركى واليا عليها[25]، واستمر حكم البوسعيد على ظفار من تلك الفترة حتى عهد قابوس بن سعيد.

ظفار حاليا:

ذكرنا فيـما سبق نبذة عن تاريخ ظفار باخـتصار شديد، أما اليـوم فالصورة مختلفة تماما، فقد استطاعت سلطنة عمـان أن تقوم بنهضة تنموية شملت مختلف المناطق ومنها ظفـار، وفى مختلف الميـادين والقطاعات فتـغيرت الحيـاة فى ظفار

اليوم، واختلفت الصورة عما كانت عليه بالأمس فأصبحت ظفار تشهد انجازات جديدة وعديدة.

اعتمدت عمان على ثلاثة مبادئ تنموية أساسية باعتبارها هي الأفكار الرئيسية للاقتصاد فى الخطط التنموية المتتالية وهذه المبادئ هى:

الأول: يعتمد المبدأ الثابت الذى يؤكد أن الإنسان والمواطن هو الهدف النهائى الذى تخدمه كل الخطط والاجراءات الأمر الذى يستوجب تنمية الموارد البشرية الوطنية حتى تتمكن من القيام بدورها كاملا.

الثانى: عدالة توزيع الاستثمارات جغرافيا بحيث يعم النفع مختلف مناطق البلاد ومع اعطاء أولوية خاصة للمناطق الأقل تقدما لإزالة التفاوت فى مستوى المعيشة بين المناطق.

الثالث: وهو تنويع مصادر الدخل القومى وتنمية مصادر جديدة تقف إلى جوار الايرادات النفطية وتحل محلها مستقبلا.

فجاءت الخطة الخمسية الأولى التى بدأت عام 1976 ـ 1980 ثم الخطة الثانية عام 81 ـ 1985 والثالثة 86 ـ 1990 ومن أهدافها اعطاء الأولوية لمشروعات موارد المياه الطبيعية ومشروعات القطاعات السلعية المغلة للدخل كالزراعة وصيد الأسماك والصناعات التحويلية والتعدين والتوسع فى التنمية الاقليمية والتركيز على أهمية تطوير الخدمات الاجتماعية فى الأقاليم المختلفة وعلى وجه الخصوص فى مجالات التربية والتعليم والصحة والتدريب المهنى والإسكان الاجتماعى ثم جاءت الخطة الخمسية الرابعة عام 1991.

التنمية الزراعية فى ظفار

تعتبر الزراعة فى ظفار أحد المرتكزات الأساسية للاقتصاد المحلى لكونها مصدرا مهما لتوفير العديد من المنتجات الزراعية المتنوعة وأنها لاتزال الحرفة الأساسية لسكان ظفار وتشمل أشجار جوز الهند وبعض الخضروات مثل الطماطم والبصل وغيرها، ولقطاع الزراعة والأسماك دور مهم فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية لسكان ظفار اضافة إلى الرعى، واعتمدت وزارة الزراعة على إدخال

النظم الحديثة فى الزراعة والرى وتزويد الصيادين بالقوارب الحديثة وفى مجال الزراعة تمثل البحوث الزراعية أحد أهم الركائز العلمية التى يعتمد عليها فى تطوير هذا القطاع وتنميته بحيث توفر هذه البحوث الأسس العلمية التى يتم على أساسها وضع الخطط والبرامج للمواسم الزراعية حيث يوجد محطة للبحوث الزراعية فى ظفار تضم وحدات متخصصة فى مختلف فروع البحوث الزراعية كوحدة بحوث الخضروات وبحوث الفاكهة وبحوث الرى وبحوث التربة والمياه وبحوث الأمراض والحشرات وبحوث المحاصيل الحقلية وبحوث النحل، وفى مجال توفير مستلزمات الإنتاج المختلفة فى المواعيد المناسبة وقبل بدء الموسم الزراعى لضمان نجاحها. وفى مقدمة الأهداف التى تسعى إليها السلطنة فى التصنيع الزراعى يبرز تحقيق الاستغلال الأمثل للموارد الزراعية والحيوانية والسمكية المتاحة عبر إقامة المصانع والمشروعات المناسبة إلى جانب المساهمة فى رفع مستوى دخل المزارع فى ظفار وإتاحة فرص جديدة للعمالة وزيادة حجم الصادرات مما ينعكس أثره على زيادة الدخل القومى وفى هذا النطاق تشير البرامج التنموية لقطاع الزراعة والأسماك إلى تركيز الاهتمام على الصناعات الزراعية وقطاع الأسماك فضلا عن استكمال المشروعات الخاصة بتنمية الحاصلات الزراعية والتى تم البدء بتنفيذها ضمن فعاليات عام الزراعة الأول عام 1988.

تم توقيع اتفاقية مع أحد بيوت الخبرة العالمية بغرض اعداد دراسة لتصنيع منتجات النارجيل «جوز الهند» ومشتقاته، وجاء التقرير الأول للدراسة أنه فى الإمكان الاستفادة من هذا المحصول فى تصنيع أكثر من الفى طن من الأيس كريم إلى جانب كميات لابأس بها من الزبدة والفحم الصناعى ومع وجود المزارع القائمة تقرر التوسع فى المساحات المزروعة بالنارجيل لتلبية متطلبات التصنيع حيث تم تخصيص مساحة تصل إلى 35 هكتاراً يمكنها استيعاب حوالى 70 ألف شجرة نارجيل فى منطقة ظفار، وإذا ما نظرنا إلى محصول النارجيل عموما نجد أنه يعد من الحاصلات الاستراتيجية فى السلطنة ومع إضافة 70 ألف شجرة جديدة إلى أعداد الأشجار القائمة والذى يصل إلى 102 ألف شجرة فى حوالى 35 هكتار يمكن إتاحة الفرصة كاملة أمام إمكانات التوسع فى زراعة المحصول باعتباره مجديا للاقتصاد القومى، كما أن الوصول إلى صناعات تعتمد على النارجيل من شأنه

تشجيع مزارعى منطقة ظفار على الاهتمام بمزراعهم للحصول على مزيد من الدخل، خصوصا أن تسويق الإنتاج أصبح مضمونا بشكل يخدم المزارع نفسه يضاف إلى هذا كله أن وجود مصنع يعتمد على الخامات الزراعية المحلية سيؤدى إلى تحقيق نتائج إيجابية تثرى التنمية الاقتصادية لعمان عامة ولظفار خاصة، وأن إقامة مصنع النارجيل فى ظفار يعكس مدى سلامة التخطيط الذى يهدف إلى تحقيق عائد انتاجى بأقل التكاليف الممكنة على أساس أن وجود المصنع فى وسط المزارع المنتشرة فى ظفار من شأنه تقليل نفقات نقل الكميات المنتجة من مواقع المزراعين إلى مكان التصنيع اضافة إلى جذب للعمالة المحلية من أبناء ظفار للعمل فى المصنع بما يشجعهم على الاستمرار فى تنمية زراعات النارجيل[26].

اشتهرت ظفار باللبان قديما باستخداماته فى البخور والعطور وحاليا تجرى تجارب للاستفادة منه فى استخدمات أخرى ويقول الرئيس التنفيذى للهيئة العامة لتسويق المنتجات الزراعية العمانية بأن الهيئة فى صدد إنتاج كحل للعيون من اللبان سيطرح فى الأسواق قريبا بعدما ثبت أنه غير ضار بالعيون بل يفيدها، وشجرة اللبان شجرة معمرة يصل ارتفاعها إلى حوالى ثلاثة أمتار وتتفرع من بدء نموها ويصعب تمييز الساق من الفروع وهى تنبت على الطبيعة دون أن يكون للإنسان دور فى تكاثرها الذى يحصل بواسطة البذور التى تجف من عناقيد مستطيلة فتسقط على الأرض وتنتشر بفعل الرياح على التربة وهى قادرة على الإنتاج بعد عشر سنوات، ويستخرج اللبان من الشجرة عن طريق مقبض خشبى على رأسه آلة حادة يسمونه «المنقر» تكشط به الشجرة فى مواضع قد تبلغ الثلاثين بحسب حجم الشجرة وكثرة فروعها فتفرز سائلا يميل إلى الإصفرار لا يلبث أن يتجمد بعد أسبوعين أو ثلاثة فيجمع ويتكرر الكشط فى المواضع نفسها أكثر من مرة لفترة تتراوح بين ثلاثة أشهر وأربعة ثم تترك الشجرة لتستجمع قوتها وتستعيد ما فقدته من عصارة إلى العام المقبل، وعرف اللبان منذ القدم وقد استخدمه قدماء المصريين فى تحنيط المومياءات وبخورا مقدسا فى جميع المعابد القديمة على اختلاف معتقداتها وتباين عهودها وعلاجا نافعًا لعدد من الأوجاع وكان أفضل أنواعه بإجماع المؤرخين ما تنتجه ظفار التى ارتبط اسمها باللبان واصبحت سوقا شهيرة يقصدها التجار بحرا وبرا لشرائها وهدفهم جنى الأرباح الطائلة فى الأسواق الخارجية، وكان اللبان يصدر قديما عن

طريقين رئيسيين أولهما طريق القوافل الذى يمر عبر حضرموت إلى اليمن ثم إلى مصر والبحر المتوسط ومنها إلى أوربا، أما الطريق الثانى فهو يجرى بالمحيط الهندى الذى يربط بين كل من سواحل شرق أفريقيا وشواطئ جنوب آسيا.

تتمتع ظفار بمناخ خاص ومميز ذى الحرارة والرطوبة والتربة ذات الخصائص المميزة فأصبحت موطنا لنمو شجرة اللبان وتكاثرها دون أن تمتد إليها يد المزارعين وأجود أنواع لبان ظفار هو ما تنتجه المنطقة الجنوبية الشرقية ولاسيما «سمحان» وتقل الجودة كلما اتجهنا غربا، وهذا يرجع إلى تأثير المناخ فالأشجار القريبة من مناطق المطر تكون أقل جودة من الأشجار البعيدة عنها وينقسم اللبان إلى أربعة أنواع أجودها اللبان «الجوجرى» وتنمو أشجاره فى الأجزاء الشرقية من المنطقة يليه اللبان «النجدى» وهو الذى تنمو شجرته فى منطقة «نجد ظفار» الواقعة إلى الشمال من مرتفعات ظفار الوسطى ثم اللبان «الشزرى» وتنمو أشجاره فى الجزء الغربى بين نجد وظفار ومنطقة سقوط الأمطار، أما أقل أنواع اللبان جودة فهو اللبان «الشعبى» وتنبت أشجاره فى السهول الساحلية والشعاب وكلما كانت الشجرة بعيدة عن منطقة سقوط الأمطار ارتفعت جودة انتاجها ومقياس الجودة هو اللون والنقاء، فاللبان الأبيض المشوب بزرقة تشبه زرقة السماء والخالى من الشوائب هو أجود أنواع اللبان وأغلاها ثمنا وتقل الجودة كلما مال لون اللبان إلى ما يقرب من الاحمرار أو اختلط بشوائب أخرى وعند الجنى تفرز الأصناف والصنف الأول يسمى «اللقط» ويمثل أعلى درجة فى الجدلة وهو عبارة عن الفصوص النقية البيضاء التى تلتقط وتنتقى من محصول اللبان، ومن المصطلحات المتعارف عليها فى بيئة اللبان أن الشجرة التى تدر اللبان تسمى «معزة» والشجرة التى لا تعطى أو تدر قليلاً منه فيسمونها «التيس» وعندما تنبت الشجرة وتأخذ فى النمو قليلا فإنهم يسمونها «التلية» وأوراق شجرة اللبان خضراء داكنة تشبه إلى حد كبير أوراق شجرة الزيتون وتسمى هذه الأوراق «الثال» ويستخدم البدوى هذه الأوراق علفا للجمال والماعز، ولأغصان الشجرة قيمة هى الأخرى فى حياة البدو حيث تتخذ وقودا وقد أدى ذلك إلى تناقص أشجار اللبان بشكل ملحوظ فى ظفار خلال الأعوام الماضية[27].

الثروة الحيوانية:

وضع فى الفترة الأخيرة سياسة عامة وشاملة لتنمية هذا القطاع تمثلت فى

تطوير التغذية للماشية من خلال دعم المراعى الطبيعية وتحسينها وتوفير الأعلاف عن طريق إقامة مزارع الإنتاج للأعلاف فضلا عن دراسة البدائل المحلية لتصنيع الأعلاف وخفض أعداد الحيوانات السائبة على جبال ظفار وتحسين نظم الإيواء وتطويرها ثم رفع مستوى الخدمات البيطرية والعيادات القائمة وإنشاء عيادات جديدة وتطوير المختبرات البيطرية إلى جانب اجراء التحصين القومى للحيوانات وتطوير المحاجر البيطرية واشتملت بحوث المحطة أيضا على جوانب عملية لتطوير بحوث الثروة الحيوانية والارشاد الحيوانى وتوفير الدعم لمربى الماشية والقروض اللازمة لتنمية المشروعات الانتاجية فى هذا المجال إضافة إلى تدريب الكوادر من أبناء ظفار فى مجال الثروة الحيوانية لرفع كفاياتها واعداد دراسات الجدوى لمشروعات الأمن الغذائى وأن ظفار تعد من أهم المناطق فى السلطنة من حيث انتاجية الثروة الحيوانية حيث تضم أعداداً كبيرة من الأبقار كما تتيح مساحتها الزراعية وظروف المناخ فيها إمكانية توفير كميات لا بأس بها من الأعلاف الطبيعية وتؤكد الأعداد الكبيرة للأبقار الحلوبة امكانية إقامة صناعة وطنية للألبان فى ظفار[28].

الكهرباء والماء فى ظفار:

تمثل الكهرباء والماء قطاعا من أهم قطاعات الخدمات باعتبارها مصدرا من أهم مصادر الانتاج والتنمية وتقوم بتوفير الخدمة للمواطنين عن طريق تحديد شبكات الكهرباء لجميع مناطق ظفار التى تتمثل مصادر الطاقة الكهربائية فى ثلاث محطات رئيسية هى محطة صلالة الجديدة ومحطة «ريسوت» (أ) ومحطة «ريسوت (ب) وقد بلغت القدرة الانتاجية لهذه المحطات حتى نهاية عام 1989 ـ (99) ميغاوت مواكبة بذلك النمو والتوسع العمرانى الهائل الذى شهدته هذه المحافظة. ففى ريسوت تم تنفيذ المرحلة الثالثة لتدعيم محطة التوليد فى «ريسوت» (ب) وذلك بإضافة مولدين سعة كل منهما 7 ميغاوت خلال عامى 1991 و1992 وكذلك تنفيذ المرحلة الرابعة بإضافة ثلاثة مولدات سعة كل منها 7 ميغاوات وذلك لرفع القدرة الإنتاجية لمحطات التوليد بصلالة من 96 ميغاوات إلى 131 ميغاوات. وفى «مرباط» و«سدح» تم تنفيذ مشروع تدعيم محطتى التوليد فى كل منهما بإضافة مولدين لرفع القدرة الإنتاجية لمحطة «مرباط» إلى 32.5 كيلووات ومحطة

«سدح» إلى 21.3 كيلو وات أما المناطق الجبلية والساحلية فقد تم تنفيذ مشروع إنشاء محطة توليد بمدينة «ثمريت» وإنشاء محطة توليد بالمركز الإدارى «بحاسك» وتدعيم قدرة محطات التوليد فى المراكز الإدارية بكل من «صحوت» و«رخيوت»، كما شهد قطاع الماء تطورا كبيرا فى الاعوام الماضية، حيث تمتاز ظفار بوفرة المياه الناتجة من غزارة سقوط الأمطار فيها بسبب الرياح الموسمية وبسبب مناخها المعتدل الذى يعمل على عدم تبخر المياه بسرعة مما زاد فى الإمكانات المائية إلى حد كبير وقد بذلت الدولة جهودها فى تنفيذ العديد من مشروعات تحلية المياه فى الأعوام السابقة وكذلك مشروعات تحسين المحطات الموجودة ودعمها منها مشروع تحسين محطات التحلية فى كل من «السعدنات» و«أبو مضابى» و«الظهر» وقد بدأ تنفيذ هذا المشروع فى 6/6/1990 بتكلفة إجمالية مقدارها 405.486 ريال عمانى ويقوم هذا المشروع بإنشاء نقطة اضافية لتعبئة الناقلات بالمياه فى كل من المحطات الثلاث وانشاء خزانى مياه لمحطة السعدنات وإنشاء خط طرد للمياه الزائدة الملوحة بدلا من الخط الحالى إلى غير ذلك من الأعمال الأخرى التى ينفذها هذا المشروع.

قطاع السياحة:

تعتبر ظفار من أكثر مناطق الخليج والجزيرة العربية حظوة بالمقومات السياحية الحديثة وكل من زار ظفار فى فصل الخريف يدرك أن الطقس المتغير الفجائى هو طبيعة أخرى لبيئة ظفار التى تشتهر بها خلال هذا الفصل الحالم وتعتبر بحق عاصمة الضباب ليس لعمان وإنما للجزيرة العربية. الطبيعة فى ظفار غير عادية حالة الطقس المتقلب تزداد ضبابية الجبال تتعتم بالغيوم والسهول تكتسى بخضرة الأعشاب كمراع شاسعة المساحة تنتشر فيها قطعان من الأغنام والأبقار لذا فلا غرابة أن يتوافد السياح العرب والأجانب إليها من كل حدب وصوب، ولتطوير السياحة فى ظفار أنشئ العديد من المطاعم الثابتة فى الملتقيات السياحية التى يوجد فيها الزوار بكثافة كما تم تطوير الحديقة العامة فى صلالة وذلك إضفاءاً للجمال على مظهر المدينة العام ولأن الحدائق العامة بمثابة منتزهات يومية لكثير من الوفود وبمثابة محطات ترويحية لكثير من أفراد الأسر والعوائل فقد انشئت حديقة أخرى طبيعية قرب «السعادة» وكذلك تمت صيانة الأماكن الأثرية وقد ذكرت جريدة «البيان» الإماراتية الصادرة فى دبى قولها:

«إن الجمال الساحر الذى تنفرد به ظفار والتى تعرف بحدائق السلطنة الغناء ومهد أشجار اللبان الأسطورية ظل يجتذب إليها الرحالة عبر القرون، ولا غرو أن وصفها «ماركوبولو» بالمدينة العظيمة ذات الجمال الساحر واليوم تظل ظفار كما كانت وعاصمتها صلالة تمثل مزيجا رائعا من المقومات السياحية المهمة التى تعكس القديم وأمجاده والحديث ومظاهر نهضته، وقد اهتمت الحكومة العمانية فى الأعوام الأخيرة بمشاريع البنية الأساسية لصناعة سياحية ضخمة فى إطار خطتها لتطوير هذا المجال فكانت البداية بالسماح لمواطنى دول مجلس التعاون بالدخول إلى السلطنة دون الحاجة إلى الحصول على تأشيرة مسبقة إلى جانب تيسير اجراءات استخراج التأشيرات السياسية للراغبين فى زيارة السلطنة ودراسة انشاء معهد للسياحة والفندقة وذلك لتخريج الكوادر العمانية المؤهلة للعمل السياحى، كما بدأ العمل فى تنفيذ مجموعة من الاستراحات والموتيلات السياحية فى عدد كبير من المناطق السياحية داخل السلطنة وإنشاء دائرة للسياحة بظفار وتخفيض أسعار تذاكر السفر وتشجيع الرحلات الخاصة بين السلطنة وأوربا فى محاولة جادة لجذب السائح الأوربى إلى المنطقة، وتعتبر ظفار من أكثر مناطق السلطنة تنوعا فى التضاريس والمناخ وهى تتأثر بالرياح الموسمية التى تهب على الهند صيفا مما يودى إلى سقوط الأمطار فى فصل الصيف على مدار ثلاثة أشهر فى السنة وهو ما يسمى موسم الخريف وقد أصبحت ظفار فى الآونة الأخيرة ونتيجة لذلك نقطة جذب لامعة ومثيرة لاهتمام الكثير من السياح اذ ان درجة الحرارة لا تتعدى 30 درجة مئوية على مدار السنة وحيث الخضرة والطبيعة الخلابة التى لا تضاهيها خضرة فى أى مكان من الخليج والجزيرة العربية، وتحفل ظفار بالعديد من الآثار القديمة حيث نجد آثار مدينة «البليد» وآثار ميناء «سمهرم» الذى اشتهر بتصدير اللبان ويوجد نقش يسجل تأسيس مدينة «سمهرم» التاريخية وتذكر بعض كتب التاريخ أن ظفار هى منطقة الأحقاف التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم كما يوجد فى «سدح» قبر النبى هود، وتذكر الروايات أن عاداً وثمود عاشا فى ظفار التى يوجد فيها أيضا قبر النبى أيوب والنبى صالح وقبر الإمام محمد بن علوى صاحب مرباط.

الهوامش:

(1) س. ب. مايلز ـ الخليج بلدانه وقبائله ـ وزارة التراث القومى والثقافة الطبعة الرابعة ـ 1990 ص 463.

(2) س. ب ـ مايلز ـ نفس المرجع ص 465.

(3) س. ب. مايلز ـ نفس المرجع ص 467.

(4) صالح حامد العلوى ـ تاريخ حضرموت ـ الجزء الثانى ـ مكتبة الارشاد ـ جدة 1968 ص 463.

(5) محمد بن عبدالله بن عمر الشاطرى ـ ادوار التاريخ الحضرمى ـ عالم المعرفة ـ جدة ـ 1983 ـ ص 192.

(6) الشريف عبدالرحمن بن محمد المشهور ـ شمس الظهيرة جـ1 ـ عالم المعرفة ـ جدة 1984 ص 73.

(7) محمد بن عبدالله بن عمر الشاطى ـ المرجع السابق 192.

(8) السشريف عبدالرحمن بن محمد المشهور ـ المرجع السابق ص 74.

(9) الشريف عبدالرحمن بن محمد المشهور ـ نفس المرجع السابق ص 74.

(10) صالح حامد العلوى ـ المرجع السابق ص 585.

(11) صالح حامد العلوى ـ نفس المرجع ص 598.

(12) محمد بن عبدالله بن عمر الشاطرى ـ المرجع السابق ص 182.

(13) محمد بن عبدالله بن عمر الشاطرى ـ نفس المرجع ص 183.

(14) محمد بن عبدالله بن عمر الشاطرى ـ نفس المرجع ص 182.

(15) صالح حامد العلوى ـ المرجع السابق ص 603.

(16) صالح حامد العلوى ـ نفس المرجع ص 604.

(17) س. ب. مايلز ـ المرجع السابق ص 476.

(18) س. ب . مايلز ـ المرجع السابق ص 479.

(19) الشريف عبدالرحمن بن محمد المشهور ـ المرجع السابق ص 73.

(20) س. ب. مايلز ـ المرجع السابق ص 480.

(21) س. ب. مايلز ـ نفس المرجع ص 481.

(22) هو الإمام فضل باشا ابن علوى بن عبدالله بن محمد بن سهل محمد بن أحمد بن سلمان بن عمر بن محمد بن سهل بن عدالرحمن مولى خيلة بن عبدالله بن علوى بن محمد مولى الدويلة بن على بن علوى بن الفقيه المقدم محمد بن على بن علوى صاحب مرباط.

(23) ـ صلاح البكرى ـ تاريخ حضرموت السياسى ـ مطبعة مصطفى البانى الحلبى ـ القاهرة 1956.

(24) صالح حامد العلوى ـ المرجع السابق ص 606.

(25) صلاح البكرى ـ المرجع السابق ص 208.

(26) خالد بن محمد القاسمى ـ عمان مسيرة قائد واردة شعب ـ دار الثقافة القاهرة 1993 ص 190.

(27) خالد محمد القاسمى ـ نفس المرجع ص 276.

(28) خالد محمد القاسمى ـ نفس المرجع ص 192.

الفصل العاشر



العمل العربى المشترك وقيام مجلس التعاون

قدم هذا البحث باللغة الانجليزية إلى ندوة «جامعة مرمرة فى اسطنبول فى 17 ـ 24 إبريل 1993 ـ تركيا.

العمل العربى المشترك لأقطار الجزيرة العربية وقيام مجلس التعاون

أولا: العمل العربى المشترك لأقطار الجزيرة العربية

الخلفية التاريخية والسياسية لأقطار مجلس التعاون

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وفى اعقابها تعرضت أقطار مجلس التعاون لبعض التغيرات على ساحتها الداخلية والخارجية، ففى الوقت الذى شهدت فيه معظم الأقطار العربية، إن لم تكن قد مرت فى تلك المرحلة، وهى مرحلة القومية العربية فى خلال منتصف الخمسينيات وأوائل الستينيات والتى تمخض عنها حدثان رئيسيان فى منطقة الخليج والجزيرة العربية، وأولهما هو الثورة العراقية فى يوليو عام 1958 والتى استقرت بعد فترة من الزمن بحوالى عشر سنوات فى عام 1968، أما الحدث الثانى فقد وقع فى جنوب غرب شبة الجزيرة العربية وتمثل فى الثورة فى الشطر الشمالى من اليمن، وهذا التطور السياسى الجديد أدى إلى انعكاس إيجابى فى الشطر الجنوبى من اليمن ونتج عنه ثورة ضد الاستعمار المسيحى البريطانى، وأصبحت الثورة العراقية واليمنية تمثلان بعدا جديدا للقوى الفاعلة ليس فى المنطقة وإنما فى الوطن العربى[1].

كما بدأت الثروة النفطية تتجلى أهميتها فى المجتمعات التى كانت تعيش وتقتذ عند مستوى الكفاف فى ظل اقتصاد تقليدى وكانت هذه المجتمعات تعيش أساسا على البحر وما يجود به من اللؤلؤ وغيره من الثروات البحرية. وبدون أى استعداد أو مقدمات اندفع الخليج العربى إلى معترك الساحة الدولية دون اختياره وبدون اية خلفيات سابقة، ولذا وجد نفسه امام هذا العالم الحديث بكل ابعاده وقد حدث ذلك بسرعة فى خلال سنوات قليلة، فى حين وجدت بريطانيا نفسها امام تعاظم القوة التقدمية التى تمثلت فى حركات التحرر القومية العربية والتى كانت تهيمن على الخليج العربى منذ أكثر من قرن ونصف ولا يمكنها بعد الآن أن تتجاهل هذه القوى الجديدة فى المنطقة ولذا بدأت تعد العد التنازلى لحساب هذه القوى قبل أن يفلت الوقت من يدها ويتحول إلى العنف على نحو ما حدث فى

أماكن أخرى[2]، وهذا ما جعلها تتجه نحو اعطاء الاستقلال السياسى لاقطار شرق الجزيرة العربية.

برغم أن عمان والسعودية لم تكن تربطهما معاهدات حماية مباشرة مع بريطانيا إلا أننا يمكننا القول بأن أقطار مجلس التعاون رأت نور الاستقلال السياسى الحقيقي فى العقدين الأخيرين فقط، فقد كانت البداية لاستقلال الكويت السياسى فى عام 1961، ثم اعلنت بريطانيا الانسحاب العسكرى من الخليج العربى فى عام 1968 بحيث لا يتعدى عام 1971، وهذا الانعكاسات السياسية والأمنية والاقتصادية دفعت أقطار شرق الجزيرة العربية إلى الاتجاه نحو العمل العمل العربى المشترك لإقامة اتحاد فيما بينها.

أعلنت مشيختا أبوظبى ودبى العمل المشترك من أجل الاتحاد فى المنطقة ودعت الامارات الاخرى للانضمام إلى هذا الاتحاد ولكن لظروف سياسية معينة لم ينجح المشروع الاتحادى ونتج عنه استقلال كل من البحرين وقطر واعلان الاتحاد السباعى من بقية المشيخات الاخرى وقيام دولة الامارات العربية المتحدة وذلك عام 1971.

سوف نقوم بدراسة الجهود التى قامت بها أقطار الجزيرة العربية نحو العمل العربى المشترك فى مجالات متعددة منها الاقتصادية والسياسية والثقافية نحو التكامل والتنسيق فيما بينها وذلك قبل قيام مجلس التعاون، تلك الجهود التى صاغت من خلالها قاعدة العمل العربى للتعاون الإقليمى لمنطقة الجزيرة العربية ضمن الدائرة العربية المتكاملة والهادفة نحو تحقيق التكامل على المستوى القومى العربى، ويمكن القول بأن بداية العمل العربى فى تلك المجالات قد أدى إلى ظهور هذا المجلس إلى الواقع العملى نتيجة للجهود والنتائج التى حققها على صعيد التعاون الثنائى والجماعى ودوافع واتجاهات العمل والإطار التأسيسى والتنظيمى والمنجزات التى حققها.

العمل العربى المشترك لأقطار الجزيرة العربية:

يعتبر العمل العربى المشترك لأقطار الجزيرة العربية امتداداً للعمل العربى بشكل العام رغم أن الأخير لم يحقق نتائج ملموسة حتى الآن نظرا للظروف

المحيطة به وبعض المشاكل التى يواجهها، والبعض يرى بأن الاندماج الاقتصادى بين أقطار الجزيرة العربية أقرب منه بين الأقطار العربية، لأن الهياكل الارتكارية فى طور التكوين ولم تتكون بعد قواعد اساسية بمعنى أن أقطار الجزيرة العربية لم تصل بعد إلى مرحلة معقدة من الانتاج والتعقيدات التنظيمة والإدارية التى قد تكون عائقًا فى وجه التعاون والتكامل والذى تعانى منه معظم الأقطار العربية وكما أن العمل لأقطار الجزيرة العربية ليس بديلا عن العمل العربى المشترك وإنما هو جزء متكامل منه وأساسى[3] وتقول إحدى الدراسات فى ذلك:ـ

«إن الدعوة إلى التكامل الاقتصادى لأقطار الجزيرة العربية وانشاء سوق مشتركة لأقطار الجزيرة العربية وسوق مالية تنطلق من أبعاد الهدف النهائى للتكامل الاقتصادى، إن التنسيق والتعاون والتكامل الاقتصادى المشترك لأقطار الجزيرة العربية ليس هدفا فى حد ذاته وإنما هو جزء لا يتجزأ من التعاون والتكامل الاقتصادى العربى الشامل».

إذا ما نظرنا إلى حركة التعاون الاقتصادى العربى والتى كانت قد بدأت منذ الخمسينيات فإنه لم يحقق التكامل الاقتصادى العربى المطلوب، وأن اختلاف الأنظمة السياسية والاقتصادية قد جعل من تحقيق هذا التكامل أمرا صعبا، وخاصة علاقاتها فى السياسة الدولية والاقتصادية بين العالمين الرأسمالى والاشتراكى جعله مستحيلا، مما ترتب عليه الكثير من القناعات المرتبطة بجدوى هذا التكامل العربى بين مجموعات أصغر من المجموعة الإقليمية وتضم الأقاليم مجموعات شبة اقليمية مجاورة لتلك التى ظهرت عام 1963 بين أقطار المغرب العربى كإنشاء اللجنة الاستشارية الدائمة للتعاون الاقتصادى فيما بينها[4].

جرى التركيز منذ عدة سنوات على تحقيق التكامل الاقتصادى العربى نظرا لتعذر تحقيق الوحدة الاقتصادية حاليا، وربما لعدة سنوات قادمة خاصة فى ضوء تضاؤل الرغبة للوحدة بمعناها الشامل من الناحية الاقتصادية والسياسية اضافة إلى تصاعد النزعة القطرية، وكان مجلس الوحدة الاقتصادية قد حاول حمل لواء التكامل إلا أنه فى محصلة الحساب لا يزال تنافس الاقتصاديات العربية أقوى بكثير من تكاملها، وما تحقق من خطوات تكاملية لا يعكس التزاما واضحا بالاندماج وسلم الأولويات[5].

يرجع عدم لجاح تجربة التكامل الاقتصادى لـكونها كانت قد اعتمدت منطق السوق الأوربية المشتركة، كتحرير التـبادل التجارى وإطلاق حرية انتقال الاشخاص ورؤوس الأموال كوسيلة للوصول إلى التكامل الاقتصادى العربى، ولكن أثر ذلك كان ضعيفا جـدا نظر لاختلاف السياسات العربية نحوها اضافـة الى ضعف البيئة الانتاجية ومعـاناة الأجهزة التنفيذية المسؤولة عن تحقـيق التكامل فى السوق العربية من نقص فى السلطة ومن عدم الاستقلال فى اتخاذ القرارات وتنفيذها مما أدى الى ضعف النتائج[6] التى استطاعت دول السـوق العربية تحقـيقها فى العـمل العربى المشترك نحو التكامل الاقتصادى العـربى من جراء هذه الاتفاقية، وقد يكون لعدم وجود تفهم عربى على المستوى السياسى. ويقول أحد المعلقين:

مأساة الـكيانات العربية الآن هى عـدم وجود حد أدنى للتفـاهم والتواصل يمنع الانهيار والتـصدع فى علاقاتها ببعض، الأمر الـذى ولد غياب الخط الاسفل الذى يمكن السـياسى والمواطن من التكرس، والتـعاون الاقليـمى وهو الرد الذى يتلقف الانحدار العربى السياسى، ويـتنشق من السقوط، وهو الذى يأتى بالاجواء الافضل التى تساهم فى ردم المطبات العربية السياسية، وإذا كان مجلس التعاون قد غرس جذرة التعاون الاقليمى العربى فإن المحـاكاة تملك أرضية مشتركة فى المغرب العربى وفى وادى النيل وفى الشام وفى اليمن»[7].

ظهرت بعـد درسات التجارب الماضـية بعض الدعوات على مسـتوى الفكر الاقتـصادى العـربى الوحدوى، تطالب بفكرة الوحـدات العربيـة شبـة الإقليمـية المتكاملة على أن تنشأ ضـمن دائرة التكامل الاقتصادى العربى الموحـد، مما يساعد على خطوات أسرع فى بناء وحـدات شبة إقليـمية من ضمن الاتجـاه نحو التكامل العـربى الشامـل مبـاشرة والـذى ما يزال يتـعـثر فى خطواته رغـم تحقـيق بعض المنجزات[8] فى مجالات محددة.

كما أكـد المجلس الاقتصادى العـربى على أهمية وضع اسـتراتيجيـة عربية تستند على الاعـتماد على الذات، واعتـبرها الصيغـة المثلى الايسر تطبيقـا ضمن المجمـوعة العربية منهـا بالنسبة لاية تجـمعات اقليمـية أخرى بحكم توفـر عناصر التكامل، والتنسيق الاقـتصادى فى الموارد بين أقطار المجـموعة العربيـة إضافة إلى

العوامل التاريخية والدينية والحضارية، أما الظروف القطرية الاقتصادية والاجتماعية فقد كانت عاملا محدودا لانعكاسات التنمية القطرية الذاتية على ميدان العمل العربى المشترك البديل الأوحد[9].

يمكن التصور بأن هذه الوحدات شبة الاقليمية قد تشكل فى النهاية نواة التكامل والوحدة العربية ضمن المجموعات الاقليمية العربية، والتى أصبحت معروفة إلى حد ما فى الأونة الأخيرة نظرا لتقارب بعض العوامل فيما بينها مما يساعها فى العمل المشترك نحو التكامل العربى الشامل، وذلك لاعتبارات جغرافية وللعلاقات التاريخية فيما بين ابناء هذه الوحدات الاقليمية المتداخلة والمتقاربة، وبعد ذلك يمكن مد الجسور التوفيقية فيما بين تلك الوحدات لبناء الوحدة العربية الشاملة[10]وهذه الوحدات العربية هى:ـ وحدة الجزيرة العربية: وتضم اليمن والسعودية وعمان والإمارات والكويت وقطر والبحرين - وحدة الهلال الخصيب: وتضم العراق وسوريا والاردن ولبنان وفلسطين - وحدة وادى النيل وتضم مصر والسودان وأرتريا والجيبوتى والصومال - وحدة المغرب العربى: وتضم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا.

على كل حال لا يجب أن يفهم بأن العمل العربى المشترك بديل عنه، وإنما يجب أن يكون هناك تنسيق وتكامل وتعاون بينها، عن طريق وضع استراتيجية العمل الاقتصادى العربى المشترك وميثاق العمل القومى والخطة القومية، مما يسهل ويساعد التعاون ويصحح مسار التنمية الوطنية القومية وانتماء التدفقات المالية والفوائض النفطية من العمل لأقطار الجزيرة العربية إلى العمل الاقتصادى العربى المشترك، وزيادة مجال التنمية المتاحة من خلال النفط والمشاركة الأفضل ضمن المنطقة العربية ككل[11].

يقول يوسف صايغ حول هذا:ـ إن ذلك لن يعنى ان البلدان غير النفطية ستطالب بحق ملكية الموارد النفطية فى البلدان النفطية، بل إنه يعنى ان هذه البلدان الاخيرة ستحول نسبة كبيرة من مواردها المالية، الموجودة حاليا فى أسواق النقد الغربية نحو الاستثمار الانتاجى فى المنطقة العربية[12].

هناك بعض الدراسات التى ترى بأن تشابه اقتصاديات كيانات الجزيرة العربية

قد تقف عـقبة فى وجه التكامل والاندمـاج الاقتصادى وكلمـا تأخر ذلك التكامل قويت النهـائض والتعقيـدات وصعب اجراء هذا التكامل فيـما بينها فى المستـقبل. وتقول هذه الدراسات: (13)

«الملاحظ أن النموذج الحالى ـ نموذج التنمية ـ يقوم بخلق وقائع لا تسهل ابدا عمليـة التكامل الاقتـصادى خصـوصا بين الأقطار العـربية المنتجـة للنفط ـ وعلى الأخص بين أقطار الجزيرة العربية، فالحدود الاقليمية لا تبدو كإطار مرحلى مؤقت يمكن لعملية التنمية الشاملة تجاوزها. بسهولة فنموذج التنمية الواحدة ينتج عنه بنى اقتصادية متشابهة، وبالتالى متنافسة، وفى جميع الأحوال مقاومة لاتجاه التكامل.

إذا ما نظرنا إلى الوضع الاقتصادى وخطط التنمية فى كيانات الجزيرة العربية قبل العمل المشترك أو فى بداية المرحلة، نجد أن صياغات خطط التنمية جرُت أسوه بباقى الكيانات العربية، فقد كانت خطط التنمية القطرية تجرى بمعزل عن بعضها فى كيانات الجزيرة العربـية اضافة لظروف التجزئة، كان كل قطر يمثل كـيانا اقتصاديا بمفرده له مركز اتخاذ القرارات الخـاصة به بما فيه سياسة توجيه التنميـة الاجتماعية والاقتصادية وكل قطر كـان حريصًا على مبدأ السيادة الوطنية وعلى مـبادئ الحماية وحق الانفراد باقامة حـواجز جمركية وغيره من الأمور الخـاصة به مع الاتجاه نحو الاكتفاء الذاتى القطرى المرسوم بتبعيـة متزايدة للعالم الصناعى وخاصة الرأسمالى، والسـبب فى تعـزيز تلك الظاهرة كـانت الانعـزاليـة الإنمائيـة لدى أقطار الجـزيرة العربية[14].

يقـول د. على عبـدالله الخلف رغم أن أقطار الجـزيرة العـربية مـتـجانسـة ومتشابهة فى معظم مناحى الانشطة الاقتصادية والاجـتماعية والمؤسسات العامة إلا أن هناك اختلافات أساسية فى بعض المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية والتى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار عند وضع برامج التنمية[15].

بغض النظر عن الآراء المختلفة حول التكامل والتنسـيق فى المنطقة فإن العمل العربى المشتـرك لأقطار الجزيرة العربية أصـبح واقعا ملموسا مـن الصعب تجاهله، وبعض الدراسات تشير إليه أنه نظام إقليـمى فرعى. ويتساءل د. الرميحى إلى أى حد يعتبر هذا العمل متكاملا من جهة أخرى ومستمرا من جهة أخرى، وفى النهاية هل يحقق آمال شعب المنطقة؟

ثم يقول «تلك الأسئلة لا يمكن الإجابة عليها بشكل قاطع فى هذه المرحلة، إلا أن استعراض نتائج بعض الدراسات الموضوعية حول التعاون الخليجى قد يعطينا بعض الانطباع، ثم يورد بعض الأسئلة فى هذه الدراسات وهى كما يلى: (16)

«ففى دراسة خواكجية - التى نشرت فى يناير 1977 يقول فى الخلاصة: يتضح مما تقدم أن التعاون الاقتصادى لأقطار الجزيرة العربية اليوم يفتقر إلى الكثير من مقومات النجاح، وأهم هذه المقومات تحديد الهدف وخلق الظروف الموضوعية».

يتحدث النجار فى الإطار نفسه فيقول: «إن التبعية التى سادت قبل استغلال النفط (يقصد تبعية المنطقة إلى الخارج) لم تختفى (بعد النفط) بل أخذت صورا جديدة» كما يعلق على وجود اتجاهات الاندماج الاقتصادى فى أقطار الجزيرة العربية بقوله «نعم توجد اتجاهات نحو الاندماج - بل وإنها عديدة، ولكنها لا تحقق الحد الأدنى المطلوب من التنسيق». وتوجز دراسة أخرى هذا الواقع بقولها عن الاتجاه الغالب بين أقطار الجزيرة العربية «هو الإعلان عن النيات الحسنة، والاقتناع بضرورة التعاون والتنسيق وحتى التكامل إلا أن المسافة لا تزال شاسعة بين النيات والاقتناع الذاتى من جهة وبين التطبيق والإخراج إلى الحيز العلمى من جهة ثانية».

العمل العربى المشترك لأقطار الجزيرة العربية:

منذ حصول اقطار الجزيرة العربية على الاستقلال ومنذ بداية السبعينيات بدأ العمل العربى فى منطقة الجزيرة العربية يأخذ طابعا ثنائيا ثم تحول إلى العمل الجماعى المشترك والذى أدى إلى ظهور مجلس التعاون، وقد بدأ هذا التعاون فى مجالات عديدة منها الاقتصادية والثقافية والتربوية والإعلامية، كما تعددت المستويات من وزارية إلى مؤسسات مشتركة ولجان وغيرها. وفيما يلى هذه الأطر التنظيمية التى تكون منها العمل العربى المشترك لأقطار الجزيرة العربية وسوف نحاول إبراز هذه النقاط دون الدخول فى التفاصيل.

أولا: التعاون الثنائى:

وهذا التعاون كان البداية للعمل المشترك لأقطار الجزيرة العربية نحو التعاون

الحقيقى منذ السبعينيات، وكان هذا التعاون الثنائى عن طريق الاتفاقيات التفضيلية ذات الطابع الاقتصادى بين قطرين، وتعطيهما أفضلية فى المعاملة، وقد كانت الكويت سباقة إلى هذا العمل وفيما يلى بعض النماذج:

1 ـ اتفاقية التعاون الاقتصادى الكويتى ـ العراقى الموقع فى 25 أكتوبر عام 1964 ولكنها بدأت من عام 1972.

2 ـ اتفاقية الترنزيت الكويتى ـ السعودى عام 1970.

3 ـ اتفاقية الترنزيت القطرى ـ السعودى عام 1971.

4 ـ ترتيبات التعاون الكويتى ـ العمانى فى المجالات الاقتصادية والإعلامية عام 1972.

5 ـ اتفاقية التعاون الاقتصادى القطرى ـ السعودى عام 1873، واشتملت على معاملة المواطنين بالمثل، معاملة رأس المال بصورة مماثلة، تشجيع إقامة المشروعات المشتركة، إلغاء الرسوم الجمركية، تشكيل لجان مشتركة.

6 ـ اتفاقية ثنائية بين قطر والإمارات ـ 1973.

7 ـ التعاون الاقتصادى والتربوى والإعلامى بين الكويت والبحرين فى 29 يونيو 1973.

8 ـ اتفاق اقتصادى بين الكويت والامارات العربية المتحدة الموقع فى 30 نوفمبر 1973 والتى شملت تشجيع الاستثمار المشترك، حرية الحركة برأس المال وارباح المشروعات المشتركة، إلغاء الرسوم الجمركية، لجان متابعة المشروعات المشتركة والعمل والنشاط الاقتصادى، الاستثمار والمسائل النقدية، التجارة والجمارك والثقافة والإعلام.

9 ـ ترتيبات التعاون الكويتى ـ السعودى فى مارس 1975 وتوقيع مذكرة التفاهم.

10 ـ تشكيل لجنة التنسيق بين قطر والإمارات 1975.

11 ـ ترتيبات التعاون الاقتصادى القطرى ـ العمانى عام 1976

12 ـ ترتيبات التعاون الاقتصادى القطرى ـ الكويتى عام 1978.

ثانيا: التعاون الجماعي:

هذا التعاون الجماعي يشترك فيه أكثر من قطرين، وقد اشترك فيها معظم أقطار الجزيرة العربية، وبدأ التعاون منذ أواسط السبعينيات، عندما بدأت اجتماعات ومؤتمرات الوزارية تنعقد فى هذه الأقطار، وما كانت تتمخض عنه من اتفاقيات جماعية تؤدى إلى العمل المشترك لأقطار الجزيرة العربية، وأصبح هذا العمل أكثر تخصصا ومن هذه الاجتماعات والمؤتمرات الجماعية هي:

1 ـ مؤتمر وزراء التربية والتعليم فيما بين 20 ـ 27 أكتوبر 1975 والذى عقد في الرياض بالسعودية كان أول مؤتمر على المستوى الوزارى حضره جميع أقطار الجزيرة العربية بما فيها العراق ما عدا اليمن وتكررت هذه الاجتماعات فيما بعد.

2 ـ مؤتمر وزراء الإعلام فى 4 يناير 1976 فى أبو ظبى فى الامارات العربية المتحدة وكان أول اجتماع لوزراء الإعلام على مستوى الجزيرة العربية بما فيها العراق ما عدا اليمن. ثم الاجتماع الثانى فى الرياض 1976، ثم فى البحرين عام 1979، وقطر عام 1980، وعمان عام 1981.

3 ـ عقد المؤتمر الأول لوزراء الصناعة فى الجزيرة العربية عام 1976، وتولدت عنه منظمة الخليج للاستشارات الصناعية، ثم لم يجتمعوا بعد ذلك نظرا لارتباطهم بوزارة التجارة.

4 ـ المؤتمر الأول لوزراء الزراعة فى فبراير 1976 فى الرياض، ثم فى دبى والدوحة والكويت.

5 ـ مؤتمر التجارة الأول فى بغداد فى 7 أكتوبر عام 1977 والثانى فى الرياض عام 1979.

6 ـ المؤتمر الأول لوزراء الشئون الاجتماعية والعمل فى فبراير 1978 والثانى عام 1979 والثالث 1981.

7 ـ المؤتمر الأول لوزراء التخطيط فى يونيو 1976 فى الرياض والثانى فى الدوحة 1980. وكذلك وزراء الصحة ومحافظى البنوك المركزية حيث عقد المؤتمر الأول فى أبو ظبى 1975 وغرف التجارة والصناعة عقد أول مؤتمر لهم فى الكويت

عام 1978. وغيرها من المؤتمرات التخصصية في مجال النقل والمواصلات والأشغال والمالية. وتمخضت فى هذه المؤتمرات لجان العمل والمتابعة وغيرها من أمور التعاون والتنسيق المشترك فى مختلف المجالات.

ثالثا: قيام المؤسسات المشتركة للجزيرة العربية:

ظهرت هذه المؤسسات المشتركة للجزيرة العربية نتيجة لتلك المؤتمرات والاجتماعات الوزارية والتى أدت إلى ظهور المنظمات والمؤسسات التخصصية وتقوم بالأعمال الاستشارية وتقديم الخدمات المطلوبة وهى كالاتى:

1 ـ مكتب التربية العربى لاقطار الجزيرة العربية وقد وقعت اتفاقية انشائه فى المؤتمر الأول لوزراء التربية والتعليم 1975، ومقره فى الرياض ومن إسهامه متابعة تنفيذ قرارات مؤتمر وزراء التربية ورعاية الاجهزة التربوية المشتركة.

2 ـ مؤسسة الإنتاج البرامجى المشترك أنشأت فى يناير 1976، ومقرها الكويت وهى مؤسسة إقليمية للإنتاج التلفزيونى.

3 ـ منظمة الخليج للاستشارات الصناعية ـ وقعت اتفاقية انشائها فبراير 1976 ومقرها الدوحة، تهدف إلى تنسيق التعاون الصناعى بين أقطار الجزيرة العربية.

4 ـ مؤتمر التنسيق التليفزيونى لأقطار الجزيرة العربية، عقد مؤتمره الأول فى أبو ظبى فى 1/ 6/ 1976 والأخير فى الكويت فى يناير 1981.

5 ـ مكتب اتحاد الموانئ، وقعت اتفاقية انشائه فى أكتوبر 1976.

6 ـ وكالة انباء الخليج، أقرت فى مؤتمر وزارء الإعلام الثانى فى اكتوبر 1976 ومقرها فى البحرين.

7 ـ المركز العربى للبحوث التربوية ومقره فى الكويت وهو يتبع اداريا مكتب التربية العربى، ومن أهدافه تشجيع البحث العلمى فى مجالات التربية وتنميتها وتطويرها فى الدول الاعضاء وقد أقر نظامه فى المؤتمر الثالث لوزراء التربية فى أبوظبى.

8 ـ هيئة البريد، عقد مؤتمرها الأول فى الرياض فى 24/ 9/ 1977 كما عقدت مؤتمرات فى بغداد 10 ـ 20 فى شهر يونيو 1978 ـ و21/ 4/ 1979.

9 ـ مركـز التوثيق الإعلامى أقرته الـدورة الثالثة لوزراء الإعلام فى فـبراير 1978 وتم التوقيع عليه فى مؤتمر وزراء الإعلام فى فبراير 1980، المؤتمر الخامس ـ ومقره بغداد.

10 ـ اتحاد غـرف التجـارة والصناعة بأقطار الجـزيرة العربيـة، صودق على نظامة الاساسى فى أكـتوبر عام 1979 خلال انعـقاد المؤتمر الثانى لغرف التـجارة والصناعة والزراعة.

11 ـ جامـعة الخليج أقرت فكرتهـا فى المؤتمر الرابع لوزراء التربيـة والتعليم الذى انعقد فى البحرين من 3 ـ 4 ابريل 1979 وتم التوقيع على نظامها الاساسى فى المؤتمر الخـامس مارس 1980 فى الكويت ومـقرها البـحرين. إضافـة إلى هذه المؤسسات والهيئات هناك مجموعة من الأعمال المشتركة فى القطاع الصحى وهناك الندوات المشتركة فى معظم المجالات.

رابعا: انشاء المؤسسات الاقتصادية المشتركة:

تساهم فى هذه المؤسسات الاقتصادية أقطار الجزيرة العربية، ولكن فى بعض الحالات يسـاهم فيـها قطران أو ثلاثة حـسب امكانية كل قطر من النواحـى المالية وذلك حسب مـيزانية المشروعـات وحجمهـا، ويلاحظ ان المشروعات الاقتـصادية الاقليميـة الرسمية قليلة نسبيـا ولذا ـ فهناك بعض المشروعات الثنائية، وفـيما يلى المشروعات الاقتصادية.

1 ـ شركة طيران الخليج ومقرها البحرين وتشـترك فيها اقطار الجزيرة العربية الصغرى، ما عدا الكويت والسعودية والعراق، وقد تأسست فى عام 1974.

2 ـ بنك الخليج الدولى، وقعت اتفاقيته فى 14/ 12/ 1975 ومقره البحرين وتشترك فيه جميع أقطار الجزيرة العربية ما عدا العراق.

3 ـ شركة الملاحة العربية، وقع اتفاقها فى 19/ 1/ 1976 وتحمل سفنها اعلام أقطار الجزيرة العربية ما عدا عمان واليمن.

4 ـ الشـركـة المشـتركـة للنقل البـحرى، وقع اتفـاقـهـا فى الرياض فى 17/ 2/ 1979 وتضم الكويت والسعودية وقطر فقط.

5 ـ شركة الخليج لصناعة البتروكيماويات، موقعها البحرين، وقع اتفاقها فى

مايو 1980، وهو مشروع مشترك بين البحرين والسعودية والكويت، ورأسماله 60 مليون دينار بحريني، وقد اشتركت منظمة الخليج للاستشارات الصناعية في دراسة جداوة الاقتصادية.

6 ـ مشروع درفلة الألمنيوم وموقعه في البحرين.

هناك بعض المشروعات الاقتصادية والاتفاقيات لم تنفذ أو تظهر إلى حيز التنفيذ رغم أن البعض منها تمت دراسة مستفيضة عنه وهذه المشاريع هي:

1 ـ توحيد النقد والعملة، رغم الاجتماعات والدراسات فلم ير النور وما تزال الاجتماعات والدراسات مستمرة حوله رغم أنه كانت في المنطقة عملة نقدية موحدة قبل الاستقلال.

2 ـ إنشاء شركة موحدة للنقل الجوي، وعقدت لأجل ذلك عدة اجتماعات والتي تم البحث فيه أكثر من مره ولم تسفر عن شيء ملموس.

3 ـ مشروع انشاء سكة حديد وقد تم عرض المشروع الكويتي لربط المنطقة بشبكة خطوط حديدية في 12/ 4/ 1978.

4 ـ فكرة انشاء هيئة مشتركة للحفاظ على حيوانات ونباتات المنطقة، ودرست في الكويت في 18/ 11/ 1976، ولكنها لم ترى النور ولم توضع موضع التطبيق.

5 ـ حرية النشاط التجاري والصناعي، وتملك العقارات بين رعايا أقطار المنطقة وعلى الرغم من صدور القوانين المتعلقة بذلك إلا أنها لا تزال بعيدة عن التطبيق العملي.

ثانيا: قيام مجلس التعاون:

دوافع قيام مجلس التعاون:

هناك دوافع عديدة ساهمت في العمل العربي المشترك لأقطار الجزيرة العربية والتي أدت فيما بعد إلى قيام مجلس التعاون، ومن أهم هذه الدوافع، وجود النفط بهذه الكميات التجارية الكبيرة والتي تعتمد عليه الدول الصناعية والنامية وكيفية الحفاظ على هذه المادة الناضبة، والتغيرات التي برزت على أقطار الجزيرة العربية من جراء هذه المادة وما يحتاجه الآخرون أكثر من احتياجات اقطار المجلس،

والضغوط التى عاشتها المنطقة وأدت إلى استنزاف ليس نفطها فقد وإنما عائدات هذا النفط وجهدها السياسى والذهنى اليومى، والتحكم فى الثروة النفطية يحتاج إلى سياسة موحدة ولمواجهة هذه التغيرات كلها أدى إلى ترابط عضوى بين أقطارها وحركتها واحدة، ومخاوفها واحدة،ومصيرها واحد، يئن بفردها تحت وطأة الضغوط ويقوى ظهرها مجتمعة ويشد عودها[17].

برغم أن الفترة الزمنية التى انقضت بين الاستقلال السياسى لاقطار مجلس التعاون وبين قيام الثورة الإيرانية الإسلامية، كانت أقل من عشر سنوات فإن مشروع الرئيس الأمريكى «نكسون» قد فشل مع قيام هذه الثورة، وهو المهمة التى كانت قد أوكلت إلى شاه ايران بأن يكون شرطى المنطقة لحفظ أمن الخليج العربى، وبالتالى لحفظ المصالح الغربية المسيحية فى المنطقة، ولذا فإن شاه ايران كان قد قام بعدة ادوار بارزة فى المنطقة، اضافة إلى تكوين الترسانة العسكرية والتدخل احيانا فى شئون بعض أقطار المنطقة واحتلاله للجزر العربية عام 1971، وانتزاعه معاهدة شط العرب مع العراق عام 1975، وذلك بعد أن كان قد دبر نشوب الحرب الأهلية فى الشمال بين العراق والاكراد[18]

رأت الولايات المتحدة فى مساعدة شاه ايران عسكريا تدخلا غير مباشر فى الخليج العربى يخدم اهدافها ومصالحها الاقتصادية الواسعة والمتزايدة يومًا بعد يوم، وعلى هذا رأت الإدارة الأمريكية بأن ايران تمثل بؤرة الاستقرار فى المنطقة، ولذا أخذت توافق الشاه فى استعداده لملء الفراغ السياسى والايدلوجى العسكرى الذى سيعقب الانسحاب البريطانى، وكانت مصالح شاه أيضا متطابقة مع الولايات المتحدة التى تهدد مصالحها الاقتصادية فى المنطقة دون ان تضطر للتدخل المباشر[19] وهذا ما جعل الرئيس الامريكى نيكسون يمد ايران بالأجهزة العسكرية المتطورة والمعقدة نوعا وكما ولكن وقوع الثورة الإيرانية أفشل جميع مخططات شاه إيران لحفظ أمن الخليج العربى والمصالح المسيحية الغربية.

لهذه المعطيات والتطورات السابقة، فقد أدرك ابناء المنطقة بأنه لا يمكن حفظ هذا الأمن إلا عن طريق العمل العربى المشترك فيما بينهم، وعدم اتاحة الفرصة أمام القوة الدولية أن تتدخل فى المنطقة مما قد يسبب نتائج عكسية ولهذا تم قيام مجلس التعاون بهدف العمل فى المجال الاقتصادى والاجتماعى بالدرجة الأولى، على أن يتوسع هذا التعاون فى مختلف المجالات السياسية والعسكرية وغيرها فى

المستقبل ولدرء الاخطار المحدقة من حولها بعمل جماعى مشترك.

وكذلك فإن الوزير البريطانى السابق دوغـلاس هيرد يعلل قيام المجلس لتلك الدوافع ويقول:

إن هذه الدول اصبحت تتطلع بشدة إلى متطلبات أمنها وبالغريزة، فإن تفكيرها اتجه إلى أنه لما كانت أى دولة منها ليست قوية بمفردها فلابد من قيام تعاون بينها - الأمر الذى يراه معظم الناس صحيحا وطبيعيا.

لقد رأوا من مصلحتهم أن يتصرفوا على هذا النحو وبالطبع لم يكن هناك تطابق بين كل هذه الدول من حيث الاستنتاجات الممتدة من الأوضاع الاستراتيجية فى جنوب شرقى آسيا ككل، كما أن بعض هذه الدول قد سلك مسالك مختلفة إلى حد ما. إلا أن قوة مصالحها المشتركة أهم فى الاعتبار من أى اختلافات. ثم يتابع دوغلاس قوله: هذا الاتجاه نحو مزيد من التعاون والاحساس المتنامى بالاعتماد المتبادل كان نتيجة طبيعية لرغبات دول الجزيرة العربية ذاتها. لا يمكن لأى نمط من انماط التعاون والأمن، ولأى قضية من القضايا التى تهم دول الجزيرة العربية ان تكتسب ايه فعالية ما لم ترى الدول المعنية ان هذا التعاون يعكس مصالحها، وما لم تقبل على هذا التعاون بحرية كاملة. ولا يمكن لأى - تهديدات من قوة خارجية ان تجبرها على تغيير إحساسها الذاتى الذى تكمن فيه مصالحها وأولوياتها[20].

يبدو بأن الدافع الامنى كان واضحا خلف فكرة إنشاء المجلس، ولو أن البعض كان يحاول إخفاء ذلك، والباعث الامنى يشمل إضافة إلى الأمن العسكرى، الامن الاقتصادى وهو الاهم، وخاصة إن الولايات المتحدة سبق لها وأن كررت مرارا بأن أى اعتداء على الخليج العربى اعتداء على مصالحها، ولهذا تحاول ايجاد بديل عن شاه إيران من المنطقة نفسها، ولكن بطريقة أخرى بحيث لا ينكشف تورطها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

كما أن التطورات التى سبقت أو التى رافقت قيام المجلس اضافة إلى الحرب العراقية الإيرانية قد أكدت إلى حد ما سهولة تعرض حقول النفط فى المنطقة للخطر من أى جانب، سواء الوجود العسكرى السوفياتى فى افغانستان على مشارف الخليج العربى، أو من الدول الاستعمارية المسيحية الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة نفسها أو بالاشتراك مع العدو اليهودى. وقد كشفت تلك الأطماع من خلال

التعاون الاستراتيجى والعسكرى اليهودى فى المنطقة وخاصة إذا تعرضت المصالح المسيحية الرأسمالية فى المنطقة لأى خطر كان. حتى من جانب أقطار الجزيرة العربية إذا ما فكرت فى السيطرة على المصالح النفطية وعوائدها النقدية.

رغم إن التواجد السوفياتى كان لا يشكل خطراً على الخليج العربى، بقدر ما كانت تحاول الولايات المتحدة ابتزاز دول المنطقة عن طريق الخطر السوفياتى، حتى تحصل على مكاسب خاصة لها فى مختلف المجالات ولكننا لا ننكر بأن الاحتلال السوفياتى لافغانستان يشكل خطراً على افغانستان وعلى العالم الإسلامى. وأن السوفيت لا يتطلعون إلى منابع النفط وليس لهم اطماع فى الخليج العربى على عكس التطلع الامريكى ولكنهم كانوا يريدون ضرب الإسلام والمسلمين، ومعظم حكام الجزيرة العربية أدركوا هذه الحقيقة وكذلك الدوافع الامريكية وراء تحركاتها العسكرية فى الخليج العربى.

صرح الشيخ صباح الأحمد ـ نائب ورئيس وزراء ووزير الخارجية الكويتى لممثل وكالة «الاسوشيتدبرس» فى فبراير عام 1980:

«بأنه لا يرى مبرراً للضغط الذى تحاول الولايات المتحدة ممارسته على العرب، وعلى أساسه تنشر الولايات المتحدة قواتها فى منطقة الخليج العربى، وممن تريد انقاذه؟ ثم استطرد قائلا. إن السياسة الأمريكية تسبب لنا الانزعاج. ان أحداث أفغانستان ليست لها أية صلة بمنطقة الخليج العربى. وليس لدينا اى قلق فيما يتعلق بنوايا الاتحاد السوفيتى تجاه الخليج العربى. إننا واثقون من هذا مائة بالمائة. وأنا لا أعبر بهذا عن رأى الكويت وحدها بل ان هذا هو رأى كل دول المنطقة»، كما أشار الوزير الكويتى إلى «إن الولايات المتحدة تحت ستار من نظرية الخطر السوفيتى المفتعلة، تمارس الضغط على العرب حتى لا يرفعوا سعر النفط، وحتى يوافقوا على منح قواعد وتسهيلات عسكرية لقوات الولايات المتحدة الجوية والبحرى[21].

على أية حال يمكن القول بأن حقول النفط قد تكون هدفا سهلا وسريعا لاى طامع فى المنطقة بغض النظر عن هويته. وهذه الحقول يمكن اعتبارها مصدر الدخل القومى الوحيد لهذه الاقطار فى المرحلة الحالية، مما يكون دافعا قويا لدى هذه الاقطار لحماية مصالحها، وكان وزير البترول فى الامارات قد صرح إلى

صحيفة «الاويزرفر» فى 15 مارس 1981 «بأن مسألة تحسين النظام الدفاعى واجراءات الامن الداخلى تحت أعلى مرتبة بين سلم اولويات عمل المجلس[22]. وكان السلطان قابوس سلطان عمان قد أشار إلى أهمية الأمن عندما ادلى بالتصريح التالى:

«إذا نحن اعطينا أهمية كبرى للناحية الامنية فى اتفاق مجلس التعاون فذلك لاعتقادنا بأن ليس فينا دولة واحدة قادرة بمفردها على حماية أمن الخليج العربى ولكن حتما فى تكتلنا الامنى الدفاعى الجماعى قوة يجب أن يتكفل بها مجلس التعاون[23].

كانت هناك بعض الاختلافات فى وجهات الرأى بين أقطار مجلس التعاون قبل الأشهر التى سبقت الدورة الأولى لاجتماع المجلس الأعلى لحكام مجلس التعاون فى أبو ظبى 1981، وكان هناك رأيان على صعيد مجلس التعاون الجديد، فوجهة النظر الأولى تقوده الكويت وتتعاطف معها علانية الامارات العربية المتحدة، وهذا الرأى يحث على التعاون الاقتصادى والاجتماعى بوصفه أمرا مطلوبا عما عداه مجالات التعاون، خاصة التعاون العسكرى، أما وجهة النظر الاخرى فقد تزعمتها عمان مؤكدة على عنصرى الامن والتعاون العسكرى بوصفها نقطة انطلاق مجلس التعاون الجديد ومن ناحية أخرى لعبت كل من السعودية والبحرين وقطر دور التوازن والاعتدال بين هذين الرأيين[24].

انعقد مؤتمر وزراء خارجية دول مجلس التعاون فى مسقط يوم 23 مايو 1981، للإعداد لمؤتمر القمة الأول للمجلس ولوضع اللمسات النهائية على مشروع مجلس التعاون ومحاولة تجاوز الخلافات فى وجهات النظر التى ظهرت حول اسلوب تحقيق الأمن، فقد كان الوفد العمانى قد تقدم بورقة عمل تركز على الجانب الامنى والسياسى وذلك لمواجهة التطورات التى حدثت مؤخرا فى المنطقة، وقد جاء التصور العمانى للخطر السياسى لاقطار مجلس التعاون مؤداه بأن اقطارها تواجه اساسا الخطر السوفيتى وأن التصدى له يكمن فى إيجاد علاقات أقوى مع الدول الغربية بحيث يكون أمن الخليج العربى مرتكزا على اساس توازن استراتيجى مع المعسكر الشرقى، وخاصة بعد اختلال ذلك التوازن بعد رحيل شاه ايران، ووصول السوفيت على مقربة من الخليج العربى بعد التدخل فى افغانستان بينما كان التصور الكويتى للعمل المشترك الخليجى يستلزم اساسا بناء قاعدة

اقتصادية مشتركة قوامها مجموعة من المؤسسات الاقتصادية فى المجالات المالية والصناعية والاستثمارية وتكرس هذه المؤسسات صيغة اقتصادية عالية جديدة فى السياسة الدولية، دون التورط فى انحياز إلى الكتلة الشرقية أو الغربية، وايجاد علاقات دولية فى النواحى السياسية والاقتصادية بشكل متوازن بين اقطار المجلس والقوتين العظميين لكى يجنب هذا التوازن اقطار المجلس احتمالات التدخل الاجنبى فى شؤونها الخاصة. وقد لاقى هذا التصور الكويتى موافقة الاغلبية، كما ركز البيان الختامى لمؤتمر القمة الاول لدول مجلس التعاون فى أبو ظبى على الجانب الاقتصادى فى أعمال المجلس[25].

أعلن الجانب الكويتى قبل انعقاد القمة الأولى عن وجهة نظره عندما ألقى راشد الراشد ـ وكيل وزارة الخارجية ـ محاضرة عامة لوجهة النظر الكويتية مؤكداً فيها رفض الكويت لوجود أية قوة عسكرية أجنبية فى الخليج العربى وقال:

«إن مجلس التعاون المرتقب إنما يرمى إلى تحرير الخليج العربى من أية قوة أجنبية امريكية أو سوفيتية وإنه برغم كون المجلس الجديد خطوة على طريق وحدة أقطارها، إلا أنه ليس غاية ما نريده أو نرنوا إليه، فإن الاستقرار فى منطقتنا يحتاج بالتأكيد إلى مزيد من العمل على الجبهة الداخلية فى سبيل توفير المزيد من الرخاء لشعبنا الذى يحتاج أيضا إلى مزيد من الحريات العامة ومن المشاركة السياسية». وكانت وجهة النظر العمانية قد وردت بصورة غير مباشرة فى بيان صحافى صدر من وكيل وزارة الخارجية العمانية قال فيه «إن أقطار مجلس التعاون لا تستطيع حماية نفسها إلا بالتعاون مع الغرب أما صحيفة «الجزيرة» السعودية، الشبه الرسمية، فقد أكدت الحاجة إلى الاسلحة وقالت إن الغرب «الولايات المتحدة» لا بد وأن يبعنا الأسلحة التى نحتاجها دون تدخل من جانب قواته[26].

لا تأتى حماية استقلال اقطار مجلس التعاون من الاتجاه نحو الأمن والتسلح فقط دون دراسة علمية لمدى تأثير التوسع فى التسليح وخلق الجيوش الحديثة على اقتصاديات هذه البلدان، أو حتى تركيباتها السياسية. ويقول د. حسن الابراهيم: «فوجود جيش كبير مدرب على الأسلحة الحديثة هو فى حد ذاته دعوة صريحة للانقلابات العسكرية ومن ثم عدم الاستقرار السياسى. . أما التأثير الاقتصادى لسباق التسلح فهو واضح، فالدول المعنية تتجه بعائداتها النفطية نحو تكديس الأسلحة، لا نحو التنمية الاقتصادية، وهذا هو الهدف الأول والأخير لما يسمى

الان بالامبريالية المسيحية الاقتصادية للدول الصناعية الكبرى[27] كما أن العمل الاقتصادى المشترك لاقطار مجلس التعاون، من شأنه دعم الاستقلال السياسى لهذه الاقطار،ودعم عوامل الوحدة العربية على ضوء الروابط القومية، وكذلك المصير المشترك لاقطار المجلس وأن تنفيذ مشاريع صناعية وزراعية واسعة، والمشروعات الانتاجية فى هذا المجال يعتبر ضرورة ملحة لدعم الامن القومى فى منطقة الخليج العربى، والمهددة بالاحتكارات الرأسمالية[28].

كما أن منطقة الخليج العربى واهميتها السياسية والاقتصادية والدولية، قد فرضت عليها الحذر فى السلوك الدولى، والمحافظة على أمن المنطقة واستقرارها،وهذا ليس مطلبها وإنما مطلب عالمى، فإن أى خلل فى أمن المنطقة يعنى متاعب اقتصادية وسياسية على الصعيد المحلى والدولى ولابد لأقطارها ان تتعاون وتتضامن للمحافظة على استقرار أمن المنطقة، وهناك دوافع أخرى تشترك فيها جميع الأقطار وهى مشاكل التنمية والقوى العمالية والهجرة الأجنبية وتشابه الاقتصاد والتركيب السياسى والاجتماعى مع الإدراك بأهمية التقليل من الاعتماد على النفط وتنويع مصادر الدخل القومى وإيجاد قاعدة انتاجية وصناعية وزراعية، تستطيع ان تؤمن احتياجاتها وخاصة الضرورية[29]، إضافة إلى هذه العوامل وغيرها ساهمت فى قيام مجلس التعاون وفرضت المواجهة الجماعية للمشاكل والتحديات الداخلية والخارجية، اقتصادية وسياسية واجتماعية وآمنية.

بداية العمل العربى المشترك لأقطار مجلس التعاون:

شملت الاطر السياسية لمجلس التعاون جميع مجالات التعاون الذى كان قائما بالفعل، فى ميادين عدة بين اقطارها فى إطار العمل العربى المشترك،وربما يكون المغزى الوحيد لمثل هذا العمل العربى، هو أن جميع المؤسسات المشتركة السابقة على قيام هذا المجلس وإعلانه قد شملت العراق فى حين ان المجلس ذاته استبعد العراق من إطاره[30]، وكان من الاحرى ادخال اليمنيين فى هذا العمل العربى المشترك لتحقيق التكامل بين اجزاء الجزيرة العربية فى كافة المجالات، وخاصة ان اليمن يعتبر تعبيرا عن امتداد طبيعى للجزيرة العربية بل وأساسا لها، إضافة إلى دورها الطليعى فى المنطقة وعلى مستوى الوطن العربى[31] وتقول د ـ سعاد الصباح فى هذا الصدد:ـ

«تجدر الإشارة إلى أنه لم يتحدث أحد من قادة المجلس عن الوحدة العربية منذ قيام المجلس حتى قمة الكويت في نوفمبر 1984، حيث سمعنا لأول مرة أن هدفه قيام الوحدة، لم يرد في الميثاق التأسيسي أي بند لانضمام أعضاء عربية أخرى أو حتى خليجية حيث استبعدت العراق كما استبعدت اليمنان»[32].

شهدت مسيرة العمل العربي المشترك ولادة منظمة جديدة اقليمية من ضمن جسد التعاون الاقليمي العربي، عندما أعلن عن قيام مجلس التعاون في اجتماع أبوظبي الأول في مايو 1981، وقد جاء في البيان الختامي بأنه مكمل للوحدة العربية وأن قيام المجلس لا يتعارض مع الجامعة العربية وإنما هو بداية لهذه الوحدة، وقد تكون تجربة مجلس التعاون، التجسيد العملي للتكامل والسير نحو الوحدة، حيث يشير المجلس إلى أن قيام هذا الإطار الاتحادي يأتي لتكريس حالة قائمة من التنسيق والتعاون بين الدول الست الاعضاء في المجلس ولاستكمال الجهود المشتركة الرامية إلى تحقيق مستقبل أفضل وصولا إلى وحدة دولها. فإذا كان لمجلس التعاون دوره في تحقيق الوحدة العربية فإن هذا الدور يتلخص في إعطائه نموذجا يحتذى به في عملية الانتقال من مرحلة التمني والرغبة تجاه فكرة الوحدة إلى مرحلة العمل الجاد والدؤوب، وانتهاج أفضل السبل العملية لتحقيقها، أو على الاقل الاقتراب منها أكثر فأكثر. ومن هنا فإن أي تقارب أو تعاون بين أي مجموعة من البلدان العربية إنما يشكل خطوة في الاتجاه الصحيح نحو ما يصبو إليه العرب جميعا من الوحدة والارتقاء..

نظر لأهمية هذه التجربة الجديدة للعمل العربي المشترك لاقطار الجزيرة العربية فسوف نلقي الضوء على مسيرة التعاون الإنمائي العربي لأقطار الجزيرة العربية والتي تحمل في طياتها تأثيرات تتضارب في اتجاهاتها المحتملة بين الانعكاسات الإيجابية والسلبية.

ترجع خطوات انشاء مجلس التعاون إلى عام 1975، عندما كان الشيخ جابر الاحمد ـ رئيس الوزراء، قبل أن يصبح أمير الكويت في زيارة لأبوظبي في 16 مايو 1975 بدعوة من الشيخ زايد ـ رئيس الامارات، وبعد محادثات بين الجانبين، صدر بيان مشترك دعا في حينه إلى تشكيل لجنة وزارية مشتركة يرأسها وزيرا خارجية البلدين يجتمع مرتين كل سنة على الأقل، وفي اثناء زيارة الشيخ سعد العبد الله إلى أقطار المنطقة صدرت البيانات المشتركة عن محادثاته في هذه

الاقطار، دعت فيه إلـى تحرك سريع تتضافـر فيه جهود دول المنطـقة للوصول إلى وحدة دولهم العربية التى تحتمها الروابط الدينية والقومية وأمانى شعوبها فى تحقيق المزيد من التقدم»[33].

بدأت مشاورات العمل الـعربى حيال مسألة التعـاون العربى لأقطار الجزيرة العربية، فى مؤتمر وزراء خارجيـة هذه الاقطار الذى عقد فى مسقط، وبدعوة من عمان خلال عام 1976، ـ وحضره بالاضافة إلى اقطار المجلس الستة كل من ايران والعراق، لدراسـة التطورات السياسـية الجديـدة فى الخليج العربى وخاصـة حول موضوع أمن المنطقة، ولكن الاجتماع انفض دون تحقيق أية نتيجة، وطويت الفكرة مؤقتـا وتم اعادة طرح تلك الفكرة من جديد اثناء انعـقاد مؤتمر القمـة العربى فى الأردن فى نوفمـير عام1980، بين حكام الجزيرة العـربية، نظرا لكثـافة التطورات السياسية والعسكرية التى افرزتها الحرب العراقية ـ الإيرانية، والتدخل السوفيتى فى افغانسـتان، الذى جعل القوات السوفيـاتية على بعد 800كم من منابع النفط، مما تحتم على هذه الاقـطار ان تتجه نحـو العمل العربى المـشترك لإقـامة هذا المجلس وخـاصة بعـد نضـوج فكرة التـعـاون الانمائى والتى كـانت قد بدأت فـعـلا فى السبـعينيات واثناء هذه القـمة فى الأردن، تمت الموافقـة على هذه الفكرة ومن ثم جرى الاعداد لورقة العمل المشترك وتمت مراجعتـها فى الاجتماعات الجانبية للقمة الإسلامية التى عقدت فى الطائـف خلال الاسبوع الاخير من يناير 1981، لمتابعة المشاورات حيال اخراج فكرة مجلس التعاون إلى حيز التنفيذ[34].

بذلك يمكن القـول بأن الجهـود المكثفـة لبـداية التفكيـر فى العمل لانشـاء مجلس التعاون بدأت مع مؤتمر القمـة العربى الحادى عشر الذى عقد فى الاردن، وفيها كـان الشيخ جابر الاحمد ـ أميـر الكويت قد أطلع حكام اقطار المنطقة على التصور الكويتى لاسـتراتيجية مشتركة للتعاون فى جمـيع المجالات. ومن ثم قام وزير خارجية الكويت بعرض التصور الكويتى الكامل لهذا العمل المشترك الجماعى على حكام اقطارها فى جـولته التى شملت هذه الاقـطار. وقد كان هذا التـصور الكويتى يقوم على العمل المشترك لتقوية الروابط بين كافة أقطار الجزيرة العربية فى كافة المجالات السيـاسية والاقتصادية والنفطية والثقافـية والعسكرية فى إطار تنسيق مشتـرك تجمعه اسـتراتيجية شـاملة، وقد لقيت هذه الافكار الكويتيـة كل ترحيب وتقدير من المسؤولين فى المنطقة، ولهذا تم إرسال المشروع الكويتى للعمل المشترك

إلى الاقطار المعنيه، واثناء انعقاد مؤتمر القمة الإسلامية فى الطائف جرت اتصالات بين حكام الجزيرة وتبلورت فيها هذه الافكار التى تركزت حول ضرورة ابعاد منطقة الجزيرة عن الصراعات الدولية والعمل المشترك على اقامة تعاون فيما بينها.

قيام مجلس التعاون

أولا: الإعلان عن قيام مجلس التعاون:

نتيجة للجهود الكويتية تم عقد مؤتمر فى الرياض فى 4 فبراير 1981، ضم وزراء خارجية أقطار الجزيرة العربية الست، وتم فيه مناقشة خطة العمل العربى المشترك المقدم من الكويت. كما قدمت السعودية مشروعا لعقد اتفاقيات تعاون أمني ثنائى بينها وبين كل قطر من أقطار الجزيرة، بحيث تشكل هذه الاتفاقيات الثنائية فى النهاية اتفاقية أمنية واحدة. . فى حين اسفرت نتائج اجتماع الرياض عن الاتفاق على انشاء مجلس للتعاون بين هذه الاقطار لبلورة وتطوير التعاون والتنسيق والعمل المشترك بين الأقطار الست، وفضلت هذه الاقطار ان تقوم المجالس على شكل التعاون بين الاقطار الاعضاء وليس فى شكل وحده أو اتحاد، وقد يكون ذلك استرشادا بالتجربة العربية فى الوحدة ولهذا فإن اجتماعات الرياض قد ركزت على التفكير فى التعاون فى مختلف المجالات الفنية وعدم التركيز على النواحى الأمنية، لأعطاء الفرصة للعمل المشترك للتعاون، والبعد عن الخوض فى مواطن الخلاف بين وجهات نظر الأقطار الأعضاء بقدر الإمكان فى البداية

وفى نفس اليوم تم فى الرياض، الاعلان عن قيام تعاون مشترك بين اقطارها الست باقامة مجلس للتعاون على أن تكون له أمانة عامة وتعقد اجتماعات دورية من أجل تحقيق اهدافه، كما قرر وزراء الخارجية، عقد مؤتمر لهم فى مسقط بتاريخ 8 مارس 1981، على أن يسبقه اجتماعات للخبراء بتاريخ 24 فبراير 1981، فى كل من الرياض ومسقط، لوضع نظام متكامل لما اتفق عليه بشأن إنشاء مجلس التعاون لأقطار الجزيرة العربية، أما البيان الختامى لهذا المؤتمر فقد جاء فيه: [35]

«إدراكا من كل من دولة الامارات العربية المتحدة، ودولة البحرين والمملكة العربيه السعودية وسلطنة عمان ودولة قطر ودولة الكويت، لما يربط بينها من علاقات خاصة وسمات مشتركة نابعة من عقيدتها المشتركة وتشابه انظمتها وبوحدة

تراثها وتماثل تكوينها السياسى والاجتماعى والسكانى وتقاربها الثقافى والحضارى ورغبة من هذه الدول فى تعميق وتطوير التعاون والتنسيق بينها فى مختلف المجالات بما يعود على شعوبها بالخير والنمو والاستقرار.

ثم تابع البيان قوله: «وقد اتفقوا على إنشاء مجلس التعاون بين دول الجزيرة العربية المذكورة وتكوين أمانة عامة لهذا الهدف وعقد اجتماعات دورية على مستوى القمة وعلى مستوى وزراء الخارجية وصولاً إلى الغايات المرجوة لهذه الدول وشعوبها فى جميع المجالات.

جاءت هذه الخطوة تمشيا مع الأهداف القومية للأمة العربية وفى نطاق ميثاق جامعة الدول العربية الذى حث على التعاون الاقليمى الهادف إلى تقوية الامة العربية وما يؤكد تدعيم انتماء هذه الدول لجامعة الدول العربية وتعزيز دورها فى تحقيق اهداف ومبادئ ميثاقها وبما يخدم القضايا العربية والقضايا الإسلامية.

يقول سعود الفيصل وزير خارجية السعودية: «وإذا كانت جامعة الدول العربية تشكل أشمل مظلة متوفرة للعمل العربى المشترك، فإن مجلس التعاون يمثل الجح صيغة تعاونية أقدم عليها عرب الجزيرة تمشيا مع ما نصت عليه المادة التاسعة من ميثاق جامعة الدول العربية التى تتيح للدول الاعضاء إمكانية الدخول فى اتفاقات أو أى ترتيبات من شأنها تحقيق أعلى درجة من التعاون والترابط فيما بينهم»[36].

ثانيا: اجتماع أبو ظبى الأول وقيام مجلس التعاون:

بعد اجتماعات وزراء خارجية مجلس التعاون فى مسقط فى ٩مارس 1981، تمت فيه الموافقة على الهيكل التنظيمى لمجلس التعاون والنظام الاساسى، وطريقة التصويت والاجتماعات الدورية، وقعوا بالأحرف الأولى على الإطار العام لهذا المجلس، وفى الفترة ما بين 26 ـ 27 مايو من العام نفسه، عقد حكام المجلس أول اجتماع لهم فى أبو ظبى بدولة الامارات، واتفقوا فيما بينهم على إنشاء مجلس يضم أقطارهم ويسمى مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وقاموا بالتوقيع على النظام الاساسى للمجلس الذى يهدف إلى تطوير التعاون المشترك بين هذه الاقطار وتنمية علاقاتها وتحقيق التنسيق والتكامل والترابط وتعميق وتوثيق الروابط والصلات القائمة بين شعوبها فى مختلف المجالات، وإنشاء المشاريع

المشتركة ووضع انظمة متماثله فى جميع الميادين الاقتصادية والثقافية والإعلامية والاجتماعية والتشريعية، فيما يخدم مصالحها ويقوى قدرتها على التمسك بعقيدتها وقيمها، كما تم تعيين عبدالله يعقوب بشارة - أمينا عاما لمجلس التعاون وأن تكون مدينة الرياض مقرا دائما للمجلس. وإدراكا منهم لحتمية التكامل الاقتصادى بين اقطارهم والاندماج الاجتماعى بين شعوبهم، يرون أن الظروف المرحلية التى تعيشها دولهم والقضايا والمشاكل المتشابهة التى تواجهها علاوة على تماثل نظمها الاقتصادية والاجتماعية تقضى بوجوب وضع الاسس وإقامة المؤسسات وإنشاء الاجهزة المؤدية إلى جعل ذلك التكامل والاندماج الاجتماعى حقيقة ماثلة للعيان[37].

تحقيقا لهذه الاهداف ووضعها فى إطار التنفيذ مع ما جاء فى المادة الرابعة من النظام الاساسى قرروا انشاء لجان متخصصة، وارفقوها فى ورقة العمل الخليجى المشترك مع موافقة حكام مجلس التعاون. كما استعرضوا الأوضاع فى المنطقة، وأكدوا على حق شعوبها ودولها فى المحافظة على أمن واستقرار المنطقة، وبأن المجلس يعبر عن ارادة اقطارها وحقها فى الدفاع عن أمنها وصيانة استقلالها ورفض أى تدخل اجنبى فى المنطقة مهما كان مصدره، وابعادها عن الصراعات الدولية، وعدم السماح بايجاد أية قواعد عسكرية لاية دولة كانت، وأن ضمان الامن فى الخليج العربى مرتبط بتحقيق السلام فى الشرق الأوسط وضرورة حل القضية الفلسطينية ومنع انتهاك اسرائيل لسيادة لبنان، كما أيدوا الجهود المبذولة لوقف الحرب العراقية - الإيرانية باعتبارها من المشاكل التى تهدد أمن المنطقة وتزيد من احتمالات تدخل القوى الاجنبية وتأكيدهم والتزامهم بميثاق جامعة الدول العربية والقرارات الصادرة عن مؤتمرات القمة العربية، وجددوا دعمهم لمنظمة المؤتمر الإسلامى والتزامهم بقراراتها وعبروا عن تمسكهم بمبادئ عدم الانحياز وميثاق الامم المتحدة[38].

يتضح من ذلك أن اهم ما جاء فى النظام الاساسى للمجلس، هو وحدة المصير ووحدة الهدف لاقطار مجلس التعاون وهى السمات المشتركة والفردية من أجل الوصول إلى وحدة هذه الأقطار، وبأن المخاطر الخارجية تهدد هذه الاقطار جميعا، وتشترك أيضا فى الخصائص الداخلية، كالتركيب الديمغرافى وبنيتها

الاقتصادية، وهذا كله يفرض على هذه الاقطار، ايجاد صيغة مشتركة للعمل الجماعى، كما اختارت هذه الاقطار صيغة التعاون فيما بينها وليس صفات الكتلة أو الحلف أو المنظمة، وحددت الهدف النهائى هو وحدة الاقطار كمرحلة نهائية، كما ابتعدت عن القوالب السياسية التى تجمد وتحد من المرونة فلا هو من ضمن الإطار الفيدرالى أو الكونفدرالى، وأن هذا التعاون ليس لخدمة أقطار الجزيرة العربية، وإنما يخدم أهداف الامة العربية، واعتماد شرعية العمل المشترك بانسجامها مع ميثاق الجامعة العربية الداعى إلى تحقيق تقارب أوثق وروابط أخرى، وهى لدعم القضايا العربية والإسلامية، وأهم أهداف النظام الاساسى للعمل المشترك هو(39):

1 ـ تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بين الدول الاعضاء فى جميع الميادين وصولا إلى وحدتها.

2 ـ تعميق وتوثيق الروابط والصلات وأوجه التعاون القائمة بين شعوبها فى مختلف المجالات.

3 ـ وضع أنظمة متماثلة فى مختلف الميادين بما فى ذلك الشؤون المالية والاقتصادية والتجارية والعلمية والثقافية وشؤون الصحة والاجتماع والإعلام والشؤون التشريعية والإدارية.

ليس هناك تحديد سوى وضع أنظمة متماثلة فى جميع الميادين كما لا توجد إشارة إلى التعاون الامنى وشؤون الدفاع، ولكن فى اجتماع القمة الثانية فى الرياض فى نوفمبر 1981، أشير لاول مرة إلى التعاون العسكرى فى البيان الختامى رغم خلو النظام الاساسى منه، كما جاء أيضا فى البيان الختامى لقمة المجلس الاعلى فى البحرين فى نوفمبر1982، عن العمل العسكرى المشترك أى بعد عام واحد تقريبا، وأصبح المجلس يعتمد على قدراته الذاتية الجماعية للعمل، ومنها تطور إلى مناورات مشتركة كدرع الجزيرة الاول فى أبوظبى فى سبتمبر 1983، ثم درع الجزيرة الثانى فى أكتوبر 1984، وهى مغزاها الاصرار الجماعى على حماية أمن دول المجلس وحتى هذا الوقت فإن الجدل فى الأقطار العربية بالذات يدور حول مصداقية الاعتماد على الذات وعن المدى الذى قطعته دول المجلس فى تحقيق

هذا المبدأ. وقد اقترن التعاون الدفاعي بين الدول الاعضاء بارتفاع حدة الدبلوماسية، التي نشطت من أجل أن تحوذ على الاهتمام العالمي بمشاكل الخليج لا سيما الحرب العراقية ـ الإيرانية[40].

ورقة العمل العربي الخليجي المشترك:

وافق حكام اقطار مجلس التعاون والوفود المرافقة في الدورة الأولى للمجلس الأعلى المنعقد في أبوظبي بتاريخ 26 مايو 1981 على ورقة العمل العربي المشترك والتي جاء فيها بأن ظهور مجلس التعاون إلى الوجود جاء تلبية للواقع التاريخي والثقافي والاقتصادي والسياسي والاستراتيجي، الذي مرت به منطقة الخليج العربي، وخاصة في الوقت الراهن، ونتيجة لتطور الاحداث الأخيرة أو أن التضامن الطبيعي الذي يربط أقطار الجزيرة العربية يجب أن يظهر في إطار العمل المشترك بعد الخطوات الإيجابية والفعالة الثنائية والجماعية التي اتخذت قبيل قيام المجلس وحتى الآن. وأن يعود هذا التضامن بصورة أفضل لصالح ابنائها. كما أن العالم يتجه إلى الواحدات السياسية الكبيرة والكتل الاقتصادية لحفظ الامن والاستقرار، وسد الثغرات التي وقعت فيها وخاصة النزاعات الاقليمية وإذا كانت التحديات تكفي لايجاد تعاون مشترك في أي منطقة من العالم فإن ظروف اقطار الجزيرة متداخلة أكثر بما تشكله من قومية تدين بدين واحد وتراث حضاري وقيم وعادات مشتركة، وإن الموقع الجغرافي السياسي والثروة النفطية جعل من اقطار الجزيرة عرضة للاطماع الاجنبية والدولية مما دفعها إلى الاتجاه نحو التعاون المشترك، وأن أهمية الترابط بين الدول وبالتالي عملية الاندماج الاقليمي وخاصة في الجزيرة، سوف يكون من العوامل المساعدة لاهداف الأمة العربية والإسلامية ويصبح مطلبا اساسيا في هذه الفترة التاريخية[41].

كما جاء في ورقة العمل المشترك بأن التعبئة الفعالة للموارد والكفاءات، في بناء منظمة اقليمية تعزز الوضع القائم وتساعد في العملية التنموية لابناء المنطقة خاصة والعرب بصفة عامة، وأن الاندماج سوف يساعد في مواجهة التحديات الصناعية والاقتصادية كما تبعد المنطقة عن المساومة والمنافسة الدولية، أما إذا كانت هذه الاقطار مجزأة ومتفرقة ذات كيانات صغيرة فإنه يسهل افتراسها.

أما بالنسبة لموضوع الامن فإن الورقة جاء فيها أن الحديث عن فراغ القوة فى المنطقة والثروة التى ليس لها اصحاب يمكن ان ينتهى إلى الابد، إذا قام اصحاب المنطقة بعزم ثابت وأكيد بدورهم الجماعى فى العمل المشترك مما يجعل لها هدفا موحدا فى المجال العالمى والاقليمى يعبر عن مكانتها فى الاقتصاد العالمى، وكذلك فى علاقاتها الدولية، وتساهم بفعالية فى قضايا الامة العربية، وبأن الوحدة العربية منذ بزوغ فجر التحرر العربى بعد الحرب العالمية الثانية، كانت محطة أنظار الشعوب العربية، وأن الخطوات الايجابية يجب أن تبزغ فى هذا الطريق من منطقة احتضنت الإسلام ورعت العروبة وسارت فى دمها المصلحة القومية منذ فجر التاريخ[42].

ثم تحدثت ورقة العمل المشترك عن الصعوبات التى تواجهها اقطار المنطقة ولا يمكن مواجهتها إلا بالعمل الجماعى المشترك حيث إن هذه الاقطار اعتمادها الوحيد على ثروة ناضبة وهى النفط، وأن تعمل لصالح شعوبها فى الوصول إلى التنمية الحقيقية واقامة بنية أساسية وقاعدة انتاجية ثابتة وذلك بإعداد وتدريب الكوادر البشرية لكى تساهم فى تحويل النفط إلى تنمية شاملة ومستقرة، وخاصة ان الفرصة المتاحة اليوم لا تتاح غدا، ولذا على هذه الاقطار العمل الجماعى المشترك نحو الاندماج الحقيقى والشامل للقطاعات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وعن طريق الخطط الاندماجية الصحيحة بين الاقطار فى الجزيرة العربية يمكن مواجهة هذه التحديات المعاصرة والمحافظة على الاستثمارات المادية؛ ولهذا تم انشاء العديد من اللجان من الوزراء المتخصصين للعمل المشترك بالتنسيق والتعاون مع الامانة العامة للمجلس[43].

يتضح من ورقة العمل المشترك بأن اقطار الجزيرة العربية إذا لم تعمل فى إطار العمل المشترك فإن القوى الخارجية لن تتركها تنعم بخيراتها والاخطار أكبر من الانتظار، وفى الورقة دعوة صريحة للعمل السياسى والامنى والاقتصادى، بالإشارة إلى فراغ القوة فى المنطقة دعوة نحو تحقيق الاستقرار بالعمل المشترك، والذى يعتبر أمن الخليج من أمن الامة العربية، كما تشير ورقة العمل الخليجى

المشترك، بإنشاء سبع لجان هى لجنة التخطيط الاقتصادى والاجتماعى ولجنة التعاون المالى الاقتصادى ولجنة النقل والمواصلات ولجنة التعاون الصناعى ولجنة النفط، ولجنة الخدمات الاجتماعية والثقافية، ولجنة التعاون المالى والنقدى، وقد باشرت هذه اللجان الوزارية أعمالها بعد انشائها وأصبحت الان لجانا دائمة عددها حوالى إحدى عشرة لجنة[44].

نتائج الاجتماع الأول للمجلس الأعلى:

يعد الاجتماع الذى عقد فى أبوظبى فى الفترة من 25 ـ 26 مايو1981، مؤتمر القمة الأول للاقطار الست، ويعتبر هذا الاجتماع المرحلة النهائية والأخير لإنشاء مجلس التعاون، وأول لقاء قمة يساهم بنتائج ايجابية فى اثراء مسيرة العمل العربى المشترك، ويشكل تنظيمًا دوليًا شبه اقليمى قومى عربى فى المنطقة كما يعتبر هذا المؤتمر التأسيس الاول لمجلس التعاون، وقد حضره كل من الأمين العام للجامعة العربية والأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى.

تمت فيه المصادقة النهائية على النظام الاساسى لمجلس التعاون، وبذلك يشكل البداية القانونية لهذه المنظمة الاقليمية، وتم التصديق على اختيار أول أمين عام للمجلس والموافقة على تشكيل هيئة لتسوية المنازعات والنظام الداخلى لكل من المجلس الاعلى والمجلس الوزارى وتكليفه للاجتماع فى وقت لاحق لتبادل وجهات النظر حول الوضع السياسى والامنى فى المنطقة وتقديم ذلك إلى الدورة الثانية لاقطار المجلس، وكذلك تم تشكيل خمس لجان للعمل من أجل تعزيز التعاون ووضع تفاصيل العمل المشترك العربى من الوزراء المتخصصين، وتكون هذه اللجان ذات مهمة مؤقتة تعمل بالتنسيق والتعاون مع الامانه العامة للمجلس، تبدأ أعمالها وفقا للمواعيد التى يقترحها الأمين العام وهذه اللجان[45] هى:

1 ـ لجنة التخطيط الاقتصادى والاجتماعى:

تتولى هذه اللجنة التنسيق والتخطيط فى مجالات العمل العربى المشترك فى الشؤون الاقتصادية والاجتماعية، ويهدف إلى تحقيق التجانس والتكامل بين الخطوط الاقتصادية الوطنية فى تلك الاقطار ووضع الأسس لتصور تخطيط متكامل مستقبلى وبصورة مستمرة بغية الوصول إلى وحدة اقتصادية بين الاقطار الاعضاء.

2 ـ لجنة التعاون المالى والاقتصادى والتجارى:

دور هذه اللجنة القيام بدراسة الوسائل الكفيلة بتنسيق التعاون المالى، والاقتصادى، ويكون اختصاصها توحيد الانظمة الخاصة بالاستثمار وتنسيق السياسات المصرفية والتنفيذية ووضع الاسس الكفيلة بمعاملة رعايا اقطار المجلس فى أى قطر من هذه الاقطار نفس معاملة مواطنيها دون تفريق أو تمييز، ووفقا لما يتفق عليه فى مجالات حرية الانتقال والعمل والاقامة والتملك والارث والايصاء وحرية ممارسة النشاط الاقتصادى، وتشجيع القطاع الخاص وازالة الحواجز الجمركية بين الاقطار الاعضاء، والتعاون فى مجال النقل والمواصلات.

3 ـ لجنة التعاون الصناعى:

تقوم هذه اللجنة بتنسيق النشاط الصناعى فيما بين الاقطار الأعضاء، وتوزيع الصناعة على رقعة الاقطار الاعضاء بتشجيع وإقامة الصناعات المكملة للمشروعات الاساسية موزعة فى الاقطار الاعضاء حسب الميزات النسبية والجدوى الاقتصادية.

4 ـ لجنة النفط:

تتكون هذه اللجنة من وزراء الخارجية والبترول والمالية وتقوم بالعمل المشترك فى تنسيق دراسات أقطار المجلس فى مجال الصناعة النفطية بجميع مراحلها ووضع سياسة نفطية موحدة، ومواقف مشتركة نحو العالم الخارجى فى المنظمات المتخصصة والمنظمات الدولية.

5 ـ لجنة الخدمات الاجتماعية والثقافية:

من مهمام هذه اللجنة التنسيق والتكامل فى مجالات العمل المشترك فى التربية والتعليم والصحة والعمل والشئون الاجتماعية والثقافة ووضع أسس لتكاملها وتجانسها(46).

يمكن أن نقول بأن البيان الختامى لمجلس التعاون، قد حدد السياسة الخارجية للمجلس حيث بدأ بأهمية أمن الخليج العربى واستقراره خاصة بعد انشاء الولايات المتحدة قوات التدخل السريع، وردود الفعل السوفيتية حول ذلك ومراقبتهم لقيام المجلس، وقد رفض حكام المجلس التدخل الاجنبى مهما كان مصدره، وأصروا

على أن أمن المنطقة مسؤولية ابنائها، كما أن ربط قضية فلسطين، جاء بأمن الخليج العــربى واستقــراره خير دليل على ربط المصيــر المشترك للأمة العربيــة، كما أعلن تمسك المجلس بســياسة عــدم الانحيــاز كمــا قرر حكام المجلس دعــوة وزراء المالية والاقتصاد لوضع اتفاقية اقتصادية موحدة، تحل محل الاتفاقيات الثنائية المعقودة بين الاقطار الاعضــاء خلال فتــرة شهرية على أن تعــرض على الرؤساء فى الاجتــماع القادم(47).

أما فيما يتعلق بالتنظيم السياسى والهيكلى لمجلس التعاون، فإنه يتكون اساسا من المجلس الأعلى وهيئة لفض الخلافات بين الأقطار والمجلس والأمانة العامة.

فالمجلس الأعلى: يتكون من حكام هذه الاقطار وتكون رئاستــه دورية حسب الحروف الابجدية ويعــقد المجلس دورتين عاديتين سنويا بالإضــافة إلى أى جلسات طارئة، ويحق لأى حاكم من الأقطار الاعضاء ان يدعو إلى اجتماع طارئ، وينعقد المجلس الأعلى إذا تمت الموافقــة من أى قطر آخر. ومن مهام هذا المجلس صــياغة الســياســة العليا، ورسم الاهداف المتــعلقة بــالعلاقــات بين المجلس وبين الاقطار، ولمراجعة الاوضــاع سياسيــا وأمنيا واقتصــاديا وتدارس السيرة وشؤونهــا، ومناقشة الاقتراحات والقوانين المعروضة من قبل المجلس الوزارى والامانة العامة قبل الموافقة عليها والقيام بتشكيل هيئة لفض المنازعات بين الاقطار الاعضاء.

اتبع المجلس سياسة مرنة بين الاعضــاء، سواء فى اتخاذ القرارات أو تنفيذها حتى لا تخلق عقبات فى الطريق والسير تجاه التعاون والتكامل بكل هدوء وثقة تامة فى تنفيــذ الاهداف المرجوة من قيــام المجلس. وحول هذه السيــرة السياسيــة يقول عبــدالله بشارة: وقد اتــبع المجلس فلسفة الاقناع والاقــتناع، فلا احــراج فى عمل المجلس ولا فرض على من لا تسمح ظروفه بالقبول، فإذ برزت صعوبة لبلد ما فى تطبيق القرارات، ارتضــتها البلدان الاخرى، فلا غــضاضة من اعقابهــا حتى تسمح ظروفها. وقد أعطى هذا النهج المرن مجلس التعــاون حصانه، وفرت له حماية من التعثر والتصلب. النهج الآخر الذى اتبعه المجلس ووفر عليه الكثير من الاذى، هو الاعلان بأنه ليس شــريكا فى الشؤون الداخلية، فلكل بلد قــوانينه وظروفه، ولكل

شريحة خصائصها، ولكل دولة سيادتها، وفى هذا الوقت وقاية للمجلس وللدول الاعضاء، وقد استثمرناه للإسراع بتأكيد نمو المجلس[48].

المجلس الوزارى:

يتكون من وزارة خارجية الاقطار الاعضاء وسيضع المجلس نظام الامانة العامة، واعداد المقترحات اللازمة والقوانين والانظمة ورفعها للمجلس الاعلى، والترتيب لاجتماعاته ويجتمع المجلس الوزارى ست دورات سنويا، أو مرة كل ثلاثة أشهر، وتكتمل نصابة بحضور ثلثى الاقطار الاعضاء، ويلعب المجلس دور الحكومة ويضع أيضا السياسات والتوصيات والدراسات المناسبة لدعم وتنمية التعاون والتكامل والتنسيق بين الاقطار الاعضاء فى مختلف المجالات، والاشراف على الاتفاقيات المشتركة القائمة وتحسينها، وتصدر قرارات المجلس الوزارى بموافقة جميع الاعضاء الحاضرين، ويتولى كذلك اعتماد موازنة المجلس والامانة العامة. ويعطى تعليماته بتجاوز المشاكل. وفى القاعدة لجان وزارية كثيرة انبثقت منها لجان فنية تجتمع بأستمرار اقرار استراتيجيات صناعية وزراعية موحدة.

الامانة العامة:

يتولى إدارتها أمين عام من مواطنى الاقطار الاعضاء، يعينه المجلس الأعلى. وحددت وظائف الامانة العامة على الوجه التالى: إعداد الدراسات حول التعاون والتنسيق المشترك ومتابعة تنفيذ قرارات وتوصيات المجلس الاعلى والمجلس الوزارى واعداد التقارير والدراسات اللازمة التى يطلبها المجلس الوزارى، واعداد الميزانية والحسابات الختامية وكذلك اعداد المشاريع والقوانين والانظمة الإدارية والمالية المنسجمة، ومتطلبات تطوير أعمال ومسؤوليات مجلس التعاون[49].

أهداف المجلس : 1 ـ يمكن استخلاص الأهداف المعلنة لمجلس التعاون من وثيقتين رسميتين: ورقة العمل المشترك التى تشكل القاعدة الفكرية النظرية لنشوء المجلس ـ (النظام الأساسى) الذى يشكل دستور المجلس.

ورقة العمل المشترك: 1 ـ الأهداف ـ التحديات التى تواجه دول مجلس التعاون وتدعوها لتوجيه جهودها فى مجلس جامع، هى التالية:

1 ـ تلبية نداء العصر الذى يتجه نحو الوحدات السياسية ـ الاقتصادية الكبيرة كمدخل إلى الاستقرار والأمن والتقدم والابتعاد عن النزاعات الاقليمية التى تضيع فيها جهود الشعوب وطاقتها .

2 ـ الاستجابة لظروف منطقة الخليج العربى كموقع جغرافى سياسى وواقع حضارى (قومى ـ دينى) ذات تراث مشترك وقيم وعادات مشتركة والمحافظة على الثروة النفطية الخليجية التى هى عرضة للأطماع الدولية.

3 ـ دعم أهداف الأمة العربية والإسلامية من خلال الترابط بين الأمم والاندماج الإقليمى لتحقيق التنمية المتوازنة التى تفيد الجميع.

4 ـ إسقاط مقولة (فراغ القوة فى الخليج العربى) (الثروة التى ليس لها أصحاب) بتشكيل قوة سياسية ـ اقتصادية ذات مكانة عالمية وصوت محترم ومهاب.

5 ـ السعى لابعاد الخليج العربى عن التنافس الدولى الذى يزداد شراسة بازدياد حاجات العالم الصناعى للنفط وهذا ممكن ما لم تواجه دول المنطقة (الشهوات الدولية) بصوت واحد ورأى واحد وقوة واحدة. وما لم تفعل ستبقى دول المنطقة كيانات صغيرة يسهل انتزاعها.

6 ـ تحقيق الوحدة العربية انطلاقًا من منطقة احتضنت الإسلام ورعت العروبة وصارت فى دمها المصلحة القومية.

7 ـ تحقيق المعادلة الاقتصادية ـ الاجتماعية الصعبة وهى تنمية حقيقية ومستمرة من جهة وسلام اجتماعى وامن وتقدم من جهة ثانية، أى تحقيق التنمية الشاملة، وهذا يستدعى إقامة قاعدة انتاجية ثابتة من جهة وإعداد وتدريب رأس المال البشرى من جهة ثانية.

إن تحقيق هذه الأهداف والتحديات يفترض حتما حصول اندماج صحيح بين أقطار وشعوب الجزيرة العربية على قاعدة تنمية شاملة وتوزيع عادل وحكيم للثروة، مما يعطى المجلس دورا فى بناء السلام العالمى.

النظام الأساسى للمجلس: حددت المادة الرابعة من النظام الأساسى لمجلس التعاون أهداف المجلس بالأمور التالية:

1 ـ تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بين الدول الاعضاء فى جميع الميادين وصولا إلى وحدته.

2 ـ تعميق وتوثيق الروابط والصلات وأوجه التعاون القائمة بين شبابها فى مختلف المجالات.

3 ـ وضع أنظمة متماثلة فى مختلف الميادين بما فى ذلك الشؤون الآتية:

الشؤون الاقتصادية والمالية ـ الشؤون التجارية والجمارك والمواصلات ـ الشؤون التعاونية والثقافية ـ الشؤون الاجتماعية والصحية ـ الشؤون الإعلامية والسياحية ـ الشؤون التشريعية والإدارية.

4 ـ دفع عجلة التقدم العلمى والتقنى فى مجالات الصناعة والتعدين والزراعة والثروات المائية والحيوانية وإنشاء مراكز بحوث عالمية وإقامة مشاريع مشتركة وتشجيع تعاون القطاع الخاص بما يعود بالخير على شعوبها. ويتبين أن نص المادة الرابعة من النظام الأساسى أغفل عمدا فى أهدافه ذكر النواحى السياسية والأمنية والعسكرية ومع أنها كما رأينا فى أساس قيام المجلس إلا إذا كان نص الهدف الأول التنسيق والتكامل والترابط فى جميع الميادين يمكن أن يشمل ضمنا الميادين السياسية والأمنية والعسكرية.

5 ـ عبر عنه د. غسان سلامة فهو يذهب إلى أن الدفاع عن المجلس يتوزع على خانات ثلاث الأولى هى التأكيد بأن قيامه يوافق ميثاق الجامعة والثانية هى الجزم بأن المجلس هو خطوة على طريق الوحدة العربية الشاملة والثالثة هى القول بأن المجلس هو مثال ناصع للأعمال العربية الوحدوية الناجحة. وفى اعتقاده أن هذه الصورة لا تعكس الواقع الحقيقى للمجلس، فالمجلس لم يثر حماسة الجماهير العربية فى المنطقة، وهو الابن الشرعى لحالة الشؤم العربية بجميع اشكالها القصوى، ولقد قوبل عربيا بالانتقاد والتحفظ وعدم الاكتراث والترقب الحذر وحالات الامتعاض الواضحة ـ وفى ذات الاتجاه يرى دكتور سعد الدين ابراهيم انها الهوية المنافسة للهوية العربية القومية (ودعائم الجامعة العربية بالهوية المحلية للجزيرة العربية وادى النيل والهلال الخصيب ـ المغرب العربى. .) عندما تتأسى (أى عندما تتجسد فى مؤسسات فإنها تدخل فى علاقات منافسة مع الهوية الأم،

وتتحول مع الزمن إلى عـلاقة صراع يشغل أو يضعف أو يهدد الطاقـات العربية ـ ولقد ثبت بالبـرهان خلال أربعين عـاما أن المؤسســة الأم هى الأثبت والأقوى بين الهويات المنافـسة التى عادة ما تضر المضـمون والمصالح والطموح مما يحكـم عليها مسبقا بالموت المبكر .

هذا يعنى بأن الأمـانة العـامة قـد اعطيت لهـا النظام الاسـاسى للمـتابعـة والإشراف على تنفيذ القـرارات وتقديم المقترحات وأخذ المبـادرات المتعلقة بالعمل الجماعى المشترك، ولهذا فقد اعطيت الامـانة العامة ميزة الرصد وحق الاستجواب المؤدب أو الاستفسار ونقل نتـائج ذلك إلى المجلس الوزارى ويمكن القول إن شيئا من السلطة فوق الوطنية منحت للأمانة العامة عبر الممارسة والثقة[50] .

هناك بعض الخبراء القانونيين يرون بوجود بعض الثغرات فى دستور مجلس التعاون، وخاصة بعملية التصويت داخل المجلس الأعلى، كما أن لديهم شكوكهم بالنسبة لأعمال المجلس، إلا أن ذلك لا يمنع من اعتبار قيام هذا المجلس ثمرة من ثمار العمل العربى المشترك لأقطار المنطقـة، ويمثل خطوة تاريخية، فهذه هى المرة التى وافقت فيها هذه الاقطار على اتخاذ سبيل العمل العربى المشترك، دون اشراف أو تدخل من قوة أو نفـوذ اجنبى فى المسائل المتعـلقة بالشؤون الخاصـة ومستـقبل اقطار المنطقة، والبعض ينظر إلى مـجلس التعاون بأنه عمل جماعى مشـترك يفيد شعوب المنطقـة اقتصاديا واجتمـاعيا وربما سياسيـا، قد يؤدى مع مرور الوقت إلى إدخال نظام سياسى حديث داخل المنطقة فى حـين يتشكك البعض فى أمر مجلس التعاون ولا يرى فيـه سوى «كارتل» سياسى تتجمع فيـه دول المنطقة التى لا يعنيها سوى المحافظة على الوضع القائم لمصلحة بعض الطبقات[51] .

لكن على أى حال فـإن مجرد قـيام هذا المجلس يشكل نواة العـمل العربى المشترك نحو تـعاون أشمل وأكبر والتطلع إلى الوحدة العـربية والتى هى أمنية كل مواطن عربى وقد تكون بداية من المشرق العربى وخـاصة بعد نجاح تجربة الامارات الاتحادية ونتـمنى أن يتحول هذا المجلس أيـضا إلى دولة اتحادية تضم كـافة أقطار الجزيرة العربية.

إن نجاح هذه التجربة لاقطار مجلس التعاون قد تدفع أقطاراً عربية أخرى فى

المغرب العـربى أو الهلال الخصيب أو وادى النيل إلى تحـقيق تعاون وتكامل فـيما بينهـا على غرار هذا المجلس أو تـتعـداه إلى أبعد من ذلك إلى المجـال السيـاسى والاتحادى مباشرة.

ردود الفعل المحلية والعربية والدولية تجاه قيام مجلس التعاون:

اختلفت ردود الفعل على المستوى الشعبى وغـير الرسمى، فممثل الطبقات الوسطى فى المنطقة رحبـوا بهذه الخطوة الجديدة لقيام مـجلس التعاون، ولكنه لم يكن ترحيـبًا بغيـر شروط، فقد اعـربوا عن رغبتـهم نحو مزيد من المشـاركة فى مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية، ودرجة أكبر من المشاركة فى السلطة، فى حـين رفضت بعض الجـهات المـتطرفة واليـسارية هذه الخـطوة واعتـبربهـا خطوة استعمارية ترمى إلى تسهيل تواجد القـوات الامريكية فى المنطقة، إذا ما اُستدعيت من الجـهات المعنـية، وكـانت الإشـارة فى هذا المضمـار إلى مـا تكرر من بعض التصريحات التى صدرت من المسؤولين العمانيين على إنها دليل على نوايا مجلس التعاون، وقـد بلغت بعض الجهات فى التفكيـر إلى استبعـاد عمان عن المجلس، ولكن الامر لم يصل إلى حيز التنفيذ. ولذا فـإن أقطار المجلس عمدت إلى التأكيد بشكل جدى على أن الأهداف الاقـتصادية والاجـتماعـية هى الاهداف الاساسـية للمجلس، وجاء ذلك على خلاف ما أعربت عنه الجهات الرسمية فى عمان. وقد بلغ الأمر لبـعض قطاعات المجتمع فى الجـزيرة العربية بأن هذه الخطوة تمثل قـيدا جديدا من العناصـر الرجعية فى بناء مـجلس التعاون على أى تقدم سـياسى على الجـبهـات الداخلية فى أى من دول المجلس، ومـن هذه الزواية يعنى بأن المجلس خطوة كبيرة نحو «إطالة حياة النظم القائمة»[52].

أما د. حسن إبراهيم ـ فيقول عن المجلس بأن «عامل الامن والبقاء كان من أهم أسباب قيام المجلس، يأتى بعده فى الأهمية العامل الاقتصادى، ولكن إذا ركز المجلس على عـامل الامن فـقط، فـإننا فى اعتـقـادنا ـ سندخل فى بداية تجـربة وحدوية عـربية فاشلة، فـالمجلس فى هذه الحالة سـوف ينتهى مع نهاية الأسـباب الأمنية التى أدت إلى تأسيـسه. أما إذا تمكن من خلق نظام اقتصـادى متكامل قائم على المصالح المشتركة للمواطن ففى هذه الحالة يضمن استمراريته عن طريق تمسك

المواطنيين به لأن من أهم أسباب فشل التجارب الوحدوية العربية، قيامها على مبادرات فردية شخصية تزول بزوال اصحابها. والوحدة هى وحدة شعوب لا وحدة حكام، وهنا يأتى دور النظم الديمقراطية، وأهمية تكريسها وتثبيتها حتى تستطيع الشعوب تقرير مصيرها[53].

أما من جانب الدول المحيطة بالمجلس فقد رفضت ايران بصورة قوية فورية معربة بأن الاتفاق جاء ضد ايران، ورغم ذلك فلم يصدر عن ايران أى شىء ذى طبيعة عملية ليجسد رفضها هذا، أما موقف العراق فبدا وكأنه مستعد للموافقة ولكن سرعان ما بدأت صحيفة شبه رسمية فى طرح تساؤلات حول الأهداف التى يرمى إليها المجلس، وبعد ذلك صدر رفض غاية فى الوضوح عن صدام فى مقابلة صحفية نشرت فى الكويت فى أوائل يوليو 1981 ـ جاء فيها «لم يكن لدى وقت لمناقشة قضية مجلس التعاون مع اى من الاشقاء (رؤساء ـ دول مجلس التعاون) ولكنى ابلغت أخى فهد (ولى العهد السعودى وقتها) عندما ذكر أمامى الموضوع فى عمان ـ (نوفمبر) أن عليه ان يتذكر دائما العراق الذى يحارب ايران بالنيابة عن أشقائه من التجمع الخليجى الوليد» وهذا يوضح أن استبعاد العراق من المجلس كان عن عمد وسبق اصرار[54].

بذلك يكون الرد الفعل الرسمى من جانب العراق قد اتضح بشكل جلى، ولكنه لم يكن بالغ العداء، وإن كان استبعاد العراق قد اثار بعض الأسئلة فى حين كانت الاجابة شبه الرسمية بأن اقطار مجلس التعاون بينها ارضيات مشتركة اكثر مما بينها وبين العراق، فى حين ان العراقيين فى هذه الظروف التى يخوضون فيها حربًا طويلة مع ايران إنما هم احوج إلى تعاون جيرانهم العرب دون اكتساب عداوتهم، ويضيف بعض الصحافيين بأن العراق سوف يدعى إلى المشاركة فى مجلس التعاون فى مرحلة لاحقة وان كان يبدو ذلك بعيد الاحتمال[55].

أما كلمة الامين العام للجامعة العربية فى المؤتمر الاول لمجلس التعاون فقد جاء فيها بأن الامة العربية تنظر بعين الارتياح إلى الجهود المشتركة لاقطار شرق الجزيرة العربية والهادفة إلى تحقيق الامن لخير الامة العربية. وأكد قدرة أقطار الجزيرة العربية على حماية نفسها من الاعداء وان قرارات المجلس تعبر عن ارادة

هذه الاقطار نحـو السلام والامن العـادل انطلاقا من مـصالحهـا الخاصـة ووعيـها بالتفاعل مع المجتمع الدولى، وبأن التحديات التى تواجهها الامة العربية ليست آتية من خارج الوطن العربى، وإنما من الخلافات والانقسامات القائمة، وأكد بأن أقطار الجزيرة العـربية اقـامت البرهان على أن الأقطار العـربية قادرة دومـا للرد على أى عدوان أو تهديد تقوم به اسرائيل ضد الامـة العربية، وأضاف ان حربنا ضد العدو كانت متشابكة فى مـجال السياسة والاعلام والتنمية الاقتـصادية والتكنولوجيا إلى جانب المجال العسكرى[56].

بعد ما أكدت أقطار الجزيرة العربية بأن مجلس التعاون ليس تحالفا أو محورا موجـها لأحد وإنما هو لبنه فى الصـرح العربى وإنه تنظيم اقليـمى يعمل فى إطار جامعة الدول العربية ويهدف إلى تحقيق السلام فى المنطقة، فقد جاءت ردوُد الفعل السوفيـتية والامريكية متـباينة وإن كانت قد اتسمت بالحـذر، فى آن واحد، وكان وزير خارجية الكويت قـد قام بزيارة لموسكو فى مايو 1981، وجاءت تصريحات المسؤولين السـوفيت، بأن على أقطار مجلـس التعاون ان تعتـمد على نفسـها فى الدفاع عن أمن الخـليج العربى مع استـمرار المناداة بابعـاد المنطقة عن الصـراعات الدولية، وسحب القوات وكل أشكال الوجود الاجنبى من المنطقة مع احترام حياد اقطارها، ويرى السوفيت بضـرورة مشاركتهم فى اجـراءات الامن الخاصة بالخليج العربى[57] والتى توافق أقطار المنطقة عليـها بشرط الا تنفرد بهـا الولايات المتحدة الامريكية.

أما الولايات المتحدة وبريطانيا فقد رحبتا بقيام مجلس التعاون، على أمل ان يكون امام مجلس التعاون فرصة أكبر لتحـقيق التعاون الاقليمى مع الدول المسيحية الغربيـة فى حماية أمن الخليج العربى وذلك طبـقا للمفهـوم الغربى بتأييـد وجهة نظرهم بأن الغرب مازال المورد الوحيد لاغلبية دول مجلس التعاون[58]. وفيما يلى ما قاله الرئيس الامريكى كارتر عن أهمية الخليج العربى للمصالح الامريكية والتى عرفت فـيمـا بعد بمبـدأ كارتر، وذلك فى «رسـالة الاتحاد» الموجـهة منه للـشعب الامريكى بتاريخ 20/ 1/ 1980[59] قوله:

«إن اية مـحاولة من جـانب اية قـوة أجنبيـة للسـيطرة على منطقـة الخليج

العربى، سوف تعتبر بمثابة عدوان على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية، ولسوف يقابل مثل هذا العدوان بكافة الوسائل الضرورية بما فى ذلك القوة العسكرية». وأيضا فإن هارولد بروان - وزير الدفاع الامريكى كان قد قال امام لجنة الشؤون الخارجية بالكونغرس «إن ما نراهن عليه فى الخليج العربى هو الرخاء الاقتصادى والعافية السياسية للولايات المتحدة وحلفائها، فلو حرمت الدول الصناعية فى العالم من حرية الوصول إلى مصادر الطاقة فى الخليج العربى فستكون النتيجة على الارجح هى الانهيار لحلفائنا وللاقتصاد العالمى»[60].

كما لم تقف الولايات المتحدة عن حديثها حول الادوار الموكلة لقوات الانتشار السريع والأهداف التى من أجلها انشئت هذه القوات، وعن مناوراتها المشتركة «النجم الساطع» مع القوات المصرية، ويضاف إلى ذلك التصريحات المتكررة بأن الولايات المتحدة لا تقنع بالانتظار وراء الافق وأنها بحاجة إلى قواعد برية فى منطقة الخليج العربى مما يشكل موضع شك كبير حول حياد المنطقة، ويرى البعض بأن الولايات المتحدة تحاول إيجاد قاعدة لقوة محلية جديدة وإن مجلس التعاون يناسب خطتها هذه بصورة تدعو للإعجاب[61] ولكن موقف امريكا من هذه القضية قد اتضح فى وثيقة رسمية، فى مشروع موازنة عام 1980 والتى تقول[62] إن أمن الدول المشاطئة للخليج العربى وتطورها المنظم أمران مهمان للمصالح القومية الامريكية ولقد أيدت الولايات المتحدة وهى ما زالت تؤيد نحو قيام فيدرالية فى الخليج العربى نافذة ولديها قدرة دفاعية مناسبة».

نظرة مستقبلية لمجلس التعاون:

إذا ما نظرنا نحو مستقبل مجلس التعاون فنجد هناك تحديات داخلية وخارجية، فعلى المستوى الداخلى: فإن التطورات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن الستينيات والسبعينيات، ستؤدى إلى زيادة المطالبة على الساحة السياسية الداخلية فى عدة قضايا وأهمها المشاركة السياسية والاقتصادية وحسن توزيع الثروة، وتحديث للعملية السياسية فى أقطار المجلس وأن بعض الطبقات فى المنطقة ستتفاعل لكى تشكل مجموعة من الضغوط السياسية والاجتماعية الجديدة لم يسبق

اقطارها ان شهدتهـا من قبل، كما تحتـاج الطبقة الوسطى الناميـة إلى المشاركة فى السلطة السياسية من جهة بقدر حاجـتها إلى سوق أكبر وأوسع من جهة ثانية، وإنه ليس من الواضح ان الدوائر الحاكـمة تستسلم لهذه المطالب بـسهولة فى بعض[63] الاقطار مما يعنى صراعا داخليا منتظراً وقد يكون كذلك فى المستقبل.

كما يلاحظ التطور النوعى داخل المجتمع القـبلى والذى رافق حركة التمدين السريع وبروز الحواجز السكانية والمدن الجديدة، وجـيل قبلى جديد تربطه بالمجتمع علاقـات ذات محـتوى جـديد ليس بالضرورة لصـالح الأوضاع الحالـية. وأن أية أخطاء فى المعاملة مع المتغـيرات الجديدة فى المجتمع قـد يخلق بعض الارتباكات، ولذا يجب الاعتراف بهـذه القوى الاجتماعـية الجديدة التى أفرزتها عـملية التعليم والتمدن، وتوظيف هذه القوى توظيفا مناسبا مع قدراتها، وفتح المجالات أمامها، لتلعب دورها فى المجتمع السياسى الجديد.

أما العائق الاجتماعى الآخر والذى يقف أمام تنمية حقيقية فى اقطار مجلس التعـاون فإنه يضع أمام الأطراف المعنيـة خيارين وكـلاهما صعب، فـالأول إما أن يحمل الناس على العـمل، وهنا يجب اتخاذ سيـاسة حازمة وصادقـة نحو ذلك، رغم أنه ينجم عن ذلك رد فعل سيـاسى حاد، وإما أن يستمر فى استـيراد العمالة الأجنبية وبصورة متزايدة، مع الأيام مع ما يـنطوى عليه ذلك من مخاطر كثيرة[64] بنفس القدر.

ومن التحديات والثـغرات الاقليمية هو عـدم السماح بأنضمام أعـضاء جدد لمجلس التعاون، ويشير الى ذلك د. النفـيسى فيقول[65] لقد جاءت وثيقة المجلس خاليـة تماما من أى نص يسمـح بقبول أعـضاء جدد فـيها، وكـان من الحكمة أن تتضمن الوثيقة التأسيسة نصا يسمح بانضمام دول خليجية للمجلس فيما بعد.

أما على الصـعيد الخارجى فـان صراع الدول الكبرى وسيـاستها الاطمـاعية لمصالحها الخاصة تجاه المنطقة، يضع ضغوطا أشد على الأنظمة الحاكمة دون أن يتيح لها فرصة التفكير لكى تباشـر تطورها بصورة سليمة. ان شعارات الخطر القادم من الخارج تسـود كل مكان، فهناك من يرفع شـعار الخطر الامـبريالى والآخر شـعار الخطر الدينى، فى حين ان البيـروقراطيين يحاولون أن يوجهوا السـفينة فى خضم

فثمة تغـيرات سياسية لاسـبيل إلى استبعادها، وهذه التـغيرات لم يسبق أن شهدتها المنطقة ولا توقعتها من قبل(66).

برغم الجهود التى تبذل لمواجهة وتحقيق الأهداف العسكرية والدفاعية لاقطار مجلس التـعاون، فإن قدرة هذه الأقطار على مـواجهة أعبـائها الدفاعيـة فى وجه الأخطار الخارجية، ما تزال تحتاج إلى دراسة، فإنها ليست تجابه أعباء عسكرية وإنما تشمل نواحى اجتـماعية وبشـرية وسياسية مـتعددة، تجعل من امكانيـة تحقيق هذه الأهداف مستبعدة فى المستقـبل القريب، وأهم هذه المشاكل هى الافتقار إلى القوة البشـرية اللازمة لتـعبئـة القدرات العسكرية لتـشغيل الأسـلحة والمعدات المتـوافرة لقواتها، وخاصة المتطورة والمعقدة، والتى يحتاج تشغـيلها وصيانتها لعدد كبير من العناصر المتخصصة(67).

من خلال متـابعتنا لخطوط المجلس نرى أن القضايا الاسـتراتيجية الرئيـسية والتى بدأ بها عـمله من الممكن تذليل عقبـاتها من أمامه، وفى حـالة متابعتـها أن تؤدى إلى تغيرات جذريـة فى البناء الاقتصادى والسياسى لصالـح شعوب المنطقة، ولكنها قد تراجعت لتحل مـحلها قضايا تكتيكية مؤقته، مـثل التنسيق الاقتصادى والثقافى، مما جعل الأمانة العامة للمجلس تنخرط فى تـشعبات بيروقراطية متعددة دون انجـازات حقـيـقيـة ملمـوسة لأبناء المجلس، ومـع ذلك، يجب الاعتـراف بالإنجازات الكـثيرة التى تحـققت دون اعـلان أو ضجيج، فـهناك مثـلا الاتفاقـية الاقتصادية والتى تعم فائدتها على أبناء المنطقة والمؤسسات الجديدة التى بدأت تظهر إلى الوجـود. والخطط التى تدرس لابد وأن تأتى بايـجابيـات جـديدة، لا يمكن انكارها، ويمكن القـول بأنه فى النهاية تبـقى خطط المجلس معـرضة للجـمود أو الانتكاس ما لم تبدأ بالأولويات وتتخـذ خطوات عملية تجاه القضايا الاستـراتيجية الخاصة بهذه المنطقة وهى التنمية الشاملة.

إن التـأمل فى أوضاع العـالم العربى الـتى تتجـه من سيئ إلى اسـوأ على المستويات الاقتصادية والسياسية والأمنية ومتابعة هذه الأوضاع بما يجرى فى العالم حولنا من تحـولات فكرية وتجمعات اقليـمية يفرضـان قيام قيـادة فكرية مستقـبلية

تخرج الشعوب العربية من واقع الأوهام والضياع والارتجال والتفكك وترسى أسسا جديدة للعمل العربى المشترك. إن تجربة مجالس التعاون العربية هى خطوة مهمة فى الطريق الصحيح إذا ارتكزت هذه المجالس على عدة قواعد جوهرية.

من ضمن هذه الرؤية يكن تصور قيام تجمعات عربية بالشكل المناسب للشعوب العربية وهو شكل تحدده المصالح الحقيقية لهذه الشعوب ويتبلور بالممارسة انطلاقا من قاعدة اقتصادية ثابتة هى السوق العربية المشتركة كحافز لقيام الجماعة العربية على نسق الجماعة الأوربية[68].

إن تجربة مجالس التعاون العربية التى بدأت عمليا بقيام الجامعة العربية ثم بقيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية فى بداية الثمانينيات ومن ثم بقيام مجلس التعاون العربى واتحاد المغرب العربى فى أوائل العام 1989 هذه التجارب تؤكد التوجه الجديد للعمل العربى المشترك أى التوجه الاقليمى، وغير خاف أن لمثل هذا التوجه حدين، إما النجاح والانطلاق نحو المزيد من التعاون والتكامل وإما الفشل والعودة إلى مزيد من القطرية والانغلاق[69].

ولأننا نؤمن أن هذه التجارب تستجيب من حيث المبدأ، للتحديات الكثيرة المطروحة على الواقع العربى المعاصر، فقد سعينا فى حدود الامكان إلى التعريف بهذه التجارب فى إطار نشوئها التاريخى والدوافع والخلفيات الفكرية والسياسية والاقتصادية لقيامها لكى يمكن على ضوء ذلك اعطاء حكم على مدى جديتها ومصداقيتها فى معيار مصلحتها والمصلحة العربية العليا، وفى معيار التوجهات التاريخية للعالم المعاصر.

وبعد، هذه محاولة متواضعة نعرضها للدراسة والمناقشة والحوار فهى تطرح افكارا وترسم بعض ملامح الفكر السياسى العربى المعاصر انطلاقًا من فكرة مجلس التعاون، علّها تشكل لبنة جديدة وايجابية فى بناء العمل العربى المشترك.

الهوامش:

1 ـ د. محمد الرمحى ـ الخليج ليس نفط ص 161.

2 ـ د. محمد الرميحى ـ نفس المرجع ص 161.

3 ـ د. محمد الرميحى نفس المرجع ص 140.

4 ـ د. فؤاد حمدى ـ التعاون الانمائى بين اقطار مجلس التعاون العربى ص 159.

5 ـ د. فؤاد حمدى ـ نفس المرجع ص 159.

6 ـ د. محمد هشام خواكجية ـ التكامل الاقتصادى فى الخليج العربى ص 399.

7 ـ عبدالله بشارة ـ المستقبل العربى العدد 79 9/ 85 ص 126.

8 ـ د. فؤاد حمدى ـ المرجع السابق ص 16.

9 ـ د. محمود على الدواد ـ الخليج والعمل العربى المشترك ص 297.

10 ـ منير شفيق ـ المستقبل العربى ـ العدد 11/ 1/ 1980.

11 ـ د. يوسف صايغ ـ سياسات النفط العربية فى السبعينات ص 293.

12 ـ د. يوسف صايغ ـ نفس المرجع ص 293.

13 ـ د. ناصر ثابت ـ التنمية والتغير الاجتماعى ص 103.

14 ـ د. محمد الرمحى ـ المرجع السابق ص 142.

15 ـ د. على عبدالله الخلف ـ مجلة الدراسات الخليج والجزيرة العربية العدد 32 ـ أكتوبر 1980.

16 ـ د. محمد الرمحى ـ المرجع السابق ـ ص 142.

17 ـ عبدالله بشارة ـ المرجع السابق ص 126.

18 ـ د. محمد الرمحى ـ المرجع السابق ص 181.

19 ـ د. محمود على الدواد ـ المرجع السابق ص 243.

20 ـ دوغلاس هيرود ـ النفط والأمن فى الخليج ص 188.

21 ـ روين اندونيسيان ـ النفط والأمن فى الخليج العربى ص 153.

22 ـ د. فؤاد حمدى ـ المرجع السابق ص 181.

23 ـ د. فؤاد حمدى ـ المرجع السابق ص 181.

24 ـ د. محمد الرمحى ـ المرجع السابق ص 176.

25 ـ د. يحيى حلمى رجب ـ مجلس التعاون لدول الخليج العربية ـ ص 67.

26 ـ د. محمد الرمحى ـ المرجع السابق ص 179.

27 ـ د. حسن ابراهيم ـ الخليج العربى فى مواجهة التحديات ـ ص 206.

28 ـ د. محمود على الدؤاد ـ المرجع السابق ص 308.

29 ـ مصدر غير معروف – الناشر.

30 ـ د. محمد الرمحى المرجع السابق ص 161.

31 ـ د. سعاد الصباح ـ المستقبل العربى العدد 76 ـ 9/ 85 ص 133.

32 ـ مصدر غير معروف – الناشر.

33 ـ د. يحيى حلمى رجب ـ المرجع السابق ص 63.

34 ـ د. فؤاد حمدى ـ المرجع السابق ص 181.

35 ـ د. يحيى حلمى رجب ـ المرجع السابق ص 65.

36 ـ سعود الفيصل ـ المرجع السابق ص 130.

37 ـ وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربى ـ وزارة الإعلام «أبوظبى» ص 36.

38 ـ وثائق مجلس التعاون لدول لخليج العربى نفس المرجع ص 37.

39 ـ عبدالله بشارة ـ المرجع السابق ص 122.

40 ـ عبدالله بشارة المرجع السابق ص 127.

41 ـ وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربى المرجع السابق ـ ص 40.

42 ـ وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربى نفس المرجع ص 40.

43 ـ وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربى نفس المرجع ـ ص 41.

44 ـ عبدالله بشارة ـ المرجع السابق السابق ص 123.

45 ـ وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربى المرجع السبق ص 42.

46 ـ د. يحى حلمى رجب ـ المرجع الساق ص 71.

47 ـ عبدالله بشارة ـ المرجع السابق ص 124.

48 ـ عبدالله بشارة ـ المرجع السابق ص 125.

49 ـ د. فؤاد حمدى ـ المرجع السابق ص 713.

50 ـ عبدالله بشارة ـ المرجع السابق ص 125.

51 ـ د. محمد الرميحى ـ المرجع السابق ص 174.

52 ـ د. محمد الرميحى ـ نفس المرجع ص 177.

53 ـ د. حسن الابراهيم ـ المستقبل العربى العدد 79 ـ 9/ 85 ص 134.

54 ـ د. محمد الرميحى ـ المرجع السابق ص 178.

55 ـ د. محمد الرميحى ـ نفس المرجع ص 178.

56 ـ وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربى ـ المرجع السابق ص 58.

57 ـ د. يحيى حلمى رجب ـ المرجع السابق ص 71.

58 ـ د. يحيى حلمى رجب ـ نفس المرجع ص 71.

59 ـ جيفرى ريكورد ـ قوة الانتشار السريع ص 14.

60 ـ جيفرى ريكورد ـ نفس المرجع ص 14.

61 ـ د. محمد الرميحى ـ المرجع السابق ص 179.

62 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ مجلس التعاون الخليجى ص 14.

63 ـ د. عبدالله فهد القيسى ـ المرجع السابق ص 180.

64 ـ د. عبدالله فهد القيسى ـ المرجع السابق ص 46.

65 ـ د. محمد الرميحى المرجع السابق ص 710.

66 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص 46.

67 ـ د. محمد الرميحى ـ المرجع السابق ص 710.

68 ـ د. حسين أغا وأحمد الخالدى ـ قضايا الخليج العربى ص 33.

69 ـ د. محمد الرميحى ـ المرجع السابق ص 181.

الفصل الحادى عشر



مجلس التعاون الخليجى بين الأمن الإقليمى والتحديات الخارجية

قدم هذا البحث إلى ـ الندوة العلمية الرابعة لمجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ـ دول مجلس التعاون ـ وحدة التاريخ والمصير وحتمية العمل المشترك 15 ـ 17 نوفمبر 1993 ـ الكويت.

مقدمة

يتناول هذا البحث مجلس التعاون بين متطلبات الأمن الإقليمى والأمن القومى، والتحديات الخارجية، لأن الأمن العربى فى هذه الدول يتعرض للتهديد والتحديات الخارجية وليس الأمن الإيرانى، فقد تحررت إيران من السيطرة الأمريكية بعد قيام الثورة الإسلامية وإسقاط الشاه الشرطى الأميركى فى الخليج العربى، الذى لم يكن يهدد أمن الدول العربية فى الخليج فحسب، وإنما الأمن القومى العربى بتعاونه الوثيق مع الكيان اليهودى.

لهذا فإن الأمن العربى لدول مجلس التعاون هو المعنى بالتحديد، نظرا لانحسار المصالح الأمريكية من جمهورية إيران الإسلامية وفقدانها السيطرة على نفط العراق وإيران، وبالتالى ازداد التحدى والمخاطر بعدما اعتبرت الولايات المتحدة أن منابع النفط فى دول مجلس التعاون من أمنها القومى، مما شكل تهديدا للأمن القومى، لأن دول مجلس التعاون جزء من الأمة والوطن العربى.

يتناول البحث فى البداية الأمن الإقليمى والمخططات الأمريكية لإيجاد نوع من الأمن الإقليمى ومشروع سيسكو - روجرز والمشاريع الأخرى كالمشروع الإيرانى والعمانى والكويتى ثم تأتى بعد ذلك دراسة الأمن القومى العربى.

ننتقل إلى التحديات الخارجية وخاصة التهديدات الأمريكية للمنطقة والتخوف على مصالحها وخاصة من انقطاع النفط أو ارتفاع أسعاره، وبعدها التهديد السوفيتى الذى كان قائما حتى مجيء غورباتشوف، ولا نعتقد أنه سوف يهدد فى المنظور القريب، ولكن التهديد الحقيقى قائم فعلا من الاستعمار المسيحى الغربى والإرهاب اليهودى.

دول مجلس التعاون بين الأمن الإقليمى والقومى:

جرت عدة محاولات لإيجاد أمن إقليمى خليجى، ولكنها لم تظهر إلى حيز الوجود لتدخل الولايات المتحدة لربط أمن المنطقة بأمنها القومى، غير أن معارضة الدول التقدمية العربية لها أفشل المخطط الأمريكى، ولهذا يجب أن ينطلق الأمن من تحليل دقيق لواقع دولها ونتناول الأمن الإقليمى أولا ثم الأمن القومى العربى ثانيا.

الأمن الإقليمى الخليجى:

يرتبط الأمن الإقليمى الخليجى بعدة عوامل منها العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وجميعها مترابطة بعضها البعض بشكل يصعب تقديم أى منها على الآخر برغم أهمية العامل العسكرى، وهذا هو مفهوم الأمن الإقليمى الشامل المتكامل، الذى قد يكون غائبا أو متجاوزا من دول المنطقة، لكون الأمن العسكرى الضيق أكثر شيوعا برغم عدم جدواه دون الأمن السياسى والاقتصادى والاجتماعى للدفاع عن أمن أو حماية الموارد والثروات ضد سياسات النهب والاستغلال والتسلط.

برزت فكرة الأمن الإقليمى الخليجى من جديد بعد قيام الثورة الإسلامية فى إيران لإيجاد تعايش سلمى بين أنظمة الحكم العربية ذات التوجهات المختلفة فى المنطقة وبين السعودية من جهة وكل من العراق واليمن من جهة أخرى، للحفاظ على أمنها ضد التدخل الخارجى، ولكن ما هو مصدر هذا الخطر؟ وهل استطاعت هذه الأنظمة إيجاد حد أدنى من التقارب السياسى وليس التطابق حول طبيعة التحديات والتهديدات لأمنها؟

تحاول دول المنطقة الحفاظ على أمن أنظمتها وشعوبها، فى حين تعمل الولايات المتحدة ليس فقط على حفظ أمنها القومى وإنما أمن مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية فى العالم بما فيها دول مجلس التعاون وذلك بإخفاء حقيقة مصالحها وتأمين سيطرتها على النفط الخام بكميات معقولة وبأسعار رخيصة تحت ستار أمن الخليج العربى.

لذا يجب أن تكون هناك استراتيجية أساسية ثابتة للأمن الإقليمى الخليجى نابعة من تقدير شعوبها، ووضع المصالح العربية القومية فوق الاعتبارات القطرية الوطنية الضيقة، انطلاقا من وعى أمنها الإقليمى الخليجى بدوافع ذاتية دون تدخل القوى الكبرى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بفرض وممارسة سياستها الاستراتيجية على دول المنطقة، كما حدث عند قيام حلف بغداد والحلف المركزى بتحريض من الولايات المتحدة وبريطانيا، إضافة إلى طرح العديد من مشاريع الأمن الإقليمى من قبل الولايات المتحدة عن طريق حلفائها من دول الخليج العربى نفسها.

لم تتوصل دول المنطقة إلى تحقيق الأمن الإقليمى بالمفهوم الشامل لعدم وجود الأرضية الأساسية لاختلاف التصور، فالبعض كان يرى أن التهديد الخارجى قادم من الاتحاد السوفيتى، فى حين يراه البعض الآخر من الولايات المتحدة، وذلك لكثرة النزاعات العلنية والخفية بينهم.

فشلت الولايات المتحدة باعتمادها سياسة التحالف بين الحكومات الصديقة (كما تسميها) فى تخطى نزاعاتها بعمل ترتيبات أمنية إقليمية سواء كانت رسمية أو غير رسمية تكون قادرة على تخفيف حدة الخلافات والتناقضات لتحمى المصالح المسيحية الغربية الرأسمالية أمام التهديدات السوفيتية المحتملة[1]، التى كانت ترددها الإدارة الأمريكية لدى بعض دول المنطقة ولكن احداث الكويت أثبتت بأن التهديدات نابعة من داخل المنطقة وليس من خارجها ضد المصالح الأمريكية.

لتحقيق الأمن الإقليمى يجب تخفيف حدة التوتر إن لم يكن إزالة الخلافات السياسية لمختلف الأنظمة التى استغلتها القوى الكبرى لمنع تحقيق الأمن دون مساعدتها أو مشاركتها، وهذا سهل لوجود التناقضات فى المصالح واختلاف الأنظمة السياسية ومشاكل الحدود والمنافسة التقليدية ومحاولة كل دولة الحفاظ على المكاسب النفطية.

فبرغم أن شعوب الخليج العربى تدين بالإسلام[2]، إلا أن هناك فرقا ومذاهب مختلفة لا تلعب دورا فى تقريب شعوب المنطقة بقدر ما تلعب دورا فى تفريقها، ففى الوقت الذى تتزعم إيران المذهب الشيعى الإمامى، تتزعم السعودية المذهب الوهابى[3]، وهما طرفا النقيض، إضافة إلى الترسبات التاريخية

والعلاقات العدائية بينهما عبر الفترة المتأخرة وخاصة بعد هجوم الوهابيين على الأماكن المقدسة فى كربلاء والنجف حيث مرقد الإمام على والإمام حسين وآل بيته الطاهرين، فى نهاية القرن الثامن عشر، ومرورا بأوضاع الشيعة فى إقليم الإحساء بشرق السعودية وأخيرا وليس آخراً حوادث الشغب والقتل فى مواسم الحج بمكة المكرمة، والتى جرت بتحريض من إيران عن طريق مواطنين يحملون جنسيات دول مجلس التعاون من أصل إيرانى مما يعنى وجود أقلية إيرانية نشطة فى دول مجلس التعاون تعتمد عليها إيران فى تحقيق أهدافها، اضافة إلى أحداث البحرين مؤخراً.

يوجد المذهب الزيدى والشافعى فى اليمن وظفار، والإباضى فى عمان، والشيعى والسنى المالكى فى الإمارات والبحرين الكويت والعراق، ولكن هذه المذاهب الإسلامية باستثناء المذهب الإمامى الشيعى فى إيران الإسلامية ليست لها سلطة سياسية إدارية تستطيع بها فرض آرائها.

هناك تيارات فكرية وعقائدية مختلفة فى أنظمة الحكم السياسية منها ما يسمى بأنظمة محافظة ورأسمالية، وهى جميع دول الجزيرة العربية ما عدا اليمن، الذى كان فى جنوبها تيار ماركس اللينينى فى عدن، ولكن تلاشى إلى حد ما بعد الوحدة اليمنية وبدأ يبرز تيار تقدمى اسلامى إضافة إلى بعض التيارات العلمانية الأخرى. وجميعها تعمل من أجل تقدم وتطور اليمن، وهناك التيار البعثى فى العراق وتيار الثورة الإسلامية فى إيران.

انطلاقا من تلك المعطيات نضع بعض الأسئلة لنستشف المستقبل حول ما مدى إمكانية قيام تعاون إقليمى خليجى.

- هل يمكن من الناحية العملية أن يقوم حكام المنطقة بتطوير إحساسهم بالمسؤولية المشتركة للأمن؟ وهل الأمن هو أمن الشعوب أم أمن الأنظمة؟ وخاصة أن جميع شعوبها تدين بالإسلام، فهل سيكون الإسلام عامل جمع بينهم فى وجه الغرب المسيحى الرأسمالى والشرق الاشتراكى المنهار بعد فشل الانقلاب الشيوعى الأخير، وكلاهما ضد الإسلام؟

هل يمكن لهذه الأنظمة إيجاد صيغة مشتركة للأمن الاقليمى للحفاظ على كيانها وأنظمة حكمها من المخاطر الدولية والخارجية؟ وإيجاد حد أدنى للتعامل المشترك على الأقل لمنع التجاوزات والخلافات الإقليمية مما يهدد كيان بعضها البعض مثلما حدث باجتياح العراق للكويت؟

نشك كثيرا فى انجاح أو اقامة تعاون أمني خليجى حاليا إن لم يكن العكس من ذلك هو ظهور نوعين أو حليفين مختلفين متناسقين إن لم يكن أكثر فى المنظور القريب، بعد الوجود الأمريكى والأوروبى فى دول الخليج العربى والشكوك حول نواياها.

سوف نورد بعض المشاريع والاقتراحات التى قدمت حول الأمن فى الفترة الماضية للتعرف على الخطوات التى تمت ومرت على المنطقة لإيجاد نوع من التعاون للأمن الإقليمى الخليجى.

المخططات الأمريكية لإيجاد نوع من الأمن الإقليمى:

بدأت الولايات المتحدة منذ إعلان بريطانيا الانسحاب من المنطقة، تخطط لملء الفراغ الاستعمارى المسيحى البريطانى بالأمريكى، أى استعمار مسيحى جديد من نوع جديد متطور وتقنى وعقدى، ،بما أنها تكبدت خسائر كبيرة فى فيتنام، أن تغير سياستها بتوكيل حفظ المصالح الغربية إلى القوى المحلية الحليفة، لإيجاد نوع من الأمن الإقليمى للحفاظ على مصالحها دون التدخل المباشر خوفا من عقدة فيتنام الجديدة الذى عرف بمبدأ نيكسون عام 1969 وبدأت تشكل قوة عسكرية كبيرة فى إيران وتسند إليها مهمة حماية النظام الاقتصادى[4]، يتعدى حماية الأمن القومى إلى حماية وحفظ الأنظمة الحليفة للغرب وتأمين الإمدادات النفطية إلى العالم الرأسمالى[5].

وبهذا يمكن القول بأن إيران أصبحت تطبق نظام الأمن الإقليمى الخليجى من جانب واحد وبتفويض من الولايات المتحدة وحلفائها فى المنطقة.

مشروع سيكو وروجرز لعام 1972:

وجدت الولايات المتحدة بأن شرطيها فى المنطقة برغم قوته العسكرية لم يستطع إيجاد نوع من الأمن الإقليمى مع الدول العربية الحليفة والصديقة، فأوفدت

إليها وزير الدفاع ومساعده لإطلاع المسؤولين فيها على المخططات الأمريكية للأمن الإقليمي، فقد قال جوزيف سيكو:

«إن الولايات المتحدة تهتم بالمحافظة على الاستقرار فى الخليج العربى».

ثم قال:

«إن الولايات المتحدة لا تنوى أن تحل محل بريطانيا فى الدفاع عن مصالح الغرب فى الخليج العربى، ولكنها مصممة على مساعدة دول المنطقة فى الدفاع عن نفسها، إن سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة تقضى بتشجيع إيران والمملكة العربية السعودية والكويت وإمارات الخليج العربى على التعاون بكل إخلاص من أجل أن تظل المنطقة آمنة».

بهذا الإعلان الذى صرح به«سيكو» دون لبس أو غموض عن المخطط الأمريكى للأمن الإقليمى بتحالف ضمنى وغير معلن بين دول المنطقة، تحت رعايتها وإشرافها وتوجيهها الاحتياجات اللازمة لهذا الحلف من الخبراء والمعدات العسكرية(6).

كما صرح أيضا وليم «روجرز» عندما وصل إلى الكويت فى صيف يوليو عام 1972:

« بأن هذه الزيارات تعكس اهتمامنا القومى بأمن هذه المنطقة المهمة من العالم وفى نفس الوقت فإن الولايات المتحدة لا تطالب ولا تسعى إلى امتياز خاص، بل إننا نعتقد أن الاستقرار والتقدم فى الخليج العربى بتعاون إقليمى فعال يأتى بجهود دول المنطقة نفسها ونحن بدورنا سنساعد بالوسائل الفعالة التى بمقدورنا».

هذا يعنى بأن زيارة «وليم روجرز» كانت لوضع النقط على الحروف فى المخطط الأمريكى لإقامة حلف سياسى وعسكرى بين دول المنطقة والذى لم يكن رغبة مفاجئة بل إنها ثوب قديم فى لبس جديد، فكان هذا المخطط قد صرح به «مستر روستر» وكيل وزارة الخارجية الأمريكية عام 1968 عندما أعلن إقامة مثل هذا الحلف بين دول الخليج العربى بما فيها العراق، فى حين استثنى من مشروع

«سيكو ـ روجرز» العراق وأدخل الكويت ضمن المخطط الأمريكى للأمن الإقليمى[7].

استمرت الجهود الأمريكية فى هذا المضمار سواء عن طريق الإدارة أو عن طريق الجلسات البرلمانية للكونغرس ومجلس النواب، ومما جاء في تلك المناقشات معبرا عن ذلك التصور الأمريكى للأمن الإقليمى ما يلى[8].

«فى رأينا إن على دول الخليج العربى نفسها، وبخاصة الدولتان الكبيرتان، إيران والعربية السعودية أن تتحمل العبء الأكبر لتأمين الاستقرار فى المنطقة، لقد كان لنا ولا يزال تقليد طويل من التعاون العسكرى مع تلك الدول من خلال تجهيزنا إياها بالمعدات العسكرية أو من خلال التدريب فى الخليج العربى، أعدنا النظر من جهتنا فى سياستنا بعناية واعتمدنا سياسة تؤكد على النقاط الآتية:

1 ـ الاستمرار على تعزيز التعاون الإقليمى عن طريق تشجيع أقوى دولتين ساحليتين إيران والمملكة العربية السعودية على تحمل مسؤوليات أعظم بما يخدم الأمن الجماعى فى المنطقة.

2 ـ إقامة علاقات أمريكية مباشرة مع الكيانات السياسية الجديدة التى لم تكن موجودة من قبل.

3 ـ تطوير مشاريع للمعونات التقنية والتعليمية والتبادل الثقافى من خلال برامج خاصة وعامة من أجل التطوير بصورة منظمة.

إن تنفيذ استراتيجية إقليمية ترتكز على هذه المؤشرات العامة استلزم توجيه نشاطاتنا نحو الدول المعنية مباشرة آخذين بعين الاعتبار مواردها البشرية وحجمها وسماتها الجغرافية ودرجة تطورها والتهديدات الأمنية التى تعتقد أنها تواجهها.

المشروع الإيرانى:

قدمت إيران عدة مشاريع ولكن لم تنال ثقة عرب المنطقة لسياستها التوسعية الرامية إلى بسط هيمنتها عن طريق المخططات الأمنية لتلعب دورا أكبر فى الخليج العربى بفرض نفوذها على الكيانات الصغيرة[9]، ومن أهم تلك المشاريع ما قدمته إيران عام (1975) إلى دول المنطقة، والتى تتضمن ما يلى[10]:

1 ـ إقامة حلف عسكرى تحت مسميات مختلفة «منظمة الدفاع الإقليمية»، الحزام الأمنى الخليجى.

2 ـ حماية أمن وحدود الدول الأعضاء.

3 ـ إخلاء المنطقة من القواعد العسكرية مع الأخذ بنظر الاعتبار جعل خليج عمان خارج نطاق المياه الإقليمية.

المشروع العمانى:

طرحت عمان مشروع أمن إقليمى فى اجتماع وزراء خارجية دول المنطقة الذى عقد بمسقط فى نوفمبر عام 1976 ودعت فيها إلى تحالف عسكرى فيما بين دول الخليج العربى إضافة إلى الولايات المتحدة وألمانيا، لحماية الممرات المائية، ورفضها العراق لجعل الأمن الإقليمى الخليجى كإحدى المسؤوليات الرئيسية لحلف شمال الأطلسى «ناتو» وعودة المنطقة إلى النفوذ الاستعمارى الغربى من جديد، بحجة حماية أمن المنطقة للسيطرة على مقدراتها، مما جعل المشروع طبق الأصل للمشاريع الأمريكية السابقة للسيطرة على حقول النفط مع إدخال ألمانيا الغربية وبريطانيا فى العمليات العسكرية المزمع إجراؤها عند الضرورة[11]، علما بأن الدستور الألمانى لا يسمح لقواتها بالتدخل أو العمليات خارج نطاق حلف الناتو إلا إذا كان ذلك امتدادا لعمليات الحلف أو مكملاً لها.

المشروع الكويتى:

برغم أن مجلس التعاون الخليجى أكد مواقف أعضائه الذين يرون أن أمن الخليج العربى مسؤولية دولها ولذا يجب إبعاده عن صراعات القوى الكبرى لمنعها من التدخل فى شؤونها الداخلية ومنع إقامة قواعد أو منح تسهيلات عسكرية[12]، إلا أن وزير خارجية الكويت حاول إزالة مخاوف البعض بوجود روابط أو علاقات لمجلس التعاون الخليجى مع الولايات المتحدة أو حلفائها وذلك عندما أدرج فى جدول الأعمال اقتراحا بمشروع للأمن الإقليمى الخليجى موضحا الهدف منه بما يلى[13]:

«إن الأمن الخليجى نوع من المشاركة الجماعية للحفاظ على أمن المنطقة حتى

لا يصبح حكرا على دولة واحدة لأن الأمن الجماعى هو الضمانة الأفضل لاستقرار المنطقة، وإن أمن الخليج العربى ليست فكرة مطروحة ضد أحد، بل ضد كل من يحاول إيذاء أمن المنطقة. فالثروة الطائلة والحجم الصغير لدول المنطقة كل ذلك يثير مطامح ومطامع الدول الأقوى. والخيار أمام دول المنطقة هو إما قبول الأمر الواقع دون تعديله أو توحيد الجهود وتقويتها لخلق تيار موحد لمواجهة التحديات».

الأمن القومى العربى:

تهدد كيان الأمة العربية أخطار كثيرة يتحتم علينا على الأقل العمل من أجل الأمن القومى برغم أنه مرتبط بالوحدة العربية وبكيان عربى موحد، ولكن الواقع الحالى بكل إفرازاته يدل على صعوبة تحقيقها، ولكن يمكن إيجاد الأمن القومى على ضوء الأخطار المحدقة.

يستند الأمن القومى إلى روابط وحقائق ثابتة للأمة العربية، مع الأخذ بأن الأمن الوطنى القطرى يجب ألا يتعارض مع الأمن القومى بل يساير، ويتوافق معه جنبا إلى جنب. والأمن القومى يعنى حماية دولة أو مجموعة دول عربية من الأخطار التى تتهددها وحماية المصالح الحيوية وأمن وسلامة واستقرار وتهيئة الظروف المناسبة لتحقيق الأهداف والغايات[14]، لاستغلال مواردها الاقتصادية بما يخدم مصالحها المشتركة، والحفاظ على الطابع القومى والحضارى للأمة العربية وحقوقها فى السيادة والتقدم[15]، وتسعى فى إطار قومية واحدة فيما بينها لمواجهة الأطماع الخارجية والتكتلات الدولية بإيجاد استراتيجية مشتركة قادرة على التعامل مع التحديات السياسية والاقتصادية والعسكرية التى يتعرض لها، والعمل على التكامل فى كافة المجالات للوصول نحو إرادة عربية بتنمية وتوظيف الموارد القومية مثل الثروة النفطية وعوائدها والموارد الاقتصادية الحيوية لرفع مستوى الإنسان العربى[16].

ليس الأمن القومى هو الأمن الإقليمى، ولكنه تعبير عن الحماية الذاتية للأمة العربية فى حين تنظر القيادات السياسية فى أنظمة الحكم العربية إلى الأمن القومى العربى نظرة ذاتية، ولذا يجب ايجاد مفهوم موحد للأمن القومى يعكس المصالح الحيوية المشتركة للأمة فى الوقت الذى تعانى من تهديد لأمن شرق الجزيرة العربية وخاصة منابع النفط وعوائده، وقد أضعف الموقف المصرى بعد كامب ديفيد مما جعل

إسرائيل تضرب المشرق العربى (بغداد) والمغرب العربى (تونس) وتحجم التضامن العربى بالتعاون الاستراتيجى مع الولايات المتحدة لإثارة النعرات الطائفية والحروب الباردة والقضاء على عناصر القوة السياسية العربية، وإحياء النظام الإقليمى من تمحور لسياسة ضد الأطراف على حساب النظام القومى العربى، والأهم من هذا كله زيادة التغلغل الأجنبى[17]، وخاصة الوجود العسكرى الأمريكى فى المنطقة.

تهدد الأخطار الكيانات العربية بل والأمة العربية ككل، فى ظل غياب الأمن القومى إذا لم يوضع تعريف مشترك للأمن القومى العربى، الذى يصعب تحقيقه فى ظل واقع التجزئة المرير لوجود عشرين دولة وعشرين إرادة سياسية عربية بدون كيان سياسى موحد، برغم اعتراف حكام الاقطار العربية فى المؤتمرات والاجتماعات بأن الأمن القومى العربى هو تعبير عن المصير الواحد، ولكن الواقع عكس ذلك، فالأقوال لا تتفق مع الأفعال لعدم وضوح رؤية موحدة للأمن العربى وتهديداته سواء على مستوى القيادات أو المفكرين.

لذا نجد الاستراتيجية الأمريكية تحاول عزل أمن دول مجلس التعاون الخليجى عن الأمن القومى العربى وربطه بأمنها عن طريق حلفائها فى المنطقة أو بأمن غرب آسيا والصراع الدائر حول المحيط الهندى[18]، وهذا يعنى ضمن أشياء أخرى[19].

1 ـ فصل الأمن الإقليمى الخليجى عن مشكلة الصراع العربى ـ اليهودى بجوانبها وحساسياتها المتعددة.

2 ـ عدم السماح باستخدام سلاح النفط فى أية محادثات لتسوية القضية الفلسطينية.

3 ـ عزل دول مجلس التعاون ومواجهتها منفردة ومنع أية إمكانية عربية لدعم مواقفها، الأمر الذى يفتح الباب على مصراعيه أمام محاولات الضغط عليها وإقناعها بقبول الاستراتيجية الأمريكية بأبعادها المختلفة.

4 ـ الاستمرار فى تحقيق الالتزام الأمريكى الدائم والمتعلق بالحفاظ على أمن إسرائيل وقوتها فى المنطقة.

تعطى الولايات المتحدة عن طريق تأكيد الخطر السوفياتى قبل مجىء

غورباتشوف للحكم فى روسيا المبرر الشرعى لدعم موقف العدو الاستعمارى اليهودى بكافة تصرفاته، ولا ينبغى على دول مجلس التعاون أو غيرها من الأنظمة العربية، التحدث عن أخطار الكيان الإرهابى اليهودى أو تهديد لسياستها لأمن المنطقة، وتكليفها بعمليات حفظ الأمن والاستقرار[20]، ليس فى دول مجلس التعاون وإنما الوطن العربى من المنظور الأمريكى.

لذا يجب أن يكون هناك حد أدنى للتعاون القومى فى المجال الاقتصادى والسياسى والعسكرى بإيجاد عمل مشترك على غرار السوق الأوروبية المشتركة بهدف حماية المصالح الحيوية وتشجيع وتنشيط التعاون على مستوى القاعدة لتعميق أواصر التلاحم العربى وإزالة موانع الانتقال لرؤوس الأموال والأفراد فيما بين كياناتها، وإقامة صناعة ثقيلة متطورة وخاصة العسكرية لتدعيم استقلالية القرار السياسى والعسكرى، مما يعزز الأمن القومى العربى، وإلا فإن الأنظمة العربية تكون مهددة داخليا وخارجيا، وقد يحدث تغير فى وجودها السياسى أو الوحدة بالقوة وما ينتج عنه من تدخلات خارجية وخاصة الأمريكية، كاجتياح العراق للكويت وما كان هذا ليحدث لولا غياب التضامن والأمن العربى، وما يفرض من الأمن الأمريكى بتواجده والعسكرى فى السعودية مما يعنى صعوبة الخروج من هذا المأزق الأمريكى بدون إيجاد الأمن القومى العربى.

خلاصة القول بأن اختلاف تفسير الأمن الإقليمى الخليجى من قبل الدول العربية وعن التهديد الخارجى، أصبح عديم الجدوى وإلى حدما الأمن القومى العربى، فى حين تركز معنى الأمن حول كيفية حماية الأنظمة من الداخل لمنع تفريغها، ولم يعد التهديد الخارجى ذا أهمية إذا ما قورن بأمنها الخاص، كما مارست بعض الأنظمة التدخل ضد بعضها الآخر ليس بهدف الدفاع عنها ضد الأخطار الخارجية وإنما كان بهدف تثبيت النظم الداخلية والإبقاء عليها فى السلطة.

التحديات الخارجية:

تنحصر التحديات الخارجية فى ثلاث قوى أجنبية وهى: التهديدات الأمريكية والسوفيتية واليهودية.

أولا: التهديدات الأمريكية لأمن شرق الجزيرة العربية:

بعد سقوط الشاه وقيام الثورة الإسلامية فى إيران والتى انتقلت من دولة حليفة للكيان اليهودى وأمريكا إلى دول المواجهة، ورفض التواجد العسكرى الأجنبى وخاصة الأمريكى بعد تراجعُ السوفيت إلى الوراء نتيجة البروستريكا «غورباتشوف» وما يعانيه من المشكلات الداخلية وانسحابه من أفغانستان والتخلى عن الأصدقاء والحلفاء مثل أثيوبيا والعراق واليمن واتباع سياسة الوفاق مع الولايات المتحدة حول الخليج العربى الذى كان خارج محور الوفاق اثناء التنافس التقليدى والحرب الباردة، وحتى موقف السوفيت المعارض للحليف السابق العراق لاجتياحه الكويت، وما نشأ من تقارب إلى حد التباين بعد لقاء الغداء فى «هلسنكى» بين «غورباتشوف» و«بوش» فى العاشر من سبتمبر 1990، وما نتج عنه زيادة القوات الامريكية حول منابع النفط فى السعودية شرق الجزيرة العربية إلى أكثر من ربع مليون جندى بأحدث الأجهزة الحربية المعقدة مع ما يمكن أن نعتبره المرحلة القادمة بالأمن الامريكى لدول مجلس التعاون الخليجى إذا ما صحت توقعاتنا للسيطرة الامريكية على الأقل فى المستقبل القريب إن لم يكن البعيد لبترول وأمن المنطقة حتى عام 2020.

على ضوء تلك التطورات السريعة التى قد لا نستطيع ملاحقة أحداثها ورصدها وتحليلها، يمكننا دراسة الولايات المتحدة تجاه أمن المنطقة إلى يومنا هذا منذ أن كانت آراء وخطط متحفظة إلى التدخل العسكرى المباشر وفرض السيطرة والأمن الأمريكى فى عهد جورج بوش.

اتبعت الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية سياسة لضمان سيطرتها على دول مجلس التعاون الخليجي بأساليب خبيثة والتدخل فى الشؤون الداخلية وعمل الانقلابات العسكرية والاغتيالات والمؤامرات واشعال النزاعات الاقليمية والطائفية ومشاكل الحدود، وإقامة القواعد والأحلاف العسكرية وزيادة التواجد العسكرى والضغط السياسى.

تطور مفهوم السيطرة والأمن الأمريكى للمنطقة مع تطور الإدارات السياسية للبيت الأبيض بشكل أساسى لحماية مصالحها وليس مصالح دول وكيانات المنطقة،

ابتداء من مبدأ ايزنهاور إلى مبدأ نيكسون ومبدأ كارتر وحتى بوش، وتهدف تلك المبادئ إلى المحافظة على استمرارية الأوضاع القائمة وحمايتها وإحكام الخناق على شعوبها[21]، وتعميق ارتباطها بالغرب المسيحى الرأسمالى وتغلغلها إلى المؤسسات المهمة بعد اقناعـها بأن الاستقرار والأمن فى المنطقة لا يمكن تحقيـقه إلا بالاعتماد عليها[22]، وحتى لا تخرج خارج نطاق المرسوم لها من قبل ادارتها.

منها تغلغلت إلى المؤسسة العسكرية بإرسال الأسلحة والخبراء واستجلاب كوادر عسكرية إلى المنطقة[23].

يعتبر النفط من أهم المواد الخام حيوية للولايات المتحدة وهى بعيدة عن مكان الاستهلاك بعدة آلاف من أميال عبر البحار، مما يعرضها لمخاطر كبيرة قد يؤدى إلى انقطاعها[24]، وتقول وجهة النظر الأمريكية حين تصل مصالح الغرب إلى حافة الخطر فعلى كل من الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ان تتفقا على الحاجة إلى قوة غربية للتدخل وأن تتخذ خطوات لتحسين الوسائل اللازمة لهذا العمل[25]، كما حدث مؤخرا بمجيء القوات المسيحية الامريكية والاوروبية وخاصة من فرنسا وبريطانيا إلى الخليج العربى.

من هنا تطورت المفاهيم والمبادئ الامريكية تجاه المنطقة عندما خلفت تركة وإرث الاستعمار المسيحى البريطانى بعد انسحابها عام 1971 ونتيجة لهزيمتها فى فيتنام وتخوفها من تجربة جديدة فاشلة وملاحقتها ما يعرف بعقدة فيتنام فقد خططت لبناء قوة محلية لحماية مصالحها بدلا من تورطها المباشر، وهو الموقف الأمريكى الذى كان واضحا من مبدأ نيكسون لحماية استمرار تدفق النفط بحراسة ايران وبدرجة أقل من السعودية مما أدى إلى بناء القوة العسكرية لايران[26]. ودعم الشاه سياسيا واقتصاديا للقيام بدور شرطى المنطقة لحماية المصالح الامريكية والعالم المسيحى الرأسمالى كما طورت علاقاتها مع السعودية بدرجة كبيرة، وعملت على إيجاد تنسيق أمنى بين ايران والسعودية للمحافظة على مصالحها، حاول الشاه استغلال هذا الدور لمصلحته ايضا، باتباع سياسة التوسع والهيمنة والقيام بدور القوة الرئيسية الاقليمية الوحيدة فى المنطقة.

نتيجة لمبدأ نيكسون حصلت ايران على كميات كبيرة من الأسلحة الحديثة

والمتطورة برغم عدم قدرة ايران على استيعابها، واستهدفت السياسة الامريكية بمبدأ المشاركة او سياسة تخويف الأنظمة المحلية الاخرى والتى لا تخضع لسياستها كالعراق واليمن وتهديدها بالتدخل الأمريكي المباشر ومحافظة الأنظمة الحليفة[27].

لكن بقيام الثورة الإيرانية وظهور الدولة الإسلامية بكل أبعادها تخلت ايران الثورة الإسلامية عن دور شرطى الخليج العربى لحماية المصالح الامريكية وسحبت قواتها التى أرسلها الشاه لقمع الثورة الشعبية فى ظفار، وأعلن رئيس الأركان الإيرانى الجنرال محمد قرنى فى 3/ 3/ 1979: «إن الثورة جعلت ايران دولة مجابهة مع اسرائيل» ويرر قرار الحكومة الخاص بسحب الوحدة الإيرانية (2500) رجل من قوة حفظ السلام الدولية العاملة فى الجولان بقوله: «ليس من المنطقى أن تعمل القوات الإيرانية كحاجز بين العرب واسرئيل فى حين أننا نعتبر أنفسنا دولة مجابهة مع اليهود جنبا إلى جنب مع الدول العربية»[28].

بذلك انتقلت ايران من حليف إلى معارض بعد الثورة الإسلامية، وأفشلت المخططات المسيحية الاستعمارية المعروفة بالركائز الامريكية الثلاث لحماية أمن الخليج العربى، فالأولى والثانية كانتا ايران والسعودية فى حين كانت الثالثة الإرهاب اليهودى، وبقيام الثورة الإسلامية فى إيران انهارت الركيزة الثالثة الإرهاب اليهودى وباتت تهدد الركيزة الثانية.

بسقوط الشاه سقط مبدأ نيكسون وما أعقبه من إعادة للسياسة الامريكية فى المنطقة من نوع جديد لمفهوم الأمن الأمريكى عندما قال كارتر[29]: «سنحافظ على قدرتنا الاحتياطية لاستخدام القوة العسكرية الاضافية اللازمة لمساعدة الدول المهددة فى المنطقة عندما تدعو الحاجة وسنختار سبلنا بعناية من اجل ضمان ألا تخلق الأعمال الامريكية مسؤوليات سياسية محلية تقلل من فعالية جهدنا العام، وقد أقمنا أيضا علاقات مع عدد من دول المنطقة تقضى بتزويدها بالعتاد العسكرى ولا تساهم هذه العلاقات فى زيادة قدرات هذه الدول على الدفاع عن النفس وحسب بل تسهم ايضا فى تنمية شعورها بالاستقرار واستعدادها للمشاركة فى جهد الأمن المشترك».

هذا يعنى التراجع عن مبدأ نيكسون والانتقال من مرحلة التدخل غير المباشر

عن طريق ايران والسعودية قبل الثورة الإسلامية إلى التدخل المباشر، ومن التركيز على الإجراءات الدبلوماسية إلى التركيز على الاجراءات العسكرية، ومحاولة احياء النزاعات التقليدية فى السياسة الامريكية فى المنطقة والتى خمدت منذ الستينيات حتى مجيء كارتر وبدأت بإحياء التحالفات الأمنية واقامة القواعد والتسهيلات العسكرية[30].

لم يكن اهتمام الولايات المتحدة بأمن المنطقة ومحاولة تثبيت الأوضاع ما هو الا طريقة لاستمرار تدفق النفط الى العالم المسيحى الرأسمالى[31]، باستخدام القوة العسكرية لمواجهة أى تهديد لمصالحها الحيوية فى الخليج العربى، اى انها تحت رحمة الأمن الامريكى.

لجعل هذا المبدأ فى حيز التنفيذ اتجهت السياسة الامريكة الى زيادة حجم التواجد العسكرى فى المناطق المحيطة وايجاد القواعد والتسهيلات العسكرية ابتداء من شمال الخليج العربى فى تركيا واسرائيل والبحر الاحمر فى مصر والقرن الفريقى فى الصومال وكينيا والمحيط الهندى وفى داخل كيانات شرق الجزيرة العربية وإنشاء قوة الانتشار السريع وتقوم هذه السياسة على:

1- التدخل العسكرى الامريكى إذا كان هناك تهديد لمصالحها الحيوية التى تتلخص بضمان امدادات النفط لها ولحلفائها بأسعار معقولة وبالكميات التى تحتاجها.

2- ايجاد نوع من التقارب فيما بين الانظمة الحليفة للمحافظة على أمن المنظمة من المنطلق الامريكى لحماية مصالحها.

التخوف الأمريكى على مصالحه فى المنطقة:

يبرر المسؤولون فى البيت الأبيض تخوفهم على أمن المنطقة من انقطاع النفط والسيطرة الوطنية عليه مما يودى إلى التحكم فى الأسعار والإيرادات وكمياته والقرار السياسى الذى قد يرتبط به وخاصة الربط بين المصالح الامريكية والمصالح العربية بقضية فلسطين، ولذا نتناول أولا تخوف الامريكيين من انقطاع النفط ومواقفهم المعلنة، ثانيا: ماذا لو احتلوا منابع النفط؟

أولا: التخوف الأمريكى من انقطاع النفط:

صرح براون وزير الدفاع السابق فى شهادة له أمام لجنة الشؤون الخارجية بالكونغرس ضرورة استمرار تدفق نفط منطقة الخليج العربى معتبرا ذلك بمثابة مصلحة حيوية فى منطقة تفتقر فى رأيه إلى القدرة الكافية للحماية[32]: «إن ما نراهن عليه فى الخليج العربى هو الرخاء الاقتصادى والعافية السياسية للولايات المتحدة وحلفائها. فلو حرمت الدول الصناعية فى العالم من حرية الوصول إلى مصادر الطاقة فى الخليج العربى فستكون النتيجة على الأرجح هى الانهيار لحلفائنا وللاقتصاد العالمى».

كما صرح ريغان على ضرورة الاستمرار فى الحفاظ على أمن الخليج العربى ولكن من خلال التنسيق مع الحلفاء: «ان التزامنا بالمحافظة على الأمن والاستقرار فى الخليج العربى لن يضعف التزاماتنا الاخرى بل إن العكس هو الصحيح، إن أوروبا واليابان والولايات المتحدة تحتاج إلى النفط الذى ينتجه الخليج العربى، كما أن اصدقاءنا فى الخليج العربى يحتاجون إلى مساعدتنا لوقف امتداد النفوذ السوفيتى».

وأضاف: «إن هناك تهديدات متزايدة فى الثمانينيات لأمننا المشترك ليس فى أوروبا فحسب بل فى الخليج العربى أيضا، ولذلك ندعو أصدقاءنا وحلفاءنا الأوروبيين إلى القيام بدور كبير لا غنى عنه فى مجال تنظيم امننا، لأن الرد على التهديد يكمن فى الاستخدام المشترك لموارد الولايات المتحدة وحلفائها وجهودهم السياسية»[33].

يتضح من تلك التصريحات التخوف الامريكى من انقطاع النفط أو توقف الامدادات لفترة طويلة مع ما ينتج عنه من مخاطر للأمن القومى الامريكى ولحلفائه، أو وقف امدادات النفط لفترة قصيرة لا تؤثر كثيرا على الأمن القومى الامريكى ولحلفائه، ولكن قد يهيئ الظروف المناسبة لرفع الأسعار مما يعنى تراكم عشرات البلايين من الدولارات كفوائد مالية لعوائد النفط تهدد النظام النقدى والمالى العالمى بالانهيار فى حالة عدم إعادة تدويرها[34]، وذلك كما حدث من انقطاع النفط العراقى والكويتى نتيجة للحظر الأمريكى، برغم زيادة الانتاج السعودى بما يكفى إلا أن التخوف من الانقطاع لفترة قصيرة عندما وقعت الحرب

بين الولايات المتحدة وحلفائها ضد العراق، أدى إلى ارتفاع قيمة البرميل الواحد إلى أكثر من أربعين دولاراً بعدما كان لا يتجاوز ثمانية عشرا دولارا.

لذلك يهدف الامريكيون بإرسال الأسلحة إلى حلفائهم وأصدقائهم فى المنطقة كوسيلة يستطيعون بها الدفاع عن انفسهم حتى تحضر قوات امريكية لحماية امن الخليج العربى[35]، ولذا قررت الولايات المتحدة ان يكون التوكيل لحماية المصالح الغربية من دول منطقة الخليج العربى[36]، وبإرسال الاسلحة للصمود مؤقتا حتى تصل القوات الأمريكية، ويقول الكاتب الأمريكى «انتونى ديوك»: «ليس هناك حاجة لحماية المصالح الحيوية عن طريق تواجد القوات الأمريكية للدفاع عن الكيانات الستة لمجلس التعاون وإنما يجب علينا تقديم كافة المساعدات لأن أمنهم المباشر مرتبط وتابع لأمننا»[37].

يكمن التخوف الامريكى فى عدة نقاط وهى:

أولا: على منابع النفط فى دول مجلس التعاون وخاصة فى شرق السعودية، ومحاولة العراق الاستيلاء على حقوله الرئيسية أو من القوة الإقليمية الأخرى كايران فى المنطقة، أو قفل الممرات الملاحية لناقلات النفط عند النقاط المهمة والمضايق البحرية.

ثانيا: التخوف من مناطق الاضطراب والتوتر التى تحيط بمنابع النفط والتدخل فى عمليات الانتاج والشحن، ومحاولات قلب الانظمة الحليفة لامريكا كما حدث لشاه ايران أو حظر تصدير النفط أو التحكم بأسعاره وبكمياته.

ثالثا: التخوف من ضعف الأنظمة الحليفة وعدم قدرتها على الصمود أمام اى اطماع خارجية.

ثانيا: ماذا لو احتلت امريكا منابع النفط؟

ماذا لو تعرضت منابع النفط السعودية للاستيلاء عليها من قبل الولايات المتحدة؟

احتلال منابع النفط السعوية فى شرق الجزيرة العربية وارد فى جميع الظروف وفى كل الأحوال فى ضوء احتياجاتها المنطقية، لأنها اساسية واستراتيجية حتى النصف الأول من القرن القادم أى إلى عام 2050.

سوف تتدخل الولايات المتحدة عسكريا لحماية واحتلال المنابع السعودية إذا ما تعرضت لتهديد خارجى سواء كانت قوة إقليمية أو دولية كما حدث فى اجتياج العراق للكويت فدخلت القوات الأمريكية وطلبت من حلفائها العرب مساعدتها فى تحقيق حماية المنابع النفطية لإعطاء شرعية دولية لتدخلها السافر، تحت مبرر حماية السعودية من العراق.

ولكن ماذا لو كان التهديد لأمريكا تابعا من الداخل، فعلى سبيل المثال إذا هدد السعوديون بعدم تصدير النفط إلى الولايات المتحدة أو زيادة الأسعار أو تخفيض الانتاج من أجل عدم الاهدار أو الاستنزاف للمورد الوطنى القومى الوحيد، والوقوف مع دول المواجهة العربية لاسترجاع الحقوق الشرعية الفلسطينية من العدو الإرهابى اليهودى؟.

وماذا لو استطاعت الولايات المتحدة الاستيلاء على منابع النفط السعودية برغم الصعوبات وبعمل عسكرى.

جميع هذه الأسئلة واردة فى ظل الظروف الراهنة، علما بأن خطة الاستيلاء على حقول السعودية من قبل الولايات المتحدة كانت موضوعة منذ فترة وان لم تظهر فى البيانات والوثائق الرسمية للبنتاغون، ولكن الاستراتيجيون الامريكيون درسوا دائما وإن كان بشكل مكتوم تلك الاحتمالات التى ذكرناها سابقا، ومفهوم الاستيلاء على نفط العرب ايضا كان دائما موجودا، وقد برز ذلك على السطح فى كل مرة رفع فيها السعوديون أسعار النفط الخام، أو هددوا باجراء جماعى ضد الاستعمار اليهودى[38].

وفى الحالتين سواء تهديد المصالح الامريكية فى دول مجلس التعاون الخليجى من الخارج أو من الداخل، كما حدث من قبل العراق أو ما قد يحدث مستقبلا، فإن النتيجة قد حصلت فعلا ما كان يتمناه الامريكيون وهو تأمين السيطرة على نفط الخليج العربى فى ظل ظروف مناسبة وتحت مبررات شرعية بقرارات مجلس الأمن الدولى.

لكن يبقى سؤال ملح: هل تستطيع الولايات المتحدة أن تتحمل تكاليف حماية آبار النفط فى غياب المساندة الخليجية معنويا وأمنيا.

إن حمـاية حوالى (700) بئر نفطى وسـبعة آلاف مـتر من خطوط الانابيب المعرضة للتـخريب أو المخاطر، تحتـاج من امريكا إلى قوة عسكرية دائمـة للحفاظ عليـها لا تقل عن مـائة ألف جندى، هذا غـير الحـماية من هجـمات داخليـة أو خارجية، والسـؤال المطروح ما هى تكاليف الإقامة لهذا العـدد الضخم فى منطقة تعتـبر من أغلى المناطق فى مـستوى المعـيشة، سواء من المـأكل والمشرب والمسكن وحماية مستمرة ضد الهجمات من الداخل او الخارج أو اعمال انتحارية، كل ذلك يتطلب جهدا يوازى فى المال والرجال تورط الولايات المتحدة فى فيتنام[39]، وهى قضية تقلق الأمريكان وتجعلهم يراجعون حساباتهم جيدا قبل الاقدام على مثل هذه الخطوة.

ثانيا: التهديد السوفيتى:

طرح السـوفيت عـدة مـبادرات للأمن فى الخليـج العربى وهى تدعـو إلى التعـاون والسلام دون هيمنة القـوتين وتتناول مبادرتين الاول عن الأمن الجـماعى والثانية عن مبادرة بريجنيف.

فكرة الأمن الجماعى:

قدم الاتحاد السوفيتى مبادرة للأمن الجـماعى فى اسيا بما فيها الخليج العربى الذى يمكن توطيد العـلاقة ما بين دوله وكـياناته إذا ما تم تطوير التعـاون وتعزيز الأمن والامتناع عن استـخدام القوة العسكرية وعدم التـدخل فى الشؤون الداخلية والحفاظ على الحدود القائمة والاحترام المتبادل للسيادة، ووحدة الأراضى والتعاون الكامل على مبدأ المساواة والمنفعة المتـبادلة، وحرية الملاحة فى الخليج العربى والمياه الدولية المجاورة له والمؤدية إليه.

تؤكد الفكرة بأن التعاون المشترك بين الجـانبين العربى والإيرانى ممكن تحقيقه إذا راعى كل جانب مـصالح الجانـب الآخر فى سبـيل منع استغـلال الاستعـمار المسيحى الرأسمـالى وخاصة الولايات المتحدة لموارد النفط والعـمل لصالح شعوب المنطقة، وعدم اللجوء إلى الحروب المحلية، وعـدم إراقة الدماء وتخفيف الميزانيات العسكرية وتحويلها للتنمية الاقتصادية الاجتماعية[40].

مبادرة بريجنيف:

يرى الاتحاد السوفيتى أن مبادرة بريجنيف ذات أهمية لعدة أسباب أهمها ما يلى:

1 ـ إعطاء دليل على عدم وجود أطماع سوفيتية فى المنطقة كما يردده المسؤولون الأمريكيون.

2 ـ كانوا يرون بأنها تحل المشكلة الافغانية وتؤدى إلى الانسحاب السوفيتى وقد انسحبوا منها مؤخرا.

3 ـ ينهى مشكلة أمن الخليج العربى لإعطائه الضمان الكامل بجانب حرية الملاحة والتجارة الدولية منه وإليه.

انتقل السوفيت بذلك من المبادرات الثنائية إلى المبادرات الجماعية لضمان أمن الخليج العربى، ومراعاة مصالح الأطراف المختلفة وخاصة المصالح الغربية، وفى المقابل تأكيد لحماية أمن السوفيت الجنوبية أى مبادلة بين الإقرار السوفيتى بوجود مصالح غربية نفطية مقابل اعتراف الغرب بتواجد مخاوف سوفيتية أمنية شرعية[41].

شكل الاتحاد السوفيتى نوعًا من التهديد، ولكن لم يصل بمستوى التهديد الامريكى لأمن الخليج العربى، وإنما مجرد الحفاظ على حدوده الجنوبية، ومساعدة حلفائه فى المنطقة، أكثر من التهديد بالتدخل العسكرى مثل الولايات المتحدة، ولا نعتقد بأن السوفيت سوف يشكلون أى تهديد لأمن الخليج العربى على الأقل فى المنظور القريب إن لم يكن حتى فى المنظور البعيد إلى نهاية القرن الحالى، وهذا راجع لعدة أسباب منها:

1 ـ حالة الوفاق مع الولايات المتحدة لتخفيف حدة التوتر فى العالم مع الموافقة الضمنية للسيطرة الامريكية فى المناطق الحيوية والخليج العربى بعد قمة هلسنكى.

2 ـ تزايد المشاكل الاقتصادية والسياسية فى داخل الاتحاد السوفيتى، فمن الجمهوريات التى تطالب بالانفصال وبعضه أعلن الاستقلال مثل لتوانيا إلى مشاكل القوميات العرقية، وأعلن البرلمان السوفيتى اتخاذ قرار التحول من الشيوعية إلى

الاقتصاد الحر يوم 24/ 9/ 1990 عندما فرض غورباتشوف ايجاد صيغة للتحول من الاقتصاد الشيوعى الذى دام أكثر من 73 عاما إلى اقتصاد السوق الحر، وفى 19/ 10/ 1990 وافق البرلمان السوفيتى على خطة غورباتشوف المعدلة بين خطتى «الشتالين» المتطرفة وهو خبير اقتصادى و«ريمكوف» المحافظة وهو رئيس الوزراء مع السماح للجمهوريات السوفيتية بتطبيق ما تراه مناسبا فى نطاق الانفتاح للاقتصاد الرأسمالى.

هذا التحول الاقتصادى للسوفيت أخذ أبعادا جديدة وخاصة بعد فشل الانقلاب الشيوعى واستقلال الدول التى سميت بالكومنولث.

3 ـ انسحاب السوفيت من افغانستان ومن ألمانيا الشرقية وتخفيض تواجدها العسكرى فى بقية الدول الحليفة، والتقليل من المساعدات العسكرية والاقتصادية إلى اليمن واثيوبيا قد ساعد على إزالة المخاوف من السوفيت أو حلفائه فى المنطقة.

4 ـ تحسين علاقة روسيا مع دول مجلس التعاون الخليجى ابتداء من عمان والإمارات وقطر وانتهاء بالسعودية ورفع المستوى الدبلوماسى إلى إقامة السفارات، جعلها أقرب إلى المعسكر الأمريكى بعد موقفها من الاجتياج العراقى للكويت برغم وجود معاهده الصداقة.

5 ـ السماح لأكثر من مليون يهودى بالهجرة إلى اسرائيل ومحاولة اعادة العلاقات برغم خطورة ذلك على العلاقات مع العرب، مما يعنى عدم الاهتمام كثيرا بالقضايا العربية وخاصة الشرق الأوسط وفى مقدمتها القضية الفلسطينية.

كل تلك التطورات التى ذكرناها نقلت روسيا إلى المواقع الخلفية فى حين عززت المواقع الأمامية للولايات المتحدة اضافة إلى احتياجات روسيا للدعم الاقتصادى والتكنولوجى الامريكى والغربى جعلها تخفف من معارضتها لخطط الهيمنة والتوسع الامريكى فى مختلف ارجاء العالم، وخاصة الخليج العربى مما يعطيها اليد العليا فى الحكم بمصائر الشعوب المغلوبة دون رادع حقيقى لسياستها.

عودنا التاريخ الروسى بأنهم كأمواج البحر ينحسرون لفترة لأسباب داخلية كما حدث بعد ثورة أكتوبر 1917 ثم يعودون مرة ثانية أقوى من السابق، وبمعنى آخر إن عودة روسيا من جديد لابد منه كقوة عالمية تلعب دورا مهما فى القضايا

الدولية الاقليمية وخاصة أمن الخليج العربى ولا محالة من ذلك، ولكن بعد ترتيب البيت الداخلى وتعزيز الاستقرار الاقتصادى الجديد ثم الخروج إلى العالم الخارجى أو الانضمام إلى الاتحاد الأوربى بعد عام 2020.

ثالثا: تهديد الإرهاب اليهودى:

لا تقل خطورة الإرهاب اليهودى وتهديده لأمن الخليج العربى عن الولايات المتحدة، لأنها تمثل القاعدة الأمريكية المتقدمة فى الشرق الأوسط، ومما زاد أهمية ذلك هو التحالف الاستراتيجى وخطورته ليس فقط لتهديد أمن دول مجلس التعاون، وإنما على الأمن القومى العربى، وهذا هو الأهم بعد توقيع الولايات المتحدة الأمريكية مع إسرائيل الاتفاقية الاستراتيجية عام 1981 وتجديدها عام 1983 اعتبرت إسرائيل أمن الخليج العربى من أمنها الوطنى فى الوقت الذى تنظر إلى دول مجلس التعاون على أنه الخط الثانى أو الظهير الخلفى للجبهة الأمامية وبالتالى جزء من الأمن القومى العربى الذى يشكل خطرا على الأمن الإسرائيلى.

أعطت الاتفاقية الاستراتيجية مع الولايات المتحدة حرية الحركة واستخدام كل إمكانياتها لحماية المصالح الحيوية فى دول مجلس التعاون، وأصبحت الشريك الاستراتيجى الأمثل الذى يضمن تعزيز ترتيبات الأمن الأمريكى فى المنطقة، ويمكن الاعتماد على اليهود فى التقليل من مشاكل نقل القوات فى الظروف الطارئه، وكذلك يمكن للقوات الجوية الأمريكية استخدام اسرائيل كمحطة لضرب الأهداف المطلوبة فى الخليج العربى إذا دعت الحاجة، ولتحقيق ذلك قام الكيان اليهودى ببناء قاعدتين «رامون» و «دافدا» فى صحراء النقب بمساعدة الولايات المتحدة، إضافة إلى قاعدة بئر سبع المخصصة لاستخدام القوات الأمريكية فى حالة التهديد المباشر لمصالحها فى المنطقة، وراجع التهديد اليهودى لأمن الخليج العربى باعتبارها جزءاً من الاستراتيجية الأمنية المشتركة مع الولايات المتحدة انطلاقا من عدة مؤشرات أهمها[42].

1 ـ حرب يونيو 1967 وأكتوبر 1973 واجتياح لبنان 1982.

2 ـ استخدام نفط العرب كسلاح فى المعركة ضد الكيان اليهودى المحتل لفلسطين.

3 ـ مساعدة دول المنطقة ماليا ومعنويا وسياسيا لمنظمة التحرير والفلسطينيين ودول المواجهة العربية.

4 ـ استضافة دول مجلس التعاون للأخوة العرب من الفلسطينيين بتوفير الفرص المناسبة للإقامة.

إن استمرار النزاع العربى ـ اليهودى يزيد من خطورة أمن الخليج العربى، ليس فقط من جانب أطماع الإرهاب اليهودى، ولكن من جانب آخر وهو تعقيد العلاقات بين دول مجلس التعاون وبين دول الغرب المسيحى الرأسمالى وخاصة الولايات المتحدة، ويقف حائلا دون تطويرها وقد شدد بعض حكام المنطقة فى الأحاديث التى جرت مع اللجنة الثلاثية المكونة من اليابان وأوروبا والولايات المتحدة، على المسالة بتحذير هؤلاء الزوار من أنه ما لم تتم تسوية هذا النزاع خلال خمس سنوات فإنهم (الحكام المعتدلون) قد لا يكونون بعد ذلك فى موقع السلطة[43].

كانت دول مجلس التعاون ترى أن التعاون الأمريكى مع الإرهاب اليهودى لا يقل خطورة عن التهديد السوفيتى لاستقرار أمن المنطقة، لأن دولة الإرهاب اليهودى دولة عدوانية استعمارية توسعية تهدد الأمن القومى وهى تنفق ميزانية ضخمة لشراء الأسلحة، وفى السنوات القليلة القادمة تواجه مشكلة اقتصادية خطيرة والبعض يطالب بوضع خطة إرهابية يهودية أمريكية شاملة لغزو حقول النفط فى شرق الجزيرة العربية.

لدى دولة الإرهاب اليهودى القدرة العسكرية للوصول إلى آبار النفط، وخير دليل على ذلك عدوانها السافر فى 7/6/1981 على العراق عندما قامت بتدمير مركز الأبحاث النووى العراقى «تموز»، فما الذى يمنعها من غزو آبار النفط فى دول مجلس التعاون، بل هناك تهديدات إرهابية يهودية بضرب كيانات المنطقة، كما ظهر عقب إعلان نية ألمانيا الغربية بيع أسلحتها للسعودية.

لكن الأحداث الأخيرة بعد الاجتياح العراقى للكويت ودخول القوات الأمريكية الى السعودية، لم تقم دولة الإرهاب اليهودى بأى دور يذكر بل العكس

من ذلك إن بعض الدول العربية أسرعت بنجدة أمريكا، ومع هذا لا نعتقد بأن الإدارة الأمريكية سوف تتخلى عن دولة الإرهاب اليهودى وأكبر دليل على ذلك الموقف الأمريكي وخاصة الكونغرس المؤيد للمذبحة الإرهابية اليهودية فى الحرم القدسى الشريف للعرب والمسلمين، تجاهل ودون مراعاة شعور المسلمين فى سوريا ومصر والسعودية نفسها من المذابح الإرهابية اليهودية، ونعتقد بأن الدور اليهودى الإرهابى سيكون كبيرا بحجم تحالفها مع الولايات المتحدة كضرب العراق أو أى كيان عربى إن عاجلا أو آجلا.

نظرة مستقبلية:

يخبئ المستقبل الكثير لدول مجلس التعاون ولذا نحاول التوصل إلى استنتاجات للنظرة المستقبلية التى تنحصر فى المادة الاستراتيجية الأولية وهو النفط والطلب المتزايد عليه، هناك بعض النقاط التى يجب التذكير بها وأهمها:

1 ـ الاهتمام العالمى وتركيزه على النفط وخاصة من قبل العالم المسيحى الرأسمالى والسوفيت ودول أوروبا الشرقية فى المستقبل القريب.

2 ـ المنافسة الدولية على الخليج العربى وسوف تتركز بين ثلاث قوى رئيسية إن لما تكن خمسة وهى:

أ ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

ب ـ أوروبا الموحدة بزعامة ألمانيا وفرنسا.

جـ ـ روسيا الاتحادية.

د ـ اليابان والصين وكوريا الموحدة واستراليا (شرق آسيا).

هـ ـ البرازيل، الهند، الأرجنتين وبقية دول العالم الثالث.

3 ـ احتمال قيام تحالفات عسكرية وأمنية بين دول المنطقة وبين دول العالم الرأسمالى المسيحى الغربى وخاصة القوات الأمريكية والفرنسية والبريطانية الموجودة حاليا فى الكويت والسعودية، مما ينتج محوراً آخراً مضاداً له من دول المنطقة الكبيرة مثل إيران والعراق واليمن وقد تنضم إليهم دول عربية وأجنبية أخرى مثل روسيا والصين.

قد تكون هذه الاستنتاجات راجعة إلى تزايد الطلب العالمى على نفط الخليج العربى. مقابل تناقص فى أماكن أخرى واحتمال ايضا توفر فائض أو أماكن تكتشف ولكن الأهمية الأولى ستكون للمنطقة، لكثرة الإنتاج وقلة الاستهلاك وإعادة تدوير عوائد النفط بسهولة ووجود أكبر احتياطى فى العالم. وخاصة فى السعودية والعراق.

تقول التقديرات العالمية بأن النفط سيشكل (6٪) والغاز الطبيعى (5٪) من موارد الطاقة التى يتم استيرادها، إضافة إلى أن تطور التقدم العلمى يجعل الاستفادة القصوى من كافة منابع النفط، ومزيد من الاكتشافات وإيجاد البدائل، وقد يبلغ فى عام (1999) ذروة الانتاج العالمى من انخفاض فى الأسعار مع ازدياد الطلب عليه فى حين تستمر دول المنطقة فى الانتاج بمعدلاتها الحالية وقد تزيد قليلا بما يعادل أربعة ملايين للإمارات، عشرة ملايين للسعودية، وستة ملايين للعراق، وما بين مليونين وثلاثة ملايين لكل من الكويت وإيران واحتمال دخول اليمن نادى المتجين بحوالى مليونين أو أكثر قليلا، مع وضع كافة الاحتمالات بإيجاد البدائل أو الاكتشافات الجديدة والتطور التكنولوجى للنفط وخاصة نفط سيبيريا وآلاسكا وشمال كندا ودول وسط اسيا.

يؤكد وجود الاحتياطى ما لا يقل عن (585) مليون برميل فى العالم ما عدا روسيا، وحصة الأوبك منه ثلاثة أرباع ودول المنطقة ثلاثة أخماس منها، مع تزايد الاعتماد الغربى على نفط الخليج الغربى، وانخفاض إنتاج بحر الشمال والنرويج[44]، وازدياد أهمية المنطقة وتزايد دور المنتجين الرئيسيين مثل السعودية والعراق والإمارات، مع تزايد اعتماد أوروبا الشرقية على نفط المنطقة بعد استقلالها أكثر من الاعتماد على نفط روسيا الذى بدوره يلجأ إلى الاستيراد برغم وجود الاحتياطى لديه إذا ما استمر فى التحولات الاقتصادية إلى النظام الرأسمالى مما يجعله يتقرب أكثر وأكثر إلى الخليج العربى مما يعنى عودة المنافسة من جديد ولكن ليس بين قوتين وإنما أكثر وخاصة بين الولايات المتحدة وأوروبا الموحدة وروسيا ان لم تدخل دول أخرى فى هذا الصراع والمرشحة اليابان والصين والبرازيل وأيضا احتمال قيام تعاون إقليمى أو كيان سياسى موحد للجزيرة العربية أو إضعاف الدور الأمريكى أو إقامة حلف برئاستها، والاحتمالان فى المنظور القريب فى حين أن الاحتمال الأول وارد فى المنظور البعيد.

تخوف قائم فى المستقبل من أن يصبح سكان دول مجلس التعاون الخليجى أقلية مع استمرار تدفق الأجانب اذا لم يوجد حل لهذه المشكلة، أما اذا ما تمت إقامة كيان موحد للجزيرة العربية وحتى عملية الاستقطاب الدولى وخاصة الغربى تكون أقل برغم أنها سوف تمنع ولو بالقوة اية محاولات جادة لادخال اليمن فى هذا الاتجاه.

ينظر جون بولوك نظرة متفائلة ولكن متشائمة للعرب لخطورتها على الأمن القومى اذا ما أصبحت نظرته حقيقية حيث يقول: «من المحتم أن تصبح المجتمعات فى الجزيرة العربية أكثر استقرارا وسيزداد الضغط من أجل المساواة فى الحقوق. وفى نفس الوقت سيكون هناك جيل جديد من الحكام عنده قابلية أكثر للإصغاء لصوت الشعب، كل الشعب، وستكون النتيجة أن القطرى أو الكويتى أو البحرينى وربما كان أصله من الهند أو الباكستان أو تايلاند وحتى كوريا!! إن التزاوج بين الأجناس المختلفة قد بدأ بالفعل ومن المحتمل أن الخليج العربى يصبح عالمى الطبع أكثر من البلدان الأخرى[45]».

يلعب الغرب المسيحى الرأسمالى دورا رئيسيا فى التنظيم السياسى بدعمه لإقامة الكيانات السياسية والحفاظ عليها لاستمرار مصالحه، وإذا ما أراد العرب توحيد تلك الأنظمة والكيانات الحليفة للغرب يجب اقناع وتطمين الولايات المتحدة بأن هذا الاتحاد لكيانات الجزيرة العربية يضمن استمرارية تلك المصالح وكفيل بضمان الاستقرار السياسى والاقتصادى للجزيرة العربية الموحدة، وحماية أمنها الوطنى وبداية حقبة جديد، ويجب على الغرب فى ظل هذا التغير التخلى نهائيا عن التدخل العسكرى الباهظ التكاليف ذى النتائج العسكرية العالمية بالاستياء الشعبى لدى أرجاء الوطن العربى، وبدلا من ذلك اقامة علاقات قوية بتنمية مشاريع اقتصادية تكون المصلحة فيها متبادلة ومتكافئة بين الطرفين مما يزيل الأعباء والالتزامات السياسية والاقتصادية من كاهل الغرب المسيحى الرأسمالى لفترة طويلة فى المستقبل، فالتعاون مع دولة قوية اتحادية أفضل بكثير من ستة كيانات مجزأة، وذلك انطلاقا من صعوبة اخضاعها لسياسة معينة سواء كانت اقليمية أو دولية أو أن تنفرد فى تغير مجرى الأحداث[46] ودون موافقة جميع دول الجزيرة العربية. وانطلاقا مما سبق ذكره نضع التصورات المستقبلية الآتية:

1 ـ اختلاف وجهات النظر حول مفهوم أمن الخليج العربى والجزيرة العربية أدى إلى عدم الاتفاق حتى ولو على الحد الأدنى لإقامة أو وضع استراتيجية مشتركة لأمن المنطقة رغم أهميته الحيوية والقصوى للحفاظ على كياناتها السياسية.

2 ـ يجب أن يكون مفهوم الأمن فى المنطقة مفهوما شاملا وليس الجانب العسكرى فقط ويشمل التعاون والخطط فى جوانب التكامل الاقتصادى والثقافى والاجتماعى والتنسيق السياسى بين دول مجلس التعاون الخليجى.

3 ـ إن ضياع إيران من دائرة النفوذ الأمريكى بعد الثورة الإسلامية دفع الولايات المتحدة بالتمسك بالسعودية بديلا غير قابل التفريط فيه وخاصة بعد احداث الكويت، مما يعنى تحجيم النفوذ الأمريكى وتهديد لمصالحها فى المنطقة، وتواجد قواتها فى السعودية والكويت حاليا يأتى من هذا المنطلق وسوف تستمر لفترة طويلة إن لم تكن دائمة ما لم تواجه بقوة عربية موحدة وبذلك يمثل خطراً يوازى خطر الإرهاب اليهودى فى فلسطين إن لم يكن أكبر.

4 ـ برغم ميل أوروبا وروسيا إلى جانب الولايات المتحدة فى الفترة الحالية نظرا لأزمتها الاقتصادية والمشاكل الداخلية إلا أنه سوف يعود أقوى من ذى قبل فى المستقبل القريب إلى الخليج العربى للحصول على مكاسب استراتيجية أو على الأقل شريك الولايات المتحدة فى المنطقة، بعدما تكون الولايات المتحدة قد ثبتت أقدامها بشكل أقوى فى المنطقة، ولهذا يجب على دول وكيانات الخليج والجزيرة العربية أن تعى جيدا للصراعات وسياسات تلك الدول، وتعمل جهدها لأخذ المبادرات الذاتية حول التحديات بالمبادرات الفردية الآتية التى تنصب فى مجرى سياسية الهيمنة للدول الكبرى.

5 ـ عدم تقديم التسهيلات للدول الكبرى، أو توقيع اتفاقيات ثنائية معها فى مجالات استراتيجية تؤثر على قدراتها الوطنية وتحجم من استقلالية قراراتها وسيادتها الداخلية والخارجية وتنوع مصادر التسليح إن لم يكن ايجاد قاعدة للصناعة العسكرية العربية حتى لا تقع تحت رحمة تلك الدول.

6 ـ نبذ الخلافات الجانبية وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للكيانات الأخرى.

7 ـ سحب الأرصدة والودائع من الدول الرأسمالية المسيحية الغربية وايجاد بدائل للتنمية فى الكيانات العربية ودول العالم الثالث.

8 ـ نهج سياسة أكثر استقلالية في التصنيع وخاصة الصناعات الثقيلة والتحكم فى المصادر النفطية والصناعات المشتقة منها، والتنسيق والتعاون المشترك فى اتخاذ القرارات الحيوية.

9 ـ تحقيق الأمن الجماعى العربى القومى، وتشكيل قوة الردع العربية، وبناء القدرة الذاتية القادرة على حماية الأمن القومى العربى ولو اقليميا فى الجزيرة العربية كبداية الطريق.

10 ـ العمل على ايجاد استقرار سياسى فى الجزيرة العربية بالمشاركة الشعبية فى اتخاذ القرارات المصيرية بالسماح بالمؤسسات الدستورية والممارسة الديمقُراطية.

الخلاصة:

فى الختام أتمنى من الله العلى القدير بأن أكون قد وفقت فى هذه الدراسة لاعطاء القادة العرب دورهم فى اتخاذ القرار السياسى والقاعدة الشعبية العربية، للاهتمام بالتحديات للأمن العربى فى دول مجلس التعاون ذو أهمية استراتيجية دولية قبل العربية، والمفروض أن تكون العكس عربية قبل الدولية، ولكن التمزق والشتات العربى والانانية القطرية فى كيانات أوجدها الاستعمار الغربى الرأسمالى، كل ذلك جعلنا نهتم بهذه الأمور لنتوصل إلى قناعة تامة بضرورة المشاركة الشعبية لدرء الأخطار واتخاذ القرارات السياسية والمصيرية لمواجهة التحديات الداخلية قبل الخارجية والتوجه بقوة نحو العمق القومى العربى الامتداد الطبيعى للجسد الواحد قبل القطرى والاقليمى.

ولم أقصد بهذه الدراسة إلا محاولة بسيطة الغرض منها كشف المخاطر والتحديات التى تحدق بالأمة العربية والأمن القومى لعلنا نستطيع المجابهة بالواقعية بدلا من العاطفة والأنانية الذاتية، ولا أعتقد بأننى توصلت إلى ما كنت أصبو إليه، ولكننى اعتبر هذا بداية المشوار نحو دراسات أكثر شمولية لواقعنا لرفع معاناتنا الفكرية والسياسية نحو تمزق الأمة العربية، لتأخذ طريقها بين الأمم التى بدأت بعدنا وأخذت مواقعها أمامنا ولعل انتفاضة شعبنا بفلسطين وشعوب اوربا

الشرقية ووحدة ألمانيا تكون خير معين وحافز لنا، للوقوف أمام القوى التى تحاول النيل من تجزئة وطننا العربى الكبير وخاصة مشرقه الغنى بالنفط وعوائده، حتى تنهل سيوف الغرب المسيحى الرأسمالى غنائمه دون اعطاء المجال لأبنائه للنهوض من كبوته بالتسلط والتبعية الاقتصادية قبل السياسية.

وأخيرا وليس آخرا أمنياتنا القادمة قيام وحدة أو اتحاد الجزيرة العربية بين جميع كياناتها.

وأختتم دراستى بالثناء والحمد لله تعالى وأصلى على نبيه الكريم وعلى آل بيته الطاهرين.

الهوامش:

1 ـ البرت دولستر: أنصاف حروب وانصاف سياسات فى الخليج. دراسات استراتيجية . دراسة رقم (26) السنة الثانية 2/ 1981 ص29.

2 ـ ر. ك. رمضانى: الأمن فى الخليج العربى. منشورات مركز دراسات الخليج العربى. جامعة البصرة ص 25.

3 ـ ر. ك. رمضانى : نفس المرجع ص 25.

4 ـ J. B. Kelly The Guilf & The West - Basic P. 308.

5 ـ د. عبدالجابر وآخرون: دراسات عن تاريخ الخليج ص 263.

6 ـ سامى المنيس: الطليعة فى معركة الديمقراطية ص 67.

7 ـ سامى المنيس: نفس المرجع ص 68.

8 ـ الخليج العربى: المناقشة البرلمانية الأمريكية المستمرة بشأن مبيعات الأسلحة إلى أقطار الخليج العربى ص 26.

9 ـ د. عناد فواز الكبيسى : إيران عصا الامبريالية فى منطقة الخليج العربى. مجلة الخليج العربى العدد الأول عام 1983 ص 69.

10 برزان التكريتى : الصراع الدولى فى منطقة الخليج العربى والمحيط الهندى وتأثيره على أقطار الخليج العربى ص 97.

11 ـ اسماعيل صبرى مقلد ـ أمن الخليج وتحديات الصراع الدولى ص 47.

12 ـ د. عبدالله الأشعل: العلاقات الدولية فى اطار مجلس التعاون الخليج العربى. مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. العدد (37) يناير 1984 ص 78.

13 ـ د. حسن على الابراهيم: الدول الصغيرة والنظام الدولى. الكويت والخليج ص 16.

14 ـ مصطفى نبيل: مثلث الخطر، مضيق هرمز، جبل طارق، باب المندب ص 28.

15 ـ السيد زهرة: استراتيجية القوتين الأعظم وقضايا الأمن فى الخليج ـ الفكر الاستراتيجى العربى ـ العدد الثانى اكتوبر 1981 ص 91.

16 ـ د. بكر مصباح تنيرة التطور الاستراتيجى لصراع القوى العظمى على الخليج العربى مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. العدد (46) ابريل 1986 ص 77.

17 ـ د. خليل الياس مراد: حرب الخليج وانعكاساتها على الأمن القومى العربى ص 68.

18 ـ د. خليل الياس مراد: نفس المرجع ص 13.

19 ـ السيد زهرة: المرجع السابق ص 90.
20 ـ د. اسماعيل صبرى مقلد: المرجع السابق ص 145.
21 ـ د. عبدالله فهد النفيس: مجلس التعاون ص 7.
22 ـ ادوردريس: التوسع الامريكى فى الخليج ص 281.
23 ـ ادوردريس : نفس المرجع ص 281.
24 ـ فريد هاليدى: السياسة السوفيتية فى قوس الأزمة ص 25.
25 ـ كارل كايزر ـ ونستون لورد: أمن الغرب: دراسات استراتيجية الدراسة (33) السنة الثانية 9/ 1981 ص 37.
26 ـ J. B. Kelly - Op cit . P. 308.
27 ـ د. خليل الياس مراد : المرجع السابق ص 89.
28 ـ الهيثم الايوبى : نفس المرجع ص 36.
29 ـ محمد عدنان مراد: صراع القوى فى المحيط الهندى والخليج العربى ص 520.
30 ـ د. اسماعيل صبرى مقلد: المرجع السابق ص 145.
31 ـ محمد عدنان مراد: المرجع السابق ص 226.
32 ـ د. أحمد عبدالرازق شكارة: الدور الاستراتيجى للولايات المتحدة الأمريكية فى منطقة الخليج ص 137.
33 ـ نهى تادرس : السياسة الخارجية لادارة ريغان. مجلة الفكر الاستراتيجى . العدد الثانى اكتوبر 1981 ص 34.
34 ـ Richard w. Murphy: protecting U. S. Interests In the Gulf p. 5.
35 ـ David H. Aibert: Tell the American people.
36 ـ John Duke Anthony: Goals In The Gulf an Americas Interests In The Gulf Cooperation Council, p. 6.
37 ـ د. حسن البدرى: الولايات المتحدة ومشاكل أمن الخليج العربى فى الثمانينات السياسة الدولية العدد (57) 1979.
38 ـ مايكل كلير: نفس المرجع ص 157.
39 ـ جريدة الخليج الصادرة فى 3/ 4/ 1984.
40 ـ جريدة الخليج الصادرة فى 3/ 4/ 1984.

41 ـ د. خليل الياس مراد: المرجع السابق ص 64.

42 ـ غارسيت فيتزجيرالد: دراسات استراتيجية الدراسة 35 ـ 36 السنة الثانية 11/ 12/ 1981.

43 ـ د. توفيق حصو: العلاقات الخليجية العربية ـ الأمريكية ص 77.

44 ـ جون بولورك الخليج 216.

45 ـ جون بولوك: نفس المرجع ص 217.

46 ـ رياض نجيب الرئيس: الخليج العربي. رياح التغير ص 83.

فهرس المحتويات

كتب صدرت للمؤلف

1. الأمن السياسي لدول مجلس التعاون
2. الحياة الإدارية في سنجق الإحساء العثماني
3. السياسة العثمانية تجاه الخليج العربي
4. الأفلاج في مدينة العين
5. ابن ماجد الملاح الفلكي
6. العلاقات العربية الإيرانية
7. العلاقات العربية الأسبانية
8. أشراف حضر موت ودورهم في نشر الإسلام في جنوب شرق آسيا
9. الموقف البريطاني من الوجود العثماني في الإحساء
10. إمارة أبو ظبي في عهد زايد الكبير
11. تاريخ العرب الحديث
12. دراسات في الخليج والجزيرة العربية ج1 - ج6
13. دراسات في العلاقات العربية الإيرانية
14. تاريخ الجزيرة العربية الحديث
15. التطورات السياسية في دولة الإمارات العربية
16. الدولة الإسلامية الأولى
17. دراسات في المشرق العربي المعاصر
18. تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر
19. القاجار والجزر العربية الجزء الأول
20. رضا خان والجزر العربية الجزء الثاني
21. محمد رضا خان والجزر العربية الجزء الثالث
22. جمهورية إيران الإسلامية والجزر العربية الجزء الرابع من 1979 – 1997
23. جمهورية إيران الإسلامية والجزر العربية الجزء الخامس من 1997 – 2000
24. تاريخ الكويت الحديث والمعاصر
25. الإمارات من الاستعمار إلى الاستقلال
26. الإمارات بين الماضي والحاضر
27. الحدود السياسية للجزيرة العربية

المؤلف في سطور

- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة.
- رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات ومجموعة العيدروس التجارية.
- حاصل على الليسانس من لبنان والماجستير في التطورات السياسية في الإمارات العربية 1932 - 1971 والدكتوراه من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الإيرانية 1921 - 1971.
- عمل في دائرة الإسكان والمشتريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي 1970 - 1973 ثم مديرا للعلاقات الثقافية بالحكومة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة 1979 - 1984، ثم جامعة الإمارات العربية المتحدة 1984 - 1993 وقام بالتدريس في كلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك بكلية الظفرة الجوية في أبو ظبي، كما شارك في دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة، ثم في جامعة الكويت 1993 - 2000 ثم في جامعة روتردام الإسلامية بهولندا 2000 - 2002، ثم في القوات المسلحة لدولة الإمارات العربية المتحدة في الفترة من 2006-2002: الأمين العام للجنة الإمارات للتاريخ العسكري، ثم رئيس مؤسسة اسكاندافيا للاتصال الثقافي والتجاري في السويد من عام 2007 حتى الآن، وهو عضو في العديد من الجمعيات العلمية الإقليمية والدولية وعضو في الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب منذ عام 1991 وحتى الآن ورئيس تحرير مجلة دراسات روتردام الإسلامية.
- صدر له أكثر من اثنى عشر كتابا وأكثر من أربعين بحثا معظمها في الخليج العربي والدراسات العربية والإسلامية.

الفصل الأول: الصراع العثماني- البرتغالي في النصف الثاني من القرن السادس عشر في الخليج العربي.

الفصل الثاني: تنافس شركتي الهند الشرقية الهولندية والبريطانية في بندر عباس في النصف الأول من القرن السابع عشر.

الفصل الثالث: هجرة القبيسات الأولى من أبو ظبي إلى "العديد" والدور البريطاني في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

الفصل الرابع: محاولة انفصال "العديد" عن أبو ظبي والموقف البريطاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

الفصل الخامس: الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود في قائمقامية قطر العثمانية 1871 - 1882.

الفصل السادس: الحياة الفكرية في شرق الجزيرة العربية في العهد العثماني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

الفصل السابع: القرار السياسي البريطاني في ظل النزاع الانكلو- عثماني في شرق الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

الفصل الثامن: جوانب من الصراع السياسي في جنوب ساحل عمان (أبو ظبي) من خلال الوثائق البريطانية بين عامي 1926 - 1928.

الفصل التاسع: ظفار بين الماضي والحاضر.

الفصل العاشر: العمل العربي
مجلس التعاون الخليجي.

الفصل الحادي عشر: مجلس
بين الأمن الإقليمي والتحديات ا

